د . حميد عمر

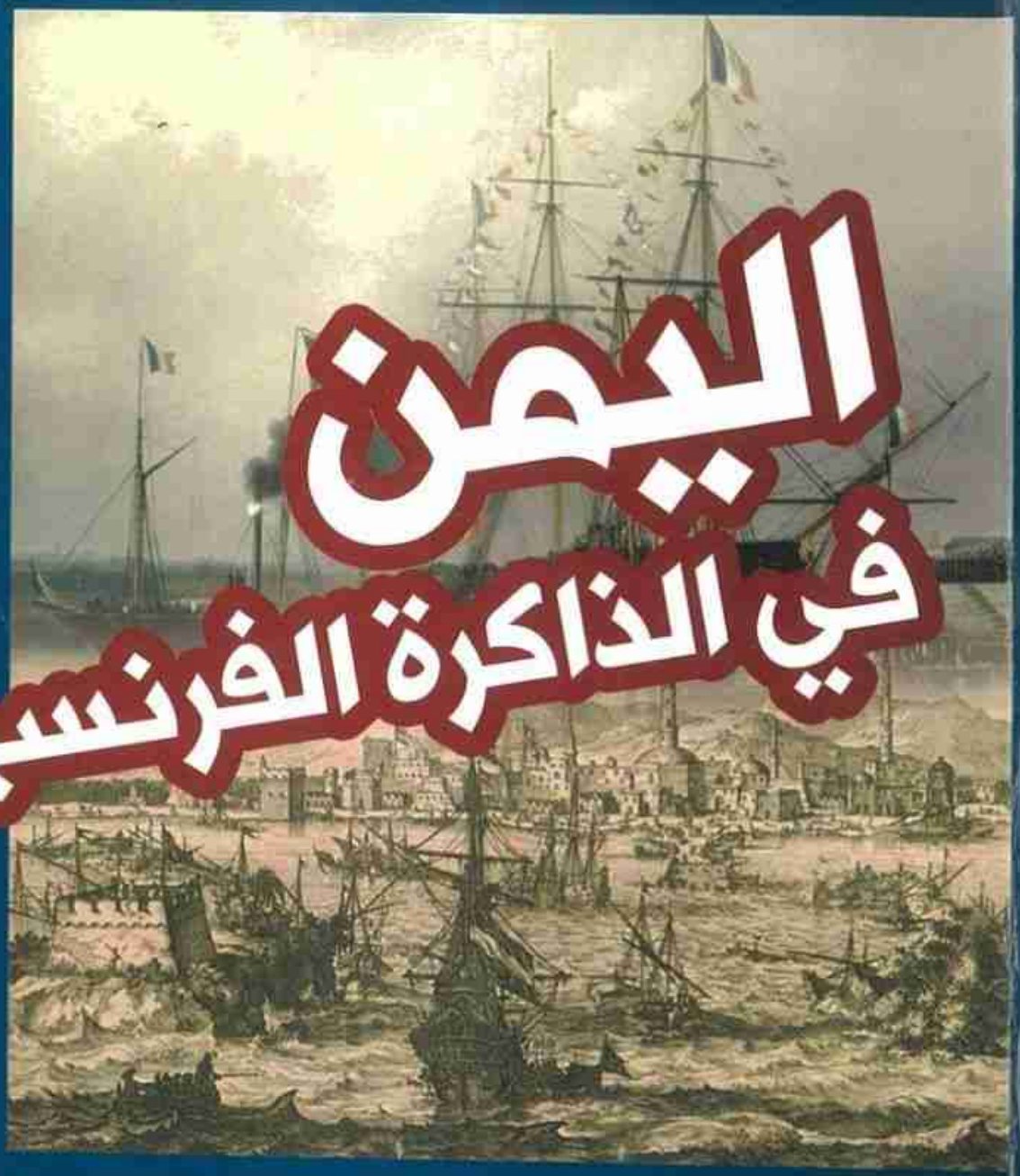

اليمن في الذاكرة الفرنسية

محطات تاريخية من واقع الوثائق الفرنسية ويوميات الرحالة الفرنسيين

المكتبة التاريخية اليمنية

Editions Al-Adab 1923

42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

د. حميد عمر

اليمن في الذاكرة الفرنسيّة

محطّات تاريخيّة من واقع الوثائق الفرنسيّة ويوميّات الرحّالة الفرنسيين

Editions Al-Adab
42 Opera Square - Cairo (11111)
Tel & fax: (202) 23900868
E-mail:adabook@hotmail.com

مكتبة الآداب
أسسها علي حسن عام ١٩٢٣م
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة (١١١١١)
تليفون وفاكس ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

المكتبة التاريخية اليمنية
www.yemenhistory.org
رفع:
مختار محمد الضبيبي

الناشــر

مكتبة الآداب

علي حسن

الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

بطاقــة فهرســة

فهرسـة أثنــاء النشــر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عمر ، حميد

اليَمَن في الذّاكرة الفرنسيّة : محطات تاريخية من واقع الوثائق الفرنسية و يوميات الرحالة الفرنسيين

/ حميد عمر . -

القاهرة : مكتبة الآداب ، ٢٠١٧

٣٠٤ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٨ ٩٤٦ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١- اليمن - تاريخ - العصر الحديث

أ- العنوان ٩٥٣,٢٠٢

عنوان الكتاب: اليَمَن في الذّاكرة الفرنسيّة

محطات تاريخية من واقع الوثائق الفرنسية

و يوميات الرحالة الفرنسيين

تاليــــف: د. حميد عمر

رقم الإيداع: ١٣٠٠٧ لسنة ٢٠١٧م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-468-946-8

مكتبة الآداب

علي حسن

٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة

هاتف: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

E-mail: adabook@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبإ]

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل]

إهـــداء

إلى روح أبي الطاهرة

وإلى أمي الحبيبة

عرفاناً واعترافاً بفضلهما.

وإلى ولَدَيّ التوأم:

آدم و سام

حفظهما الله ورعاهما.

مُقدّمة

ثلاثة أحداث عارضة دفعتني للعمل على إنجاز هذا الكتاب؛

حصل الحدَث الأول في مطلع عام ٢٠٠٩ عندما كنت أعمل ضمن طاقم معالي وزير الخارجية آنذاك الدكتور أبو بكر عبد الله القربي، حينما قام معالي وزير الخارجية الفرنسي برنار كوشنير Bernard Kouchner بزيارة رسمية لليمن على رأس وفد رفيع المستوى بتاريخ ٢١ فبراير ٢٠٠٩، وكان ينبغي عليّ إعداد تقرير تفصيلي عن تاريخ وطبيعة وجوانب العلاقات بين البلدين والقضايا العالقة، وكذا عن المسائل التي ستطرح على طاولة البحث.

تقرير كهذا ليس سرداً يعتمد على فن الكتابة، بل على وقائع وأرقام واتفاقيات وبرامج ومشاريع موثقة ودقيقة. لم يسعفني أرشيف الوزارة بالشيء الكثير؛ لكونه لا يضم بين جنباته سوى ملفات مكدّسة لتقارير أغلبها ذو طابع إعلامي لا تفي بالغرض، وليس في الوزارة مراجع أو بنك معلومات يسهل العودة إليه في مثل هذه الحالات، وليس هناك رصد وتوثيق يعتمد على التسلسل الزمني لمسار العلاقات مع الدول الأخرى. ذاكرتنا قصيرة للأسف الشديد ونفتقد كثيراً ثقافة التوثيق.

كان الوقت ضيّقاً، ولم يكن لديّ سوى بضعة أيام قلائل لإنجاز المهمة. جاء هذا الحدث ولحسن الحظ في عصر التكنولوجيا الحديثة وثورة المعلومات، وإلا لظللتُ مكتوف اليدين، عاجزاً حتى عن ضرب أخماس في أسداس. هداني تفكيري إلى البحث في الموقع الإلكتروني للسفارة الفرنسية بصنعاء وموقع وزارة الخارجية الفرنسية، ووقعتُ على معلومات غزيرة عن كل ما أحتاجه لعمل تقرير نوعي ومتكامل، بما في ذلك نُسخ من الاتفاقيات الموقعة بين البلدين قديمها وحديثها.

الحدث الثاني، حصل في مطلع عام ٢٠١٠، عندما كنت أعمل في السفارة اليمنية في باريس، حينها تلقى سعادة السفير خالد إسماعيل الأكوع دعوة من عمدة مدينة

«سان-مالو» Saint-Malo الفرنسية الساحلية، كضيف شرف في احتفالية سنوية تقيمها المدينة للاحتفاء بذكرى البحّارة المالويين الذين هزموا أمواج البحر، وشرّقوا وغرّبوا بسفنهم، والذين يعود لهم الفضل في إنشاء أول وكالة فرنسية في المخا وبيت الفقية لاستيراد البُن من اليمن في عام ١٧٠٩. كلّفني السفير بكتابة كلمة باللغة الفرنسية كي يلقيها بهذه المناسبة. اطّلعت خلال إعداد الكلمة على كثير من المعلومات بهذا الخصوص، وكثير من الوثائق في أرشيف البحرية الفرنسية، ووجدت كتباً ومقالات عدة حول هذا الموضوع الذي ارتأيت أن يكون فاتحة لهذا الكتاب.

الحدث الثالث حصل في شهر أكتوبر من نفس العام ٢٠١٠ حيث صادف مرور أربعين عاماً على بدء العلاقات الدبلوماسية اليمنية الفرنسية، وكنّا نطمح في السفارة إلى تنظيم احتفالية كبيرة بهذه المناسبة، وكان من بين الأفكار المطروحة عمل معرض للصور، ومن ضمنها صور للسفراء اليمنيين والفرنسيين السابقين مذيّلة بنبذة عنهم، حصلنا بسهولة على أسماء السفراء الفرنسيين ومعلومات عنهم، بينما استغرقنا عدة أيّام ونحن نبحث فقط عن أسماء السفراء اليمنيين الذين شغلوا منصب سفير في باريس، كل ذلك عبر ذاكرة الأشخاص وليس من خلال الوثائق، وحصل اختلاف حول الفترة التي شغل فيها المنصب هذا السفير أو ذاك.

اقترحت على السفير أن نستعين بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ونعتمد على القائمة الدبلوماسية المعتمدة لديهم، فاستحسن الفكرة، وكلّفني ومعي القنصل حمّاد دحان بذلك. ذهبنا إلى مقرّ أرشيف وزارة الخارجية في ضاحية باريس لا كورنف La Cour neuve، ووجدنا بسهولة نماذج متسلسلة من القوائم الدبلوماسية وفيها أسماء السفراء وفترة عملهم وأعضاء البعثة بدقة متناهية. وجدنا بالصدفة الباحث اليمني محمّد طواف الذي كان مبتعثًا مِن قِبلِ المركز الوطني للمعلومات لتحضير دراسات عليا في مجال الأرشفة والتوثيق، وكان لديه إلمام جيّد بمحتويات الأرشيف، وخاصة فيما يتعلق بالوثائق حول اليمن. كان الأرشيف يحوي كنزاً ثميناً من الوثائق وبتسلسل زمني مثير للإعجاب بهم، ومدعاة للشّفقة بنا وبحالنا.

صورت ما استطعت من وثائق، وعقدتُ العزم على العودة مراراً وتكراراً لأنهل من هذا الكنز التاريخي.

خلال فترة عملي في باريس، لم أجد الوقت الكافي للاطلاع وتصوير كافة الوثائق التي يضمّها هذا الأرشيف وغيره، ومعظمها وثائق مصنّفة «سريّة»، فقررت ترحيل فكرة دراسة هذه الوثائق السريّة للمستقبل، واعتمدت في هذا الكتاب على ما استطعت جمعه من وثائق ومادة بحثٍ أخرى.

***

وكما هو واضح من عنوان الكتاب، فإنّه يعتمد بشكلٍ كلّي على الوثائق الرسميّة الفرنسية، ويوميات الرّحالة والمستشرقين وعلماء النبات والآثار المتخصصّين الذين زاروا اليمن في فترات متعاقبة أو متباعدة. عرضتُ فيه بكل أمانة وصدق وحيادية ما تضمنته هذه الوثائق وما خطّته أيدي هؤلاء المستشرقين والعلماء، كي تصل المعلومة إلى القارئ كما هي في المصدر، بحيث تكون مرآة للصورة التي ارتسمت في ذاكرة الفرنسيين عن اليمن واليمنيين.

ولقد راعيتُ كثيراً في ترتيب الكتاب التسلسلَ الزمني للأحداث والوقائع؛ حتى يتمكن القارئ من تكوين فكرة تراكمية عن الأرض والإنسان اليمنيين في تلك الحُقبة التاريخية، والتغيرات التي طرأت هنا وهناك بفعل عامل الزمن والأحداث.

يتحدث الكتاب في البابين الأول والثاني منه عن الحملتين الفرنسيتين الأولى والثانية إلى اليمن، ما بين عامي ١٧٠٨ و ١٧١٣، وقد تردّدتُ كثيراً في إطلاق لفظ «حملة» عليهما لما لهذه الكلمة من قوة في الدلالة العسكرية والحربية كما عُرفَ تاريخيّاً، لكنّني اقتنعت بها؛ فالسفن الفرنسيّة التي وصلت إلى شواطئ اليمن، لم تكن سفناً تجارية مسالمة، بل كانت سفناً حربية مجهزة بمدافع وخاضت حروب قرصنة خاطفة عديدة وهي في طريقها إلى المخا. إضافةً إلى ذلك، فقد فرض الفرنسيون شروطهم، وقاموا بعدة مناوشات استعراضاً للقوة. وقد أفضت هاتان

الحملتان إلى العدوان الذي تعرض له ميناء المخا في عام ١٧٣٧ من قِبل سفن حربية تابعة لشركة الهند الشرقية الفرنسية وبموافقة ملك فرنسا لويس الخامس عشر، وسنرى تفاصيل هذا العدوان في الباب الثالث.

خُصّص الباب الرابع لقضية منطقة «الشيخ سعيد» التي تعكس صورة كاملة للمدى الذي وصل إليه التسابق الدولي المحموم في السيطرة على شواطئ البحر الأحمر ومنافذه الإستراتيجية.

وكُرّس الباب الخامس للفنارات البحرية العثمانية وفنارات اليمن والحجاز، وفيه يُسلّط الضوء على الدور الاقتصادي والسياسي الذي تلعبه الشركات في السلم والحرب.

أما الباب السادس والأخير فينقل لنا مشاهدات الرحّالة والمستشرقين الفرنسيين وعلماء النبات والآثار وانطباعاتهم عن اليمن في الفترة ما بين عامي ١٨٣٦ و ١٨٨٧.

***

يخرج هذا الكتاب للنور في فترة تعيش فيها بلاد اليمن السعيد وشعبها كآبة الحرب؛ يسكنُها الدّمار، وتمزّقها الرغبات والصراعات والأهواء.

أكثر من ثلاثمائة عام مضت منذ قدوم الفرنسيين إلى شواطئ المخا في إطار نزاع وصراع الدول الكبرى في ذلك الحين من أجل السيطرة على البحر الأحمر وطرق التجارة ومصادر الثروة، وما زال البحر الأحمر ومضيق باب المندب يعانيان حتى اليوم من نفس الوجع تحت مسميّات أخرى؛ كمحاربة القرصنة، وتأمين طرق الملاحة الدولية، والدفاع عن المصالح ، إلى آخر تلك الذرائع التي تتفق في مغزاها وتختلف في مسمياتها.

أما على الصعيد الداخلي، فما شاهده وعايشه الرحّالة والمستشرقون من أحداث ووقائع عانى منها أجدادُنا، ما زالت تعيش بين ظهرانينا وبشكل أكثر حضوراً. ففي مقابل «مسلل» مهرب الآثار في مأرب، يوجد اليوم ألف «مسلل»

يهرّبون الآثار ويبيعون تاريخهم وحضارتهم لأقرب مشترٍ وبأبخس الأثمان. وبدل أولئك الذين كانوا يحرقون الأحجار التي تحتوي على نقوش للحصول على مادة «النّورة»، فمن بيننا اليوم من يُدمّر ويُفجّر الصُّروح والأضرحة والمعالم التاريخية عُنوةً معتبرين ذلك واجباً دينيًّا مقدّسًا!!. أما عن أمثال الشيخ حسن، وممارسة التآمر وبيع الذمم والسلب والنهب والاستقواء بالخارج للحصول على فتات من سلطة أو مال، فحدّث ولا حرج.

مئات السنين ونحن نعيش في حروب عبثية ومؤامرات ودسائس لا طائل منها، سوى تدمير مقدراتنا ومكتسباتنا وسبل عيشنا. وها هي مُدننا التاريخية كصنعاء وعدن وتعز والمهرة وصعدة وحضرموت ومأرب والجوف وشبوة والمخا والمحويت والحُديدة وزامار وأبين شاهدة على العصر، وخير دليل على هذا العبث المتجدد.

ومع هذا فإنَّ أملنا بالله كبير بأنَّ اليَمن ستتعافى من عثرتها وستنهض بشموخ جبالها وبعزيمة أبنائها كما فعلت منذ الأزل.

فالبلد الذي صمد أمام حملات الماضي، لن ينكسر أمامَ مؤامرات الحاضر.

١٥ أبريل ٢٠١٧ — **د. حميد محمد علي عمر**

الباب الأول

الحملة الفرنسيَّة الأولى

(١٧٠٨- ١٧٠٩)

المكتبة التاريخية اليمنية

www.yemenhistory.org

رفع:

مختار محمد الضبيبي

الحملة الفرنسية الأولى (١٧٠٨- ١٧٠٩)[١]

انطلقت الحملة الفرنسية الأولى إلى الشواطئ اليمنية في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وتحديداً في عام ١٧٠٨، حيث أبحرت السفينتان الحربيتان لوكوريو و لوديليجان Le Curieux & Le Diligent، وجُهّزت كل منهما بخمسين مدفعاً، وكانتا تحت إمرة القبطانين الشهيرين دو لا ميرفاي و دو شامبلوريه لو بران De la Merveille & de Champloret le Brun من ميناء سان مالو Saint-Malo صوب ميناء المخا. وحسب وثائق البحرية الفرنسية فإن هذه الحملة كانت ذات طابع اقتصادي بحت لحساب شركة تجارية من سان مالو[٢] Saint-Malo، تهدف لإقامة علاقات تجارية مع اليمن، ولاستيراد البُن الذي كانَ آنذاك سلعة نادرة يصعب الحصول عليها، حيث كان يتمّ جلبه إلى فرنسا عن طريق وسطاء أتراك وهولنديين وإنجليز. وكانت فرنسا تطمع – حسب نفس الرواية- بأن يكون لها موطئ قدم في اليمن، وأن تسوّق فيها بعض منتجاتها وتحصل على احتياجاتها من البُن على غرار الهولنديين والإنجليز.

عرف الفرنسيون البُنّ في عام ١٦٤٤، وكانوا يستوردونه عبْرَ وسطاء أتراك ومصريين وانجليز وهولنديين، ممن كان لهم وكالات تجارية في ميناء المخا اليمنية. وكان الأوروبيون في ذلك الوقت يسعون سعياً حثيثاً وراء الثراء عن طريق

---

(١) اعتمدت في البابين الأول والثاني على معلومات موثّقة، ومن مصادر متنوعة؛ لعلّ أهمها أرشيف وزارة البحرية الفرنسية والمستعمرات، وأرشيف بلدية سان- مالو، واعتمدت بشكل رئيسي على يوميات القبطان دولاميرفاي التي نشرت عام ١٧١٦ في المرجع التالي:

La Roque, Jean de, 1716, Voyage de L'Arabie Heureuse, par l'Océan Oriental et le Détroit de la Mer Rouge. Fait par les Français pour la première fois, dans les années 1708, 1709 & 1710, Paris : André Cailleau.

(٢) سان مالو Saint-Malo : مدينة ساحلية تقع في شمال غرب فرنسا، المدينة القديمة فيها محاطة ومحصّنة بأسوار عالية من الجرانيت، كانت فيما مضى معقلاً حصيناً للقراصنة الذين كانوا يمارسون أعمال القرصنة في المحيطات وأعالي البحار بضوء أخضر من الملك وتحت راية الدولة. وتعود شهرة هذه المدينة وثروتها لإرتباطها بتاريخ القرصنة. ولتخليد الحملة التي نظمتها الشركة المالوية إلى المخا وما لها من أهمية تاريخية بالنسبة لفرنسا وللمدينة فقد سمّت أهم شوارعها باسم (شارع المخا) Avenue de Moka.

التجارة والقرصنة والبحث عن الذهب وكل ما هو ثمين في الأراضي العذراء في أنحاء العالم.

دفع انتعاش تجارة البُن في أوروبا وزيادة الطلب عليه من قبل المستهلكين، والرغبة الجامحة في الثراء، أربعة من أثرياء ميناء سان-مالو Saint-Malo الفرنسية، إلى تمويل الحملة الأولى (١٧٠٨-١٧١١) وحصلوا على حق الامتياز بالاتجار مع اليمن مقابل دفع ٧٠٠٠ جنيه لشركة الهند الشرقية الفرنسية[١]. وهم:

جان مارتان دو لا شابل Jean Martin de la Chappelle

بيير جري دو كولومبييه Pierre Gris du Colombier

بوفيه لو فير Beauvais le Fer

لوك تروان دو لا باربيناي Luc Trouin de la Barbinais

وقد أرجعت الوثائق الفرنسية أسباب تجهيز هاتين السفينتين التجاريتين بأسلحة حربية ثقيلة إلى الحرب التي أعلنتها كل من انجلترا وهولندا على فرنسا في ١٤ مايو من عام ١٧٠٢، وتهديدهما بالتعرض لكافة السفن الفرنسية في عرض البحر. وقد لجأت فرنسا في ذلك الحين إلى المواجهات البحريّة الخاطفة كردة فعل انتقامية وبحثاً عن موطئ قدم لها، خاصةً بعد أن خسر التحالف الفرنسي-الإسباني معظم السفن الحربية في معركة فيجو Vigo في ٢٣ أكتوبر ١٧٠٢، وأصبح عاجزاً عن المواجهات البحرية الواسعة.[٢]

---

(١) شركة الهند الشرقية الفرنسية : هي شركة استعمارية فرنسية أسسها كولبر Colbert وزير مالية الملك لويس الرابع عشر عام ١٦٦٤، لمنافسة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية في شرق آسيا وفي البحار والمحيطات الشرقية. بلغت هذه الشركة ذروة قوتها وهيمنتها بين عامي ١٧٢٠-١٧٤٠، وتلاشت عام ١٧٩٥ بعد عدة حروب استنزافية مع منافستيها الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية وكذا بسبب اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

(٢) بعد واقعة فيجو vigo في ٢٣ أكتوبر ١٧٠٢ التي خسر فيها التحالف الفرنسي- الإسباني معظم سفنه الحربية في مواجهة الإنجليز والهولنديين ، لجأ الفرنسيون إلى ممارسة حرب انتقامية غير نظامية خاطفة وفي أماكن متفرقة في عرض البحار والمحيطات.

غادرت السفينتان الحربيتان الفرنسيتان ميناء برست Brest في السادس من شهر يناير عام ١٧٠٨، وسلكتا الطريق الملاحي الذي يعبر جزيرة كاديكس Cadix، وجزيرة سان فنسان Saint Vincent، وجزيرة أسنسيون île d'Ascension، ورأس الرجاء الصالح Cap de Bonne Espérance، ورأس الإبر Cap des Aiguilles، وجزيرة مدغشقر île de Madagascar، وجزيرة محيلي île de Mohéli، وجزيرة سوقطرة île de Socotra، وساحل الصومال Côte d'Abyssinie، وميناء عدن Aden، وميناء المخا Moka.

جزيرة سوقطرة:

وصلت السفينتان إلى جزيرة سوقطرة اليمنية في الثّامن والعشرين من شهر نوفمبر، ورسيتا في العمق، بينما استقل القباطنة وبعض ضباط البحرية قوارب أقلّتهم إلى الشاطئ، وكان في استقبالهم شيخ إحدى القرى الذي قام بواجب الضيافة، وعندما أعرب الفرنسيون عن رغبتهم في لقاء حاكم الجزيرة، والاستعانة بنوخذة[1] من أبناء المنطقة للإبحار بهم إلى عاصمة الجزيرة، لبّى الشيخ رغبتهم وطلب منهم في المقابل الإبقاء على شخصين كرهينة لديه. استبقى الفرنسيون لدى الشيخ كلاً من ريتشارد كرافور Richard Craford، وجان باتيست مورا Jean-Baptiste Mora، وانطلق بقيّة البحارة الفرنسيين إلى عاصمة جزيرة سوقطرة (حديبو) التي كان يطلق عليها في ذلك الحين تاماران Tamarin.

كان حاكم سوقطرة قد علم بمجيء البحّارة الفرنسيين، فأوفد ضابطاً وبرفقته عشرون جندياً لاستقبالهم على الشاطئ، ثمّ سار البحّارة إلى مقر إقامة الحاكم وسط ترحيب شعبي بروتوكولي خاص، حيث أقام الحاكم وليمة غداء على شرفهم.

غادر البحّارة تماران (حديبو)، وعادوا أدراجهم نحو القرية، ومن ثم توجهوا مع رفيقيهما اللّذَين أبقياهما كرهينتين إلى سفينتيهما الراسيتين في العمق، واللّتين كانتا تتزودان باحتياجاتهما من الماء والغذاء، بعد أن اشتروا من السكان المحليين

---

(١) النوخذة : قائد القارب العليم بمواضع الصخور والطرق .

كميات من البخور واللبان والزباد وشجرة دم الأخوين. غادرت السفينتان الفرنسيتان جزيرة سوقطرة في العاشر من شهر ديسمبر، ورفعتا الأشرعة باتجاه ميناء عدن.

الوصول إلى ميناء عدن[1]:

رست السفينتان الفرنسيتان في خليج عدن في الثامن عشر من شهر ديسمبر من عام ١٧٠٨، وكانتا رافعتين للعلم الفرنسي، بينما كانتا ترفعان علم إنجلترا عندما رسيتا في جزيرة سوقطرة. بعث حاكم عدن بقاربين صغيرين محملين بالمشروبات المرطّبة بمعية أحد الضباط، كبادرة تنم على الترحيب، لكن البحارة الفرنسيين ترددوا في النزول إلى اليابسة في نفس اليوم خاصة بعد رؤيتهم للتحصينات المنيعة التي تحيط بالمدينة، وكذا لتوجسهم من موقف أهل البلاد من قدومهم.

في اليوم التالي لوصولهم، أرسل البحارة الفرنسيون رسالة لحاكم عدن لاستئذانه في النزول إلى اليابسة، وأطلقت كل سفينة سبع قذائف مدفعية للتحية، وردت مدافع القلعة بطلقات ترحيبية مماثلة.

أرسل حاكم عدن يدعوهم للنزول وهرعت القوارب المحمّلة بالمشروبات المرطّبة إلى متناول السفن الفرنسية، مما ترك انطباعاً جيداً لدى البحارة الفرنسيين. وعند الظهيرة نزل القبطانان دو شامبلوريه ودولاميرفاي ومعهما مجموعة من الضباط إلى اليابسة، وكان في استقبالهم ضابط الميناء وعدد من

---

(١) ذكرت كلودي فاين في كتابها (اليمن) بأن القرصان الفرنسي رونو دوشاتيون Renaud de Chatillon (١١٢٠-١١٨٧)، الذي شارك في الحملة الصليبية الثانية على القدس، قد تمكن من سلب ونهب ميناء عدن في القرن الثاني عشر. وكان رونو دوشاتيون مشهوراً بممارسة أعمال السلب والنهب بطريقة همجية بربريّة حيث كان يغير على المدن والموانئ وينهبها ويقتل أهلها وينكل بهم صغاراً وشيوخاً ونساء، ويهلك النسل والحرث ويحرق الأخضر واليابس. وقد تمكن الأتراك من أسره في عام ١١٦٠، وظل أسيراً قرابة الـ ١٦ سنة في حلب، قبل أن يفرج عنه في عملية تبادل أسرى. في عام ١١٨٢ بدأ ممارسة أعمال القرصنة والنهب في البحر الأحمر، وسطا على موانئ الحجاز وهدد المدن المقدسة، مما حدا بحاكم مصر، سيف الدين الأيوبي (١١٤٣ - ١٢١٨)، بإرسال سفن قضت على الغزاة القراصنة، وتمكن رونو دوشاتيون من الفرار، حتى أسره صلاح الدين الايوبي وأعدمه، بعد هزيمة الصليبيين في معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧.

الحرس. وفي انتظار موافقة الحاكم على اللقاء بهم، تحادث ضابط الميناء معهم عن رحلتهم وعن الغرض من الزيارة.

اتجه البحارة الفرنسيون برفقة ضابط الميناء محاطين بحراسة مشدّدة إلى مقر إقامة الحاكم، الذي استقبلهم في مجلسه، وبحسب وصف القبطان دولاميرفاي، وجدوه جالساً على أريكة مفروشة بسجاد ثمين، ومتكئاً على مساند مغشّاة بأقمشة مطرّزة بخيوط ذهبية، وكان أعوانه يجلسون عن يمينة وشمالة على سجاد فاخر.

بعد تبادل عبارات الترحيب والحديث عن فرنسا وعن رحلتهم، تناولوا قهوة القشر، وأبلغهم الحاكم بأنهم سيحلون ضيوفاً عليه، وبأنه قد هيأ لهم سكناً، وسيبقون تحت حمايته فترة إقامتهم في عدن. ولقد وجد البحّارة السكن واسعاً إلا أنّه خالياً من أيّة كماليات، ولا يحتوي سوى على «قعايد» مصنوعة من الخشب المترابط بحبال وتستخدم كأسرّة وكراسٍ للجلوس. ولما كانوا غير متعودين على النوم على هذا النوع من الأسرّة فقد قضوا ليلة مضطربة من دون نوم مريح.

دعاهم حاكم عدن في اليوم التالي إلى منزله، وقدّموا له رداءً قرمزيّاً فاخراً ومجموعة بنادق كهدية. وأثناء الحديث عرض عليهم شراء حاجتهم من البُن ذي الجودة العالية من عدن ، وكذا أية بضائع أخرى يرغبون في شرائها.

بعد ذلك قام البحّارة الفرنسيون بزيارة قائد القلعة في منزله، وأهدوا له بندقيتين وطرّاحة، وقد ضيّفهم بشرب القهوة وأكل الفاكهة، ووصفوه بالرجل البشوش، وبأنه ينحدر من أسرة عريقة تحظى باحترام الجميع في البلاد، لكنهم لم يأتوا على ذكر اسمه.

في ظهيرة ذلك اليوم زارهم في محل إقامتهم كبار الوسطاء التجاريين والسماسرة في المدينة، وغالبيتهم من الهنود البانيان، حيث عرضوا عليهم خدماتهم، وطلبوا منهم بضعة عيّنات من البضائع التي كانوا يحملونها على سفنهم، ولم يكن معهم سوى عيّنات من الأقمشة التي كانت على متن السفينة الهولندية التي سطوا عليها في عرض المحيط الأطلنطي وضمّوها إلى أسطولهم.

مرّ البحّارة الفرنسيون على السوق الشعبي ووجدوه ممتداً في عدة شوارع

صغيرة، حيث وضعت البضائع المعروضة على شكل بسطات. وكانوا كلّما مروا بحيّ يتلقون الدعوات من الأعيان للقيام بواجب الضيافة، كان كرم الأهالي يدهشهم، ولكن كان أكثر ما يضايقهم هو ضرورة نزع الأحذية عند دخول المنازل.

لم ينس البحّارة الذهاب للاستحمام والاستجمام في حمّام تركي في مدينة عدن، وقد وصف القبطان دولاميرفاي الحمّامات بقوله: « ينبغي الاعتراف بأنه لا يمكننا أن نجد أجمل من حمامات هذه المدينة، فهي مرصوفة بالرخام أو بالأحجار الملساء، وتعلوها قباب ذات دعامات جميلة مزخرفة، تتوزع في داخلها غرف تطل جميعها على الصالة الرئيسية التي تعلوها القبة».

استجاب البحّارة الفرنسيون في إحدى المرّات لدعوة أحد أعيان عدن (الذي لم يذكروا اسمه)، ونزلوا ضيوفاً عليه، وسألهم إذا لم يكن ضمن طاقم سُفنهم الكبيرة شخصٌ ذو مهارات طبية لمعالجة أحد أبنائه الذي أعياه المرض وأنهكه، ولم يتمكن أحدٌ من معالجته في عدن. استجابوا لطلبه وأرسلوا له جراح البعثة دولا لامباردبير De La Lambardière، الذي تمكن من معالجة الطفل ونال شهرة واسعة في المدينة، مما حدا بحاكم المدينة إلى الإرسال في طلبه، واشتكى له من بعض الآلام في المعدة ومن فقدانه للشهية. وقد قام الطبيب بمعاينته وتحضير وصفة علاجيه له.

يروي القبطان دولاميرفاي بأن الطبيب عاد للمبيت في السكن المخصص للبحّارة الفرنسيين، وعند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل طُرق باب مسكنهم بقوة ؛ وإذا به ضابط الميناء وبرفقته مجموعة من الحرس، وأبلغهم بأن الحاكم يطلب مقابلتهم. شعروا بالتوتر والقلق، وأمام غياب أي تفسير، بدأ كلٌ منهم يُفسّر الموقف انطلاقاً من مخاوفه، وأرجع معظمهم السبب إلى أن وصفة الطبيب قد أضرت بالحاكم مما جعله يُصرّ على استدعائهم في هذا الوقت المتأخر من الليل. بعد أن وصلوا إلى مقرّه، استقبلهم ببشاشة، وقال لهم بنبرةٍ جادّةٍ بأنّه لاحظ عدم رغبتهم في شراء حاجتهم من البُن من مدينته، وبأنه لا يرى ضيراً في ذلك بل وسيعطيهم رسالة توصية إلى أخيه حاكم المخا لاستقبالهم وتسهيل مهمتهم. وقد

علَّل القبطان عدم شراء شحنة البُن المطلوبة من مدينة عدن، لكون البُن الذي كان يُباع في مرفأ عدن غير مرغوب وليس بذات جودة البُن الذي يُباع في مرفأ المخا.

وصف مدينة عدن:

وصف القبطان الفرنسي دولا ميرفايل مدينة «عدن» بأنها «مدينة حَصينة[1] قابعة تحت ظلّ جبال عالية تحيط بها من جميع الجهات تقريباً، وهي محميّة بخمس أو ست قلاع مبنية على قمم هذه الجبال مع وجود حواجز وموانع متعددة عند مداخل الجبال. وتوجد ساقية جميلة تعمل على توصيل المياه العذبة من الجبال إلى خزّان ضخم بُني على بُعد ما يقارب الكيلومتر، يتزود منه أهالي المدينة بمياه الشرب العذبة.

كانت المنطقة محاطة بأسوار مازالت في حالة جيدة خاصة من جهة البحر، حيث توجد عدة منصات في مواضع متفرقة عليها خمسة إلى ستة مدافع بعضها يتسع لقذائف يصل وزنها إلى ستين رطلاً، يُرجّح بأنها من المدفعية التركية التي تركها الخادم سليمان باشا بعد أن أُجبر الأتراك على الخروج من اليمن، في أعقاب الغزو العثماني الأول، وتسليمها لأمراء وسلاطين المنطقة.

لبلوغ مرفأ عدن عبر البر، لم يكُن هناك سوى منفذ واحد صالح للاستخدام كطريق ضيق يمتد إلى البحر على شكل لسان، تطل عليه قلعة محصّنة مزوّدة بالمدافع والحراسة، وقلعة أخرى يصل عدد المدافع فيها إلى أربعين مدفعاً،

---

(١) شكّلت تحصينات ميناء عدن الطبيعية والمصطنعة حاجزاً منيعاً أمام الغزاة البرتغاليين عام ١٥١٣. ويصفها فارتيما في مذكراته التي نشرت باللغة الإيطالية في عام ١٥١٠ بقوله: «عدن هي أكثر المدن التي يمكن وصفها بأنها حصينة إذ تُرى دائماً في مستوى الأرض، وهي مسورة من جانبين، ويحميها من جانبيها الآخرين جبال عريضة، وعلى هذه الجبال خمس قلاع وأرضها مستوية سهلة.» «ويذكر بادجر أن بقايا هذه القلاع لا زالت موجودة، ومعظم هذه التحصينات فيما يقول بادجر نقلاً عن بعض المراجع العربية، أنشأها عثمان الزنجيلي الذي عينه طوران شاه الأيوبي، أخو صلاح الدين الأيوبي، حاكماً على عدن سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) وقد ظلت بعض منشآت عثمان هذا قائمة حتى استيلاء الإنجليز على عدن سنة ١٨٣٩.»

(أنظر: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة المكتاب، ط ١٩٩٤، ص ٦٧)

بحيث يصعب مع هذه التحصينات اجتياز هذا الطريق عنوة. وبين هذه القلعة والمدينة توجد قلعة أخرى عليها اثنا عشر مدفعاً وحراسة مشددة.

أما من جهة البحر فتشرف المدينة على خليج واسع مفتوح على نطاق ثلاثين أو خمسة وثلاثين كيلومتراً ويتشعب إلى حوضين، أحدهما واسع لكنه بعيد عن المدينة، بينما الآخر قريب لكنه أقل سعة، ويُدعى المرفأ، ويبلغ عرضة قرابة الأربعة كيلومترات، ويقع بين جبلين محصنين بالقلاع المذكورة.»

وجد البحّارة الفرنسيون بأن مدينة عدن تعكس رفاهاً متوسطاً، حيث توجد العديد من المنازل الجميلة المكوّنة من طابقين وشُرفة، وهناك الكثير من الأطلال ومن المنازل الفقيرة. الأراضي المحيطة بالمدينة خلّابة، وفيها أماكن كثيرة تغلب عليها الخضرة. كما أشار البحّارة إلى نسبة الرطوبة المرتفعة في مدينة عدن.

مغادرة مرفأ عدن:

في يوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر ١٧٠٨، توجه القبطان ومعهما الضباط والبحّارة إلى الميناء، كي ينطلقوا بسفنهم ويواصلوا رحلتهم إلى مرفأ المخا، لكن ضابط الميناء منعهم من ذلك قائلاً لهم بأنها توجيهات الحاكم دون أن يعطي مزيداً من التفاصيل. شعر البحّارة بالقلق، وأوعز القبطان دولاميرفايل لأحد ضباطه بأن يذهب لجلب جنود مسلّحين على متن ثلاثة قوارب، على أن يخفوا أسلحتهم، وعند أول إشارة يطلقون النار على الحرس ويُسهّلون نقلهم إلى السفن. أبلغهم ضابط الميناء بأن الحاكم مُصِرٌّ على رؤيتهم مرّةً أخرى، فازداد قلقهم وانتظروا وصول عناصرهم المسلّحة، وذهبوا مع حراستهم إلى الحاكم الذي رغب في تقديم الشكر مرّة أخرى على النتيجة الفعّالة للعلاج، وسلّمهم الرسالة التي يوصي فيها حاكم المخا بِحُسْنِ الاستقبال والضّيافة وبتسهيل مهمتهم، كما عرض عليهم أن يرسل معهم بحاراً يساعدهم على الملاحة في منطقة يجهلون تضاريسها.

وقد غادرت السفن الفرنسية مرفأ عدن في اليوم التالي الذي يوافق السابع والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٧٠٨، متجهة صوب مرفأ المخا.

الوصول إلى مرفأ المخا:

رست السفن الفرنسية في ميناء المخا في الثالث من يناير من عام ١٧٠٩[١]، وتعدّ هذه السفن أولى السفن الفرنسية التي تصل إلى المخا، في حين عرف الإنجليز والهولنديون هذا المرفأ في القرن السابع عشر؛ فقد وصلت أولى السفن الإنجليزية إلى المياه اليمنية في عام ١٦٠٩، بينما وصلت السفن الهولندية في عام ١٦١٤.

وصف البحّارة الفرنسيون مدخل الميناء بأنه عبارة عن لسانين يمتدان نحو البحر بشكل منحنٍ ويلتقيان على هيئة قوس يقارب عرضه الأربعة كيلومترات، ومحاط بقلعتين لحماية مدخل الميناء المخصص لدخول السفن الكبيرة. بقية أرصفة الميناء كانت مخصصة لاستقبال السفن الصغيرة والمتوسطة. يرفرف فوق كل قلعة علم أحمر مرسوم عليه ثلاثة أهلّة وسيف علي ابن أبي طالب (ذو الفِقار).

أطلقت السفن الفرنسية سبع قذائف مدفعية للتحيّة، وردّت عليها مدافع الميناء التحيّة، وسرعان ما هرع ضابط الميناء ببزة عسكرية ذات لون أخضر، ومعه السمسار بيرا Bira الذي كان يتحدث البرتغالية، وبرفقتهم أحد الهولنديين العاملين في الوكالة الهولندية في المخا، والذي كان يجيد اللغة الفرنسية.

أطلع البحّارة الفرنسيون ضابطَ الميناء بأنهم جاءوا بأمر من ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) وتحت رعايته وتلبية رغبته في أن يقوم رعاياه بالاتجار مع بلاد اليمن. رحب بهم ضابط الميناء وأضاف بأن الإمام (المهدي) وحاكم المخا سيكونان مسرورين بهذا الخبر وسيرحبان بالفكرة.

---

(١) في هذا العام عاشت فرنسا شتاءً قارساً وقاتلاً، ما يزال محفوراً في الذاكرة الفرنسية، فقد هبطت درجة الحرارة في بعض المناطق إلى ٢٥ درجة تحت الصفر، تجمّدت الأنهار وتجلدت الأراضي والحقول وخيّم الجوع ومات كثير من الأطفال والمسنين، لدرجة أنه كان من المستحيل مواراتهم الثرى مع وجود طبقة ثلجية بلغت عشرات السنتميرات، ظلّت المجاعة قرابة السنتين حتى نهاية ١٧١٠ قضى خلالها ما يقارب ستمائة وثلاثون ألف نسمة، وتخللتها أعمال عنف ونهب في باريس، كان أشدّها ما حصل في يوم ٢٠ أغسطس حيث خرج ما يقارب العشرة آلاف شخص وقاموا بنهب المخابز والمحلات.

(Marcel Lachiver, Les années de misère, la famine du Grand Roi, Fayard, 1991.)

حمّل القبطان دولاميرفايل، أحدَ الضباط الفرنسيين رسالة لحاكم المخا، وأرفق معها رسالة التوصية من أخيه حاكم عدن التي سبق الحديث عنها.

لم يتأخر رد حاكم المخا برسالة، ورد فيها[1]:

« الحمد لله رب العالمين،

إلى القبطان الفرنسي دو لا ميرفايل، هداه الله وبارك له في عمله وتجارته وجعلها مزدهرة.

تسلمتُ الرسالة التي حملها إلينا مبعوثكم والتي من خلالها علمنا بوصولكم المبهج إلى مرفأ المخا العامر دوماً بفضل من الله تعالى، وعدالة أمير المؤمنين الإمام المهدي لدين الله، نصره الله. وها أنتم تتبعون بهذا سلوكاً يتماشى مع أرقى التقاليد والأعراف، وسوف نأتي في يوم الغد إذا شاء الله جل وعلا لاصطحابكم وإطلاعكم على متطلبات تجارتكم. اطمئنوا ولا تقلقوا من أي شيء فيما يتعلق بممتلكاتكم.نسأل الله الرحمة، هو مولانا نعم المولى ونعم النصير.

حاكم مرفأ المخا / صالح بن علي الحربي (حفظه الله)

شعر البحّارة الفرنسيون من فحوى هذه الرسالة بأنّ حاكم المخا ينوي ترتيب استقبال رسمي لهم، وقد استغل القبطان دولاميرفايل، زيارة القسيسين الإيطاليين الأخوين ريكوليه Récollets لهم على متن السفينة، فرجاهما القبطان بالإيعاز إلى حاكم المخا بعدم التكلّف في الحضور لاستقبالهم وبأنهم يفضلون أن يذهبوا للقائه في مقر إقامته.

وفي اليوم التالي الذي يصادف الرابع من يناير، نزل القبطانان دوشامبروليه ودولاميرفايل بصحبة مجموعة من الضباط بملابس رسميّة أنيقة، واستقلوا قوارب صغيرة قادتهم إلى مرسى الميناء، ودلفوا منه إلى ما يسمى بـ «بوابة البحرية»، حيث وجدوا إثني عشر حصاناً مزدانة بالسروج، وما يقارب المائتي جنديّ، وكان ضابط الميناء على رأس مستقبليهم، واصطحبهم إلى مقر إقامة

(١) ترجمة عن النص الفرنسي.

الحاكم، وتبعتهم جماهير غفيرة على إيقاع الطبول.

في مقر إقامة الحاكم أُدخلوا إلى صالة مفروشة بالسجاد على النمط التركي، وفي أعلاها نُصبت أريكة كان يجلس عليها الحاكم الذي استقبلهم بحفاوة، وبعد تبادل عبارات الترحيب أطلع القبطان دولا ميرفايل حاكم المخا الشيخ صالح الحربي على أنّ ملك فرنسا لويس الرابع عشر المبجل في أنحاء أوروبا، قد سمح لهم وشجع رعاياه التابعين للشركة الفرنسية للهند الشرقية على المجيء إلى اليمن لأول مرَّة بغرض إقامة علاقات تجارية، وأنه في حال الحصول على امتيازات خاصة سيستمر هذا التبادل التجاري لما فيه مصلحة الشعبين.

تشير الوثائق إلى أن حاكم المخا رفع يده ووضعها فوق رأسه ثم وضعها على صدره والتي تعني على الرحب والسّعة، وأعرب عن سعادته بقدوم البحّارة الفرنسيين، وأكد على أنه سيبلغ الإمام المهدي[1] الذي وصفه بالإمام الحكيم والعادل، الذي يقدر الأوروبيين كثيراً، بفحوى هذه الرسّالة ولا ريب بأنه سيمنحهم الامتيازات اللائقة بهم وبدولتهم.

ذهب البحّارة الفرنسيون بعدها مع السمسار بيرا Bira الذي كان يعمل كسمسار ومترجم مع الأوروبيين، واستأجر لهم سكناً مؤقتاً.

---

(١) الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم (١٦٣٧-١٧١٨) تولى الإمامة عام ١٦٨٦ بعد وفاة الإمام المؤيد محمد بن المتوكل (١٦٣٤-١٦٨٦)، بعد نزاع على الحكم بينه وبين عدة أمراء ينحدرون من الأسرة القاسمية. تمكن في الأخير من فرض نفسه إماماً على اليمن ورغم المناهضة القوية له، إلا أنه إحتفظ بالحكم حتى تم خلعه ومحاصرته ووفاته في عام ١٧١٨ (١١٣٠هـ) في منطقة المواهب شرق ذمار والتي اتخذها مقراً للحكم ومنها جاءت تسميته بصاحب المواهب. وكانت وفاة الإمام المهدي صاحب الألقاب الثلاثة (المهدي، الهادي، الناصر)، (وصاحب المنصورة، والمواهب)، عن ثلاث وثمانين سنة وبعد ثلاث وثلاثين سنة من حكمه الذي ابتدأ في مدينة المنصورة الواقعة في رأس جبل الصلو بالحجرية والتي اتخذ منها مقراً لإقامته الأولى، ثم انتقل منها إلى ذمار ورداع، وكان قد اختط مدينة الخضراء بالقرب من رداع ثم مدينة المواهب التي اتخذها مقراً لإقامته ومركزاً لعاصمته حتى وفاته فيها.
(أنظر كتاب : محمد علي دبي الشهاري، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، اليمن في ظل حكم الإمام المهدي المعروف بصاحب المواهب ١٦٨٦-١٧١٨، الجيل الجديد، صنعاء. ط١)

في اليوم التالي جاء مدير الوكالة الهولندية التي مقرها المخا لزيارتهم، ودعاهم لتناول وجبة الغداء في منزله، وقد أطلعهم على أنّ الهولنديين أقاموا وكالة هولندية في المخا لأنهم يحمّلون سنوياً سفينة سعتها ٧٠٠ برميل [٧٠٠×٢.٨٣م٣] أي ما يقارب الـ ٢٠٠٠ متر مكعّب من البُن والبضائع الأخرى؛ يقومون بنقلها إلى باتافيا[1] Batavia (جاكرتا حالياً)، حيث تخزّن قبل أن يتم نقلها إلى أوروبا.

الاتفاقية التجارية:

بعد مضي بضعة أيّام على وصول البحّارة الفرنسيين، بدأت المحادثات التجارية الجّادة بينهم وبين حاكم المخا، ووصل الطرفان إلى توقيع اتفاقية تنظم عملية الاتجار وشروط إقامة البحّارة الفرنسيين وإنشاء وكالتهم التجارية، وفيما يلي نص الاتفاقية (مترجمةً عن النص الفرنسي):

اتفاقية بين حاكم المخا والقباطنة الفرنسيين

تاريخ ١٦ يناير ١٧٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

صالح بن علي، حفظه الله

وهذا ختمه

بعد الحمد لله الذي افتتح كتابه الكريم باسمه، وأمرنا أن نتوكل عليه في كل شيء نشرع به، وبعد شكره جلّ وعلا صدق وعده ورفع ذكره، وبعد الصلاة والسلام على أنبيائه المرسلين الذين بلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة ونصحوا الأمة

(١) كانت مقراً لشركة الهند الشرقية الهولندية من عام ١٦١٩ وحتى عام ١٧٩٩ ، وأصبحت عاصمة الهند الهولندية حتى عام ١٩٤٢ حيث انهزم جيش المملكة الهولندية أمام القوات اليابانية التي احتلت الأرخبيل وأعادت لباتافيا اسمها القديم [جاكرتا] عاصمة أندونيسيا الحالية. [موسوعة ويكيبيديا]

لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

نُقرّ بأنه وفي عام ١١٢٠ هجرية، وفي عهد أمير المؤمنين وسيد المسلمين، المهدي لدين الله، حفظه الله، رست في هذا الميناء المزدهر بالسمعة الطيبة لصاحب الجلالة، ثلاثُ سفنٍ تابعة للإمبراطورية الفرنسية، حسب تصريح قباطنة السفن الأفاضل، والذين طلبوا منّا وثيقة مكتوبة يحتفظون بها كإثبات يمكّنهم من التعامل معنا بثقة وتحدّد الشروط التي يجب عليهم التقيّد بها، وهي:

أولاً: يحق لهم ممارسة شعائرهم الدينية التي يعتقدون بها في الحياة والممات، وبما لا يمكن إنكاره وكما جرت عليه عاداتهم.

ثانياً: يمكن للزوارق التابعة لهم الرسو أو الإبحار من وقت شروق الشمس حتى غروبها، بينما ينبغي على رجالهم المبيت على ظهر السفن أو في الدكّة، ويمكن لهؤلاء العمال الرسو والإبحار دون إذن مسبق فيما عدا أيام هيجان البحر حيث لا يتمكنون من العمل فيجب عليهم الحصول على إذن مسبق بغية النزول إلى اليابسة.

ثالثاً: من حقهم رفع علمهم على المنزل الذي يقطنون فيه.

رابعاً: فيما يتعلق بالبضائع التي يرغبون في إنزالها، ينبغي أن تمر عبر باب الفرزة أو باب الفرصة[1]، ويتم إبلاغ كتبة الباب عنها، ومن ثم يتم نقلها إلى الوكالة الفرنسية ويتم فتحها بالطريقة المعتادة التي يتم التعامل بها مع الأجانب.

خامساً: فيما يخص الرسوم الجمركية، فعليهم دفع نسبة ٣٪ من قيمة البضائع محل البيع، ولا يدفعون أية رسوم عن عين المال.

سادساً: عند الحاجة لاستئجار زوارق تابعة لبيت المال، فعليهم دفع قرشين عند الشحن وكذا قرشين في حالة التفريغ، وفيما يخص الزوارق الصغيرة يدفعون

---

(١) لم يأت الرحّالة نيبهور في يومياته التي سجّلها عند زيارته لميناء المخا ما بين عامي (١٧٦٢-١٧٦٣) على اسم هذا الباب، حيث ذكر بأن سور المدينة يضم خمسة أبواب (باب العمودي، باب الشاذلي، باب فجير، باب صندل، باب ساحل الميناء القديم)، وربما يكون باب الفرزة أو الفرصة كما ذكره الفرنسيون في مذكراتهم (alforsa) هو باب ساحل الميناء القديم والذي يقع على الساحل الغربي من مدينة المخا.

قرشاً واحداً فقط.

سابعاً: عندما ينزل الأشخاص إلى اليابسة، فيدفع عن كل شخص ما هو مقرر على الأجانب أمثالهم.

ثامناً: في حالة تعرض أحدهم للشتم من قبل أحد أهالي ميناء المخا، فيجب الرجوع إلينا لتطبيق العدالة.

تاسعاً: تقيّد البضائع المباعة على حساب الوسيط، إذا تمت عملية البيع بحضوره أو حسب معرفته. وفي حال الخلاف مع أحد المتعاملين معهم أو إفلاسه، أو في حال فرار أحد المشترين بالبضائع التي باعوها له مباشرة دون وسيط، فينبغي الرجوع إلينا لتطبيق العدالة.

عاشراً: نظراً لأنّ البحارة الفرنسيين جاءوا من بلادهم البعيدة على متن هذه السفن وسلكوا سلوكاً قويماً، لا سيما القبطان دولاميرفاي، والقبطان دوشامبروليه لوبران، ونزلوا ضيوفاً في بلاد أمير المؤمنين وسيد المسلمين خليفة رسول الله المهدي لدين الله، حفظه الله. وطلبوا منا أن نمنحهم بعض الامتيازات إكراماً لهم، وبهذا فقد منحناهم تخفيض ربع رسوم الجمارك على البضائع التي يحملونها على سفنهم، التي سيفرغونها هذه السنة. وأثناء تحرير هذه الوثيقة، أكّد البحّارة الفرنسيون بأنهم سبق وأن أبلغوا بلدهم بحصولهم على إعفاء من الرسوم الجمركية مقابل الشحن والتفريغ خلال هذا العام. واعتباراً لما سبق، فقد توصلنا إلى حل إعفائهم من هذه الرسوم، لهذا العام فقط، باعتبارهم ضيوفاً على الإمام، شريطة:

- امتناعهم عن مهاجمة أية سفينة تصل إلى مرفأ المخا السعيد، سواء كانت تابعة لصديق أو عدو، وعدم الاعتداء على رعايا هذه البلدان الذين اعتادوا على رفع أعلام بلدانهم فوق منازلهم.

- ألّا يقوم بحارتهم بالشتم والسب في الدكّة أو في الأماكن التي يجلب منها الماء في أيّة دكّة أخرى. ومن يصل الأول سواء عند جلب الماء أو عند الوزن يحصل على الخدمة أولاً كما جرت عليه العادة في مثل هذه الحالات. وعلى

الجانب الفرنسي تطبيق العدالة في حق رعاياه الذين يتعرّضون بالشتم للغير.

- إن حصل وصادف وأن تقابلت إحدى السفن الفرنسية مع سفنٍ تابعة لبلدان أخرى في مرسى الميناء، فإنه من غير المقبول تبادل الشتائم؛ لأنّ ميناء المخا مكان مقدس مؤمّن برعاية الله ورعاية أمير المؤمنين الإمام حفظه الله، لذا فعلى الفرنسيين حفظ اللسان، وفي ذلك شرف لهم.

- أخيراً وعند مغادرتهم، عليهم السير في الطريق المعلوم مصحوبين بنفير الأبواق وإطلاق الأعيرة النارية، تماشياً مع أعراف الأمم الأخرى. وفي حالة فرار أحد رعاياهم إلى اليابسة فعلينا تسليمه لهم، وإن رغب أحدهم في تبديل دينه، فلن نستقبله إلا إذا حصل على موافقة القباطنة. وإن رغب بعض المسلمين أو غيرهم السفر معهم على متن سفنهم، فعليهم إيصالهم بأمان.

حرر في الـ ٣٠ من شهر ذي القعدة من عام ١١٢٠ من الهجرة النبوية على صاحبها السلام (الموافق ١٦ يناير من عام ١٧٠٩ ميلادي).

نحن؛ قائد الحملة الملكيّة الفرنسيّة، نتعهد للشيخ صالح الحربي، حاكم مدينة المخا، بأن سفننا الثلاث الراسية في الميناء، لن تتعرض بالشتم أو الاعتداء على أحد من أصدقائه في عرض البحر الأحمر، بل وسنتعامل معهم كحلفاء وأصدقاء أعزّاء ينبغي علينا الدفاع عنهم، كما ينبغي عليهم الدفاع عنّا في مختلف الظروف.

حُرّر تحت توقيعنا وختم أسلحتنا، في المخا، بتاريخ ١٦ يناير ١٧٠٩ ميلادية[1].

وصف مرفأ المخا:

وصف دولاميرفاي المخا بأنها المركز الرئيسي لسبع مناطق يتولى أمرها حكّام تحت سلطة حاكم المخا الذي يتمتع بصلاحيات واسعة وبثراء فاحش وبنشاط

(١) وقعت هذه الاتفاقية بعد مباحثات بين الجانبين دامت أسبوعاً، وقد حازت أخيراً على رضى الطرفين وخاصة الجانب الفرنسي، وكانت بالنسبة للفرنسيين من الأهمية بأنهم تحججوا ببنودها عند الاعتداء على ميناء المخا بعد مرور ما يقارب الثلاثين سنة على توقيعها كما سنرى لاحقاً.

تجاري ملحوظ. تسهم المخا بدفع ثلاثين ألف ريال لبيت المال تتحصل من الرعيّة. مرفأ المخا ليس بأهمية وحجم مرفأ عدن، لكنه كان أكثر نشاطاً في المجال التجاري، بل وأسهم بشكل واضح في إضعاف النشاط التجاري لميناء عدن.

يقطن في المخا قرابة العشرة ألف نسمة جميعهم من المسلمين فيما عدا عدد محدود من الأرمن والهنود وأقلية من الفقراء اليهود الذين يعيشون في أحياء فقيرة خارج المدينة. معظم السكان ذوو بشرة حنطيّة وأجسام ممشوقة نوعاً ما ويتمتعون بأخلاق عالية.

مدينة المخا محاطة بسور مبني على الطريقة الأثرية نصفه السفلي من الحجارة والنصف العلوي من اللّبِنْ، تتخلل هذا السور أربع بوابات، ليس أمامها خنادق[1]، لكنّها محميّة بأبراج حراسة يوجد فوق بعضها مدافع. يتواجد في هذه الأبراج جنود يقومون بالحراسة والتفتيش أثناء الليل. وخلال ساعات النّهار تنتشر الحراسة في الميناء وفي الأسواق للمحافظة على النظام والقبض على المخالفين ومسببي المشاكل واقتيادهم إلى مجلس الحاكم الذي يقضي عليهم بعقوبات صارمة. وقال دولاميرفاي «في هذه المدينة ليس هناك مجال لإشاعة الفوضى وإقلاق السكينة العامة».

يتراوح عدد الجنود ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ جندي يتجمعون كل يوم في الساحة الكبرى ما بين الساعة الثانية عشر ظهراً والساعة الثانية بعد الظهر لمرافقة الحاكم إلى المسجد لأداء الصلاة في أجواء من التكلّف والهيلمان. عند خروج الموكب من المسجد، يطلق الجنود أعيرة نارية احتفاءً بالحاكم.

نساء المخا لا يظهرن في النهار، واعتدن على تبادل الزيارات في بداية المساء، ما خلا عدد قليل منهن، ربما اللواتي يخدمن في المنازل.

استأجر الفرنسيون سكناً كبيراً في وسط المدينة، وكانوا يضطرون إلى النوم في الشرفة أو على الأسطح تفادياً لشدة الحر، ووصف دولاميرفاي جو المخا بأنه حار

---

(١) في التحصينات والقلاع الفرنسيّة تحاط الأسوار والبوابات بخنادق عميقة تملأ بالمياه وتشكل حاجزاً منيعاً يصعب تجاوزه.

جاف لدرجة أن المرء يتعرق بشدة دون القيام بأدنى مجهود. وبأن درجة الحرارة في شهر يناير في المخا تعادل درجة الحرارة في شهر يوليو في باريس. وقد عبّر عن دهشته بأن الأهالي المعتادين على هذا الجو الحار كانوا يعتبرون أن الجو في هذه الأشهر ما زال بارداً، حتى أن البعض من ميسوري الحال كانوا يستمرون في ارتداء ملابس من الصوف حتى شهر مارس. ويشتد الحر في شهري يونيو ويوليو ومردُّ ذلك إلى هبوب رياح الجنوب.

أضاف بأن المياه شديدة الملوحة، وينـدر سقوط الأمطار، ومع ساعات الصباح الأولى وحتى الساعة العاشرة تهب نسمات بحرية ملطفة للجو.

تنتشر حول مدينة المخا أشجار النخيل وتسقى عن طريق الآبار وتحمل تمراً كثيراً، كما يزرع الدخن الأبيض بكثرة، ويبلغ حجم حبته ثلاثة أضعاف حبة الدخن الفرنسي.

بعد انتهاء موسم تساقط الأمطار في فصل الربيع (مارس - أبريل)، وفي فصل الصيف (يوليو-أغسطس) تتغطى الأرض بطبقة ملحيّة يستخرج منها الملح دون أي جهد يذكر، بحيث يكفي أن تمتلئ هذه البرك بمياه البحر عند المدّ، ومع تبخر المياه يبقى الملح الذي يتصلب ويتم تكسيره بمعاول.

البُن:

شغل البُنُّ حيّزاً كبيراً من مذكّرات القبطان الفرنسي دولاميرفاي، ومما جاء فيها ما يلي:

اليَمن هو البلد العربي الوحيد الذي ينتج البُن دوناً عن غيره من الدول العربية، زد على ذلك بأن هذا المحصول لا يُزرع بغزارة إلا في ثلاث مناطق رئيسية في اليمن[1] وهي بيت الفقيه، صنعاء، وصعفان. والمناطق الجبلية هي الرافد

(١) تنتشر زراعة البن اليمني في معظم المحافظات، وأشهر مناطق زراعته هي : بني مطر، يافع، حراز، الحيمتين الداخلية والخارجية، برع، بني حماد، عمران، وغيرها. ومن أشهر أنواع البن اليمني (المطري، اليافعي، الحيمي، الحرازي أو الإسماعيلي، الأهجري ، المحويتي، البرعي، الحمادي، الريمي، الوصابي، الآنسي، العديني، الصبري، الصعدي) [المصدر : الصفحة الرئيسية لجمعية البن اليمني]

الأساسي لخزينة المملكة اليمنية لأن سواحلها الممتدة على البحر جافة وقاحلة، بينما يُزرع البُن على سفوح الجبال إضافة إلى محصول كبير من الفواكه المتنوعة، وتوجد فيها مياه عذبه وصحية وجو ربيعي دائم.

بعد توقيع الاتفاقية مع حاكم المخا، والاطمئنان على سلامة السفن، سافر البحّارة الفرنسيون إلى منطقة بيت الفقيه، وأنشأوا فيها وكالة تجارية لشراء البُن ونقله برّاً إلى ميناء المخا.

وصف مدينة بيت الفقيه :

وجد دولاميرفاي بأن مدينة بيت الفقيه تبعد عن مدينة المخا زهاء ١٤٠ كم، وكانت هذه المسافة تستغرق منهم يومي سفر بمحاذاة الجبال ومروراً بمدينة زبيد حيث يبيتون فيها ليلة، ووصفها بالمدينة الجميلة التي مازالت تحتفظ بعظمة الماضي، لكنّها تعاني من شحّ المياه، رغم وجود جسور صغيرة للمشاة تعبر من تحتها مياه السيول التي تنهمر من على الجبال في مواسم الأمطار، لكنها لا تصل إلى مستوى الترع أو الأنهار وتجف في الرمال الحارقة قبل بلوغها البحر.

وصف دولاميرفاي بيت الفقيه بأنها أكبر من المخا، ويوجد بها مساجد جميلة، ومناراتها مطلية باللون الأبيض من الداخل والخارج، وبيوتها مبنية من الياجور، ومكوّنة من طابق أو طابقين مع الشرفة.

المدينة مفتوحة وليست محاطة بالأسوار، وفيها قصر مشيد في غاية الرّوعة، توجد بالقرب منه البئر الوحيدة في المدينة والمحفورة على عمق كبير جداً، ويتم رفع الماء منها بواسطة جمل. يخرج الماء من البئر وهو يغلي لدرجة أن الدّخان يتصاعد منه ولا يمكن شربه في الحال بل يجب تركه طوال الليل كي يصبح عذباً سائغاً للشرب.

يوجد في المدينة سوق كبيرة جداً مخصصة لبيع وشراء البُن، وتحتل مساحة كبيرة مجزأة إلى قسمين ومن حولهما دكاكين، حيث يأتي المزارعون من الأرياف المجاورة ويحملون البُن في أكياس (جواني)، يضعون اثنتين منهما على كل جمل. وعلى التجّار الذين يرغبون بشرائه الاستعانة بالسماسرة الهنود.

وفي وسط السوق تنتصب أريكة على ارتفاع أربعة أقدام تقريباً يجلس عليها موظفو الجمارك وفي بعض الأحيان يجلس عليها حاكم بيت الفقيه بعينه، ويشرف هؤلاء الموظفون على عملية توزين البُن وأسعاره، ويتحصلون بموجب ذلك على الرسوم الجمركية المقررة لبيت المال.

يستخدم الوزّانون موازين كبيرة ويستخدمون أحجاراً كبيرة مغشاة بقماش كأثقال للموازين. يتحمل البائع دفع رسوم ضريبة البيع التي تعادل ١.٥٪ من المبلغ المتحصل. وتتم عملية البيع نقداً، فالمزارعون كانوا يرفضون التعامل بالدفع الآجل. والعملات النقدية التي يتعامل بها الفلاحون هي القروش الفضيّة المكسيكية وقروش الذهب، ويرفضون التعامل بالقروش البرتغالية بعد أن تعرّضوا لعملية غش بقطع نقدية برتغالية مزوّرة، وكان الفرنسيون يحملون معهم مبلغاً كبيراً من قروش الفضة البرتغالية السليمة وقد نجحوا في إقناع حاكم المخا بقبولها منهم.

يجلب المزارعون البُن يوميّاً إلى سوق بيت الفقيه، الذي يستقبل الباعة والمشترين طيلة أيام الأسبوع ما خلا يوم الجمعة. وقد أشاد دولاميرفاي بالحس التجاري العالي الذي يتمتع به المزارعون اليمنيون، الذين يراقبون بدقّة عملية العرض والطلب في السوق، فعندما يلاحظون بأن عروض البن قد زادت عن الطلب وبأن الأسعار بدأت تتراجع، فإنهم يتوقفون عن جلب البُن حتى تستقر الأسعار.

ومن هذه السوق يتم تغطية احتياجات تركيا من البُن، حيث يأتي تجار مصريون وأتراك ويحمّلون كميات كبيرة منه ويسيّرون قوافل من الجمال إلى ميناء صغير[1] يبعد أربعين كيلومتراً عن «بيت الفقيه» ومن ثم يحمّلونها على سفن متوسطة الأحجام تنقلها بدورها إلى مرفأ جده ومن ثم تُنقل إلى تركيا عَبْرَ مِصرَ.

كان لوصول السفن الفرنسية الكبيرة إلى المخا صدًى كبيراً أثّر على أسعار البُنّ صعوداً، كما أرجع دولاميرفاي ارتفاع أسعاره إلى زيادة الطلب عليه في أوروبا،

(١) ميناء غلافقة الذي كان مزدهرًا قبل أن تغمره الرمال.

حيث تضاعف السعر عشرات المرات تقريباً خلال خمسة وعشرين سنة، فبعد أن كان سعر الـ ١٥٠ رطل من بُنّ بيت الفقيه، يصل إلى عشرة أو اثني عشر قرشاً، قبل خمسة وعشرين سنة من ذلك الحين، فقد وصل سعر نفس الكمية إلى ١٥٠ قرشاً.

انقسم البحّارة الفرنسيون إلى فريقين، فريق بقيادة القبطان دوشامبروليه، ظل في بيت الفقيه للتفاوض وشراء البُن، ومن ثم إرساله براً إلى مرفأ المخا حيث يتكفل الفريق الآخر بقيادة القبطان دولاميرفاي بتخزينه ونقله إلى السفن الراسيّة في العمق.

حادثة عارضة ١:

يروي القبطان دولاميرفاي بأن القسيسين الإيطاليين اللّذَيْن كانا يُترجمان له بين الحين والآخر، قدّما له تاجراً مخاويّاً يُدعى سيدي محمّد، الذي لم يلبث أن تقرّب من البحّارة الفرنسيين مدّعياً الثراء والحذق في أعمال التجارة.

وفي أحد الأيام عرض على القبطان الفرنسي أن يشتري له بُنّاً عالي الجودة من المزارعين مباشرة ويوصله إلى مخازنهم بأسعار تنافسيّة مغرية. نالت الفكرة استحسان القبطان ودفع له مبلغ ٢٥٠٠ قرش فضي (بسيطة) وأوفى سيدي محمّد بوعده وأرسل في شراء الكميّة المطلوبة.

راقت الصفقة للقبطان الفرنسي، فأعطاه مبلغ ستة آلاف قرش فضي (بسيطة) لشراء كمية أخرى، ولكنّ سيدي محمّد لم يفِ بوعده مثل المرّة السابقة، بل تباطأ، وبعد فترة مطالبة، أرسل كميّة قليلة منها ذات جودة رديئة. لم يتجرأ القبطان على إبلاغ الحاكم رغم اقتناعه بحزمه وعدالته، خشية لوم الأخير له على هذا السلوك الذي يخالف بنود الاتفاقية.

بعد تردد طويل ومخافة ضياع الوقت الذي يمكّن سيدي محمد من الهروب إلى منطقة أخرى، لجأ القبطان إلى السمسار الهندي بيرا، وطلب منه أن يحضر إلى الوكالة ويصطحب معه سيدي محمّد. وعندما حضرا في المساء لام القبطان سيدي محمّد على عدم وفائه بالوعد بتوفير البُن، وطالبه بإرجاع نقوده عدّاً ونقداً، وإلّا فإنه سيضطر لإبقائه محتجزاً لديه حتى سداد ما عليه أو إحضار ضمين

مسلّم. سأل القبطان السمسار بيرا إذا كان يقبل أن يضمنه، لكنَّ هذا الأخير رفض تحمُّل مثل هذه المسؤولية. وبعد أخذ ورد وعدم حصول القبطان على جواب شاف، اضطرّ أن يتحفظ على سيدي محمّد في الوكالة، ورفض السمسار بيرا الذهاب إلى منزله، وفضّل البقاء مع سيدي محمّد خشية اتهامه بالخيانة والتواطؤ في استدراج سيدي محمّد إلى الوكالة الفرنسية. وضعهما القبطان الفرنسي في غرفة مغلقة ووضع حارسين عند باب الغرفة. وفي الصباح الباكر طلب السمسار بيرا الذهاب إلى عمله، وبعد مضيّ وقت قصير من مغادرته حضر ضابط الميناء ومعه مسؤول الجمارك وقالا له بأنه بلغهما بأنه اعتقل سيدي محمّد ويريدان معرفة السبب. ويقول القبطان بأنه كان من الواضح بأنهما كانا على اطّلاع على تفاصيل الموضوع؛ لأن السمسار بيرا قد أبلغهما بالتأكيد وربما يكونان مرسلان من قبل الحاكم.

بعد أن سرد عليهما تفاصيل القضية، قال له ضابط الميناء وبنبرة حادة بأن هذا السلوك غير مقبول في بلده، وبأن الحاكم المعروف بشدته في الحق وبعدله سيشعر بخيبة الظن وسيتألم لأن في ذلك تعدِّياً على سلطته واختصاصه وهو إقامة العدل. أضف إلى ذلك بأن الحاكم - ولا أحد غيره -مخوّل بإقامة سجون ووضع المواطنين فيها.

شعر القبطان بأن تصرّفه هذا كان غير موفق، وأنّه قد يؤثر على علاقته الطيبة بالحاكم وعلى التسهيلات التي يقدمها هذا الأخير، فلجأ إلى الرد الدبلوماسي، وأطرى الحاكم، وقال لهما بأنّه وقبل وصولهما كان يعقد العزم على التوجه بنفسه إلى الحاكم لطرح القضية بين يديه.

طلبا منه أن يسلمهما سيدي محمد لاقتياده إلى الحاكم ليأخذ له حقه منه. رد عليهما بأنه مقتنع بالطرح الذي تفضلا به، لكن المسألة ليست بيده، وكون المدين محتجزاً في الوكالة الفرنسية التابعة لشركة الهند الشرقية الفرنسية فإنه لا يستطيع أن يطلق سراحه قبل تحصيل حق الوكالة، وإلّا فإنه سيُحاسَب ويدفع المبلغ من ماله الخاص، وأضاف بأن شركة الهند الشرقية الفرنسية تتمتع بهذا الامتياز في كافة دول المشرق حيث يوجد لها وكالات، والذي يخولها باحتجاز مَدينيها دون

الرجوع إلى سلطات الدولة المضيفة، وقال بأنه كان في إمكانه استخدام هذا الحق وإرسال جنود للقبض على سيدي محمّد، ولكنه لم يلجأ إلى هذه الطريقة تقديراً واحتراماً للحاكم.

علّق القبطان دولاميرفاي بأنه لجأ إلى اختلاق فكرة الامتياز هذه؛ لأنّه كان مقتنعاً بأنّه لا يمكن أن يُشكّك بمصداقيته، كونهم أول من جاء على متن سفن تجارية بهذا الحجم وبهذه التجهيزات، وأنشأوا وكالتين في المخا وبيت الفقيه، إضافة إلى مظهرهم المميّز، والضجيج الذي صاحب خبر وصول سفنهم وانتشر في أنحاء البلاد. لذا كان مقتنعاً بأن اليمنيين حكماء بطبعهم وسيأخذون كلامه على محمل الجد.

يقول القبطان بأن التفاوض المسؤول والهادئ دام قرابة الساعة، وقد عرضا عليه بأن يضمنا سيدي محمّد. لكن القبطان اعتذر عن ذلك وقال بأنه يقدّر ضمانتهما ولكن المبلغ كبير وشركة الهند لن تتسامح معه إلا بتسليم المبلغ كاملاً، وبأن هذا الرجل هو ضمانته الوحيدة، فإن لم يسلّم المبلغ فإنه سيضطر إلى اصطحابه معه إلى فرنسا، ويسلمه للشركة لمحاسبته.

لم يَرُق لهما هذا الطرح وانتفضا من مكانيهما، وقال ضابط الميناء إنّه سيطرح الأمر على الحاكم ويأمل منه أن يضمن شخصياً سداد المبلغ. أحسّ القبطان بأن عليه أن يعتمد جانب اللّيْن، فألمح إلى أنه لا يمكن أن يرفض للحاكم ذلك، وخاصة بأنه متعهد في الاتفاقية بإلزام المدينين بتسديد ما عليهم للبحارة الفرنسيين قبل موعد المغادرة.

لم يمض سوى وقت قصير حتى عاد المفاوضان ومعهما قائد حرس حاكم المخا، الذي نقل له تحايا الحاكم وطلب منه باسم الحاكم أن يرسل معهم الشخص المحتجز ووعد بأن القبطان سيستوفي دينه خلال عشرة أيام سواءً نقداً أو ما يقابل قيمة المبلغ من البُن.

لم يكن بوسع القبطان سوى تسليمهم سيدي محمّد، وقد اقتاده قائد الحرس مع أربعة من رجاله إلى مقر الحاكم، وعلم القبطان بأنه تم وضعه في السجن مكبّلا

بالقيود، وقد ضُرب على قدميه بعصا (فلكة). ولم تمر عشرة أيام حتى وفّى الحاكم بوعده وأمر بإيصال كميات من البُن تفي بالمبلغ المأخوذ.

حادثة عارضة (٢):

يروي القبطان الفرنسي دولاميرفاي أنه وفي مطلع شهر مارس والذي وافق العاشر من شهر ذي الحجة حيث يحتفل المسلمون بعيد الأضحى المبارك، أمر حاكم المخا بذبح مجموعة من الجِمَال والثّيران والخراف احتفاءً بالعيد، وتم توزيع اللّحوم على الناس في ساحة كبيرة أمام مقر إقامة الحاكم، واحتفل الناس في جو بهيج.

أغرى جو الفرحة والعيد البحّارة الفرنسيين بالاحتفال كنوع من الترفيه عن أنفسهم ومشاركة الأهالي أعيادهم، فأقاموا حفلة أمام مبنى الوكالة الفرنسية التي كانت تُستغل كسكن مؤقت للبحّارة الذين يتناوبون في البقاء في السفن وعلى اليابسة، وكذلك كمستودعات لتخزين البُن قبل نقله إلى السفن الراسية في العمق. احتفل الفرنسيون على طريقتهم، وأفرطوا في تناول المشروبات الروحيّة وشاركهم الحفل بعض السماسرة الهنود. سَكرَ أحد البحّارة الفرنسيين ؛ ويدعى نيكولا ريتشارد Nicolas Richard ، وهو جندي مدفعية، حتى الثمالة، وذهبَ للتنزّه حول المدنية في وسط الظهيرة في جو شديد الحرارة فلقي حتفه، ووُجد ميّتاً خارج المدينة. وتشير الوثائق الفرنسية إلى أن البحارة الفرنسيين ومن معهم فقدوا عدداً كبيراً من الأرواح خلال فترة إقامتهم في مدينة المخا، فقد قضى خمسة عشر بحّاراً بسبب الحمى الصفراء، إضافة إلى القبطانين شارل دي كونييه Charles des Cognets، ورونيه لالاند René La Lande ودفنوا في مقبرة مخصصة للمسيحيين.

كما أثّرت الخمرة على أحد السماسرة الهنود البانيان، وأصبح عدوانيّاً، وبدأ يتهجّم على رفاقِه بالسيف، ووصلت الشكوى إلى الحاكم الذي لم يتوان في إرسال الجنود لإحضاره، لكنّه تحصّن في منزله ورفض فتح الباب، فدخل الجنود من النافذة، وقُتل ثلاثة منهم أثناء الاقتحام، وتم اقتياده بالقوة، وأمر الحاكم بقطع رأسه في اليوم التالي.

لاجئ من أشراف مكّة:

يروي القبطان دولاميرفاي في مذكراته، أنّه حدث في فترة تواجد الفرنسيين في مدينة المخا، أنّهم رأوا أحد أشراف مكّة، من آل بيت رسول الله، والذي كان لاجئاً لدى إمام اليمن، بعد أن خسر المعركة مع قريبه شريف مكّة الذي كسب الحرب وسيطر على الحكم. وقد شمله الإمام برعايته وقرر له اعتمادات كبيرة ومقر إقامة في مدينة المخا. وبأن هذا الشريف كان يسير دوماً وبرفقته عشرون مسلحّاً من الخيّالة، وقد شاهدوه عدة مرات وهو في طريقه إلى المسجد.

ظل هذا الأمير على هذا الحال قرابة الخمسة أشهر حتى تلقى الإمام رسالة من شريف مكّة أعرب فيها عن استيائه من رعاية الإمام لعدوه، وهدده بأن ذلك قد يؤثر على العلاقات ويدفع ربما إلى الحرب.

غادر هذا الأمير المدينة بحثاً عن ملجأ آخر، وكان في وداعه كُبار الأعيان.

بعد مغادرة هذا الشريف المكّي، سرت شائعات بين الأهالي بأن الإمام طلب حاكم المخا إلى بلاطه، ليشغل منصباً رفيعاً، ورغم اهتمام حاكم المخا بالأمر، إلا أنه أرسل للإمام بالتماس يرجوه فيه بإبقائه حتى ترحل السفن الكبيرة التي ترسو في ميناء المخا وكان أهمها السفن الفرنسية بالطبع. وقد أرسل له مع هذا الالتماس هدايا ثمينة حصل عليها من التجار الذين يرِدون إلى المخا من أوروبا والهند.

تقبل الإمام عذر الحاكم والهدايا، وأرسل له بمعية أحد الضباط سترة وسيفاً وحصاناً رشيقاً. وما إن وصل مبعوث الإمام على مقربة من المدينة بمسافة أربعة كيلومترات، حتى أرسل لإبلاغ الحاكم بوصوله، وما كان من هذا الأخير إلاّ أن خرج بصحبة أبنائه وحراسته وجميع الخيّالة والعسكر، وكذا أعيان ووجهاء وأهالي المخا في حشد كبير يصل ما بين ألفين وثلاثة آلاف شخص. اعتذر القبطان الفرنسي عن الحضور، وحضر مدير الوكالة الهولندية الذي دعاه الحاكم وأرسل له خيولاً وعشرين فرداً للحراسة، ورفع علم شركة الهند الشرقية الهولنديّة.

استقبل حاكم المخا مبعوث الإمام على بعد كيلومتر من المدينة، وتمت عملية تسليم سترة الإمام للحاكم بطريقة بروتوكولية، حيث ترجّل الحاكم من على ظهر

الخيل وتسلّم رسالة الإمام والسترة من المبعوث الذي ظل على ظهر الخيل، وبعد أن رفع الحاكم السترة وقبّلها أمام الجمع، نزل المبعوث من على حصانه وألبسه إيّاها، وقلّده السيف وقدّم له الحصان. امتطى الحاكم ظهر الحصان المُهدى إليه وسار الجميع باتجاه المدينة على وقع أصوات الطبول.

الجالية الهنديّة:

تطرق القبطان دولاميرفاي في مذكراته إلى السماسرة الهنود (البانيان) الذين تتم عن طريقهم أو بواسطتهم جميع الأعمال التجارية. ينحدر معظمهم من جزيرة ديو القريبة من سورات surate ويأتون إلى اليمن منذ صغرهم لكسب لقمة العيش وتحقيق حلم الثراء عن طريق التجارة، وفيهم تجار كبار ووزّانو ذهب وفضة، ويقومون بجميع الأعمال ذات الطابع التجاري. وقد أطرى القبطان الفرنسي براعتهم في الأمور المحاسبيّة وإجادتهم التلاعب بالأرقام، وطريقتهم الفريدة في الحساب عندما يكونون على عجلة من أمرهم، حيث يحسبون على ظفر الإبهام بكتابة ثلاثة أو أربعة أرقام ويقومون بعمليات حسابية دقيقة في لمح البصر.

ويقول دولاميرفاي، بأنهم ماهرون لدرجة الاحتيال وبدهاء منقطع النظير، وبأن تعاملهم التجاري بهذا الأسلوب قد أثّر على سمعة العرب الذين يتصفون عموماً بحسن النيّة والأمانة.

ووصف القبطان الهنود الذين يقطنون المخا بأنهم مسالمون جداً ويميلون إلى التسامح حتى مع من يؤذيهم، وأرجع ذلك إلى ديانتهم وعبادتهم الحيوانات وخاصة الأبقار. وأشار دولاميرفايل بأنهم يمارسون حياتهم الخاصة وشعائرهم الدينية بحرية تامة، وكان لهم سلوكيات خاصة ؛ فهم لا يكتفون بالاغتسال عند القيام من النوم، بل قبل الأكل وبعده، ويذهبون عند كل مساء إلى شاطئ البحر ويبللون جباههم بالماء ويتعبدون. وعند كل صباح يخلطون عجينة من مادة الزعفران وغيرها من المواد ويضعون نقطة كبيرة على جباههم. يرتدي الهنود البانيان ملابس خاصة بهم تميّزهم عن الآخرين؛ حيث يضعون على رؤوسهم عمامة من الموسيلين الأبيض، ويحاولون بقدر المستطاع لفّها بطريقة تقربها من

الشبه برأس البقرة وقرونها، ويلبسون قميصاً طويلاً من القطن، ويغطون الجزء السفلي من الجسم بشال يلف على الورك ويمرّر من بين الفخذين. لا يلبسون السراويل، ومعظمهم يمشون حفاة الأقدام، والبعض من ميسوري الحال يرتدون شيلاناً من الحرير الأبيض المطرز من أطرافه بحرير ذي ألوان مختلفة.

واليمنيون يسمحون لهم بمزاولة العمل في كافة المجالات وخاصة في الأعمال التجارية، ويتاح لهم ممارسة كافة الطقوس الدينية والسلوكية، ولكنهم لا يرضون البتة بتزويجهم، ولا يسمح لهم حتى بمجرد الحديث مع النساء، لذا نجد كثيراً منهم يعودون إلى بلدهم إذا ما رغبوا في الزواج.

مغادرة المخا:

بعد مضيّ أكثر من ثمانية أشهر على وصول السفن الفرنسية إلى مرفأ المخا وتزودها بما تحتاجه من شُحنات البُن، بدأت الاستعدادات للمغادرة واستكمال إجراءات السفر، حيث بلغت قيمة البُن المُشْترى ما يربو عن مائتي ألف قرش فضي (بسيطة- Piastres)، ولم يكتف البحّارة الفرنسيون بشراء البُن فقط، بل حمّلوا معهم بضائع أخرى كالبخور، والمرّ والصَبِرْ والجاوي والعنبر والشاي والأقمشة.

أنفق البحّارة الفرنسيون كل ما بحوزتهم من نقود ولم يتبق معهم سوى مبالغ قليلة لمواجهة رسوم الجمارك ومصاريف بسيطة للسفر، وبحسب مذكرات القبطان دولاميرفاي الذي يروي بأن محاسب البعثة الذي لم تُرق له الإقامة في المخا، حاول بلوغ السفينة دون إبلاغ السلطات المحلية، وقد تنكّر في لبس بحّار، لكن ضابط الميناء عرفه وأوقفه وأبلغ الحاكم بذلك، وبعد توسط القبطان لدى الحاكم، أمر بالسماح له شريطة إبراز إخلاء طرف، حيث كان ينبغي على كل أجنبي دخل المخا لممارسة التجارة الحصول على هذه الوثيقة وإبرازها عند الخروج.

بعد استكمال إجراءات السفر والشحن وتسديد الديون والإيجارات، حرص القبطان على أن يحصل على سند استلام بالإيجارات من صاحب العقار والذي جاء فيه[1]:

---

(١) وصل الإيجار هذا مترجم عن اللغة الفرنسية.

«الحمد لله ... هذا السند إثبات على أن السيد/ علي بن عبد الوهاب، قد دفع إيجار منزل الفقيه خضر بالتمام والكمال، والذي استأجره مقابل ثمانين قرشاً ذَهبْ وبهذا لم يتبق من مبلغ الإيجار شيءٌ يذكر.

حُرّر في يومنا هذا السادس عشر من غرة محرّم من عام ألف ومائة وواحد وعشرين هجرية.

حُرّر بقلم الفقير إلى الله / قاسم الوجيه».

وكتب القبطان بأنه وخلال جلسة الوداع مع حاكم المخا، والتي تمت في جو من المرح والثقة، لم ينس حاكم المخا أن يلفت نظر القبطان إلى الأريحية التي يتعامل بها الفرنسيون مع النساء سواءً في بلادهم أو عندما يحلّون ضيوفاً لدى الغير، ملمّحاً إلى شكاوى أُسَرٍ كريمة في المخا من عدم تورّع البحارة عن مدّ النظر إليهن عبر الشرفة وملاحقتهن بالنظرات إلى داخل البيوت، وأرجع القبطان الشكوى إلى أحد جيرانه من أعيان المخا. كما تطرق الحاكم إلى حادثة اتهام أحد ضباط الحملة بمعاكسة النساء في «بيت الفقيه».

يقول القبطان دولاميرفايل بأنه ومع حلول موعد المغادرة كان يتبقى له مبلغ ١٠٠٠ قرش فضي (بسيطة) لدى السمسار الهندي بيرا، بعد تصفية المعاملات التجارية معه، لكنه رفض دفعها، ووقف معه ضابط الميناء وبعض الضباط الآخرين، وبعد مهاترات وأخذ ورد، كان هناك قبطان إنجليزي، وصل لتوّه وأرسى سفينته بجوار السفن الفرنسية، والذي توسّط في الموضوع بحيث يدفع السمسار نصف المبلغ، وبعد إبداء القبطان الفرنسي قدرٍ من التعنّت، وافق على هذا الحل.

غادرت السفن الفرنسية مرفأ المخا في ٢٠ أغسطس من عام ١٧٠٩، مطلقة قذائف مدفعية للوداع كما فعلت عند وصولها، وردت القلعة على طلقات الوداع بمثلها.

وتشير الوثائق الفرنسية إلى أن هذه الرحلة والتي استغرق التحضير لها وإنجازها قرابة الـ ٢٧ شهراً، شكّلت صفقة ناجحة للجميع؛ فقد وصل عائد

شحنة البُن المستوردة إلى ما يقارب الـ ٧٧٥٠٠٠ جنيه، ورغم الخسارة البشرية الفادحة التي وصلت إلى فقدان ٩٦ بحاراً أساسيّاً، دون الأخذ في الحسبان البحّارة الذين لقوا حتفهم والذين أُسروا من جرّاء أعمال القرصنة على سفنهم أثناء الرحلة. وأما بالنسبة للبحّارة الذين رجعوا سالمين فقد أثروا من عمليات القرصنة التي مورست خلال هذه الرحلة ذهاباً وإياباً.

الباب الثاني

الحملة الفرنسيَّة الثانية

(١٧١١- ١٧١٣)

الحملة الفرنسيَّة الثانية ١٧١١- ١٧١٣

حققت شركة التجارة المالوية التي أُنشئت أساساً للاتجار بالبُن عن طريق استيراده مباشرة من اليمن وبيعه في فرنسا وأوروبا، أرباحاً كبيرة بعد حملتها الأولى مما أغراها إلى ابتعاث حملة ثانية في شهر يناير ١٧١١.

جهّزت الشركة وسلّحت سفينتين من أفضل السفن المعروفة في ذلك الوقت لا بيه La Paix، لوديليجان Le Diligent، وأوكلت قيادتهما إلى القبطانين ماجون دو لا لاند Magon de la Lande، وكولان دوبريزلاين Colin de Brislaine.

انطلقت السفينتان من السواحل الفرنسية صوب سواحل اليمن مروراً بطريق رأس الرجاء الصالح، وهناك تمكن البحّارة الفرنسيون من سلب وقرصنة سفينة هولندية، وواصلوا رحلتهم نحو جزر القُمر، واضطروا للتأخر هناك مدة شهر أغسطس نظراً لشدة الرياح حول جزيرة سوقطره وخليج عدن والتي كانت تشل حركة الملاحة تماماً. وخلال هذه الفترة وبالقرب من السواحل الأفريقية تمكنوا من سلب وقرصنة سفينتين إنجليزيتين محملتين بشحنات ثمينة.

توجّهت السفن بعد ذلك نحو السواحل اليمنية، وأبحرت في البداية نحو ميناء عدن بهدف التزود بالماء واللوازم الضرورية، واستئجار بحّارة لمساعدتهم على عبور مضيق باب المندب بأمان، لكنهم وبحسب الوثائق الفرنسية لم يوفقوا في ذلك لأن البحّارة العرب كانوا يرفضون الصعود على سفن فرنسية ربما لأسباب دينية، حسب ما ورد في المذكرات.

الوصول إلى مرفأ المخا:

رست السفن الفرنسية - بما فيها السفن المسلوبة - في مرفأ المخا بتاريخ ٢ ديسمبر ١٧١١، وكان الحاكم السابق الشيخ صالح بن علي الحربي، قد انتقل للعمل بجانب الإمام الذي عيّنه وزيراً له، وحلّ محلّه أخوه الذي كان حاكماً على عدن، كحاكم على المخا.

***

مرض الإمام المهدي[1]:

بعد فترة وجيزة من وصول الفرنسيين إلى مرفأ المخا، مرض الإمام المهدي، ونزولاً عند نصيحة وزيره الشيخ صالح الحربي، باستدعاء طبيب الحملة الفرنسية وإشادته بمهارة الفرنسيين الطبية. أرسل الإمام سكرتيره الخاص (سيدي عبد الله) لمقابلة الفرنسيين، وحمّله رسالة بهذا الخصوص.

رحّب القباطنة الفرنسيون بالفكرة، ووجدوا فيها فرصة لتعريف الإمام بالشعب الفرنسي، وللتعرّف على بلاد اليمن بشكل أعمق، وكذا لتوظيف هذه الزيارة لتسهيل المهمة التجارية التي أتوا من أجلها. وتم التوافق على تشكيل فريق لزيارة الإمام تحت رئاسة السيد دولاجرولوديير De la Grelaudière وهو ضابط مسؤول عن فرقة عسكرية فرنسية في بونديشيري Pondichéry ، وكان قبلها في الهند، وقد رافقهم إلى المخا. وقع الاختيار عليه لكونه يتمتع بالكياسة والذكاء ويجيد التحدّث بعدة لغات بما فيها اللغة العربية. وكان برفقته الطبيب الجراح باربييه Barbier ، وحمل الفريق بعض الهدايا للإمام وهي عبارة عن مرآة كبيرة الحجم ومسدسين مصنوعين بحرفيّة فائقة وبعض الأقمشة والملاءات.

غادر الفريق الفرنسي المخا برفقة سكرتير الإمام في الرابع من شهر فبراير عام ١٧١٢، في الساعة الرابعة عصراً على ظهر خيل مجهزة بسروج مريحة للغاية، وكان عددهم عشرين شخصاً ترافقهم حامية من الفرسان، وجِمالٌ محمّلة بكافة احتياجات الرحلة، وتوجّهوا إلى قريّة المواهب شرق مدينة ذمار حيث اتخذها الإمام مقرّاً لإقامته.

سار الفريق بقيّة النهار وجزءاً من الليل، ووصلوا إلى (موزع) في الثالثة فجراً، وكانت مشهورة بتربية الدواجن، وباعتبارها محطة عبور لتجار الفواكه التي تُجلب من الأرياف والجبال المحيطة بها. قضى المسافرون بقية الليل نياماً تحت أشجار النخيل لعدم توفر نُزُل، وواصلوا في اليوم التالي سفرهم متجهين نحو مدينة

---

(١) الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم (١٦٣٧-١٧١٨) انظر هامش الملاحظات ص ٢٣.

[تعز]، ووصفوا الطريق بأنها جميلة تمر من خلال وديان خلابة.

وصل الفريق إلى مدينة تعز والتي وُصفت بأنها مدينة ذات أهمية وشهرة في اليمن، وأنّها كبيرة ومحاطة بأسوار ذات طابع معماري فريد، يعلوها قصرٌ مشيد[1] على قمة جبل يطلّ على المدينة، ويُمكنُ مشاهدته من مسافة ٢٥كم، يوجد حول القصر ثلاثون مدفعاً من الحجم الكبير، وهذه القلعة الحصينة كانت مهيأة ومخصصة للمساجين السياسيين. هناك عدة حدائق غنّاء في منحدرات الجبل تضفي بصمة جمالية على المكان، وتزيد المدينة وداعة وحميمية.

حاكم مدينة تعز هو ابن الإمام وولي عهده الذي سيخلفه في الحكم، ولم يفت الفريق الذهاب إلى قصره للسلام عليه، والذي استقبلهم بحفاوة وترحاب. كما ذهب الفريق لزيارة جزء من المدينة وتعرفوا على مسجدي المظفّر والأشرفيّة.

غادر الفريق مدينة تعز، وسار في طريق مدينة [إب]، وهناك شَاهدَ الفرنسيون لأول مرة شجرة البن، ولاحظوا بأن المنطقة غنية بالزراعة وفيها كثير من أشجار الفواكه، ومن ثم مرّوا بمدينة [جبلة]، ووصفوها بأنها مدينة جميلة محاطة بالأسوار، وتمتاز مساجدها بالمنارات العالية.

ذهب الفرنسيون للسلام على حاكم [إب]، وهو أحد أبناء الإمام، ووجدوه أميراً بهي الطلعة جميل المحيّا، ولم تتطرق الوثائق والمذكّرات لاسمه.

قبل أن يصلوا إلى مدينة [يريم] تفاجأوا بسلسلة جبال [سُمارة] الشاهقة، ووجدوا بأن الطبيعة الجغرافية تغيرت كليّاً، فبعد أن كانت هناك وديان وحقول مزروعة ومياه جارية تنساب من الجبال على هيئة سواقٍ، أصبحت التضاريس في جبال سمارة قاسية وجدباء. ووجدوا بأن مدينة يريم كبيرة ولا تحيط بها الأسوار وعلى رأسها حاكم. واصل الفريق سفره من [يريم] نحو [ذمار] عبر سلسلة من الجبال، وقد وجدوا المناخ حاراً جداً أثناء النهار ولا توجد أية هبة للرياح إلا بعد غروب الشمس.

ما إن وصل الفريق إلى مدينة [ذمار] حتى تلاشى التعب؛ لأنّ جوّ المدينة

---

(١) ما زالت هذه القلعة محتفظة ببهائها وهيبتها وفرادتها، وتدعى قلعة القاهرة.

صحي، حسب قولهم، وهي مفتوحة على وادٍ كبير وطبيعتها خلابة.

على بعد ٤٠ كيلومتراً شرقيّ مدينة [ذمار] تقبع مدينة [المواهب] على تلّة صغيرة، حيث اتخذها الإمام المهدي مقرّاً لإقامته، وقد هيأها وبنى فيها قصراً خاصّاً به سُمي [قصر المواهب] كان يدير منه شؤون البلاد أيّام السلم، وبنى قصراً آخر على هيئة قلعة حصينة، جعل منها ثكنة عسكرية لخاصة جنده، ومقرّاً للقيادة في فترات الحروب.

بعد ثمانية أيام من السفر، وصل الفريق إلى مشارف مدينة [المواهب]، وطلب منهم سكرتير الإمام أن يستريحوا قليلاً ريثما يسبقهم ليُعلمَ الإمام بوصولهم ويهيئ لمراسم الاستقبال.

كانت هناك مجاميع غفيرة في استقبالهم على مداخل المدينة، اتجهوا مباشرة نحو القصر الإمامي، وبعد اجتيازهم خمس بوابات عليها حراسة مشدّدّة نزلوا من على صهوة الخيل في باحة القصر الأمامية، وكان في استقبالهم كبير ضبّاط مقام الإمام، الذي قادهم إلى القصر المبني على جناحين كبيرين كل منهما مكوّن من ثلاثة طوابق.

تمّ إجلاسهم في صالة الاستقبال، وبعد انتظارهم وقتاً وجدوه طويلاً نوعاً ما، جاء الشيخ صالح الحربي وزير الإمام، وبعد الترحيب بهم أدخلهم وقدَّمهم لمقام الإمام المهدي الذي كان جالساً على أريكة، وكان طاعناً في السن حيث بلغ الثمانية والسبعين عاماً، وكان برفقته أميران من أولاده، وبعض كبار الضبّاط ومجموعة من معاونيه.

وقد تقدّم رئيس الفريق دولاجرولودير، معرباً عن جلّ احترامه لمقام الإمام وكان قد جهز كلمة ليعبّر بها عن سعادة الفرنسيين بقدومهم للتعرف على الإمام وتقديم خدماتهم له، لكن الإمام قاطعة تحت وطأة الألم متسائلاً عن الطبيب الذي برفقتهم. وفي إشارة إلى الطبيب نهض الإمام وبمساعدة اثنين من مرافقيه وتوجه نحو النافذة وخلع عمامته وتحت الضوء النافذ أرى الطبيبَ الجرحَ في أُذنِهِ.

لاحظ الطبيب على الفور بأن الإمام يعاني من خِراج (صنفور)، وأنّه قد

استُخدِمت طريقة تقليدية خاطئة في علاجه تسببت في التهاب الأذن، وخلّفت آلاماً شديدة مصحوبة بحمى كانت تؤرق الإمام حتى في منامه. طمأن الطبيبُ الإمامَ بأنه سيشفى من الجراح، ودهن موضع الجرح بدهان لترطيبه وتطهيره من المواد العالقة التي استُخدِمت في علاجه، ومن ثم شفط منه الصديد بعناية، وكان الإمام يعاني من خِراج آخر في يده، وعالجه بنفس الطريقة.

عاد الإمام إلى مجلسه ورحب بضيوفه، وتبادل معهم عبارات المجاملة، وقُدّمت له الهدايا، وقد أبدى إعجابه الشديد بالمرآة، وتأمل نفسه فيها عدة مرات وناولها لمن معه في المجلس والذين قاموا بنفس الشيء.

أقام الفريق في قصر الإمام، وخُصصت لهم ثلاث شقق مفروشة بالسجاجيد وبها أرائك للجلوس وللنوم. واضبَ الطبيبُ الفرنسي بعناية في علاج الإمام وتنظيف الجرح وتطبيبه بالمهدئات، وما هي إلا أيام حتى خفَّ الألم وبدأ الإمام يستعيد عافيته ونشاطه وشهيته للأكل والنوم وفي وقت قياسي كان محل دهشة واستحسان الجميع.

حظي الفريق برعاية الإمام واهتمامه، وقد أعطى أوامر صارمة لحمل الضيوف على كفوف الرّاحة. ورغم أنّهم كانوا يأكلون من نفس الطعام الذي يقدّم للإمام، إلا أنّهم لم يتكيّفوا مع كمّ البهارات وبعض الوجبات. وقد وصفوا معظم الأكلات بأنها تتألف من لحوم الأبقار والخراف التي تقطع إلى قطع صغيرة تُطبخ مع الأرز والزبيب، وكذا من لحوم الدواجن والخبز المدوّر، ولا تقدم مع الأكل أية مشروبات غير الماء والقهوة، ولا يُقدّم نبيذ ولا غيره رغم وجود مزارع العنب التي تحيط بالمنطقة من كل جانب.

قضى الفريق الفرنسي فترة ثلاثة أسابيع كانت ضرورية لعلاج الإمام وللاطمئنان على صحته، وكانوا خلال هذه الفترة يخرجون من القصر للتنزّه في مدينة المواهب التي تحيط بها أسوار مبنيّة باللبِن. وفي محيط المدينة كانت توجد قرية مخصصة لليهود فقط، والذين كان يسمح لهم بالعمل في مدينة المواهب ولا يسمح لهم بالمبيت فيها. كانت حراسة الإمام ترافق أفراد الفريق عندما يذهبون

للنزهة على ظهور الخيل حول المدينة وفي الوديان المحيطة، وكانت الوديان تزرع الذرة والشعير، بينما تُزرع السهول والجبال بالبن والعنب والفواكه المختلفة.

وجد الفرنسيون قصر الإمام متواضعاً، ورغم مساحته الكبيرة إلا أنّه كان يوحي بالبساطة سواءٌ من حيث البناء الخارجي أو من حيث الديكور الداخلي والأثاث. وهذه البساطة تعكسها شخصية الإمام الذي كان يرتدي ملابس متواضعة خالية من البهرجة والزخارف رغم نفوذه وسلطانه على بلد كبير مثل اليمن.

تطرقت مذكرات الفرنسيين إلى حياة الإمام اليومية التي وصفوها بالرتيبة، فهو يصحو مع طلوع النهار، ويتناول إفطاره في الساعة التاسعة صباحاً ليعود لأخذ القيلولة في الساعة الحادية عشرة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، حيث تقرع الطبول، وتصدح آلة البوق (البورزان) إيذاناً باستعداد الإمام لاستقبال الأمراء وكبار الموظفين في مجلسه. ويتمتع البورزان وحده بمزيّة الدّخول على الإمام في أي وقت حتى وإن كان نائماً. وكل من يدخل على الإمام يلقي عليه التحية ويقبل يده اليمنى التي يضعها على ركبته بكل تبجيل واحترام. ويخصص الإمام جزءاً من وقته للنزهة ولزيارة الحريم ويتناول عشاءه عند الساعة الخامسة قبل المغرب، ويخلُد إلى النّوم عند الساعة الحادية عشرة مساءً[1].

لاحظ الفرنسيون أنَّ هذه البساطة تختفي مع خروج الإمام لأداء صلاة الجمعة، حيث يصطف ما يقارب الألف جندي من المشاة، في صفوف منتظمة، بينهما صفان يحملون أعلام المملكة، ويسير وراءهم ما يقارب المائتيْ فارس من الحرس الإماميّ على ظهور خيل جميلة ومسرّجة بعناية، وإلى جانب أسلحتهم المعتادة المتمثلة بالسيوف والبنادق يرتدون الجنابي.

---

(١) من المرجّح أنّ هذه المعلومات قد جانبها الصواب، فمعظم اليمنيين في ذلك الزمان إذا لم يكن جميعهم وخاصة القائمين على الأمر، كانوا يصحون مع أذان الفجر ويحرصون على أداء الصلوات في أوقاتها (الظهر والعصر)، وربما كان الإمام يخلو إلى نفسه أو إلى أهله ولا يلتقي بالناس بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية بعد الظهر لأنها وقت صلاة وتناول طعام الغداء، ومن غير المعقول أن يقضيها في النوم والقيلولة.

يتبعهم ضباط القصر وحاشيته ممتطين ظهور الخيل، وعلى مسافة خلفهم يسير الإمام على حصانه الأبيض الجميل وإلى جانبه ولدَاه الأميران على ظهور خيل رشيقة وجميلة، ويحمل أحد الضبَّاط مظلّة كبيرة لحماية الإمام من أشعةً الشمس[1]. وأمام الإمام مباشرة يحمل أحد الضبَّاط المصحف الكريم، مغشًّى بغطاء أحمر، وخلفه ضابط آخر يحمل سيف الإمام ذا المقبض والغمد المميّزين. ويسير الموكب على وقع الطبول ونغمات المزمار. وفي طريقه إلى الصلاة، يستعرض الإمام ما يقارب الخمسين خيلاً من خيوله الجميلة المزدانة التي يتم إحضارها من مدينة ذمار حيث يوجد الإسطبل الإماميّ، ومعها مجموعة مقاربة في العدد من الجمال الخاصة بالإمام وعلى رأسها تاج من ريش النعام الأسود، كل هذا في جو احتفالي مهيب. وبعد أداء فرض الصلاة وخطبة الجمعة يخرج الإمام من الخيمة المعَدّة له خِصّيصاً لأداء الصلاة والتي نُصبت في العراء[2]، ويتم إطلاق بعض الأعيرة الناريّة وسط هتاف وتعظيم الناس، ويعود الموكب بنفس الطريقة المهرجانية التي جاء بها، بحيث يتمكن الناس من رؤية الإمام وهو يتابع طريقه وتقبيل يده لمن أراد، وعند وصول الموكب إلى قصر المواهب يقوم الخيّالة بالتسابق واستعراض بعض مهارات الفروسية.

احتجاج العثمانيين:

خلال إقامة الفريق الفرنسي في قصر الإمام في مدينة المواهب، حضر مبعوث عثماني من القسطنطينية مرسلاً من قبل السلطان أحمد الثالث، والذي جاء عَبْرَ مِصرَ كمبعوث لمقابلة الإمام، وقد علّق الفرنسيون في مذكّراتهم بأن في ذلك دلالة على سيادة اليمن واستقلال الإمام. وكان في مظهر هذا المبعوث كثير من الهيلمان، وبصحبته مرافقون كثر، نزلوا جميعاً ضيوفاً على الإمام، وقد قدموا له

---

(١) تشير الكثير من المصادر التاريخية إلى أن الأئمة توارثوا تقليد السير تحت مظلة كبيرة كرمز للنفوذ والعظمة وليس فقط للاحتماء من الشمس.

(٢) يتساءل الفرنسيون في مذكراتهم عن السبب الذي جعل الإمام يُعرض عن بناء مسجد في قرية المواهب التي اتخذها مقراً لحكمه وشيد فيها القصور الإمامية، ولم يجدوا لذلك تفسيراً سوى كون الأمر إجراءً أمنيّاً احترازياً، فمدينة المواهب كانت مقر الحكم في سنوات الحرب وكان الإمام يخشى من هجمة مباغتة وهو في مكان مغلق كالمسجد.

هداياً متنوعة من بينها ساعة حائط ثمينة. ويقول الفرنسيون بأن الزيارة كانت في ظاهرها للمجاملة والحرص على التواصل بين السلطان والإمام، لكنها كانت تهدف في حقيقة الأمر لبحث أمور تتعلق بالتجارة، وخاصة للإعراب عن استياء الباب العالي من صعوبة الحصول على البُن وارتفاع ثمنه في مصرَ وفي جميع انحاء تركيا، واحتجاجه على السماح لسفن حربية أوروبية بالرسو على الشواطئ اليمنية وتحميل شحنات كبيرة من البُن وإضرار ذلك بالتجّار الأتراك وعائدات الجمارك، وحرمان تركيا ومصرَ من موردٍ اقتصادي هام. ورغم إلحاح المبعوث العثماني، إلا أنَّ الإمام لم ينزل عند رغبة العثمانيين، وظل العمل بالاتفاقية التجارية مستمراً.

التمرّد في تهامة:

وتروي المذكرات الفرنسية أيضاً بأنه وأثناء تواجد الفريق الفرنسي في ضيافة الإمام المهدي في منطقة المواهب، خرج عليه أحد المناوئين في منطقة تهامة (التي تقع في غرب اليمن) وتمرّد على حكم الإمام المهدي، الذي لم يتورع عن إرسال جيش قوامة ثلاثة آلاف جنديّ مِنْ خيرة جنوده والذين نجحوا في إخماد التمرد وقتل الكثير من المتمردين. وقد تم إبلاغ الإمام بالنصر بإحضار رؤوس خمسة أشخاص من المتمردين عُلقت في الساحة العامة لمنطقة المواهب، وتم الاحتفال بهذا النصر.

بعد أن شُفي الإمام تماماً، وقبل مغادرة الفرنسيين، سنحت لهم الفرصة لحضور مناسبة زواج الإمام المسن على فتاة لا يتجاوز عمرها ثمانية عشر ربيعاً، وتمت مراسم الزواج بشكل عادي، بعدها استقبل الإمام ضيوفه الفرنسيين لتوديعهم بحضور أبنائه الأمراء وكبار رجال المقام، وقد شكرهم وأطرى مهارة الطبيب الفرنسي، وشكروه بدورهم على كرم الضيافة وحسن الرعاية أثناء إقامتهم القصيرة، وقد قدم لهم الإمام بعض الهدايا والتي كانت عبارة عن ملابس يمنية فاخرة وأقمشة وأحصنة عربية رشيقة لهم ولقباطنة الحملة، وشحنة من بُنّه الخاص كهدية لملك فرنسا لويس الرابع عشر.

غادر الفريق الفرنسي المواهب كما أتى محاطاً بحراسة مشدّدة ومحمّلاً بكل مستلزمات الرحلة. لم يكن أفراد الفريق في عجلة من أمرهم للوصول بسرعة كما كان الحال في رحلة الذهاب، لذا فقد أخذوا وقتهم للتمتع بالمناظر، ووقتاً أكثر لمعرفة كل ما يتعلق بشجرة البُن، وقد استعانوا بالسكان المحليين وسجلوا معلومات دقيقة عن هذه الشجرة الساحرة، وفي ذات الوقت قام طبيب البعثة الآخر دي نوييه des Noyers، الذي ظلّ في المخا، وكان لديه اهتمام خاص بدراسة النباتات، بجمع كثير من المعلومات حول هذه الشجرة[1]. كما لاحظ الفريق غنى المناطق الجبلية بأنواع عديدة من أشجار الفواكه المثمرة كالمشمش والخوخ والرمان واللّوز والليمون والبرتقال والتين والسفرجل، وكذا التفاح، ولكن بكميات قليلة.

وصل الفريق مرفأ المخا في ٢٧ مارس ١٧١٢، وقدّم تقريراً تفصيلياً عن المهمّة للقباطنة، وقد كانت زيارة ناجحة بالنسبة لهم، جنوا ثمارها في الحال، وقد لاحظوا ذلك من خلال التسهيلات التي مُنحت لهم واهتمام حاكم المخا الشخصي، زد على ذلك إلغاء رسوم إضافية كان حاكم بيت الفقيه قد طالبهم بها.

مغادرة المخا:

قبلَ المغادرة، رصد البحارة الفرنسيون مشاهد شدت انتباههم كثيراً وأوردوها في مذكراتهم؛ ومنها حالة قصاص تمت حسب الأعراف والتقاليد التهاميّة آنذاك[2]، حيث روي أن أحد سكان مدينة المخا قتل شخصاً بعد شجار نشب بينهما، وقد حُكمَ عليه بالإعدام، وسيقَ إلى أحد أبواب المدينة، وتقدم منه وليّ الدّم الأقرب للمجني عليه، وأقام عليه حد القصاص بنفسه، وذلك بطعنه في بطنه،

---

(١) لأهمية هذه المعلومات التي كانت جديدة بالنسبة للمجتمع الفرنسي، فقد جمعت ونشرت في فصل خاص من مذكرات دولاميرفاي، كُرّس لهذه الشجرة.

(٢) أكد المستشرق الدنماركي نيبهور الذي زار اليمن في عام ١٧٦٢ وكتب عن العادات والتقاليد اليمنية في ذلك الحين، هذا النمط من التقليد في المناطق التهاميّة في اليمن: «في تهامة وخلافاً لما هو متعارف عليه في المناطق الشمالية، كان أولياء الدّم يخيّرون بين التنازل عن الدم والمسامحة أمام القاضي الشرعي، أو بتسليم الجاني لهم ليقتصوا منه بأنفسهم».

ثم قطع رأسه في لمح البصّر، وتمت عملية القصاص هذه تحت حماية حرس حاكم المخا الذين حضروا لتأمين القصاص.

غادرت السفن الفرنسية مرفأ المخا في ١٠ يوليو ١٧١٢، ووصلت أولى هذه السفن إلى ميناء سان مالو في ١١ يونيو من عام ١٧١٣، وقد حقّقت الشركة أرباحاً كبيرة من جراء بيع شحنة البُن للهولنديين بمبلغ أربعة مليون جنية إسترليني.

الباب الثالث

العُدوان الفرنسي على المخا

العُدوان الفرنسي على المخا[1]

طموحات استعمارية:

أسّس جان باتيست كولبر، Jean-Baptiste Colbert (١٦١٩-١٦٨٣)، وزير مالية لويس الرابع عشر Louis XIV، شركة الهند الشرقية الفرنسية، عام ١٦٦٤، بهدف منافسة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية. وحظيت هذه الشركة بامتيازات كبيرة أهمها الإعفاء الضريبي، وحق حصري في التجارة مع شرق الكرة الأرضية، كما مُنحت صلاحية إعلان الحروب وتوقيع الاتفاقيات.

كانت شركة الهند الشرقية الفرنسية تطمح في استغلال طرق التجارة القديمة عبر الشام والخليج العربي، وعبر مصر والبحر الأحمر، وإقامة مراكز تجارية تابعة لها في المدن والمواقع الاستراتيجية الهامة.

بعد أن غدت شركة الهند الشرقية الفرنسية قوة اقتصادية وحربية لا يستهان بها، فقد حاولت استغلال الامتيازات التي تضمنتها بنود الاتفاقية الموقّعة مع اليمن والتي سبق الإشارة إليها، والتي وقّعها دولاميرفاي De la Merveille، في الـ ١٦ من شهر يناير عام ١٧٠٩ باسم ملك فرنسا لويس الرابع عشر، مع حاكم ميناء المخا صالح الحربي، نيابة عن الإمام المهدي لدين الله، والتي تنظم عملية بيع وشراء البُن وغيره من السلع والشروط التي يجب التقيّد بها.

وبين عامي ١٧١٥ و ١٧٤٠ تنامت قدرات شركة الهند الشرقية الفرنسية، وأصبحت تمثل قوة اقتصادية وعسكريّة مهيبة الجانب، وصارت تملك أسطولاً حربياً قادراً على التدخل للدفاع عن مصالحها في طول المحيط الهندي وعرضه، ساعدها على ذلك المناخ الدولي والإقليمي وفترة السلم التي أعقبت التوقيع على

---

(١) عرضٌ وترجمة بتصرّف لما جاء في يوميات قائد الأسطول الحربي الفرنسي دولاجارد جازيبه والتي نُشرت عام ١٧٣٩، ونجدها في المرجع التالي:

Relation de l'expédition de Moka en l'année 1737, sous les ordres de M. de La Garde-Jazier, de Saint -Malo. [Par l'abbé P.-F. Guyot Des fontaines.], éd. Chaubert, Paris, 1739.

معاهدات اوترخت [1] Utrecht، وراشتات [2] Rastadt، وبادن [3] Baden. إضافة إلى الرغبة الفرنسية الجامحة في خلق توازن دولي جديد بعد أن وضعت معاهدة اوترخت حداً لهيمنتها على القارة الأوروبية.

الخلاف حول تفسير بنود الاتفاقية:

استمرت شركة الهند الشرقية الفرنسية في استغلال الامتيازات الخاصة التي مُنحت للفرنسيين بموجب الاتفاقية الموقعة مع حكومة اليمن في عام ١٧٠٩، وأصبح لها وجود فعلي دائم من خلال الوكالة التي أنشأتها في المخا، وكان هناك تبادل تجاري مثمر. في السنوات الأخيرة التي سبقت إعلان الحرب على ميناء المخا في عام ١٧٣٦، نشب خلاف بين الحكومة اليمنية وشركة الهند الشرقية الفرنسية حول تفسير بعض بنود الاتفاقية، خاصة فيما يتعلق بالبند الخاص بالرسوم الجمركية التي كان يدفعها الفرنسيون بنسبة ٢.٢٥٪ [4] على ما يتم بيعه من سلع. وكان الخلاف يكمن حول مصدر السلع، فقد اعتبر حاكم المخا الفقيه أحمد بن يحيى الخزندار، بأن هذا الامتياز يخص السلع المستورَدة مباشرة من فرنسا

---

(١) معاهدة اوترخت للسلام تعد نقطة فاصلة في تاريخ فرنسا، ووقعت في ١١ أبريل ١٧١٣ بين مملكة فرنسا وبريطانيا العظمى، وبين بريطانيا العظمى وإسبانيا في ١٣ يوليو ١٧١٣، ووضعت حداً لحرب الخلافة الإسبانية التي دامت أكثر من عقد من الزمن، واندلعت بعد موت الملك الإسباني كارلوس الثاني عام ١٧٠١، وكان آخر ملوك سلالة هابسبرغ، وقد ورّث الحكم لفيليب دوق أنجو، وهو حفيد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر. وقد أثار هذا التوريث حفيظة إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وادّعى بأحقيته بعرش إسبانيا، وتحالفت معه كل من إنجلترا وهولندا والبرتغال سعياً للحد من نفوذ لويس الرابع عشر في أوروبا. [موسوعة وكيبيديا]

(٢) وقعت معاهدة راشتات للسلام في ٦ مارس ١٧١٤ بين مملكة فرنسا وبين النمسا لإنهاء حرب الخلافة الإسبانية.

(٣) معاهدة بادن وقعت في عام ١٧١٤ بين لويس الرابع عشر ملك فرنسا وبين الإمبراطور شارل السادس، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لوضع نهاية لحرب الخلافة الإسبانية. [موسوعة وكيبيديا]

(٤) إذا ما عدنا إلى بنود الاتفاقية الموقعة بين الجانبين، سنجد أن نسبة الرسوم الجمركية المطبقة كانت ٣٪، حصل الفرنسيون على تخفيض خاص ٢.٢٥٪ لأول سنة فقط، لكن وعلى ما يبدو أن هذا الامتياز ظل ساري المفعول كما أوضحته الوثائق اللاحقة وخاصة التي تتحدث عن الخلاف حول تفسير الاتفاقية.

فقط، بينما أصرت شركة الهند الشرقية الفرنسية على أن البند يخص كافة السلع التي يتم جلبها من فرنسا ومن كافة المستعمرات الفرنسية. ويلمح الفرنسيون في بعض الوثائق بأن الإنجليز كانوا وراء هذه المؤامرة لمحاولة إلغاء اتفاقية ١٧٠٩ بين فرنسا واليمن، ووضعِ حدٍّ للنفوذ الفرنسي المتنامي في ميناء المخا والبحر الأحمر.(١)

خيار اللجوء إلى القوة:

علاوة على الخسارة المادية الفادحة، شعرت شركة الهند الشرقية الفرنسية بالمهانة جراء إصرار حاكم المخا على موقفه من تفسير بنود الاتفاقية. وتذكر الوثائق أنَّ الفرنسيين كانوا يعانون من المضايقات والابتزاز في الميناء، كان آخرها أخذ ما يقارب (١٠٠٠٠٠ قرش فضي- بسيطة) علاوة على الرسوم المقرة دون وجه حق.

أمام هذا الوضع، وبعد أخذ الإذن من ملك فرنسا لويس الخامس عشر Louis XV، عزمت الشركة على اللجوء إلى استخدام القوة والقيام بعمل عسكري لإعادة الأمور إلى نصابها. وكانت الشركة تدرك أنّ خيار القوة مكلف جداً، فتدمير ميناء

---

(١) ذكرت كلودي فاين في كتابها (Yemen) في إطار حديثها عن ميناء المخا (ص٤٠):

«لم يتبق في المخا سوى بضع مئات من المنازل الفقيرة، وأما ما تبقى من أطلال فإن خرابها كان ناجماً عن مرور الزّمن، وليس عن ضربات المدافع الفرنسية، عندما اندلعت حربٌ بين فرنسا واليمن في عام ١٧٣٧. فقد اعتاد حاكم المخا أخذ قروض من المستوردين الأجانب، قروض يفترض ان تستعاد عن طريق خصمها من رسوم الجمارك في الشحنات المقبلة، لكنه لم يكن يسددها البتة. وقد لجأت سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية الفرنسية إلى إطلاق قذائف مدفعية على المخا كي تستعيد أموالها، وقد تمت العملية بنجاح، دون ترك كثير من الآثار السيئة.»

- تشير بعض الطروحات التاريخية (Le grand dictionnaire historique- p.599)، إلى أن ابن حاكم المخا السابق صالح الحربي، وأمين بيت المال، كانا يفرضان رسوماً إضافية على السفن الأجنبية لحسابهما الخاص.

- Relation de l'expédition de Moka en l'année 1737, sous les ordres de M. de La Garde-Jazier, de Saint -Malo. [Par l'abbé P.-F. Guyot Desfontaines.], éd. Chaubert, Paris, 1739.

- Le grand dictionnaire historique, ou le mélange curieux de l'histoire sacrée et profane. Volume 7.

المخا وخلق عداوة مع الشعب اليمني والشعوب العربية لا يخدم المصالح الفرنسية ونشاط الشركة السياسي والتجاري في المنطقة. وفي نفس الوقت كانت الشركة ترى بأنه من غير الممكن بقاء الحال على ما هو عليه والسماح لحاكم المخا بتفسير بنود الاتفاقية وفق هواه وبما يضر بمصالحها.

أجرى المجلس الاستشاري لشركة الهند الشرقية الفرنسية في مدينة بونديشيري Pondichéry مشاورات طويلة بغية التصرف بحكمة وحذر وبما يراعي كافة المصالح ؛ لإدراكه بأن اللجوء إلى استخدام القوة مع شعب كريم ذي عزة ومنعة عمليةٌ محفوفةٌ بالمخاطر، ووعيه بما سيكون للإخفاق من نتائج وخيمة، فإلى جانب خيبة الهزيمة ستخسر الشركة مورداً هاماً من مواردها، ولن تجنى سوى مزيد من كراهية الشعوب العربية. وفي النّهاية، استقرّ رأي المجلس على تجهيز سفن حربية وشن حملة عسكرية على ميناء المخا لتحقيق الأهداف التالية:

- دخول قوات حربية فرنسية إلى ميناء المخا، للاستعراض والترهيب، لإعادة الاعتبار للشركة.

- إرغام الحكومة اليمنية على إصلاح ما أفسدته السنون وعودة الأمور إلى نصابها.

- فرض واقع جديد - وبقوة السلاح إن لزم الأمر- لتعويض الأضرار التي لحقت بالشركة في الماضي، وتوقيع معاهدة جديدة تحافظ على نفس الامتيازات وتزيد.

- تحاشي إحداث دمار شامل للمدينة.

- اختيار قائد حكيم مقتدر على إجراء مفاوضات سياسية، والقيام بعمليات عسكرية، يتسم بصفات سفراء الحرب.

«دولاجارد- جازبيه» وخطة الهجوم:

وقع اختيار المجلس الاستشاري لشركة الهند الشرقية الفرنسية على القبطان

دولاجارد-جازييه De la Garde-Jazier، كقائد للحملة العسكرية المتوجهة إلى ميناء المخا بتكليف من ملك فرنسا ومن شركة الهند الشرقية الفرنسية، وتم تزويده بتعليمات تفصيلية عن خطة الهجوم، وتُرك له هامش من الحرية للتصرف حسب ما تقتضيه الظروف. وتلخصت خطة الهجوم التي زُود بها قائد الأسطول الفرنسي فيما يلي:

- حالما يصل الأسطول الحربي الفرنسي إلى شواطئ ميناء المخا، متأهباً للمعركة، يتم تسليم رسائل مكتوبة من المجلس الأعلى للشركة موجهة للإمام ولقاضي المخا.

- دون انتظار للرد، يجب أخذ المبادرة والهجوم على المدينة والاستيلاء على أحد حصونها المنيعة، وخاصة القلعة الشمالية، وبما يوحي لحاكم المخا أنَّ المدينة ستتعرض للهجوم والتدمير إذا لم تتم الاستجابة للمطالب وتعويض خسائر الشركة.

- قبل البدء بأية مفاوضات يتم إجبار حكومة المخا على توفير الماء والغذاء للحملة.

- أخذ رهائن من ضمن شخصيات مهمة يتناسب مقامها وحجم الحدث.

التجهيزات الحربية:

ما إن حصل دولاجارد-جازية، على كافة المعلومات والتعليمات، حتى شرع في وضع أسطوله على أهبة الاستعداد. وكانت مهمة صعبة ؛ حيث كان ينبغي ألّا يتجاوز الأسطول الحربي أربع سفن حربية، على متنها قوة صغيرة لمعاقبة أمة كبيرة ومهاجمة مدينة منيعة وجيدة التحصين وبها حامية عسكرية، يمكنها الحصول على الدعم والإمداد بسهولة من مناطق غير بعيدة. لكن المجلس الأعلى للشركة انطلق من فكرة الاعتقاد السائد بأن النجاح في أي مهمة عسكرية يعتمد أولاً على حنكة القائد. وعلاوة على ذلك كان المجلس الأعلى للشركة وقائد الأسطول على علم بأن الظروف المناخيّة في الوقت الذي من المقرر أن تصل فيه السفن الحربية

في شهري يناير وفبراير في غير صالح الحملة ؛ فالرياح الجنوبية العاتية تجعل البحر غير صالح للملاحة. لكن قائد الأسطول كان مقتنعاً بأنه كي ينتصر في مهمته على البر كان لا بد له من الانتصار والتغلب أولاً على الأمواج في البحر.

تجدر الإشارة إلى أن المجلس الأعلى لشركة الهند الشرقية الفرنسية كان مؤمناً بنجاح المهمة، لذا قرر تحميل السفن بسلع تجارية بحيث تحقق الحملة انتصاراً حربياً ومردوداً تجارياً، ولكي يتم استغلال المعاهدة المزمع إبرامها بعد توقيعها مباشرة وتثبيتها على وجه السرعة، وتنفيذ بنودها على السلع المجلوبة. حاول قائد الحملة الاعتراض على عقد صفقة تجارية مع حكومة المخا في ذلك العام، وتخصيص السفن للمجهود الحربي وحده، بدلاً من إثقالها بحمولة تجارية. كان رد المجلس عليه بأن في ذلك إضْراراً بمصالح عدد كبير من تجار بونديشيري. لم يكن لقائد الحملة خَيار سوى تنفيذ أوامر المجلس الأعلى للشركة بحذافيرها.

تم تجهيز الأسطول من أربع سفن حربية: لو سان-بيير Le Saint-Pierre، لو هيرون Le Héron، لوكنت دو موربا Le Compte de Maurepas، لانديان L'Indien، وبلغ قوام قوته الحربية (٢٩٠) جندياً و(٤٠) بحّاراً. تم تقسيم الجنود إلى ثلاث سرايا كل منها مكوّنة من (٩٤) فرداً تم توزيعهم على السفن الأربع.

انطلق الأسطول الحربي من مدينة بونديشيري Pondichéry، في ٢٢ أكتوبر من عام ١٧٣٦، وتوقف في ميناء جاوا لتحميل شحنة البضائع التي كانت شركة الهند الشرقية الفرنسية تزمع بيعها في اليمن.

وصل الأسطول الحربي إلى جزيرة سوقطرة في ٢٧ نوفمبر ١٧٣٦، وتوقف فيها للتزود بالماء والغذاء، لكنّ الجفاف في ذلك الحين كان قد تسبب في هلاك معظم الماشية، ولم يحصل الفرنسيون سوى على كميات قليلة من الغذاء، لكن الماء كان عذباً وسائغا ومتوفراً بكثرة، فحملوا معهم كميات كبيرة منه ؛ لأن ماء المخا كان يضر بالأجانب ويسبب لهم الإصابة بأمراض فتّاكة حسب الاعتقاد السائد في ذلك الوقت.

قبلَ مغادرة السفن الحربية جزيرة سوقطرة[1] في ٩ يناير ١٧٣٧ قام دولاجارد جازييه بإعادة ترتيب حملته بل والقيام بسلسلة من التدريبات الحربية التي دامت عدة أيام ؛ بغية التأكد من الجاهزية الحربية للمقاتلين والسرعة في المباغتة والهجوم. كما قام بإعادة توزيع الجنود على السفن الحربية، وتحاشياً للفوضى فقد أمر بصعود معظمهم على متن سفينتين، ولم يُبقِ سوى على عدد قليل في السفن الأخرى، على أن يكونوا على أهبة الإستعداد للحاق بزملائهم عند أول أشارة.

وضع مخططاً لتوزيع السفن الحربية والقوارب المصاحبة ؛ حيث كان يُحبّذ النزول بأكبر عدد ممكن من القوارب الصغيرة لإبهار وتشتيت انتباه الحامية العسكرية لميناء المخا.

توجه الأسطول الحربي نحو باب المندب، وهناك أرسل دولاجارد جازييه سفينة لوسان بيير Le Saint Pierre إلى المخا في مهمة استكشافية، ولإبلاغ القائم بأعمال الوكالة السيد / ماوشل Sieur Mouchel، والقسيس الفرنسي بالخروج من المدينة.

---

(١) أشار كاتب يوميّات الرحلة بيير فرانسوا جويو دي فانتن Pierre Français Guyot Desfontaines إلى أن هناك مسيحيين يعيشون في جزيرة سوقطره، لكنّهم يجهلون كثيراً عن ديانتهم، وأرجع سبب جهلهم إلى المبشرين الذين لم يعلموهم سوى قشور الديانة المسيحية. وقال بأنهم يخضعون لطاعة العرب الذين يسيطرون على الشواطئ ويقومون بالأعمال التجارية ويقايضون المواشي والبخور والشب بالأقمشة والأرز.

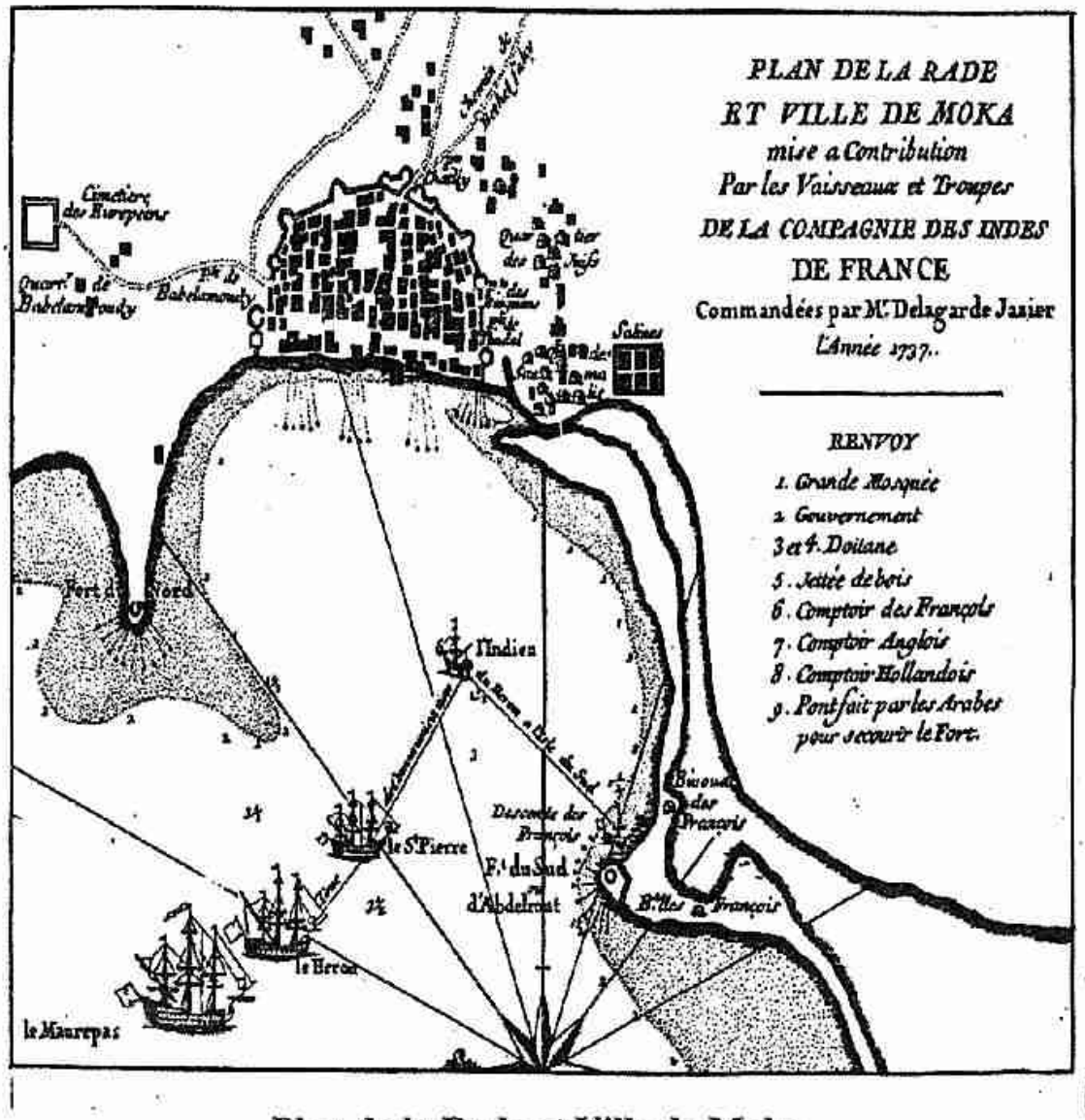

Plan de la Rade et Ville de Moka

خريطة مرفأ ومدينة المخا

Plan de la Rade et Ville de Moka

Mise à contribution par les Vaisseaux et Troupes de la Compagnie des Indes de France

Commandées par M. De lagardeJazier

L'Année 1737

خريطة مرفأ ومدينة المخا

وضعت للإستخدام من قبل السفن والقوات التابعة لشركة الهند الفرنسية

بقيادة القبطان دو لاجارد جازيبه

عام ١٧٣٧

١. المسجد الكبير – ٢. مبنى الحكومة – ٣، ٤. مبنى الجمارك – ٥. رصيف الأخشاب – ٦. الوكالة الفرنسية – ٧. الوكالة الإنجليزية – ٨. الوكالة الهولندية – ٩. جسر بناه العرب لنجدة القلعة.

- Cimetière des Européens (مقبرة الأوروبيين)

– Quart.r de Babelamoudy(حي باب العمودي)

-P.te de Babelamoudy (باب العمودي)

- Chemin de Betalfaky(طريق بيت الفقيه)

- P.te Chadly (باب الشاذلي)

- P.te des Baignans(باب الهنود–البانيان)

- P.te de Sandal (باب صندل)

- Fort du Nord (القلعة الشمالية)

- Le Maurepas (موقع سفينة لوموربا)

-Le Heron (موقع سفينة لو هيرون)

- Le St.Pierre(موقع سفينة لو سان– بيير)

- L'Indien (موقع سفينة لانديان)

-Fort du Sud ou d'Abdelrout(القلعة الجنوبية أو قلعة عبد الرب)

- Quartier des juifs (حي اليهود)

- Quartier des Saumalis(حي الصوماليين)

–Salines (أحواض ملحيّة)

- Descente des Français (موقع نزول الفرنسيين على اليابسة)

- B.se des Français (موقع تحصّن الفرنسيين)

- B.se Sud des Français (موقع الحراسة الجنوبي للفرنسيين).

اندلاع المعارك:

وصلت السفن الحربية الفرنسية إلى شواطئ المخا في ٢٥ يناير ١٧٣٧، وتموضعت كل سفينة في المكان المخصص لها حسب الخطة بحيث تغلق كل الطرق البحرية المؤدية إلى الميناء، وتكون المدينة وكافة الحصون على مرمى المدافع الفرنسية.

ما إن علم حاكم المخا بوصول عدة سفن إلى مرسى الميناء، حتى سارع بإرسال القوارب المحمّلة بالمرطّبات حسب العرف آنذاك، ولم يتورع دولاجارد جازييه عن احتجاز القوارب ومن عليها. وبعد أن تكشّفت النوايا التي يبيتها الفرنسيون، سارع حاكم المخا بنشر قواته في مختلف انمواقع، وأرسل تعزيزات إلى القلعتين الشمالية والجنوبية، كما قام بمنع السيد ماوتشل والقسيس الفرنسي، وجميع الفرنسيين من المغادرة، وأرسل بطلب تعزيزات لمواجهة الخطر المُحدِق بالميناء.

حاول دولاجارد-جازييه استغلال عنصر المباغتة والهجوم بهدف السيطرة على القلعة الشمالية، التي ستمهد لنجاح المهمة وتحقق الأهداف حسب الخطة المعتمدة، ولكن قوة الرياح العاصفة العرضية منعته من تحقيق بغيته وجاءت بما لا تشتهي السفن.

بينما كان الوضع سيئاً بالنسبة للفرنسيين، تسلّم دولاجارد جازييه رسالة من أمين بيت المال «الحاج هاشم»، الذي كان يحظى بثقة حاكم المخا الشاب «الفقيه عبد الله» ابن «الفقيه أحمد» حاكم المخا الأسبق، الذي انتقل للعمل إلى جانب الإمام في صنعاء منذ فترة ليست بالبعيدة. وكانت تصرفات الفقيه أحمد والحاج هاشم المستفزّة تمثل السبب الرئيسي وراء تبني شركة الهند الشرقية الفرنسية خيار الحرب، حسب الوثائق الفرنسية.

حمّل أمينُ بيت المال كاتبَ الفرنسيين والمترجمَ المعتمد لديهم «عبد الباسط» بالرسالة التالية:

«إلى قائد الأسطول البحري الفرنسي المحترم حفظه الله،

لقد تفاجأنا بقدومكم إلى ميناء المخا، يوم أمس، وحتى اللحظة لم يصلنا أي

خبر مِن قِبلكم، وقد أرسل لكم الحاكم قوارب تحمل ضيافة الوصول المعتادة، فقمتم باحتجاز القوارب وبما لم نتوقعه منكم. كان عليكم إطلاعنا على نواياكم، ولهذا بعثنا لكم المترجم (عبد الباسط)، فابعثوا لنا شخصاً من طرفكم أو ابعثوا برسالة مع عبد الباسط تتضمن طلباتكم، وفي انتظار ذلك، عليكم بإطلاق القوارب. تحياتي.»

وقد ردَّ عليه قائد الحملة الفرنسية دولاجارد جازييه بما يلي:

« لقد تسلّمنا رسالتكم عبر عبد الباسط الذي ترجمها لنا، ولدينا أسباب قوية تمنعنا من التخاطب مع حكومة المخا، وستطّلعون دون شك من خلال الرسائل الموجهة للإمام ولقاضي المخا، على الغاية من مجيئنا. أما بالنسبة للقوارب فقد احتجزناها، وهي وطواقمها في أمان ولن يعوزهم شيء. كتبنا للسيد موشل للحضور إلينا ومعه القسيس الفرنسي، وقد تم منعهما من المغادرة، عليكم السماح لهما إذا رغبا بالمجيء وألّا تتعرضوا لهما بمكروه، وإلّا ستتحملون العواقب. سوف أتحفّظ على عبد الباسط كي يترجم لنا الرسائل، ويكتب الردود عليها. تحياتي»

يروي دولاجارد جازييه في مذكراته بأنه لم يحتجز عبد الباسط لترجمة الرسائل فقط، بل لاستجوابه عن الأوضاع وجاهزية القوات في المخا، حيث أطلعه هذا الأخير على أن المدينة تعيش حالة من الفوضى والفزع، مما زاد من حسرة القائد الفرنسي لكونه لم يتمكن من استغلال هذا الوضع لتحقيق تقدم على الأرض، فالرياح الجنوبية كانت عاتية وكانت تقف حائلاً أمام تقدم السفن، لدرجة اضطراره إلى رفع الرايات البيضاء في الـ ٢٨ من يناير، انتظاراً للفرصة المواتية.

وفي ذات اليوم تسلّم دولاجارد جازييه رسالة ثانية من أمين بيت المال جاء فيها ما يلي:

« فهمنا من رسالتكم الأخيرة بأنكم لن توافونا بالرسالة الموجهة للإمام، إلا عندما يصلكم السيد موشل، وهذا يعتبر رداً غير إيجابي وطريقة غير صائبة تزيد من تعقيد القضايا ولا تحلحلها. ولا يمكن لحكومة المخا أن ترسل إليكم السيد

موشل الذي يعيش هانئاً في منزله، ولم يحدث له أيُّ مكروه، والحكومة لا تطالبه بأية مبالغ وكذا الوسطاء التجاريون الهنود. وأما ما يتعلق بالممتلكات الفرنسية، فإنني ملزم على ما أظن بإطلاعكم ونصحكم في كل ما هو في صالح الوكالة الفرنسية[1]. بانتظار ردكم على هذه الرسالة، وبالنسبة لنا فلن نتصرف إلا بما تمليه علينا علاقة الصداقة. تحياتي»

وقد ردَّ عليه قائد الأسطول الفرنسي بما يلي:

« رداً على رسالتكم الأخيرة، أكرر لكم بأننا لن نكشف لكم عن نوايانا، إلّا بعد إخلاء سبيل المسيو موشل، والقسيس الفرنسي إنْ رغبا، وأنا لا أستعلم عن حالتهما لأنكم لو مستموهما بأذى فلن تبلغونا بذلك، بل إن استمراركم في التحفظ عليهما ومنعهما من الكتابة إلينا، يزيد من قناعتنا بذلك. إذا تعاظمت المسألة فأنتم سبب ذلك. لذا أنصحكم بالسماح لرعايانا بالانضمام إلينا، وهذه هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم معنا. وإبداءً لحسن النية من طرفنا، سنطلق قارباً حتى لا نتسبب في خسارة للأشخاص الذين يمتلكونه. تحياتي.»

وتشير المذكرات إلى أن دولاجارد جازيبه لم يقدّم أيّ تنازلٍ عندما سمح بعودة القارب المذكور، الذي كان قد تعرض لأضرار بالغة بسبب العواصف لم يعد معها صالحاً للخدمة، مدركاً بأن هذه اللفتة المجانية ستترك أثراً إيجابيا لدى أهالي المخا وتكسبه وقتاً إضافيا للتفاوض حتى تهدأ العواصف.

كان في استمرار الوضع على ما هو عليه، إرهاق للقوات الفرنسية المرابطة، ويخدم حاكم المخا وبما يمكّنه من الحصول على تعزيزات وإمداد من المناطق الأخرى، إضافة إلى القيام بمزيد من التحصينات. كان هذا الأمر يشكل مصدر قلق للقائد الفرنسي، وزادت حمولة البضائع التّجارية الطين بلّةً ومنعته من سهولة الحركة في ظل هيجان البحر.

---

(١) تذكر الوثائق الفرنسية أن أمين بيت المال الحاج هاشم كان يعمل قبل العدوان على المخا كوسيط تجاري لحساب شركة الهند الشرقية الفرنسية مقابل أجر مجز قبل أن يتم الاستغناء عن خدماته مما أثار حفيظته لكونه خسر أموالا طائلة كان يجنيها من وراء هذا العمل.

ما إنْ شعر دولاجارد جازييه بتحسنٍ نسبيٍّ للجو، حتى أعطى أوامره لقاربين حربيين بمهاجمة بعض القوارب المتواجدة على الشاطئ، وتمكن من الاستحواذ على قاربين يحملان أعلام [مملكة مسقط]، وقارب برتغالي، وقد برر القائد الفرنسي خطوته هذه بحرمان حكومة المخا من الاستعانة بهذه القوارب في المعركة، وكذلك لتفادي جمع معلومات عن القوات الفرنسية.

لم يكن تَحسُّن الجو كافياً لشن هجوم والسيطرة على القلعة الشمالية حسب الخطة المعتمدة. وكسباً للوقت، قام القائد الفرنسي بجمع مستشاريه لتبادل الآراء، وقد اقترح عليه الضباط ذوو الخبرة بالمنطقة وسواحلها بأن يتم الإنزال البري على بعد كيلومترين من القلعة الشمالية كي يتم مهاجمتها عند الفجر، وخرج الاجتماع بإقرار هذا المقترح والمبادرة بإرسال الرسائل الموجهة من شركة الهند الشرقية الفرنسية للإمام ولقاضي المخا[1].

بعث دولاجارد جازييه بالرسالتين الموجهتين للإمام ولقاضي المخا، للحاج هاشم أمين بيت المال لإيصالهما إلى وجهتيهما[2]، وأرفق بهما الرسالة التالية:

« سوف تطّلع على الأمر الذي جاء بنا إلى المخا، من خلال الرسالتين الموجهتين للقاضي وللإمام شخصياً في صنعاء، وعليكم الحرص على إيصال الرسالتين إلى وجهتيهما دون تأخير، ونحمّلكم والقاضي وكافة المسؤولين في حكومة المخا مسؤولية ذلك.»

---

(١) وبحسب الوثائق الفرنسية، كان المجلس الأعلى لشركة الهند الشرقية حريصاً على تجنيب الأهالي مآسي الحرب، لذا وجّه برسالة للقاضي لتحذيره والاعتماد عليه في تنبيه الأهالي للاحتماء في أماكن آمنة إذا ما اندلعت المعارك.

(٢) هذا الموقف يثير الاستغراب وعلامة استفهام كبيرة، فكيف يتم ارسال هاتين الرسالتين عبر الحاج هاشم أمين بيت المال، وهو المتهم من قبل شركة الهند الشرقية الفرنسية بأنه وحاكم المخا السابق الفقيه احمد عبد الله، من دفعا الشركة لتبني خيار الحرب بسبب تصرفاتهما. خاصة وأنهم شككوا فيما بعد بأن الحاج هاشم لم يقم بإيصال الرسالة إلى الإمام، بل أنه قام بفتحها واطلع على ما فيها من اتهام مباشر له ، ومن ثم اخفاها وبان القاضي قد أكد لهم فيما بعد بان الرسالة لم تصل إلى يد الإمام.

أعطى دولاجارد جازييه أوامره بحمل السلاح والاستعداد للهجوم، وبدأ المقاتلون بإنزال القوارب المعدة للهجوم، وما إن أبحروا تجاه الشاطئ، حتى هاج البحر وبشكل مفاجئ كان يصعب معه المضيّ قدماً، فخشيَ القائد الفرنسي من العواقب، وأمر جنوده بالتراجع، وعادت القوارب وصعد الجنود على متن السفن، وتخلف عنهم قارب واحد لم يستطع اللحاق بسفينه لو هيرون Le Héron، وظلَّ الجنود على متنه يصارعون الموت طوال الليل. وما إن هدأت العاصفة قليلاً حتى سُمع دوي قذائف مدفعية من جهة المرسَى، تكرر إطلاق القذائف، وكان مصدرها سفينة لو سان بيير Le Saint Pierre، في إشارة تستنجد فيها بأنها في وضع خطير بسبب العاصفة. أمر القائد بتوجه قوارب بمعية سفينة لوهيرون لتقديم الإغاثة للسفينة، وبسبب هيجان البحر لم يتمكن فريق الإغاثة من الوصول سوى عند ساعات الصباح الأولى. وقد وجدوها عالقة بالقاع وتم سحبها وإصلاح الأضرار التي تعرضت لها.

أمام هذا الوضع الصعب والأحداث المتعاقبة، ازدادت مخاوف القائد الفرنسي، وبدأ يفقد أمله في تحقيق نصر مؤزّر، خاصة وأن القادم كان أصعب، وكان في حكم المجهول، ولم يعد معه من خيار سوى الأخذ بزمام المغامرة والإنزال على اليابسة كي يتحاشى فقدان التواصل بين سفنه وتعرُّض جنوده للجوع والعطش والموت تحت سطوة ذلك الطقس المريع. وبينما كان فريسة للحيرة والعجز عن اتخاذ القرار الصائب والحازم وصلته رسالة من الحاج هاشم أمين بيت المال وأخرى من قاضي المخا.

وقد جاء في رسالة الحاج هاشم أمين بيت المال ما يلي:

« إلى القائد الفرنسي،

وصلتني رسالة الأمس ومرفق بها الرسالتان الموجهتان للإمام والقاضي، وتكشّف لنا من خلالهما الغاية من حَمْلَتِكُم هذه. لقد بعثنا بالرسالة الموجهة للإمام وزكّينا طلباتكم. نرجو منكم التمهُّل حتى يصل الردّ على رسالتكم، ويمكن التوافق على كلّ شيء. كما يرجى إطلاق سراح أصحاب القوارب الذين لا ذنب لهم. وأنت شخص لا تنقصه الفطنة والحكمة حسب تقديري وتقدير القاضي.

وإن كنتم في حاجة لأي شيء أبلغونا وسوف نوفره لكم. المسيو موشل قلق لأنه لم يتلق رداً مِنْ قِبَلكم. مرفق لكم بهذا رسالة من القاضي. تحياتنا.»

وجاء في رسالة القاضي ما يلي:

« تسلمتُ رسالتكم وكذا الرسالة التي بعثتموها للإمام والتي عملنا على إرسالها في الحال[1]، سوف تنالون كل ما تطلبونه، وكل شيء يمكن التوافق عليه. إنكم وبفضلٍ من الله أناس عقلاء، ولكوني وسيطاً في هذا القضية، آملُ منكم عدم القيام بأي عمل عدواني، والقيام بإطلاق سراح القوارب المحتجزة، وتعليق أمر الهجوم حتى يستجاب لطلباتكم. ندعو الله بأن لا يحصل إلا كل خير من قبلكم وسوف نطالب الإمام بالاستجابة لمطالبكم. كما نأمل عدم التعرض للقوارب وكونوا عند حسن الظن، وسيكون كل شيء على ما يرام إذا شاء الله. تحياتنا.»

رغم الوضع الحرج الذي كان يعاني منه القائد الفرنسي بسبب الظروف المناخية القاهرة، إلا أنّ اللّهجة الانهزامية المستوحاة من هاتين الرسالتين، دفعت القائد الفرنسي إلى استعادة الثقة بالنصر وبالتالي إلى رفع سقف المطالب كنوع من الترهيب وكسبٍ للوقت، وهذا ما يُستشف من رده على هاتين الرسالتين.

حيث جاء في رده على رسالة الحاج هاشم أمين بيت المال ما يلي:

« إذا لم نكن قد بادرنا بالهجوم، فذلك لحرصنا على تجنيب الأهالي الأبرياء ويلات الحرب، وتظل الوسيلة الوحيدة لإثنائنا عن الأخذ بثأرنا، هي حضورك شخصياً بمعية حاكم المخا إلى متن سفينتي وتسليم نفسيكما كرهائن، وإلا فسنريكم ما يمكن أن تفعله أسلحة الفرنسيين الذين تعرضوا للإهانة مِن قِبلكم. لم آت إلى هنا لغير ذلك. وعليه عجّلوا بتنفيذ طلبنا وأحسنوا إلى رعايانا وإلّا سنُدمّر كل شيء. تحياتنا.»

ورد القائد الفرنسي على رسالة القاضي بما يلي:

« سيكون من العار علينا أن نأتي إلى هنا بغية إلحاق الأذى، ولكنّنا مضطرون

---

(١) كما سبق وذكرنا في موضع سابق بأن القائد الفرنسي أكّد أنّ القاضي هو من أبلغه لاحقاً بأن الرسالة الموجهة للإمام لم ترسل إليه.

لذلك للثأر من المهانة التي تعرض لها الفرنسيون من قبل الفقيه أحمد. واعتباراً لشخصكم أجّلنا الأمر بحمل السلاح لحين تلقي الجواب على طلبنا المضمن في رسالتنا الموجهة للحاج هاشم، بضرورة حضوره ومعه حاكم المخا للمثول أمامي وتسليم نفسيهما كرهينتين. وفي حالة رفض هذا الطلب فلن أتمهل أكثر. فاحترس على نفسك وضعوا الأهالي في مأمن، ونحمّلكم مسؤولية تحذيرهم مما قد يلحق بهم من أذى، ولن نسعد أبداً بحصول أي مكروه للأهالي أو لشخصكم الذي يحظى بتقديرنا. بالنسبة للقوارب فسنقوم باحتجازها وسنطلق النار على تلك التي تهرب نحو المدينة، وترفض الإبحار صوب سفننا، ولن يمسهم منا أي أذى، خاصة أصحاب قوارب نقل البُن الذين نعدُّهم أصدقاء لنا. وهذه هي أوامر ملكنا وشركة الهند الشرقية الفرنسية التي علينا تنفيذها، إلا إذا سلّم الحاج هاشم وحاكم المخا نفسيهما خلال اليوم. تحياتيا».

كان القائد الفرنسي يعلم بأنه من المستحيل الاستجابة لطلبه المبالغ فيه، وتقول المذكرات بأنه لم يطلب تسليم أمين بيت المال وحاكم المخا نفسيهما كرهينتين إلا كنوع من الحرب النفسية وكسب للوقت.

ومع ذلك، وفي الأول من فبراير من عام ١٧٣٧، وجهت السفن الفرنسية مدفعيتها وبادرت بإطلاق القذائف صوب مدينة المخا، وقد لاحظ دولاجارد جازييه أنَّ القذائف التي تنطلق من سفينته لوموربا وسفينة لوسان بيير، لا تبلغان سوى القلعة الشمالية كحد أقصى، والقلعة ليست ببعيدة، ومع هذا استمرتا في القصف بغية تشتيت حامية المخا التي ردت مدفعياتها من القلعتين الشمالية والجنوبية ومن أربع قواعد مدفعيّة في المدينة نفسها، ومن أجل التخفيف على سفينة لانديان التي كانت أكثر عرضة وفي مرمى المدفعية اليمنية. وعند الساعة الرابعة عصراً أمر قائد الاسطول الفرنسي بإيقاف القصف بسبب الرياح العاتية، بينما استمرت حامية المخا بإطلاق القذائف حتى الساعة الخامسة عصراً ومن جميع المواقع، لكنها لم تكن في بداية الأمر دقيقة في إصابة الأهداف، وكانت معظم القذاف تسقط بعيداً عن الأهداف أو قبل بلوغ الهدف.

خلال هذه الجولة الأولى من المعركة، أطلقت سفينة لانديان القريبة من

الشاطئ إحدى عشر قذيفة سقطت سبعٌ منها على المدينة وتسببت في إثارة الهلع أكثر مما تسببت في دمار، وسقطت بقية القذائف على الشاطئ أو انفجرت في الجو. وفي المقابل، أصيبت هذه السفينة بعدة قذائف، واخترقت قذيفة إحدى الغرف في سفينة لوسان بيير.

بعد هذه الجولة التي كانت اختباراً لقوة الطرفين، أدرك دولاجارد-جازييه بأن القدرات الدفاعية لحاكم المخا لا تشكل خطراً كبيراً على قواته وأسطوله، وقرر تغيير الخطة المرسومة له، وعدم إعطاء احتلال القلعة الشمالية الأولوية، لعدة حيثيات:

- عدم المعرفة الدقيقة بأعماق البحر على طول شاطئ المخا.

- التخوف من الكلفة الباهظة في المعدات والأرواح إذا ما غامر في إنزال القوات إلى البر في ظل ظروف غامضة.

- سوء الأحوال الجوية قد يصبح عائقاً أمام التواصل بين القوات على الأرض وبين السفن الحربية.

- الفشل في الاستيلاء على الحصن الشمالي سيكون له عواقب مهينة ووخيمة على معنويات المقاتلين، وسيصبح الانسحاب أمراً صعباً خاصة مع تناقص الماء والمؤن يوماً عن يوم.

وبعد ترددٍ طويل هداه تفكيره إلى التخلي عن مهاجمة القلعة الشمالية، ومحاولة الاستيلاء على القلعةً الجنوبية، مع فرض حصار بحري على الميناء يمنع وصول التعزيزات. حيث وجد أن هذا الهجوم سيتلافى سلبيات الهجوم على القلعة الشمالية، وسيخفف من الضغط على سفينة لانديان.

ما إن طرح دولاجارد جازييه خطته هذه على مستشاريه حتى استحسنوها جميعاً، وتم وضعها موضع التنفيذ، شجَّعهم في ذلك، ارتباك القوات الدفاعية اليمنية وتخاذلها عن تكثيف القصف لردع الإعتداء وتدمير سفينة لانديان التي كانت في مرمى مدفعيتهم.

وبينما كان دولاجارد جازييه في خضم التحضير لخطته الجديدة إذ سمع دوي

أصوات مدفعية صادرة من المدينة دون قذائف، كإشارة للتهدئة ومن ثم جاء قاربٌ صغير محمَّل برسالة من قاضي المخا، جاء فيها:

« إلى القائد الفرنسي، وكافة الفرنسيين،

تسلّمنا رسالتكم الأولى مع الرسالة الموجهة للإمام، وزكّينا مطالبكم عنده، لما فيه صالح هذه المدينة التي عليكم الحفاظ عليها لا تدميرها. ورغم ما قد حصل، فقد منعنا أن تتعرض وكالتكم لأيّ اعتداء وألزمنا الأغلبية باتخاذ جانب الحياد والتهدئة. فإن توقفتم عن عدوانكم فعفا الله عمّا سلف، وإن أوغلتم في عدوانكم، فاعلموا أن الله لا يحب المعتدين، وبأنّ الحرب سِجال.

امنحونا مزيداً من الوقت حتى وصول رد الإمام الذي لن يأخذ أكثر من ثمانية أيام، وسوف تلبّى مطالبكم. تحياتنا.»

رسالة التهدئة هذه تدل على أن حكومة المخا أدركت بأن كفة ميزان القوة في صالح الجانب الفرنسي، وبأن دفاعاتها كانت عديمة الأثر تقريبا.

إن إيراد الرسائل المتبادلة بين الطرفين حسب تسلسلها الزمني، يوضّح بما لا يدع مجالاً للشك نوايا الفرنسيين المبيّتة في مواصلة العدوان، ووضع حكومة المخا المضطرب.

وقد جاء في رد دولاجارد جازييه على رسالة القاضي ما يلي:

« الرّسالة التي تسلّمتها منكم اليوم توحي بأنكم لم تتسلموا رسالتي السابقة التي كتبتها لكم قبل ثلاثة أيام ومرفق لكم نسخة منها، كي تعلموا بأنّي لست السبب فيما حصل لمدينتكم، لأنني سبق ونبهتكم ومن خلالكم الأهالي، وتقديراً لشخصكم أجلت البدء في المعارك حتى يوم أمس، حيث لم يصلني أيّ ردّ منكم، ولا من أمين بيت المال، الذي أخفى الرسالة الموجهة إليكم، والتي طالبت فيها برهائن ولم يصلني أحد، ولن أخوض في أي تفاوض قبل تنفيذ ذلك، وينبغي أن تكون الرهائن من المسؤولين المهمين في البلاد، وسوف يعاملون بالحسنى، وهذا هو قراري الأخير. أعلم بأن الله ينتقم من المعتدين، ولولا عدوان الفقيه أحمد، لما كان الحال على ما هو

عليه اليوم. لقد سمحنا [لعبد الباسط] بالعودة إلى منزله. تحياتنا.»

اعترف دولاجارد جازييه في مذكراته بأنه لم يطلق سراح المترجم [عبد الباسط] تقديراً للقاضي فحسب، بل لأن تواجده أصبح خطراً بسبب مخالطته للفرنسيين ومعرفته لهم وللغتهم، حيث يمكنه اختراقهم وعمل تقارير سرية عن مستوى تسليحهم وعن الحالة النفسية والمعنوية للمقاتلين الذين بدأوا يعانون من الوهن والضيق والتعب، إضافة إلى المعاناة من حمى خبيثة كانت تفتك يومياً بعدد منهم.

ورداً على رسالته الأخيرة، تسلم دولاجارد جازييه رسالتين ؛ الأولى من المسيو موشل الذي أعرب فيها عن قلقه الكبير من تأخر الإنزال على اليابسة، والثانية كانت من القاضي، وفيها نلاحظ بأن نبرة القاضي قد تغيرت نوعاً ما، وجاء فيها ما يلي:

« وصلتنا رسالتكم وفهمنا فحواها، وفيما يخص الحاكم فإنّ طلبكم مبالغ فيه، ولا يمكن للحاج هاشم ترك عمله كونه المسؤول عن كافة شؤون حكومة المخا. أنتم حكماء ولا تجهلون التعاليم الإسلامية. المسألة مسألة وقت وخلال ثمانية أيام سيصل رد الإمام. كل منّا يعلم ما يخشاه من الآخر، وإن كنتم تنفذون أوامر ملككم، فنحن ننفذ أوامر الإمام. إن أردتم التفاوض حول الامتيازات فابعثوا بشخص من طرفكم لمناقشتها، وإطلاعنا على ما تريدون. بعد ذلك يمكننا أن نرسل لكم الرهائن التي تطلبونها، وبالمقابل ترسلون رهائن مِن قِبلكم حفاظاً على سلامة مدينتنا. وإن رغبتم دخول المدينة كما جرت عليه العادة فالقرار لكم.

نسأل الله التوفيق، تحياتنا.»

يقول دولاجارد جازييه بان الأجواء كانت عاصفة ولا تُساعد على العدول عن سياسة التفاوض عبر المراسلات، وقد ردَّ على القاضي بما يلي:

«تسلمنا رسالتكم عبر [عبد الباسط]، والأمر لا يتعلق برهائن من طرفنا، بل مِن طرفكم. فكروا في الأمر ووافونا بالمطلوب لتفادي الحرب ضد بلدكم، وسوف يوفقنا الله لأن قضيتنا عادلة. تحياتنا.»

في هذه الأثناء تلقى القائد الفرنسي إشارة من القبطان باشولييه Bachelier قائد سفينة الأنديان القريبة من الشاطئ أبلغه فيها بأنّه تمّ سبر الشواطئ الجنوبية ووُجدت صالحة للرسُوّ والإنزال، وقد وجهه دولاجارد جازييه بضرورة التيقّظ والتحصّن خلف السفن البرتغالية للاحتماء من قذائف المدفعية ؛ لأنه علم من بعض الصيادين بأن القوات اليمنية تعد العدّة لاستهداف وتدمير سفينة لانديان، وقرر أن يُرسِل ثلاثين رامياً على متن السفينة البرتغالية لإرغامها على البقاء في مكانها ولحماية سفينة لانديان، كما قام بنقل ثمانية عشر جندياً على متن سفينة لوموربا Le Maurepas ووضع أكياس معبأة بالقطن لحمايتها من القذائف. كانت هذه التحصينات ضرورية لمنع اقتراب السفن الحبشية التي كانت تقل بضائع للمخا وتقوم بإنزالها على بعد أربعة كيلومترات من مواقع سفنه، ولم يتمكن الفرنسيون من منعها والتعرض لها بسبب قوة الرياح.

كما تلقى في نفس الوقت رسالة من المسيو موشل أبلغه فيها بأنّ فندنبيرج Vendenberg مدير الوكالة الهولندية في المخا، جاءه يحمل مقترحات إيجابية من قبل الحكومة، كما أطلعه في نفس الرسالة على الآثار التي خلفها القصف على المدينة، حيث قُتل شخصان وسقطت إحدى القذائف بجوار المسجد الكبير وهو مكتظ بالمصليين، وتسببت في هلع وخوف كبيرين. كما أبلغه المسيو موشل بأن الحاج هاشم أمين بيت المال، جاءه وأخبره بأن الأهالي يتهمونه بأنه المتسبب بهذه الحرب، وبأنه مستعد للتفاعل الإيجابي مع الفرنسيين، وما عليهم سوى إرسال خطاب بطلباتهم وسيقوم بتنفيذها.

كان القائد الفرنسي يَشكُّ في نوايا الحاج هاشم، وقد ردَّ على طلبه بأنه إذا أراد أن يتعامل معه فما عليه إلا أن يأتي إليه على متن سفينته.

شتّتت الرياح العاتية الزوارق والقوارب الصغيرة، وظلّت حائلاً أمام تنفيذ هجوم كاسح كما كان مخططاً له. وقد حاول دولاجارد جازييه اختبار قوة الرياح والأمواج وإذا ما كان بالإمكان التغلب عليها، فأبحر ومعه مجموعة من الجنود من سفينته إلى سفينة لانديان، لكن القارب تعرض لضربات الأمواج القوية وابتلّوا وابتلّت أسلحتهم والذخيرة، ولم يصلوا إلى سفينة لانديان إلّا بعد عناء وبعد أن تم

سحبهم بالحبال. واستخلص من ذلك أنه حتّى لو وصلت قواته إلى الشاطئ تجديفاً، فستصل منهكة وأسلحتها مبتلّة وغير صالحة للاستعمال.

ما إن هدأت العواصف حتى أعطى دولاجادر جازييه أوامره بالقصف. وفي هذه المرة تم تحاشي إطلاق قذائف الكرات الحديدية كون الجنود اليمنيين كانوا يقومون بجمعها وإعادة استخدامها ضدهم. واستخدم اليمنيون تقنية جديدة أذهلت الفرنسيين ؛ فقد استخدموا نواظير ثبتت على المدافع تمكنهم من تحديد الأهداف بدقة كبيرة، وردّ اليمنيون على القصف بمثلة وأكثر، واستمروا في القصف حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. وقد تمكنوا من إصابة سفينة لانديان بعدة قذائف، وقد اضطرت سفينة الموربا للتراجع من شدة القصف.

استمر هدوء الرياح، ولم يعد لدولاجارد جازييه أي مبرر للتأخير، فالوقت يمضي لغير صالحه، فتقرر بأن تكون عشية ١٤-١٥ من فبراير موعداً للهجوم البري على القلعة الجنوبية. ويقول دولاجارد جازييه في مذكراته أنه وفي ذلك الوقت كان هناك ٨٠ مريضاً من بين الجنود الفرنسيين، وكان المرض ينتشر بينهم بسرعة مرعبة كافية للقضاء على بقية الجنود خلال أيام، مما اضطره لحسم الأمر والتهيؤ للهجوم البري أيّاً كان الثمن.

تم تحضير القوارب التي ستقل الجنود ووضعها بالترتيب المخطط له، وانطلقت تحت جنح الظلام بسرية تامة، ولم يتم اكتشافها إلا في المرحلة الأخيرة قبل رسوّها على الشاطئ الجنوبي حيث أطلقت الحراسة المناوبة عدة قذائف، لكن مواقع المَدَافع حالت دون أن تكون الضربات موفّقة، فكانت القذائف تخطئ أهدافها وتسقط خلف القوارب. وما إن نزلت القوات الفرنسية على الشاطئ حتى فاجأتها القوات اليمنية بوابل من الرصاص وأصابت أربعة جنود. أمر دولاجارد جازييه جنوده بالاحتماء والجلوس على الماء لتفادي الطلقات والرد على المهاجمين أثناء تعمير أسلحتهم. نجحت هذه الحركة في التقليل من إصابة الفرنسيين، وإيقاع كثير من الضحايا من جانب اليمنيين، مما اضطرهم للتراجع والفرّ بعد الكرّ مخلفين قتلاهم وراءهم.

قسّم دولاجارد جازييه جنوده إلى ثلاث مجموعات، وأبقى على حامية صغيرة لحراسة القوارب وتأمين خط الرجعة. تردد القائد الفرنسي في الاختيار بين ملاحقة القوات اليمنية التي تراجعت كي لا يلتئم شملها من جديد وتعاود الهجوم، وبين الهجوم على القلعة، وفضّل الخيار الأخير كسباً للوقت.

ما إن اقتربت القوات الفرنسية من القلعة حتى انهالت عليها الحراسة بوابل من الرصاص، تقدّم الفرنسيون بخطوات أسرع، وبادروا برمي قنابل يدوية على الحراسة المرابطة فوق القلعة، فقتلت من قتلت وفرّ من فرّ. تقاطر الجنود الفرنسيون ودخلوا القلعة من كافة الجهات، منهم من دخل من الباب، ومعظمهم تسلقوا الجدران، اشتبكوا مع بعض الجنود المرابطين والذين قاوموا حتى النهاية، بعد أن هرب معظم رفاقهم من جهة لم يعرفها الفرنسيون. انسحبت مجموعة من المقاتلين اليمنيين وتحصنت في غرفة، قاتل أفرادها بضراوة، وقتلوا عدداً من الجنود الفرنسيين قبل أن يسلّموا أنفسهم. تم فتح جميع الأبواب لدخول بقية القوات الفرنسية، التي سيطرت على القلعة، وقام قائدها بترتيبها على هيئة أنساق قتالية لمواجهة القوات اليمنية التي قدمت من المدينة وكادت تباغتهم من الخلف. أصبحت قوات دولاجارد جازييه مُحصّنة، فترك القوات اليمنية تتقدم نحوهم، وما إن اقتربت حتى انهالت عليها النيران من قبل قواته في القلعة ومن قبل القوات المرابطة لحراسة القوارب على الشاطئ. اشتبك الطرفان ودارت رُحا المعارك، وتراجعت القوات اليمنية لأنها كانت مكشوفة وهدفاً سهلاً. لم يعط القائد الفرنسي أوامره بملاحقتها لجهله بالمنطقة وخوفاً من الوقوع في كمائن ؛ وفضّل البقاء متحصناً للمواجهة الكبرى مع حامية المخا التي تفوقهم عدداً.

ظلت قواته في حالة جاهزية للمواجهة، حتى طلع الصباح، ولم يكن هناك أي استنفار من جانب القوات اليمنية. قام بعمل إحصاء لخسائر معركة الليل ووجد بأنه لم يفقد سوى أربعة من جنوده، وجُرح اثنا عشر آخرون من بينهم أحد كبار مساعديه روسل ماجور Rossel Major، وقد كانت خسارة الجانب اليمني كبيرة ؛ فقد قُتل منهم ما يقارب الثمانون جندياً.

القلعة الجنوبيّة[1]:

نجح الفرنسيون في السيطرة على القلعة الجنوبية وتحصّنوا فيها، وقد وصفها دولاجارد جازييه بأنها كانت تسمى حصن عبد الرب، وبأنها على شكل برج يصل قطره إلى ٦٠ قدماً ويبلغ ارتفاعه ١٤ قدماً من الخارج و (١١) قدماً من الداخل، تعلوه حامية ارتفاعها (٦) أقدام، ومتراس على ارتفاع (٤) أقدام، تتخلّله نوافذ كثيرة لإطلاق النار؛ لكنّها مصممة لإطلاق النار بخط مستقيم ومن الصعب إطلاق النار على من هم حول القلعة وكان ذلك في صالح الفرنسيين حينما هاجموا القلعة فلم تتمكن الحراسة من تصويب السلاح مباشرة عليهم.

وجدوا في القلعة اثني عشر مدفعاً عيار ١٢ وعيار ٦، مركّبة ومعمّرة جاهزة للقصف، كما وجدوا كميات كبيرة من البارود، و (١٨٠) قذيفة من مختلف الأحجام. يبلغ سُمكُ الجدار الخارجي (٧) أقدام ومبني إلى مستوى (٤) أقدام من أحجار شديدة الصلابة والمقاومة. وفوق المتراس بُني الجدار بالياجور. لم تكن هناك مدافع موجهة صوب المنطقة التي توغل منها الفرنسيون لمهاجمة القلعة، بل بنادق فقط.

تقع القلعة على لسان بحري يبلغ طوله ١٥٠٠ عقدة بحريّة، ويصل أقصى عرض فيه إلى ٢٠٠ عقدة. وتقع المنطقة البحرية العازلة مع اليابسة على مساحة ١٥ عقدة يمكن العبور عليها مشياً عند الجَزْر.

علم دولاجارد جازييه من الأسرى بأن هناك قوات كبيرة مرابطة في المدينة وما حولها، وبأن الحاكم لم يكن متأكداً من المكان الذي يمكن أن يختاره الفرنسيون كمنطلق لهجومهم، فوزّع القوات على مناطق عدة بحيث يتم تجميعها عند الطلب. يقول دولاجارد جازييه بأن هذه المعلومة دفعته إلى إرسال مجموعتين، الأولى مكوّنة من (٣٠) جندياً، والثانية من (٢٠) جندياً، للبحث عن جيوب للمقاتلين في المناطق المحيطة.

---

(١) ذكر نيبهور في يومياته التي سجلها أثناء رحلته الإستكشافية إلى اليمن ما بين عامي (١٧٦٢-١٧٦٣) أنّ « مدينة المخا مأهولة بالسكان ومحاطة بسور، وتنتشر فيها أبراج للحراسة تقع ما بين المدينة وبير البليلي، وتطل على البحر قلعتان مزودتان بمدافع وهما قلعة «طيار» وقلعة «عبد الرب ابن الشيخ الشاذلي».

ظلت القوات الفرنسية في حالة استنفار طوال الليل مترقبة لهجوم مضاد من قِبل القوات اليمنية، أو لقصف مدفعي، ولم يحدث شيء من هذا القبيل. عند الساعة العاشرة صباحاً جاءت قوارب لنقل القتلى وكانت تحمل رسالة من قاضي المخا، يرجو فيها وقف الاقتتال، ويطلب من القائد الفرنسي التّعهُد بعدم التعرض للحاج هاشم أمين بيت المال بأي أذى، كونه سيأتي إليه للتفاوض معه باسم الحكومة اليمنية. وقد رد دولاجارد جازييه ووعد بعدم التعرض له بأي مكروه.

انطلاق المفاوضات:

وصل الحاج هاشم إلى القلعة الجنوبية التي استولى عليها الفرنسيون حوالي الساعة الرابعة عصراً. ويقول دولاجارد جازييه بأنه بادر في الإعراب عن أسفه عمّا لقيه الفرنسيون من سوء معاملة بسبب جهل اليمنيين وتخلّفهم، وبأنه ردّ عليه بأنه المتّهم الرئيسي بسوء المعاملة هذه وعنّفه بشدة. وقد قدَّم الحاج هاشم اعتذاره بثقة ودعابة، وأضاف بأنه جاء للتفاوض معهم وعرض عليهم إعادة المبالغ التي يطالبون بها، واستئناف العمل بالامتيازات التي تضمنتها الاتفاقية السابقة. رد عليه دولاجارد جازييه بأن هذا غير كاف، وأملى عليه الشروط التالية:

- التوقيع على معاهدة جديدة مع الإمام يفوض من يشاء في التوقيع عليها.
- دفع مبلغ ١٠٠٠٠٠ قرش فضي، إضافة إلى المبالغ المطلوبة مقابل تكاليف المجهود الحربي للحملة العسكرية الفرنسية.
- تسليم رهينتين كضمان.

أبدى الحاج هاشم دهشته من المطالبة بمبلغ ١٠٠٠٠٠ قرش فضي مقابل تكاليف الحملة الفرنسية، ودفع بأن حكومة المخا لا تملك مثل هذا المبلغ. ويروي دولاجارد جازييه، بأنه ردّ عليه بأن ثروة الفقيه أحمد تفي بالغرض وتزيد. وهدد بأنه إذا لم يحصل على رد ايجابي خلال (٢٤) ساعة، فإنه سيباشر في مهاجمة المدينة. وقد وعده الحاج هاشم بأنه سيأتي بنفسه اليوم التالي حاملاً الردَّ إذا وعده القائد الفرنسي بعدم احتجازه أيّاً كان الرّد. ووعده دولاجارد جازييه بذلك،

وحذّره من المراوغة.

وفي انتظار الردّ، أمر دولاجارد جازييه برفع جدار بين زاويتي القلعة من جهة البحر لتأهيل مكان لجنوده الذين لم يسعهم المكان حيث كانوا يفترشون الأرض وهي رطبة. ووضع حامية مكوّنة من ثلاثين جندياً تحت إمرة ضابط في عشة من القش كانت تنتصب على بعد مائة خطوة من القلعة، ووضع نقطة حراسة من عشرة جنود تحت إمرة رقيب، عند مدخل اللّسان البحري من جهة المدينة، وأعطاهم أوامر مشددة بإطلاق النار فوراً على أية مجاميع تقترب منهم، والانسحاب على وجه السرعة للحاق برفاقهم. وجد الفرنسيون اللّسان البحري أكبر مما توقعوه، وفيه كثير من برك المياه، مما اضطر القائد الفرنسي لوضع خفر في أماكن متفرقة من الساحل بحيث يتم الإبلاغ عن أي تقدم مباغت للقوات اليمنية. وأثناء الليل كانوا يقومون بجولات ودوريات كل نصف ساعة.

في اليوم التالي وحوالي الساعة الرابعة بعد العصر عاد الحاج هاشم، وكان يحمل معه وبحسن نية رسالتين من المسيو فندبرج مدير الوكالة الهولندية، والمسيو موشل، من الوكالة الفرنسية، حذرا فيهما القائد الفرنسي من أن اليمنيين لن يسلّموه رهائن وبأنهم يسعون لكسب الوقت لمباغتة الفرنسيين من كل الجهات بقوات لا قبل لهم بها. ونصحوه بأنه ليس أمامه سوى احتجاز الحاج هاشم، ومهاجمة المدينة ليلاً والسيطرة على كافة الشواطئ.

جمع دولاجارد جازييه مساعديه ومستشاريه وطرح عليهم الأمر، وسأل الذين يعرفون مدينة المخا عما إذا كان هناك مكان قبالة البحر يمكن أن يؤوي القوات للاحتماء فيه، فردوا عليه بالنفي، فقرر عدم التسرع والمخاطرة بقواته، خاصة وأنه في موقع قوة ومحصَّن، ووجد أنه من غير الحكمة التخلي عن هذا المكسب، ومخالفة تعليمات شركة الهند الشرقية الفرنسية التي تقضي بعدم تدمير المدينة ونهبها، إضافة إلى أن محاولة مهاجمة مدينة بهذا الحجم بعدد محدود من القوات ستبوء بالفشل، وستتشتت القوات في المدينة وسيصعب السيطرة على أفرادها خاصة إذا ما أغرتهم عمليات النهب.

حصل دولاجارد جازييه على معلومات تفيد بأن الحاج هاشم هو من يدير كل التحركات ضد الفرنسيين، وبأنه قام بتوزيع حراسة على سطوح المنازل المطلّة على الشوارع التي يتوقع أن يمر منها الفرنسيون، وزوّدهم بقنابل مصنوعة يدوياً وهي عبارة عن عبوات معبأة بالبارود ولها ذبالة اشتعال. وعندما حضر سأله عن الرهائن، فرد الحاج هاشم بأن الجميع رفض تقديم نفسه كرهينة، وبأنه سيتم تنفيذ كل ما يتم الاتفاق عليه معه. أجابه دولاجارد جازييه بأنه لا يثق بوعوده كثيراً، وبأنه إن كان حسن النيّة، فما عليه إلا البقاء طواعية كرهينة، وقال له بأنه لن يخلف وعده، وهو طليق يمكنه العودة، لكنه سيضطر أن يرافقه مع قواته لتسليمه بنفسه إلى الحاكم، وأمر في نفس الوقت قواته بحمل السلاح والتهيؤ للمعركة. خشي الحاج هاشم من ردة الفعل هذه، ووافق على أن يبقى كرهينة، وطلب فقط بأن يسمح له بتحرير خطاب للقاضي يبلغه فيه بأنه سيبقى كرهينة لضمان وقف الاقتتال وعدم مهاجمة المدينة.

في نفس اليوم وفي حدود الساعة العاشرة مساءً، وصل المسيو فندبرج، مدير الوكالة الهولندية، إلى موقع الفرنسيين، نزولاً على طلب القاضي، ليطلب من القائد الفرنسي باسم الحكومة اليمنية وقف الاقتتال والاحتفاظ بالحاج هاشم كرهينة، وسلّمه رسالة من القاضي أكّد له فيها إمكانية الاستجابة لطلبات الفرنسيين وبشكل مُرضٍ وبأن الفقيه أحمد وأسرته لم يعد لهم أي رأي في الأمر. وذكر دولاجارد جازييه بأن مدير الوكالة الهولندية نقل له على لسان القاضي بأن الرسالة الموجهة للإمام ضلّت طريقها، وطلب منه تحرير رسالة أخرى عبره، ووعد بوصول الرد خلال خمسة عشر يوماً، وأنه سيتم توفير كل ما يحتاجه الفرنسيون خلال هذه الفترة. وجدَ القائد الفرنسي في هذا العرض مبتغاه ووافق عليه واضعاً الشروط التالية لعقد هدنة لمدة خمسة عشر يوماً:

- على الإمام أن يجبر حاكم المخا الأسبق الفقيه أحمد، على دفع كافة تكاليف الحملة الفرنسية منذ انطلاقها من الهند.

- على حاكم المخا الأسبق إعادة المبالغ التي استقطعت في عهده على التّجار الفرنسيين برفع التسعيرة الجمركية على بضائع شركة الهند الشرقية الفرنسية عن

٪٢.٢٥.

- على حاكم المخا الأسبق إعادة كافة الأموال التي جباها من ممثلي الشركة تحت مسميات أخرى.

- على السلطات المحلية توفير الماء والغذاء للقوات الفرنسية بشكل يومي.

- حضور ممثل شخصي عن الإمام مفوض لإبرام معاهدة دائمة تعيد الامتيازات السابقة للفرنسيين.

يسترسل دولاجارد جازيبه في روايته ويقول بأن الانتصار الخاطف الذي حققه الفرنسيون باستيلائهم على القلعة أعطى الانطباع لدى الحكومة اليمنية بتفوقهم النوعي من حيث السلاح، وبأن عددهم أكثر مما هم عليه في الواقع، مما دفع الحكومة للرضوخ والاستجابة السريعة لطلباتهم. وفي حقيقة الأمر كان القائد الفرنسي شديد القلق من الوهن الذي أصاب قواته وقلة عدد الجنود القادرين على حمل السلاح، وخشيته الدائمة من وصول مثل هذه المعلومات لليمنيين.

استغل دولاجادر جازيبه فترة الهدنة لتعزيز التحصينات، ولجلب المزيد من الأسلحة والذخائر من سفنه الراسية في العمق. أما في الجانب اليمني، فكانت التعزيزات تصل يومياً الى المخا ومن مختلف المناطق، مما دفع القاضي بأن يكتب للحاج هاشم، الذي ظل كرهينة، يدعوه للعمل على التهدئة من جانبه، وكلّفه بأن ينقل للفرنسيين بأن لا يقلقوا من توافد التعزيزات التي حضرت إلى المخا بأوامرٍ من الإمام، وليس بمقدورهم ردها دون أخذ الإذن منه. كما طلب من القائد الفرنسي السماح للأهالي وللقوارب التجارية بممارسة أنشطتها. وقد انصاع القائد الفرنسي لهذا الطلب خوفاً من توقف حكومة المخا عن تزويدهم بما يحتاجونه من الغذاء والماء. أما بالنسبة للقوات التي عزّز بها الإمام المخا، فقد رد دولاجارد جازيبه كنوع من الاستراتيجية الحربية، بأن الأمر لا يقلقه، وأنه في حالة الإخلال بالهدنة فكلما زادت قوات الإمام كلما زاد عدد الضحايا في صفوفها، وحذّر القاضي من عدم الالتزام بالعهد وبالهدنة. وقد رد عليه القاضي في اليوم التالي برسالة يشكره فيها على السماح باستئناف الأعمال التجارية، وبأنه

ملتزم بالعهد.

تطوّرت الأحداث بوصول تعزيزات كبيرة من قِبل الأمير أحمد أخي الإمام وحاكم تعز، تحت قيادة ضابط ذي شهرة واسعة في ربوع اليمن ويدعى «الوادعي». وأشيع بأن هذه القوات لا ترضى بأقل من استعادة القلعة وأسر الفرنسيين جميعاً. أكد هذه المعلومة المسيو فندربرج مدير الوكالة الهولندية، الذي جاء إلى موقع الفرنسيين حاملاً رسالة جديدة من القاضي طلب منه فيها إطلاق سراح الأسرى، ونصحه بإعادة رفع علم الإمام محل العلم الفرنسي الذي تمّ رفعه على القلعة لتهدئة القوات التي جاءت كتعزيز لحامية المخا، وللتأكيد على أنّ الفرنسيين لم يأتوا لمحاربة اليمن بل بهدف استئناف العمل بالامتيازات. وكان رد دولاجارد جازييه بأن العلم الفرنسي رُفع على القلعة بقوة السلاح ولن ينزل إلا بالطريقة ذاتها أو بمعاهدة سلام، وبأن ينقل لقائد هذه القوات بأنّ من يقف على أرض صلبة لا يخشى الحرب. وبالنسبة للسجناء، فقد أطلق اثنين منهم تقديراً للقاضي، وإرضاءً لمدير الوكالة الهولنديّة الذي رجاه لذلك.

أمام هذا الوضع الحرج، وجد دولاجارد جازييه أنَّ كل المؤشرات تؤكد أن الإمام لم يطلّع فعلاً على حقيقة الأمر وبأن الرسالة التي وصلته تم تحريفها، وقرر إرسال رسالة توضيحيه للإمام عبر القاضي الذي يثق في نزاهته.

جاء في رسالته للقاضي ما يلي:

« أرفق لكم مع هذا الرسالة الموجهة للإمام، ونرجو منكم قراءتها بتمعّن وبما يساعدكم على إطلاعه على عدالة مطالبنا. وينبغي الحرص على إيصالها له كي يطّلع على الحقيقة بنفسه دون تحريف. ونأمل منه أن يعطي الأوامر لتسوية الأمر. وهذه هي الطريقة الوحيدة لتلافي العواقب الوخيمة، التي عملتم على تلافيها بنزاهتكم واستقامتكم اللتين هما محل ثقتنا الكاملة. تحياتنا.»

وفيما يلي ما تضمنته الرسالة[1] التي وجهها دولاجارد جازييه للإمام:

---

(١) تتضمن هذه الرسالة معلومات تناقض ما سبق من تقديمه من معلومات، ومصدرها جميعاً يوميات دولا جارد جازييه نفسه.

« وصلتنا رسالة جلالتكم وفهمنا فحواها، ومن خلالها أدركنا بأنكم لم تُحاطوا بحقيقة ما حصل في المخا في عهد حاكم المخا السابق الفقيه أحمد، لأنه وأصدقاءه الذين يعملون في بلاطكم أخفوا عنكم الحقيقة. وهنا نجد أنفسنا ملزمين بأن نطلعكم من خلال هذه الرسالة بأن الفقيه أحمد قد أهان وحقّر الفرنسيين، وتعدى على كرامتهم وممتلكاتهم وعلى الامتيازات التي منحت لهم في المعاهدات السابقة، التي أُقرّت مِن قِبلكم. لقد جئنا إلى هنا بأوامر من ملكنا ومن شركتنا لردّ الاعتبار واستعادة الامتيازات السابقة، وتحميل الفقيه أحمد تكاليف تسليح الحملة، وإعادة ما أخذه فوق نسبة الـ ٢.٢٥٪، إضافة إلى المبالغ التي أخذها مُقدّماً والديون الأخرى.

حالَ وصولنا إلى المخا بدأنا باستخدام الطرق السلمية قبل أن نلجأ إلى استخدام السلاح، وبعثنا بالسيد كوربزاتر Sieur Courbesâtre أحد موظفي الوكالة الفرنسية، حاملاً رسالة إلى القاضي، ومعها الرسالة الموجهة لكم عبره وبعنايته. وفي الطريق علم السيد كوربزاتر من صيّادين أنه تم إيقاف حارسَيْ الوكالة الفرنسية، وأبلغ القائد الذي رد على ذلك باحتجاز القوارب التي أتت إلى سفننا، وطالبنا مسئولي الحكومة بإخلاء سبيل رجالنا، فرفضوا ذلك، فطالبنا بإرسال رهائن مقابلهم. كشف الرفض القاطع لكل طلباتنا النوايا السيئة للحكومة. قمنا بعد ذلك بإرسال رسائل تحذيرية للأهالي للاحتماء قبل أن نقوم بعمل حربي، ومن ثم أطلقنا عدة قذائف على المدينة بغية إرجاع الحاكم ومستشاريه إلى جادة الصواب. طلب منّا القاضي المعروف باستقامته وقف إطلاق النار مدة ثمانية أيام، فوافقنا على طلبه، واستأنفنا مراسلاتنا مع المسؤولين الذين فضّلوا الصمت ولم يردّوا علينا. فعدنا لحمل السلاح وتمكنّا من الاستيلاء على القلعة الجنوبية رغم مقاومة جنودكم الذين قتل منهم العديد للأسف.

لقد تمكنّا بصعوبة من السيطرة على رجالنا الذين يريدون دخول المدينة ونهبها وحرقها، وكانت ميناء المخا ستدمر لولا استخدامنا لسلطتنا بحزم لمنعهم. تحفّظنا على الحاج هاشم، لأن الحاكم تحفَّظ على رجالنا. اتفقنا أخيراً على بعض البنود، ووافقنا على هدنة لمدة خمسة عشر يوما بانتظار ردكم على هذه الرسالة.

نرجو منكم أنْ تُرسلوا حاكماً آخر يتسم بالإنصاف والحكمة، وتفوضونه ومعه القاضي على عقد معاهدة معنا، بحيث تكون معاهدة دائمة وتعيد لنا الحقوق السابقة بدفع ٢.٢٥٪ على جميع البضائع التي نجلبها، وسوف نُضمّن هذه المعاهدة عدة بنود تصحح الإجراءات المسيئة التي استحدثت أثناء فترة الحاكم السابق، والتي يطول شرحها في هذه الرسالة.

لا نُطالب جلالتكم سوى بإرسال حاكم جديد لإنهاء كل شيء وتجنب الحرب التي نحن على أتم استعداد لخوضها، حتى يتحقق الإنصاف الذي جئنا من أجله. وعلاوة على ذلك، نعتقد بأن القاضي سوف يطلعكم على تفاصيل أكثر حول الأحداث وعن الكيفية التي تعاملنا بها مع الأسرى الذين تحت أيدينا. تحياتنا».

يقول دولاجارد جازييه في مذكراته بأن القاضي وكذا الإمام نفسه كانا مع السلام، لكنّ الحاكم كان يخشى أن يدفع ثمن ما حدث، فكان يعمل على تحريض الجنود للهجوم على موقع الفرنسيين، لاعتقاده بأن تحقيق نصر سيحفظ له كبرياءَه ومكانته لدى الإمام. معظم هؤلاء الجنود لم يكونوا يُلقون بالاً لهذا التحريض، فيما عدا جنود سيدي أحمد أخي الإمام الذين جاءوا من تعز، وكانوا ينظرون لعدوهم بازدراء، ويريدون تمزيقه أشلاءً وبأي ثمن. كانت المدينة تعيش حالة من الغليان والهيجان وعدم الاتفاق حول رؤية واحدة، وكان بإمكان الفرنسيين استغلال هذه الفرقة كما يقول القائد الفرنسي والمبادرة بالهجوم على المدينة، إلا أنه فضّل انتظار ما ستؤول إليه الأمور.

لم تمض أيام حتى عيَّن الإمامُ أميرَ الماس حاكمَ بيت الفقيه، حاكماً للمخا. وفي نفس الوقت تسلّم الحاج هاشم رسالة من الإمام ردّاً على رسالته كلَّفه فيها بإبلاغ الفرنسيين بأنه علم باستيلائهم على القلعة الجنوبية، وبأنه أرسل أمير الماس للتفاوض معهم بمعية القاضي لإنهاء هذه القضية. وأضاف بأنه لا يعتقد بعدالة كافة مطالبهم ؛ حيث كانوا فيما مضى لا يجلبون سوى كميات قليلة من البضائع بينما غدوا في السنوات الأخيرة يجلبون بضائع بكميات هائلة. وأوعز إلى الحاج هاشم أمين بيت المال لتعقيل الفرنسيين وإقناعهم، وإن فشل في ذلك فإن الإمام سوف يرسل بمزيد من القوات. كان الفرنسيون يدركون بأن الامتياز الذي

يمنحهم حق دفع ٢.٢٥٪ على البضائع التي يجلبونها للمخا، واغراقهم للأسواق بهذه البضائع أثر على تجارة المخا مع الدول الأخرى التي كانت تدفع ما بين ٥ إلى ١٠٪، وقد أثر هذا الوضع بدوره على إيرادات بيت المال.

يقول دولاجارد جازييه في مذكراته، إنَّ حاكم المخا المعيَّن أمير الماس، ما إن وصل المخا حتى بادر بالكتابة إليه طالباً منه توضيحاً لمطالبه وتبريراً للجوء الفرنسيين للحرب قبل معرفة رأي الإمام، خاصةً وأن سلفه حاكم المخا قد أعرب عن استعداده لإرجاع الامتيازات السابقة. وأضاف بأن أمير الماس سوف يرسل مساعده الأمير عليّ إليهم، وعليهم العمل بما يُرضي الشعبين.

وقد رد عليه دولاجارد جازييه برسالة تفصيليه أطلعه فيها على سلوك الفرنسيين منذ وصولهم إلى مرفأ المخا، والمقترحات التي طرحها على الإمام في الرسالة التي وجهها إليه ومازال ينتظر منه الرد. وحتى يصل الرد فإنه على استعداد للبدء في التفاوض مع أمير الماس، وأعرب عن ترحيبه بمجيء الأمير عليّ إلى موقع الفرنسيين في أي وقت.

يقول دولاجارد جازييه بأن أمير الماس والقاضي كتبا له في اليوم التالي ليبلغاه بأن حاكم المخا قرر ارسال القاضي إلى صنعاء لمقابلة الإمام وإنهاء هذه القضية حسبما تم الاتفاق عليه سابقاً، وبأن تستمر الهدنة حتى عودته. وقد ردَّ عليه القائد الفرنسي بأن في ذلك مضيعة للوقت، خاصة وأن أمير الماس مفوض بإنهاء القضية، فلا داعي لانتظار عودة القاضي. وبالنسبة له فإنه ينتظر رد الإمام للتفاوض حول المعاهدة التي سيوقعها مع من سيفوضهم الإمام.

ذكر دولاجارد جازييه في مذكراته أنَّ قائد قوات الأمير أحمد حاكم تعز وأخي الإمام ، نقل له سِرَّاً بأنّه عندما علم حاكم تعز بحقيقة القضية، كتب له رسالة أعرب فيها عن رضاه عن الفرنسيين، ووجه نقده الشديد للمسؤولين عن المخا، وبأنه لو كانت المخا تتبعه لكان أنصفهم، وبأنه إذا لم يصلوا إلى نتيجة فما عليهم إلا اللجوء إليه. يقول دولاجارد جازييه بأنه فهم مغزى هذا الطرح الذي لا يتعدى سوى كونه جس نبض لنوايا الفرنسيين، ومعرفة مزاجهم في دعم مشروعه في ضم

المخا، خاصة وأنه أرسل ١٥٠٠ فرد من خيرة جنوده. فما كان من دولاجارد جازييه سوى الرد بطريقة تسويفية لا تقيده بأي التزام وبما يبقي على هذا العرض كمخرج في حال تأزم الوضع، وأصبحت المعركة في غير صالحة وأعرب عن امتنانه لموقف الأمير أحمد[1].

تمت الموافقة على تبادل الرهائن، وكان من ضمنهم قائد قوات الأمير أحمد حاكم تعز، وقائد خفر السواحل، وأخو ضابط الميناء، وثلاثة ضباط كبار. وتلقى قائد قوات الأمير أحمد حاكم تعز، معاملة خاصة ؛ لأنه وكما يروي الفرنسيون ينحدر من أسرة كبيرة كانت محل احترام الإمام. ورغم وصول الرهائن والاتفاق على بدء التفاوض، تلقَى دولاجارد جازييه تحذيراً من الهولنديين والإنجليز المقيمين في المخا بأن عليه أخذ الحيطة والحذر حتى لا يفاجأ بهجوم مباغت من قبل القوات اليمنية.

رغم هذه التحذيرات، بعث دولاجارد جازييه بثلاثة مفاوضين من جانبه وهم السيد إنجران Ingrand، والسيد ميران Mirand، والسيد كوربزاتر Courbèsâtre، وذهب ثلاثتهم إلى مدينة المخا واجتمعوا بالمسؤولين اليمنيين، وبعد أخذ ورد حول بنود الاتفاقية، وافقت الحكومة اليمنية على جميع طلبات الفرنسيين فيما عدا تحمل النفقات العسكرية للحملة، ورفضوا حتى مجرد فتح الموضوع. وبعد يوم من المفاوضات، عاد المفاوضون الفرنسيون إلى الموقع المحتل ومعهم الحاج هاشم، الذي شارك في المفاوضات بناءً على طلب القاضي.

استؤنفت المفاوضات في اليوم التالي، وظل اليمنيون متمسكين برفضهم التفاوض حول بند دفع تكاليف الحملة، واعتبروه إهانة في حقهم حتى لو كان البديل الحرب. أمام إصرار المفاوضين اليمنيين، رضخ دولاجارد جازييه وقال بأنه لا يريد شيئاً من حكومة الإمام، ولكن من شخص الفقيه أحمد. ولإثبات ذلك ما عليهم سوى أن يبعثوا له بالفقيه عبد الله ابن الفقيه أحمد، وسيتنازل عن طلب

---

(١) جاء في وثائق البحرية الفرنسية بأن أمير تعز حاول، بعد فشله في تقديم يد العون لحاكم المخا واخفاق قواته في صد العدوان الفرنسي، إبرام صفقة مع الفرنسيين يسهل لهم احتلال ميناء المخا، مقابل الإطاحة بالإمام وتنصيبه على عرش اليمن.

دفع التكاليف العسكرية للحملة، وإن رفضوا تسليمه فلن يعدّهم ممثلين للإمام بل تابعين ومنحازين للفقيه أحمد.

يقول دولاجارد جازييه بأنه كان يناور بهذه الثقة والصلابة رغم علمه بأن هناك قوات قوامها أربعة آلاف جندي وصلت المدينة، إضافة إلى ثمانية آلاف من الأهالي على أهبة الاستعداد لحمل السلاح.

ومع وصول المفاوضات إلى طريق مسدود، وصل جواب الإمام على رسالة دولاجارد جازييه، وفيه كثير من التعنيف للفرنسيين ؛ حيث اتهمهم بمباغتة قلعة عبد الرب وقتل أفراد الحراسة، وحصار المدينة الذي تسبب بخسارة اقتصادية للميناء وللأهالي وحرمان خزينة الإمام من أكثر من ٢٠٠٠٠ قرش فضّي. وكان يعتقد بأنهم كغيرهم من الأمم جاءوا للاتجار وليس لديهم نوايا حربية، ولم يتوقع مطلقاً وقوع هذا العمل العدائي من طرف الفرنسيين. ومع ذلك سيغض الطرف ويعيد لهم امتيازاتهم السابقة، وسيعفي الفقيه أحمد من سلطاته، وأضاف الإمام بأن الأوروبيين وحدهم من يشكون من الفقيه أحمد الذي يلقى كل حب وتقدير من العرب. وقد عيَّن نيابةً عنه أمير الماس، وفوضه بعقد اتفاقية، ودفع ما لهم من ديون وفقَ ما هو مدوّن ومثبت في السجلات الحكومية.

أورد دولاجارد جازييه في مذكراته بأن اليمنيين عرضوا عليه مبلغ ٥٠٠٠ قرش فضي كمكافأة خاصة له، والتي رفضها، وقدَّموها على شكل تعويض. وبناءً على هذا العرض اجتمع دولاجارد جازييه بمستشاريه وقبلوا بها كتعويض لرد اعتبار الفرنسيين، خاصةً وأن بنود الاتفاقية تصب في صالحهم، على أن يضيف دولاجارد جازييه شرطاً بأن لا يتولى الفقيه أحمد وابنه عبد الله أية مناصب في ميناء المخا.

حمل هذا القرارَ الأخير كلٌّ من الأمير عليّ والمسيو كوربزاتر وعرضوه على مجلس المفاوضين اليمنيين وتمت الموافقة عليه. وطالب المفاوضون اليمنيون برفع علم الإمام على القلعة، وقد رفض القائد الفرنسي هذا الطلب حتى يوقع المفاوضون على الاتفاقية وتُرسَل إلى الإمام للتصديق عليها، وعرض عليهم فكّ الحصار عن المدينة حتى تعود الاتفاقية من صنعاء ويخلي القلعة.

بنود المعاهدة الجديدة

معـــاهدة بين الفرنسيين واليمنيين

بسم الله الرّحمن الرّحيم

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

هذا خطنا الكريم شاهد أمام الأمة الفرنسية، ومؤيدٌ لكل الاتفاقيات التي بين أيديهم، وممهور بتوقيعنا وختمنا الكريمين، ولا يجوز إحداث أيّ تغيير عليه.

قَدِمَ الفرنسيون إلى ميناء المخا السعيد وأعلنوا الحرب عليها بأمر من ملكهم الذي كلّف الشركة بإرسال سفن وقوات لمهاجمة المخا تحت ذريعة الضرر الذي تسبب به الفقيه أحمد بن يحيى خزندار حاكم المخا للفرنسيين دون علمنا، حيث ألغى الامتيازات الممنوحة لهم وما تم التعارف عليه، وأخذ منهم مبالغ بدون وجه حق.

ما إن وصل الفرنسيون إلى ميناء المخا حتى شنوا هجوماً واستولوا على قلعة عبد الرّب، وكتبوا إلينا لإطلاعنا على تفاصيل ما حصل. كلفنا السيدَ الكريمَ أمير الماس عبد الرحمن بأمرٍ منا لبحث طلباتهم وإعادة الامتيازات السابقة لهم ودفع ما لهم من أموال عبر الحاج هاشم الذي في خدمتنا ومسؤول عن هذا الأمر، ويتم ذلك بحضور القاضي محمّد بن زيد.

ما إنْ وصل أمير الماس حتى أبلغ الفرنسيين بالأوامر التي يحملها من جانبنا، وأطلعهم على خطابنا الكريم بتكليفه بهذه القضية، وطلب منهم أنْ يبعثوا بشخصين مِن طرفهم يكونان مفوّضَيْن بالتباحث معه حول مطالبهم. بعد أن اطلّع الفرنسيون على طلب أمير الماس، طلبوا منه أن يرسل لهم ثلاثة أشخاص من مسؤولي الحكومة للبقاء عندهم كرهائن، وعند وصولهم إليهم سيبعثون إليه بثلاثة أشخاص مكلفين بشؤون الشركة للتباحث معه. بعث أمير الماس بثلاثة أشخاص إلى الفرنسيين وأرسلوا بدورهم ثلاثة أشخاص للتباحث مع الحاكم بحضور القاضي. وقد تقدموا بكافة طلباتهم، والتي وافق الحاكم على جميعها بحسب

الشروط المذكورة أدناه بنداً بنداً، وبما يرد لهم الاعتبار ويحفظ لهم الامتيازات القديمة ويزيد عليها. كما طلبوا من الإمام تنحية الفقيه أحمد من حكومة المخا هو وأقاربه. وما إن وصلتنا رسالة أمير الماس، واطّلعنا على ما تمّ الاتفاق عليه، وافقنا على كل شيء، وتوقيعُنا وختمُنا الكريمان شاهدان بين أيدي الفرنسيين والأئمة القاسميين الذين سيخلفونني بالطريق القويم.

هذه معاهدة دائمة، والتعدي على أي بند منها يُعدّ تعدِّيَاً على المعاهدة بمجملها ومدعاة لنقض السلام. وعلى الله توكلنا هو مولانا ونعم النصير.

المادة الأولى: إعادة الأموال التي أخذها الفقيه أحمد بن يحيى خزندار للمسيو إنجران مدير الوكالة الفرنسية في المخا من بيت المال أو من مال الإمام. وهي مقابل ما أخذه الفقيه أحمد فوق الرسوم المقرّة إضافةً إلى مبلغ المال الذي استدانه الحاج هاشم لحساب بيت المال (ويصل مجموع هذه المبالغ إلى اثنين وثمانين ألف قرش فضي إسباني- بسيطة). وقد تعهد أمير الماس بدفع هذا المبلغ، وتعهد المسيو إنجران بإخلاء القلعة وتسليمها كما كانت عليه قبل الاستيلاء عليها، بمجرد تسلُّم أمرَ الإمام ممهوراً بختمه الكريم بدفع المبلغ المذكور أعلاه.

المادة الثانية: يحق للفرنسيين الإقامة في المخا أو في أي مناطق أخرى بهدف الاتجار، ويُسمح لهم باستئجار منزل أو عدة منازل، ورفع عَلَم ملك فرنسا فوق المنزل الذي سيقطنه رئيس البعثة، كدلالة لجميع الناس بأن الإمام على صداقة مع ملك فرنسا وبأن الرعايا الفرنسيين في حمايته وهم على أرضه.

المادة الثالثة: يحق للفرنسيين ممارسة طقوسهم الدينية بحرية في منازلهم وكذا عند دفن موتاهم.

المادة الرابعة: يحق للفرنسيين دخول اليمن ومغادرتها دون أي عراقيل، وممارسة الأعمال التجارية وبيع وشراء كافة أصناف البضائع دون استثناء، سواء في ميناء المخا أو في غيرها من الموانئ البحرية الخاضعة لسلطة الإمام.

المادة الخامسة: لا يدفع الفرنسيون سوى ما نسبته ٢.٢٥٪ كرسوم على كافة البضائع دون استثناء، في ميناء المخا وفي كافة الموانئ اليمنية، وينطبق ذلك على

البضائع الداخلة أو الخارجة، وعلى ثمن بيع أو ثمن شراء تلك البضائع المذكورة.

المادة السادسة: يحق للفرنسيين إخراجُ البضائع التي أدخلوها ولم يتمكنوا من بيعها في ميناء المخا أو في غيرها من الموانئ، ولا تفرض عليها أية رسوم.

المادة السابعة: لا يدفع الفرنسيون سوى نسبة ٢.٢٥٪ على البضائع التي يجلبونها إلى المخا على سفن أخرى غير فرنسية، وتُعامَل كمثيلاتها من البضائع التي تجلب على سفن فرنسية، وقد تعهدوا بعدم جلب بضائع يملكها آخرون تحت اسمهم وأقسموا على ذلك بالأيمان.

المادة الثامنة: يتعهد مدير الوكالة الفرنسية ويقسم اليمين بالتزامه نيابةً عن الفرنسيين بالإبلاغ عن البضائع التي يجلبها غير الفرنسيين على متن سفن فرنسية، ويرفع بذلك تقريراً للمسؤولين اليمنيين حال وصول السفن، كي يدفع هؤلاء الرسوم المقرّة عليهم حسب العرف.

المادة التاسعة: البضائع التي يجلبها الفرنسيون على متن سفن فرنسية أو سفن أخرى والتي تدخل عبر ميناء المخا أو غيرها تُنقل مباشرةً إلى الوكالة الفرنسية حيث تُعرض بحضور مسؤولين من الجمارك الذين يقومون بتدوين الأصناف والكميات، ومن ثم لا تنقل إلى الجمارك سوى البضائع التي تحتاج إلى وزن، ويتم ذلك بعد بيعها وقبل تسليمها للتاجر المشتري.

المادة العاشرة: تنقل الملبوسات والمأكولات والمشروبات المخصصة للاستخدام الشخصي للفرنسيين إلى الوكالة مباشرةً، بحيث يتم عرضها على مسؤولي الجمارك، ولا يدفعون عنها أية رسوم باستثناء القطع التي ما زالت في صناديقها. وعند الخروج أيضاً تعفى الملبوسات والمأكولات والماء الذي تتزود به السفن.

المادة الحادية عشر: يحق للفرنسيين استخدام الزوارق والقوارب التابعة لسفنهم في نقل البضائع والمؤن والأغراض التابعة لهم عند الدخول أو الخروج من الميناء، ولا يحق لحكومة المخا منعهم من ذلك، كما يحق لهم استخدام قوارب الميناء ودفع رسوم النقل المتعارف عليها في حالة احتياجهم لذلك.

المادة الثانية عشر: فيما يتعلق بنسبة الـ ٥٪، التي فرضها حاكم المخا الأسبق خلال السنة الأخيرة على التجار الذين اشتروا البضائع من الفرنسيين، يُعفى هؤلاء التّجار من دفع مبالغ مماثلة في المستقبل لَمَ في ذلك من ضررٍ على الفرنسيين وغيرهم.

المادة الثالثة عشر: فيما يتعلق بالبضائع التي يبيعها الفرنسيون للتجار في موسم الرياح، أو البضائع التي لم يتم بيعها في نفس الموسم وتباع في موسم الشتاء، وفي حال بلوغ ميعاد الدفع، تلتزم حكومة المخا بإجبار التجار الذين يرفضون دفع ما عليهم للفرنسيين بالسداد.

المادة الرابعة عشر: يُلزِم الإمامُ حاكمَ المخا بعدم طلب مبالغ من الفرنسيين كسلفة، وعدم إكراه الفرنسيين على بيعه بضائع لتوزيعها على التجار، وليس على الفرنسيين أن يعطوه أموالاً أو بضائع. وعلى المسؤولين اليمنيين عدم الضغط على الوسطاء والدلالين الذين يعملون لحساب الفرنسيين بهذا الشأن، وعدم إيداعهم السجون أو منعهم من دخول الوكالة الفرنسية. وعلى المسؤولين اليمنيين عدم منع التجار اليمنيين من دخول الوكالة الفرنسية بغرض الاتجار، كما كان يفعل الفقيه أحمد كي يكره الفرنسيين على دفع مبالغ مالية.

المادة الخامسة عشر: للفرنسيين حرية اختيار السماسرة والدلالين كما يروق لهم دون تدخل من الحكومة اليمنية في هذا الشأن، ويتمتع هؤلاء السماسرة والدلالون والكتبة اليمنيون الذين يعملون في خدمة الفرنسيين بالحماية التي يحظى بها الفرنسيون.

المادة السادسة عشر: في حال نشوب خلاف بين أحد الفرنسيين وأحد الرعايا اليمنيين، فإن القضية تنظر أمام الحكام الذين ينبغي عليهم تحقيق العدالة بحيادية، وفي حالة عدم الرضا بالحكم، فيحق لمدير الوكالة الفرنسية عرض الأمر على الإمام للبت في الحكم، وفي كل الحالات لا يجوز لأحد غير الحكّام النظر في القضايا الخلافية.

المادة السابعة عشر: يحق لمدير الوكالة الفرنسية أن يرسل بمبعوثين فرنسيين إلى مقام الإمام، وأن يبعث برسائل، دون أن يتعرض للمنع من قِبل حاكم المخا أو

غيره من المسؤولين أيّاً كانت الحجة، وعلى مدير الوكالة إبلاغ الحاكم فقط لتأمين وصول البعثة.

المادة الثامنة عشر: إذا أخلَّ أحد الفرنسيين بالنظام في المخا، أو تعرَّض لأحد المواطنين في المخا أو خارجها، فعلى حاكم المدينة أن يشكوه إلى مدير الوكالة الفرنسية لمعاقبته وفقاً لقوانينهم.

المادة التاسعة عشر: إذا فرّ أحد الفرنسيين أو أحد خدّامهم أو عبيدهم ولجأ للحاكم أو لشخص آخر من رعايا الإمام، فعليهم إرجاعه إلى مدير الوكالة إذا طالب به.

المادة العشرون: فيما يتعلق بشكوى الفرنسيين من سماح الفقيه أحمد للبحّارة المسلمين والهنود مغادرة السفن في المخا، قبل انتهاء فترة خدمتهم المتفق عليها مع القباطنة الفرنسيين، فعلى حاكم المخا عدم السماح لهم بمغادرة السفن الفرنسية في ميناء المخا أو غيرها من الموانئ إلا لمن يحمل إذناً مكتوباً من قبطان السفينة.

المادة الواحدة والعشرون: يحق لقباطنة وضباط وطاقم السفن الفرنسية استخدام زوارقهم وقواربهم بحريّةٍ في أيّة ساعة أثناء الليل للإبحار إلى سفنهم دون أن يتم توقيفهم من قبل ضابط الميناء بحجة طلب الإذن من الحاكم، ونفس الأمر ينطبق على الفرنسيين الذين يرغبون في قضاء غرضٍ لهم في المرسى. إذا رغب مدير الوكالة الفرنسية الصعود إلى السفن الفرنسية الرّاسيةِ، فعليه إبلاغ الحاكم، بحيث يستقبله ضابط الميناء بحفاوة.

المادة الثانية والعشرون: يُلزم الإمامُ حاكمَ بيت الفقيه بعدم طلب سلف مالية من الفرنسيين أو بضائع لتصريفها على التجار، وكذا عدم مضايقة السماسرة أومنعهم من الدخول إلى الوكالة الفرنسية، كونهم يعملون لحساب الفرنسيين وكذا مستخدميهم. والامتناع عن استدعائهم من أماكن خدمتهم دون إبلاغ مدير الوكالة عن موضوع الاستدعاء. عند احتياج الفرنسيين الذين يقومون بشراء البُن من بيت الفقيه لأثقال الوزن الجمركية، ترسل لهم هذه الأثقال إلى الوكالة، وإذا تطلّب الأمر المعايرة والتدقيق، يأمر الحاكم بذلك بمعدل مائتي أوقيّة للفراسلة كما

جرت عليه عادة الوزن في بيت الفقيه. إذا اشتكى الفرنسيون من التجار الذين يبيعونهم حبوب بُن متسخة كثيراً ويرفضون تنظيفها في الجمارك كما جرى عليه العرف فيما مضى، فعلى الحاكم أو الكيّال أن يقدّر مدى اتساخ البُن ويُلزم التاجر بتنظيفها إذا اقتضت الحاجة. كميات البن التي تتحصّلها الجمارك ويعيد الحاكم بيعها نهاية كل شهر على التجّار الحاضرين كلٌّ بحسب نسبة الكميات التي اشتراها، لا يتم بيعها للفرنسيين إلا بمقدار ثمن الكميات التي اشتروها خلال فترة الشهر. تكاليف نقل البُن الذي لا يرغب الفرنسيون في شرائه من الوكالة الفرنسية إلى الجمارك تكون على حساب مُلّاك البُن. ليس على الفرنسيين دفع مبلغ خمسة قروش لحاكم بيت الفقيه مقابل حمولة كل جمل من البُن الذي ينقلونه إلى المخا، تحت ذريعة توفير الحراسة على طول الطريق، وحثّ الجمّالين على إيصال حمولة البُن بسرعة والمحافظة عليها. وفي حال القيام بالفعل بنشر حراسة على الطريق ولم يتذمر الفرنسيون من التأخير ولا من الاعتناء بحمولة البُن، فسيدفعون الخمسة قروش مقابل حمولة كل جمل. على الفرنسيين دفع أجرة حاكم بيت الفقيه بمعدل قرش فضي عن كل بهار[1] من الكمية التي يشترونها.

المادة الثالثة والعشرون: يغلق حاكم المخا الحساب مع مدير الوكالة الفرنسية نهاية كل موسم وكذا قبل رحيل كل سفينة فرنسية، دون التسبب في التأخير بحجة رسوم الدخول والخروج وما على الفرنسيين لبيت المال أو خزينة الإمام. بحيث يتم دفع إجمالي الحساب من قبل مدير الوكالة لحاكم المخا في هذين الأجلين فقط.

المادة الرابعة والعشرون والأخيرة: على حكّام الموانئ والمدن الأخرى ورعايا الإمام التعامل مع الفرنسيين باحترام وإكبار. ومن حقهم ركوب الخيل للتنزه، دون مضايقة الحكام وفرض أعرافٍ جديدة قد تضر بهم. بل يجب التعامل معهم بالحُسنى، وبما يميّزهم أكثر عن الجنسيات الأخرى، حتى يعلم الجميع بأنّ لهم اعتباراً خاصاً لدينا، وبما يحفظ عهدنا لهم.

وعلى الله توكلنا وهو الكافي وهو المعين.»

---

(١) البهار : يعادل وزن عشرة أكياس (١٠ جواني).

يروي دولاجارد جازييه في مذكراته بأنّه ومع شروق شمس يوم التاسع من شهر مارس عام ١٧٣٧ أعطى أوامره بإطلاق العيارات النارية من القلعة التي سيطر عليها وكذلك من السفن الفرنسية احتفاءً بعقد معاهدة السلام، وقد ردت القلاع وحامية المدينة بالمثل. وقد نشب خلاف بين أمير الماس حاكم المخا وقائد قوات سيدي أحمد أمير تعز، الذي كان مُصرّاً على إرسال قوات لإخلاء القلعة بالقوة، وقد عارضه أمير الماس بشدة وبما يعطي الانطباع بانكشاف مشروعه ونوايا أمير تعز في السيطرة على المخا. وقد وجد القائد الفرنسي في هذا الخلاف عاملاً إيجابيّاً يدفع بالتسريع في التصديق على المعاهدة التي كانت تصب في صالح الفرنسيين. لم يكتف القائد «الوادعي» بالتهديد، بل أرسل بقوات إلى الجانب الآخر من اللسّان المقابل لموقع الفرنسيين، وقامت بإطلاق النار على موقع الفرنسيين، وحصل تبادل طفيف لإطلاق النار دون أن يكون هناك ضحايا قبل أن تنسحب قوات «الوادعي».

هذه الحادثة علّمت دولاجارد جازييه أن يظلّ في حالة استنفار دائم، خاصةً مع استمرار توافد القوات بشكل يومي إلى المخا، وقد أرجع القائد الفرنسي ذلك لإدراك الإمام لأطماع أخيه حاكم تعز وللتهيؤ لردع قواته إن تطلّبَ الأمر.

عاد القلق يساور القائد الفرنسي مع تأخر عودة المعاهدة من صنعاء التي أُرسلت للتصديق عليها مِن قِبل الإمام، خاصة بعد أن تناهى إلى سمعه أن القوات اليمنية تُحضّر لهجوم كاسح، مما اضطره كنوع من المناورة أن يرسل لحاكم المخا عبر مدير الوكالة بأنه إذا لم تصل المعاهدة خلال يومين فإن الهدنة تعتبر في حكم المنتهية وبأنه سيستأنف الحرب.

وصلت المعاهدة أخيراً، وقيل إنّها تأخرت بسبب احتجاز المبعوث في منطقة موزع لعدة أيام. وفي اليوم التالي من وصول المعاهدة، طلب حاكم المخا من القائد الفرنسي إخلاء القلعة طالما وأنّ كل شيء تمّ حسب الاتفاق. وألحَّ عليه بأن يتم ذلك في أقرب وقت ممكن حتى لا يبقى للقوات الوافدة التي بدأت تثير القلق أي مبرر للتواجد. في اليوم التالي أطلقت السفن الفرنسية خمسة عشر قذيفة احتفاءً بالمصادقة على المعاهدة، واقتربت السفن الفرنسية من الشاطئ لتسهيل

نقل الجنود والمعدات، والاستعداد لتسليم القلعة، وقد حضر مندوب الإمام بعد الظهر برفقة بعض القوات وتسلَّم القلعة.

يقول دولاجارد جازييه بأن القائد «الوادعي» قام بزيارته على متن السفينة بعد بضعة أيام من إخلاء القلعة، وكان يتفحص السفينة بفضول غير عادي، ووصفه بأنه شخص عميق الغور. وبعد ثمانية أيام من توقيع المعاهدة قام القائد الفرنسي وحاشيته بزيارة لحاكم المخا أمير الماس والذي استقبله بحفاوة كبيرة، وكان معه القاضي، وخرج الأهالي مرحبين ومعبرين عن سعادتهم بعودة السلام للمدينة. وكان برفقة دولاجارد جازييه حراسة مشددة بكامل ذخيرتها وخاصة «القنابل اليدوية».

يروي دولاجارد جازييه، أنَّ الإنجليز كان لهم رعايا يعانون من تصرفات حكومة المخا، فأرادوا اغتنام الفرصة، حيث ظهرت على الشاطئ ثلاث سفن حربية إنجليزية، جاءت حسب قوله للمطالبة بالتعويض جراء ابتزاز الفقيه أحمد للرعايا الإنجليز، وبدأت باستعراض القوة، وقد سرّع الإمام بإعطاء أوامره لحاكم المخا بمعالجة قضايا جميع الأوروبيين. أبلغ القائد الفرنسي الإنجليز بعدم القيام بأية أعمال حربية قبل التشاور معه، ولم يعطه الإنجليز أي رد حول ذلك.

وما إن ظهرت سفن تجارية في أعالي البحر قادمة من جهة الجنوب حتى تسابق الإنجليز والفرنسيون للاستيلاء عليها، فاستولى الإنجليز على سفينة كانت متجهة صوب جدة واستولى الفرنسيون على الأخرى التي كانت قادمة للمخا. ظل الطرفان يتنافسان في ممارسة أعمال القرصنة في المياه العميقة قبالة سواحل المخا، ويقول دولاجارد جازييه بأنه كان يسلم السفن لحاكم المخا لاستخلاص الرسوم منها وسداد المبلغ الذي أقرته المعاهدة.

بعد أن تحصل دولاجارد جازييه على المبلغ المتفق عليه، وأمام المرض الذي فتك بكثير من الجنود الفرنسيين والبحّارة، ولم يستجب لأي دواء، لدرجة أن الحمى قضت في الأيام الأخيرة على اثنين من كبار مساعديه، قرر دولاجارد جازييه مغادرة ميناء المخا بمجرد أن ينتهي من تحميل شحنة البُن التي تبلغ ١٥٠٠ كيس.

وبعد مرور أكثر من خمسة أشهر من صول السفن الحربية الفرنسية لمهاجمة ميناء المخا، غادرت هذه السفن الميناء بتاريخ ٢١ يونيو ١٧٣٧م. وعاد قائدها يحمل معاهدة مجحفة بحق اليمنيين، أعطت للفرنسيين كافة الامتيازات، ومنحتهم الحق في الإقامة في مدينة المخا وشراء الأراضي فيها. وأقيمت بموجبها علاقات دبلوماسية مباشرة بين الإمام وملك فرنسا عن طريق فتح قنصلية فرنسية في ميناء المخا.

وقد بدأت ثمار هذه المعاهدة تؤتي أُكُلها على الفور، فتمت الموافقة على تنصيب المسيو/ إنجراند Ingrand، مسؤول الوكالة التابعة لشركة الهند الشرقية الفرنسية في المخا- قنصلاً لفرنسا.

شهادة دولاجارد جازييه بحق اليمنيين

في رسالة وجهها دولاجارد جازييه إلى الأسقف الذي قام بكتابة مذكراته، ضمنها شهادة هامة بحق اليمنيين موجهةً للفرنسيين وللتاريخ، ولأهمية ما جاء في هذه الرسالة قمنا بترجمتها كاملة كما هي عليه:

« رسالة من السيد دولاجارد جازييه إلى قداسة الأسقف ديفونتن:

رداً على استفساركم عن سلوك اليمنيين معنا بعد التوقيع على المعاهدة ومصادقة الإمام عليها. سأترككم تحكمون بنفسكم من خلال الرواية التي سوف أسردها لكم هنا عن هذا الشعب الذي لا نعرف عنه في أوروبا إلا القليل. باستثناء بعض الغوغائيين الذين يتصفون بالفجاجة والوحشية، يتسم هذا الشعب بشكل عام بكثير من النبل والصدق وبما ينافي إضفاءنا في فرنسا صفة (العربي) على الشخص اللئيم، الفج، القاسي والظالم.

ساعدت المواد الغذائية التي فرضنا على حاكم المخا تزويدنا بها إلى مواقعنا، على إيقاف انتشار الحمى الخبيثة والدستناريا والجفاف، ثلاثة أمراض معدية انتشرت على متن سفننا، مما اضطرني للذهاب بقوة صغيرة والمغامرة في مداهمة العدو كوسيلة وحيدة للضغط عليه وإخراجنا من هذا المأزق الحرج. بعد الانتهاء من عقد المعاهدة انسحبنا مجدداً إلى متن السفن، وهناك كانت قواتنا أكثر تقارباً وتزاحماً منْ على الأرض وتزايدت العدوى بشكل مرعب، حيث أصابت العدوى بهذه الأمراض ١٥٠ رجلاً خلال خمسة عشر يوماً، مما اضطرني لاستئجار ثلاثة منازل في المدينة ليسكنوا فيها، حتى تسكن الرياح العاتية التي منعتنا من مغادرة البحر الأحمر واستمرت قرابة أربعة أشهر.

كنت أخشى كثيراً تراجع اليمنيين عن المعاهدة بعد اطلاعهم على وهننا وقلة حيلتنا، ووجود أكثر من ٢٠٠ شخص تحت قبضتهم ومن ضمنهم موظفو الوكالة

الفرنسية، والعديد من ضباط الحملة. كان بإمكانهم التراجع دون أدنى رهبة وفرض الأمر الواقع علينا. ومع هذا لم يلقوا بالاً لاستغلال الموقف وحالة ضعفنا، بل على العكس ظل الحاكم وكبار الضباط اليمنيين يوجهون بتقديم الغذاء وحتى الدواء المتوفر في بلدهم. وعندما كنّا نضطر لدفن ميت، كانوا يرسلون معنا حراسة لمنع بعض الغوغائيين من السب في مواقف تكاد تكون نادرة. كنا عندما نمشي في الشارع يتنحى الناس يميناً ويساراً لإفساح الطريق أمامنا.

وفيما يتعلق بكافة المعاملات التجارية كان الحاكم ومعه القاضي يصغون باهتمام بالغ لمطالبنا، ويعملون دوماً على انصافنا. وكلّما كنت أنزل إلى اليابسة، كان أمير البحر (ضابط الميناء)، أو أحد أعوانه في استقبالي دوماً عند نزولي من القارب، ويرافقونني في معظم الأحيان عندما أغادر إلى السفينة.

قبل سفري بأيام تلقيت حصاناً من الإمام كهدية، وهي تعد حسب الأعراف هدية معتبرة جداً. وفوق هذا كلّه، لم نواجه أي نوع من الاختلاس أو التحايل من قبل المسؤولين عن الشؤون العامة أو الشؤون التجارية. ويحتفظ ضباط الجمارك بسجلات دقيقة جداً، وتقيدّ في هذه السجلات كافة المبالغ المحصّلة، حتى تلك التي أُخذت فيما مضى من الفرنسيين دون وجه حق أُظهرت دون أدنى مواربة. عندما طالب الإنجليز بالمبالغ التي استقطعت منهم بغير حق، زادوا على المبلغ المستحق لهم مبلغ ٥٠٠٠٠ قرش فضي، وما كان من مدير الجمارك إلا أن اتهمهم جهاراً بالتدليس، وأعطاهم كشف حسابهم بدقة أجبرتهم على الاعتراف بمصداقيته. أخيراً لا يسعني سوى الإطراء وبكل احترام بنزاهة اليمنيين وبسمو أخلاقهم.

صحيح أنَّ تصرفات حاكم المخا السابق الفقيه أحمد مختلفة تماماً، وأننا قررنا منذ عدة سنوات تقويم الأمر لإنهاء ابتزازه التعسفي، ولكن كنا نتراجع دوماً عن اللجوء لخيار الحرب خشية الفشل وعواقبه الوخيمة، خاصة وأن اقتصادنا في مستعمرة بونديشيري كان يعتمد كلّياً على تجارتنا في البحر الأحمر، التي ازدهرت بشكل كبير في عهد حاكم بونديشيري الأسبق السيد لونوار Le Noir، الذي يشغل اليوم منصب مدير شركة الهند الشرقية في باريس. ولو كانت حملتنا فشلت في مسعاها، لكان اليمنيون فرضوا على سفننا عدم الاقتراب من مرفأ المخا، ولَفرضوا علينا رسوماً باهظة على

أقل تقدير، ولن يكون هناك أي مجال للتفاوض، وفي حالة السماح لنا باستيراد البُن فسيكون ذلك ضمن شروط مجحفة. وكانت الخسارة الكبرى تكمن في اهتزاز صورتنا أمام شعوب الهند خاصة في منطقة سورات وفي بلاد الفرس.

لقد جلبت حملتنا كثيراً من الضجيج، وانتظر الناس بفارغ الصبر نجاحها أو فشلها للتعامل معنا حسب النتائج. لقد كان تجار سورات إلى ما قبل انتهاء الحملة يحملون جوازات برتغالية أو انجليزية، وكانوا يحتقرون الجوازات الفرنسية. حرصوا بعد ذلك ومنذ مغادرتي المخا متجهاً إلى بونديشيري على اصطحاب رسائل توصية مفتوحة من ممثلينا هناك. تاجر فقط رفض الحصول على جواز، وقد أوقفته على متن سفينتي لمدة ثمانية أيام، وكنت سأبقيه أكثر من ذلك لولا تدخل حاكم المخا والقاضي وطلبهما مني العفو عنه وإطلاق سراحه.

أصبح لحملتنا شأنٌ وذاع صيتها في أنحاء البلاد العربية، ووصل إلى بلاد فارس، حيث جهَّز تاماس كوليكان Tamas-Coulikan جيشاً بحرياً لاستعادة مملكة مسقط التي كانت فيما مضى تحت سلطة الفرس. وقد رسا هذا الأسطول في ميناء بندر عباس، حيث كان من المفترض أن أبحر إليها على طريق عودتي لاستعادة مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه احتجزت على تجارنا البنغاليين. وقد تصادف في الوقت ذاته مرور سفينة فرنسية كان يرسلها حاكم الجزيرة الفرنسية إلى الخليج، وما إن رآها قائد الأسطول البحري الفارسي حتى ظنها إحدى سفني الحربية وأمر بإطلاق قذائف لتحيتها من على متن سفنه. قائد السفينة الفرنسية الذي لم يكن على علم بما حققته حملتنا تفاجأ بذلك، ولم يدرك أنه المقصود بالتحيّة، ولم يرد عليها، ومع ذلك لقي معاملة حسنة من الضباط الفرس. سفينة حربية أخرى جهزها السيد دوبلكس Dupleix مدير الوكالات الفرنسية في جانج Gange، وتمكن من عقد صفقات تجارية مربحة جداً بعد نجاح هذه الحملة، في حين كانت تجارته متعثرة لعدة سنوات.

لا ريب بأن هذه الحملة رفعت كثيراً من قدر أمتنا في جميع أنحاء الهند، وخاصة في منطقة سورات حيث لم يكن لنا أي اعتبار. مع احترامي لسيدي.

خادمك المتواضع المطيع – دولاحارد جازييه.»

الباب الرابع

قضيّة منطقة «الشيخ سعيد»

قضيَّة منطقة الشيخ سعيد[1]

ما إن أصبحت فكرة شق قناة السويس حقيقةً وشيكةَ التنفيذ، حتى بدأ الفرنسيون عام ١٨٥٨ في البحث عن مناطق مشاطئة للبحر الأحمر لتأكيد نفوذهم وإيجاد موضع قدم دائم لهم، ولإقامة مستودعات للفحم ومراسٍ بحرية لتزويد السفن المتجهة إلى الهند وإلى شرق أفريقيا بالوقود وبالمستلزمات الأخرى.

ولتحقيق هذه الغاية نشط القناصل الفرنسيون في توثيق علاقاتهم بزعماء القبائل المتاخمة للشواطئ الصومالية وخليج تاجورا (جيبوتي). وقد تمكن أحد الفرنسيين من أصول إسبانية يدعى بونافنتور ماس Bonaventure Mas، كان مقيما في مدينة عدن ويعمل ممثلاً لوكالة فيدال فرير Vidal Frères المرسيلية في زنجبار، وقد عُرف عنه نشاطه في أعمال الرق والنخاسة[2]، تمكّن من إقامة علاقات مع الشيخ علي ثابت دُرين، شيخ باب المندب ومنطقة الشيخ سعيد، وساومه على شراء منطقة رأس الشيخ سعيد الواقعة في أقصى جنوب البحر الأحمر، قبالة جزيرة بريم. وقد وجد السيد ماس، في منطقة الشيخ سعيد، منطقةً استراتيجيةً تصلح كمرسًى للسفن، ومركزٍ للتبادل التجاري. وكانت المشكلة الوحيدة تكمن في الكُلفة المالية اللازمة لتهيئتها لاستقبال السفن ذات الحمولات الكبيرة.

استطاع المسيو ماس، إقناع الشيخ علي ثابت دُرين بفكرة بيع منطقة الشيخ سعيد، دون عناء؛ لحاجة الأخير الماسة للمال، ولرغبته في تقييد النفوذ البريطاني المتزايد في المنطقة. ولكون إمكانات المسيو ماس المالية ضئيلة فقد لجأ إلى مستثمر فرنسي يدعى بوالي Poilay ، والذي كان يعمل في شركة قناة السويس، قبل أن يصبح رجل أعمال لحسابه الخاص، وكان يُعدّ المزوّد الحصري للجيش الإنجليزي بقيادة السير روبرت نابيه Sir Robert Napier، الذي هزم إمبراطور الحبشة ثيودوروس النجاشي

---

(١) اعتمد هذا الباب بشكل كبير على تقرير «سرّي»، أعدته وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٣٩ تحت عنوان «حقوق فرنسا على منطقة الشيخ سعيد»، وتم توزيعه على الرئاسة والدوائر المعنية بالخارجية، ووزارة الحرب، والبحرية والجوية، ، ورئاسة مجلس المستعمرات، وكافة البعثات الدبلوماسية في الخارج، وقد أرشف تحت رقم (c-41-1).

(2) Gérald ARBOIT, 2000, Aux sources politiques arabes de la France, le second empire au machrek, l'Harmattan, p.276.

Negussse Téwodros، في معركـة أروجيـه Arogé في ١٠ أبريـل مـن عـام ١٨٦٨. وضعت هذه الحرب أوزارها فجأة على غير المتوقع بموت ثيودوروس، وتسببت في كساد كبير في أعمال السيد بوالي، مما دفعه للموافقة على فكـرة السـيد مـاس في شـراء منطقة الشيخ سعيد، لتعويض خسارة الركود.

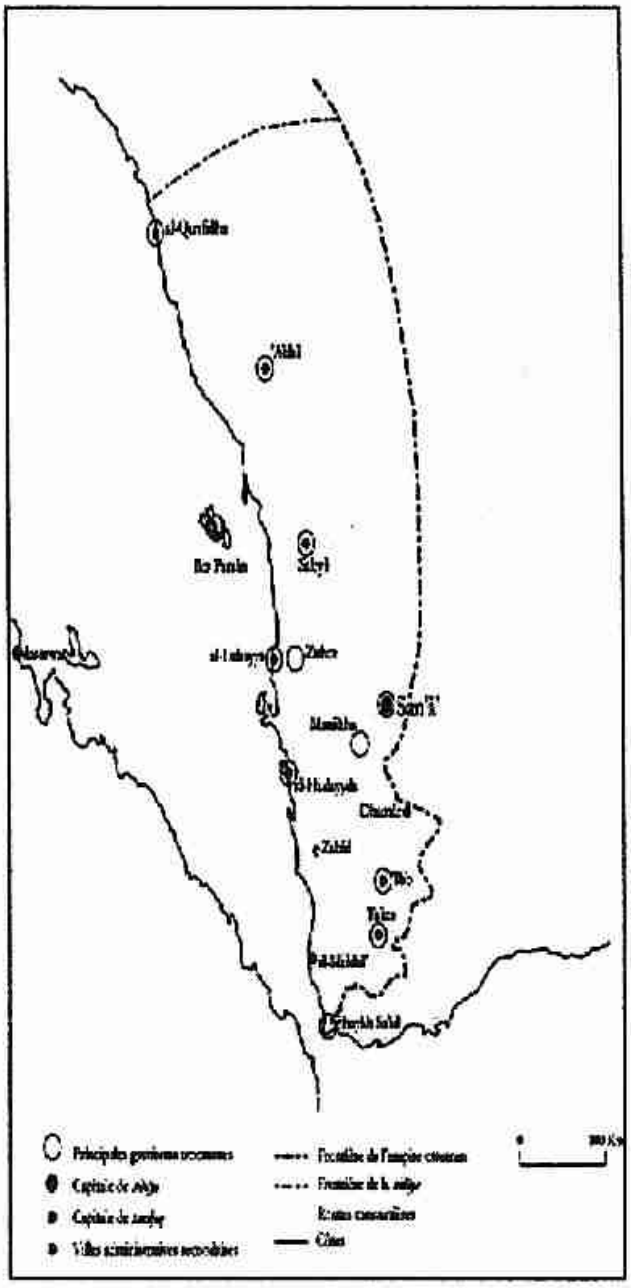

إحداثيات الخريطة[1] ويظهر فيها موقع منطقة الشيخ سعيد

O الحاميات العثمانية الكبرى

•عاصمة الولاية

•عاصمة السانجاق

•مُدن إدارية ثانوية

-------حدود الإمبراطورية العثمانية

_ _ _حدود الولاية

_____طرق القوافل

_____شواطئ

(1) Source [المصدر]: Bury, 1915 ; Ingrams 1993, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée.

وفي مطلع شهر أكتوبر من عام ١٨٦٨ وقعّ الفرنسيان ماس وبوالي مع الشيخ علي ثابت دُرين عقداً لشراء منطقة الشيخ سعيد، تنازل الشيخ علي دُرين بموجبه عن منطقة تمتد من رأس الشيخ سعيد وعلى مسافة ست ساعات سَيْراً على الأقدام وفي جميع الاتجاهات، وذلك مقابل (٤٤٠٠٠٠ فرنك) تدفع خلال فترة ستة أشهر. وبعد دفع بعض الأقساط، وجد التاجران الفرنسيان نفسيهما عاجزَين عن سداد بقية المبلغ، وبسبب رفض الحكومة الفرنسية مساعدتهما، اضطرا للتنازل عن حقهما في الأرض لشركة بازان & رابو المارسيلية La maison Bazin&Raboud، مقابل (٢٠٠٠٠ فرنك).

بعد موافقة الشيخ علي ثابت دُرين على هذا التنازل، وقعت شركة بازان ورابو معه وثيقة ملكية في ديسمبر ١٨٦٨ وسُجّلت في القنصلية الفرنسية في عدن. وقد ذكرت الاتفاقية مجدداً حدود الأرض المباعة والتي تبدأ من رأس الشيخ سعيد وعلى مسافة ست ساعات مشي وفي كافة الاتجاهات، ونصت على أن يتلقى الشيخ دُرين مبلغ (١٠٠٠٠) فرنك شهرياً خلال عام ١٨٧٠، وعلى أنْ يستلّم بقيّة المبلغ الذي يصل إلى (٤٠٠٠٠٠) فرنك في الأول من سبتمبر من نفس العام ١٨٧٠.

الصراع الدوليّ على منطقة الشيخ سعيد:

لم يأبه البريطانيون في بداية الأمر لتحركات السيد ماس وسعيه لشراء منطقة الشيخ سعيد، ولكن وبعد أن تمّ التنازل عن المنطقة لشركة فرنسية حتى دخلت منطقة الشيخ سعيد دائرة الصراع الفرنسي البريطاني العثماني، فقد انتاب البريطانيين القلق من سعي الفرنسيين إلى تملك مرسى بحري لا يبعد عن جزيرة بريم التي كانت خاضعة لسيطرتهم سوى خمسة كيلومترات ونيف، فعملوا كلّ ما بوسعهم لإثارة انتباه العثمانيين وإقناعهم بتقديم احتجاج رسمي عن طريق الحاكم العثماني للحديدة.

شعرت شركة بازان & رابو، بخطورة معارضة البريطانيين والعثمانيين، فطلبت من باريس التدخل لحماية ممتلكاتها وتمكينها من استثمارها. تفاعل وزير البحرية الفرنسي مع القضية، وكلّف في شهر فبراير ١٨٦٩ ضابطاً بحرياً كبيراً

يدعى موشي Mouchez للذهاب إلى المنطقة ودراسة الأمر عن قرب. في الوقت ذاته وجه المسيو/ بلاس M. Place القنصلُ العام الفرنسي في كالكوتا، المسؤولَ القنصليَّ الفرنسي في عدن، بتقديم الدعم اللازم للمُلَّاك الفرنسيين. وعند وصول هذا الضابط إلى عدن أطلعه القنصل الفرنسي على رسالة العثمانيين الاحتجاجية التي يؤكدون فيها أنَّ منطقة الشيخ سعيد هي جزء من الإمبراطورية العثمانية، ويعربون فيها عن تذمرهم من تعدي الشيخ دُرين على حقوق الباب العالي.

وقد جاء في تقرير المبعوث الفرنسي الذي أرسله لوزير البحرية إشادته بالقيمة الاستراتيجية والتجارية لمرسى «الشيخ سعيد»، وتأكيده على حاجة المرسى إلى أموال طائلة لتهيئته، إذا ما وافقت الحكومة الفرنسية على عرض شركة بازان & روبو وشراء الأرض لحسابها.

أما من الناحية السياسية فقد كان رأي المبعوث الفرنسي مخالفاً لتملك الحكومة الفرنسية لمنطقة «الشيخ سعيد»، رغم تأكيده على أهمية الأرض كمنطقة تجارية لشركة فرنسية، إلا أنّه رأى أن تحويل الأرض إلى ملكية الدولة سيضع فرنسا أمام خيارات صعبة لبسط نفوذها على المرسى، وقد دلّل على رأيه هذا بحجج منها:

- شعور البريطانيين بالتهديد المباشر إذا ما رفعت فرنسا علمها في منطقة يخضع معظمها لنفوذهم، مما يجعل الخيار العسكري أمراً وارداً.

- وجود منطقة «الشيخ سعيد» على مرمى حجر من القوات البريطانية المرابطة في جزيرة بريم التي تخضع لسلطتها.

- خضوع كافة المناطق المشاطئة للبحر الأحمر والتي تمتد من ميناء عدن وحتى باب المندب للنفوذ البريطاني.

- ولاء معظم مشايخ القبائل المحيطة بمنطقة الشيخ سعيد للبريطانيين.

وفي ختام تقريره، أوصى المبعوث الفرنسي بأن بقاء منطقة الشيخ سعيد ملكية خاصة لشركة فرنسية يفي بالغرض للاستفادة الكاملة من جميع المزايا التي تقدمها

المنطقة، ولن تُقدِم بريطانيا في هذه الحالة على عمل عدائي تحت ذريعة بعض الخسائر التجارية التي قد تتعرض لها من جرّاء بناء مرسى فرنسي في منطقة «الشيخ سعيد». وفي حال أي اعتداء سيكون من حق الحكومة الفرنسية الدفاع عن مصالح رعاياها إذا ما اقتضى الأمر، وستكون فرنسا في موقف المدافع لا في موقف المعتدي.

عندما نما إلى علم البريطانيين المخاوف والمحاذير التي تثني فرنسا عن احتلال منطقة الشيخ سعيد، ووجدوا أن فكرة إثارة العثمانيين لم تحقق مبتغاهم، دخلوا في عملية تفاوض مباشر مع الشيخ علي ثابت دُرين، وعرضوا عليه شراء منطقة الشيخ سعيد مقابل (٤٠٠٠٠٠) فرنك تدفع في الحال، إضافةً إلى (٥٠٠٠٠) فرنك التي سيضطر الشيخ علي ثابت دُرين لدفعها للفرنسيين مقابل فسخ عقد البيع.

وأمام رفض الشيخ دُرين لهذا العرض، أعلن البريطانيون الحرب ضده، وألّبوا عليه القبائل المحيطة بمنطقة الشيخ سعيد والقريبة من عدن. وفي ١٥ أبريل ١٨٦٩ زحف ما يقارب الـ ٣٠٠٠ من رجال القبائل وهجموا على منطقة الشيخ سعيد ودخلوا في مواجهات مع الشيخ علي ثابت دُرين وأعوانه الذين يبلغ عددهم ٧٠٠ شخص، فقتلوا منهم الكثير وسلبوا ونهبوا أملاكهم وماشيتهم.

تسارعت الأحداث حول منطقة الشيخ سعيد، فلجأت شركة بازان & رابو La Maison Bazin&Raboud إلى تبنّي سياسة الأمر الواقع، وأرسلت في ٢٤ أبريل ١٨٧٠ سفينة «لونيون» L'Union، التي انطلقت من مارسيليا، بقيادة القبطان سوشون، Souchon، ووصلت منطقة الشيخ سعيد في ٣٠ مايو ١٨٧٠ لبسط سيطرتها على الأرض. اضطر هذا الإجراء وزيرَ البحرية الفرنسية إلى إرسال السفينة الحربية بروات Bruat، لمراقبة الوضع عن كثب دون التدخل المباشر.

محطات التدخل الرسمي الفرنسي:

رغم إعلان الحكومة الفرنسية في يونيو ١٨٧٠ عدم رغبتها في حيازة منطقة الشيخ سعيد رسمياً بسبب الصعوبات السياسية والمادية الناجمة عن الاستفادة من

هذا الموقع، وتلافياً لأية مواجهات عسكرية مع انجلترا، إلا أن الحكومة الفرنسية تدخلت رسمياً في عدة محطات:

- عندما علمت الحكومة الفرنسية بأن حاكم المخا قد أرسل في ٢٢ يونيو ١٨٧٠ خمسين جندياً تركيّا يساندهم ٢٥٠ مقاتلاً من أبناء القبائل لمراقبة الموقع ورصد تحركات التجار الفرنسيين، أعطت أوامرها لقائد السفينة الحربية بروات Bruat بأن يظل على أهبة الاستعداد للدفاع عن الرعايا الفرنسيين. كما وجهت سفيرها في القسطنطينية السيد بوريه Bourré للاحتجاج لدى الباب العالي على التدخل العثماني.

- مع اندلاع الحرب الفرنسية- الألمانية [1](البروسية) (١٩ يوليو ١٨٧٠- ٢٩ يناير ١٨٧١) أوقفت شركة بازان & رابو أعمالها في منطقة الشيخ سعيد، وظل الأمر معلّقاً على هذا النحو، ولم تُثَر قضية منطقة الشيخ سعيد على أي مستوى، حتى شهر أغسطس من عام ١٨٨٣، عندما أثارت الصحافة موضوع المفاوضات بين شركة بازان & رابو وبعض الدول كألمانيا وروسيا وإيطاليا واسبانيا للتنازل عن حقها في منطقة الشيخ سعيد، وتساءلت وزارة البحرية إذا ما كانت الحكومة الفرنسية أحق بشراء هذه الأرض من الشركة المارسيلية. وبعد أخذ ورد في الموضوع قررت الحكومة الفرنسية أن تبعث لجنة لتقصي الحقائق ودراسة أهمية منطقة الشيخ سعيد مقارنة بأوبوك Obock. شُكّلت هذه اللجنة من ضابط بحري يُدعى بواسودي Boissoudy ، ومهندسٌ يُدعى كاسبري Caspari، وقد قدّما تقريرهما في شهر مارس ١٨٨٥، وكان التقرير مؤيداً لرأي موشي، بل أشد نقداً، ومؤكّداً بأن كل ما رُوّج عن هذه المنطقة ليس إلا من باب «الخديعة»، فليس فيها فحم كما أشيع وإنما نوع من الرخام الأسود، ولا تصلح للزراعة وليس فيها أية حياة نباتية، ولا مياه صالحة للشرب، وتصل درجة الحرارة فيها في الظل إلى ٤٠° مئوية، ناهيك عن عدم وجود مرسًى آمن فيها. وخلصا في تقريرهما إلى أنّ

---

(١) إندلعت هذه الحرب في ١٩ يوليو ١٨٧٠ ومنيت فيها فرنسا بهزيمة ساحقة، نجم عنها ضم ألمانيا لمنطقة الألزاس واللورين (Alsace-Lorraine) وقيام الإمبراطورية الألمانية البسماركية، وسقوط إمبراطورية نابليون الثالث، وقيام الجمهورية الفرنسية في سبتمبر ١٨٧٠.

منطقة الشيخ سعيد عديمة الأهمية ولا تستحق الدخول في عداء مع الإنجليز والأتراك.

التخلي عن فكرة احتلال منطقة الشيخ سعيد:

رغم الضغوط الشديدة التي مارستها شركة بازان & رابو ومن خلفها الصحافة، على الحكومة الفرنسية، والتي كان آخرها التلويح بالتنازل عن منطقة الشيخ سعيد لدولة أخرى، إلا أن الحكومة الفرنسية كانت قد حسمت أمرها بعد دراسة الموضوع من جميع جوانبه، فقد وجدت عدم أهمية هذه المنطقة بالنسبة لفرنسا من الناحية العسكرية لكونها محاطة بمستعمرات انجليزية، وبدلاً من أن تكون مصدر قوة ستصبح نقطة ضعف في حالة المواجهات العسكرية. أضف إلى ذلك الكُلفة الباهظة لإقامة قاعدة عسكرية، ومزيد من التشتيت للقوات الفرنسية. أما من الناحية السياسية فقد وجدت فرنسا أن خطوة كهذه سوف تثير دون أدنى شك حساسية الإنجليز والعثمانيين. ومن الناحية الاقتصادية فقد استنتجت من فشل شركة بازان & رابو في استغلالها، وما أشار إليه التقريران سالفا الذكر، بأن المنطقة عديمة الجدوى.

توحي جميع القراءات التاريخية بأنَّ فرنسا لم تتنازل عن فكرة حيازة منطقة الشيخ سعيد في خضمّ الصراع والهيمنة على الدول والمناطق المشاطئة للبحر الأحمر مع خصمها القوي إنجلترا، إلا بعد أن وجدت بغيتها في ميناء أوبوك Obock على الساحل الشمالي من خليج تاجورا[1] (جيبوتي)، وتمكنت في عام ١٨٦٢ من إقناع زعماء قبائل العفر ببيع هذا الميناء لها مقابل ٥٥٠٠٠٠ فرنك، وكانت تتمتع بمزايا استراتيجية واقتصادية مغرية للفرنسيين مقارنة بمنطقة الشيخ سعيد التي ظلت في نظرهم استثماراً تجارياً غير مجد.

(١) انظر:

- Roger Joint-Daguenet, Aux origines de l'implantation française en mer Rouge, Paris, L'Harmattan, 1992.

الباب الخامس

الفنارات البحرية

الفنارات البحريّة

السياق التاريخي[1]:

في خِضمّ حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)[2] التي دارت رَحَاهَا في البحر الأسود، ووقفت فيها فرنسا وبريطانيا إلى جانب الإمبراطورية العثمانية ضد الأطماع التوسعية للإمبراطورية الروسية، حصلت حادثة فارقة ضمن سلسلة من الحوادث المشابهة؛ وهي غرق سفينة اوروتاس Eurotas قبالة سواحل الإسكندرية، نتيجة انعدام الرؤية بسبب الضباب الكثيف، وكانت بقيادة القبطان بلايز ميشل Blaise Michel الذي اشتهر فيما بعد باسم ميشل باشا. دفعته هذه الحادثة للتفكير في إنشاء شبكة فنارات في شرق البحر الأبيض المتوسط وعلى امتداد سواحل الإمبراطورية العثمانية.

وفي ٢١ ديسمبر من عام ١٨٥٤، كان القبطان بلايز ميشل في طريقه إلى فرنسا على متن سفينة لامستردام L'Amsterdam، وتوقف في القسطنطينية كونت مونتبيلو Le Comte de Montebello، وجوستاف أوليفيه لان Gustave Olivier Lannes ، أحد كبار مساعدي نابليون الثالث، وكان برفقته طاقم السفينة لوهنري ٤، Le Henri IV التي كانت قد تحطمت في البحر الأسود. وخلال الرحلة عرض القبطان بلايز ميشل فكرته في إنشاء الفنارات على كبير مساعدي نابليون، والتي نالت استحسانه، ووجه بتشكيل لجنة لدراسة جدوى الفكرة والمشروع. وفي ٥ يناير ١٨٥٥ قُدّم تقرير اللجنة إلى الإمبراطور، الذي عرضه بدوره على مجلس قادة

---

(1) (Archives diplomatiques. A.E. Paris. Vol. 318 E Octobre Décembre 1854)

(٢) اندلعت حرب القرم بين الإمبراطورية العثمانية من جانب، والإمبراطورية الروسية من جانب آخر، في ٤ أكتوبر ١٨٥٣، واستمرت حتى عام ١٨٥٦، ودخلت بريطانيا وفرنسا ومصر إلى جانب الإمبراطورية العثمانية، في ١٨٥٤، ثم لحقتها مملكة سردينيا، التي أصبحت تسمى مملكة إيطاليا فيما بعد (١٨٦١)، وكان من أسباب هذه الحرب الأطماع التوسعية لروسيا على حساب الدولة العثمانية التي كانت قد أصيبت بالوهن وخاصة في شبه جزيرة القرم، التي صارت مسرحاً للمعارك والمواجهات. وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة الروس وتوقيع اتفاقية باريس في ٣٠ مارس ١٨٥٦. [موسوعة ويكيبيديا]

البحرية الحلفاء، وقد أبدى الأميرال الفرنسي بروات Bruat، والأميرال البريطاني إدموند لايونز Edmund Lyons والأميرال العثماني أحمد باشا Ahmet Pacha تأييداً للمشروع. وفي الأول من أغسطس ١٨٥٥، أصدر السلطان العثماني عبد المجيد - نزولاً على رغبة نابليون الثالث- فرماناً يقضي بتعيين القبطان بلايز ميشل مديراً عاماً لفنارات الإمبراطورية العثمانية.

إنشاء شركة كولاس- ميشل:

استمرّ القبطان ميشل على رأس إدارة فنارات الإمبراطورية العثمانية فترة خمس سنوات كموظف حكومي تابع للإمبراطورية العثمانية. وقد بدأ بتنفيذ مشروعه للقيام ببناء (٣٦) فناراً في الدردنيل والبحر الأسود، و (٤) فنارات على ثغور نهر الدانوب. وقد موّل الإمبراطور نابليون الثالث نفسه ومن ماله الخاص، عمليات البناء الأولية، ونجح القبطان ميشل في بناء ٢٠ فناراً في فترة وجيزة لم تتجاوز الثمانية عشر شهراً. ففي نهاية ١٨٥٦، تم تدشين العمل بـ (٩) فنارات في الدردنيل، وفنارين في بحر مرمرة، و(٥) فنارات في البوسفور، و(٤) فنارات في البحر الأسود.

في نهاية عام ١٨٥٨، ومع بروز بعض الصعوبات من الإدارة العثمانية فيما يخص مسألة التمويل وروتين الإجراءات الإدارية، بدأ بلايز ميشل يفكر في مشروع خصخصَة الإدارة العامة للفنارات. وقد أسهمت الحكومة الفرنسية بشكل فعّال في تحويل هذه الإدارة إلى حق امتياز لبناء فنارات بحرية للإمبراطورية العثمانية. ولهذا الغرض تم إنشاء شركة كولاس-ميشل Collas-Michel، وتم التوقيع في أول سبتمبر ١٨٦٠ على اتفاقية بين الإمبراطورية العثمانية ممثلة بمحمّد علي باشا وزير البحرية آنذاك، وبين السيدين كولاس وميشل مالكي الشركة.

قضت هذه الاتفاقية بمنح شركة كولاس-ميشل حق الامتياز لمدة عشرين عاماً لإنشاء ما يقارب الـ (٧٤) فناراً بحريّاً خلال فترة ثلاث سنوات، بحيث تتكفل الشركة بتكاليف الإنشاء والصيانة وبكافة الخدمات الإدارية والنفقات المالية اللازمة لتشغيل هذه الفنارات مقابل حصولها على ٧٨٪ من الإيرادات،

وترك ٢٢٪ من الرسوم المحصّلة للدولة العثمانية.

جنت الشركة الفرنسية عوائد مالية مهولة بفضل استغلالها للفنارات البحرية نتيجة لانتعاش الملاحة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. حيث فرضت الحكومة العثمانية رسوماً على كل سفينة تدخل موانئها، رُصدت لبناء وصيانة الفنارات الإمبراطورية. بل وصل الأمر بالحكومة العثمانية إلى وضع قطعة مدفعية بحرية لردع كل من يحاول التهرب من دفع هذه الرسوم.

كانت الحكومة الفرنسية تتابع نجاح شركة كولاس-ميشل عن كثب، واعتبرت نجاح رجلَيْ أعمال فرنسيين في وضع يدهم على مرفق حيوي واستراتيجي بحجم الفنارات تابع لدولة بحجم الإمبراطورية العثمانية وبعوائد مالية كبيرة، إنجازاً وطنياً عظيماً ذا دلالات كبيرة.

حققت الشركة نجاحاً منقطع النظير خلال العشر السنوات الأولى، إلى أن بدأت العقبات في تحصيل الرسوم المفروضة على السفن الملاحية مقابل الإضاءة والتوجيه بالفنارات تشكل عائقاً أمام تطور أعمال الشركة، وبما يمكنها من الوفاء بالتزاماتها تجاه الباب العالي الذي كان يطالب بحصته نقداً أو ما يُعادلها ذهباً. كما طغت على السطح معارضة شديدة من قبل بريطانيا العظمى حول مسألة السيادة على الفنارات. كل ذلك تسبب في تعطيل أعمال البناء والصيانة وتوقفها؛ لنقص الموارد، ولطول أمد المفاوضات الدبلوماسية من أجل التوصل إلى تسوية مع البريطانيين، والتي كانت تزداد تعقيداً بتعقد مسألة الشرق.

وقد برزت هذه الإشكالية بشكل حاد خلال اتفاقية الامتياز الأولى وتحديداً خلال الحرب الروسية-التركية (١٨٧٥-١٨٧٨)[1]، حيث دُمّرت بعض الفنارات، وتفاقمت الأعباء المالية، وفقدت الإمبراطورية العثمانية أراضي كانت تحت سيطرتها وزادت حاجتها للسيولة المالية، مما عقّد مسألة التفاوض حول

(١) ما بين عامي ١٨٧٥ و ١٨٧٩ اندلعت جولة أخرى من الحروب بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية التي قادت تحالف دول البلقان ضد الوجود العثماني في بلدانها، ودارت رحا هذه الحروب في البلقان والقوقاز. خسرت الإمبراطورية العثمانية هذه الحرب ، وخسرت معظم بلدان البلقان وأوروبا الشرقية التي كانت تحت سيطرتها. [موسوعة ويكيبيديا]

اتفاقية الامتياز الثانية. ومنذ عام ١٨٧٥ قدمت الشركة للإمبراطورية العثمانية صك ارتهان مقابل ضمان حصتها المستقبلية، وسرّعت في بناء فنارات وبما يفوق العدد المتفق عليه في الخطة. وفي عام ١٨٧٩ تم الاتفاق على تمديد فترة الامتياز حتى الانتهاء من بناء الفنارات الجديدة وحتى عام ١٨٩٩، ورفع حصة الإمبراطورية العثمانية إلى ٢٨٪ عند الاستحقاق في عام ١٨٨٤. ازدادت المشكلة تعقيداً مع سيطرة بريطانيا العظمى عسكرياً على قبرص ومصرَ ومنافذ البحر الأحمر وقناة السويس في عام ١٨٨٢.

فنارات اليمن والحجاز:

في عام ١٨٧٥ طلبت الإمبراطورية العثمانية من شركة كولاس-ميشل عمل دراسة لإقامة فنارات في المناطق التي كانت تحت سيطرتها في (الحجاز، اليمن، الخليج العربي)، وقد فاز مشروع الدراسة الذي تقدمت به الشركة أمام مشروع دراسة تقدمت به إحدى الشركات البريطانية، وتم التوقيع في عام ١٨٨١ على اتفاقية تمتد لفترة ٤٠ سنة، يتم بموجبها بناء ٣٢ فناراً وبرج إضاءة، منها عدد ١٢ في الحجاز واليمن، وذلك كمرحلة أولى.

وأمام المعارضة البريطانية المستمرة، اقترحت الحكومة العثمانية إنشاء لجنة دولية (لتحديد الرسوم مقابل الاستفادة من خدمات الفنارات). ورغم ذلك منحت الإمبراطورية العثمانية في عام ١٨٨٦ شركة كولاس وميشل حق الامتياز لبناء فنارين خارج نطاق الاتفاقية الموقعة عام ١٨٨١.

لم تألُ الشركة الفرنسية جهداً في العمل على تمديد حق الامتياز لأطول فترة ممكنة، فقد بدأت في عام ١٨٩٣ بإجراء مفاوضات بغية الحصول على حق امتياز ثالث قبل انتهاء فترة الامتياز الثانية التي كانت مقررة عام ١٨٩٩. وفي عام ١٨٩٤ نجح جابريل كولاس Gabriel Collas الابن في الحصول على تمديد حق الامتياز لمدة خمسة وعشرين سنة، حتى عام ١٩٢٤، مقابل رفع حصة الحكومة التركية من ٢٨٪ إلى ٥٠٪ من الأرباح، وتفويض العثمانيين للتفاوض المباشر مع البريطانيين، مما أثار مخاوف الحكومة الفرنسية من التفاوض المباشر دون التشاور معها أو إطلاعها على مجريات الأمور. وقد تمخضت المفاوضات

المباشرة التي جرت بين العثمانيين والبريطانيين عن اتفاق تم التوصل إليه في أكتوبر من عام ١٨٩٦، أفضى إلى فصل فنارات البحر الأحمر، وإلى التخفيض التدريجي للرسوم الملاحية. وأمام الضائقة المالية وحاجة الإمبراطورية التركية إلى قرض بمبلغ (٥٠٠٠٠٠) جنية تركي لمواجهة أعباء الحرب في أرمينيا، وافقت إدارة الفنارات على تخفيض حصتها من الرسوم.

تم التوقيع في مايو ١٨٩٩ على اتفاقية بين إدارة الفنارات والحكومة العثمانية تقضي بتحمل الحكومة العثمانية نفقات بناء أربعة فنارات من طراز رفيع، على شواطئ اليمن غير الخاضعة للسيطرة البريطانية (في جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي، والمخا). على أن يتم الإنتهاء من بنائها قبل الـ ٣١ ديسمبر ١٩٠٥. وبالفعل، فقد تم إنشاء هذه الفنارات في مُدّةٍ وجيزة، ودخلت حيز العمل الفعلي في عام ١٩٠٣.

أدّى اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤، وهزيمة الإمبراطورية العثمانية وتفكيكها إلى بروز مشكلة السيادة على هذه الفنارات[1]. وقد نشب خلاف بين إدارة الفنارات من جهة تدعمها في ذلك الحكومة الفرنسية، وبين الحكومة البريطانية من جهة أخرى، واستمرت المفاوضات بين الجانبين حتى تصفية إدارة الفنارات في ٤ سبتمبر ١٩٥٩. وما يهمنا في هذا المقام هو التركيز على الوضع القانوني وتنازع المصالح الدولية حول فنارات اليمن الأربعة، وكيف تمت تسوية هذا الموضوع. وقبل الخوض في النزاع الفرنسي البريطاني على فنارات البحر الأحمر، سيكون من المفيد ترجمة بنود اتفاقية بناء هذه الفنارات الأربع والتي أرشفت تحت رقم (E-335-5/106)

اتفاقية ٩/٢٧ مايو ١٨٩٩:

«تمَّ التوصل إلى هذا الاتفاق بين صاحب المعالي حسن باشا، وزير البحرية، كممثل لحكومة الإمبراطورية العثمانية، كطرف أول، وبين شركة كولاس-ميشل

(١) ما زالت السفن وحتى يومنا هذا تمخر عباب البحر الأبيض والبحر الأحمر على هدي الأضواء التي تبثها الـ ١٥٢ فنار التي أنشأتها إدارة الفنارات العثمانية هذه.

صاحبة الامتياز في بناء فنارات الإمبراطورية العثمانية، ممثلة بالمسيو بيير دوفوريال Pierre de Vauréal عضو مجلس إدارة الشركة، كطرف ثان، وذلك لبناء أربعة فنارات يشار إليها أدناه بفنارات البحر الأحمر وتدخل ضمن اتفاقية الامتياز ٢/ ١٤ أبريل ١٨٨١.

المادة الأولى: تلتزم حكومة الإمبراطورية العثمانية بأن تتحمل على عاتقها نفقات بناء وصيانة وإضاءة أربعة فنارات من الطراز الرفيع، وهي:

- المخا: بمدى ٢٢ ميلاً.
- أبو علي: بمدى ٢٥ ميلاً.
- جبل الزبير: بمدى ٣٠ ميلاً.
- جبل الطير: بمدى ٣٠ ميلاً.

ويأتي إنشاء هذه الفنارات برغبة من الدول البحرية العظمى بهدف تسهيل الملاحة الدولية الكبيرة في البحر الأحمر، وسيتم تغطية هذه التكاليف من حصة الحكومة العثمانية والدخل الذي تتقاضاه من الشركة صاحبة حق الامتياز في إدارة الفنارات العثمانية بمقتضى اتفاقية ٨/ ٢٠ أغسطس ١٨٦٠، واتفاقية ٣٠ يونيو/ ١٢ يوليو ١٨٧٩، واتفاقية ١٣/ ٢٦ أكتوبر ١٨٩٤.

ولكون حصة الحكومة العثمانية هذه مخصصة لتغطية فوائد ومديونية مبلغ الخمسمائة ألف جنيه تركي، فإن الشركة صاحبة حق الامتياز سوف تقدم المبالغ اللازمة لتغطية نفقات البناء والتشغيل والإضاءة لحين الانتهاء من سداد المديونية.

بعد الانتهاء من سداد هذه المديونية، سوف تستعيد الشركة هذه المبالغ المقدمة من الحصة المُقررة للحكومة العثمانية وبفوائد مقدارها ٤٪ سنوياً. ولا يحق للحكومة العثمانية المطالبة بحصتها من العوائد أو التعهد بها بأي شكل كان قبل السداد التام للمبالغ التي قدمتها الشركة صاحبة الامتياز لبناء وصيانة وإضاءة هذه الفنارات الأربعة.

المادة الثانية: تُحدّد فترة بناء الفنارات الأربعة المُبيّنة في المادة السابقة بخمس سنوات، تبدأ من يناير ١٨٩٠.

المادة الثالثة: المبالغ المقدمة من الشركة صاحبة الامتياز سواء لتغطية تكاليف بناء الفنارات الأربعة المذكورة أو لتغطية تكاليف الصيانة والإضاءة على امتداد فترة الامتياز، ستكون مضمونة بالحصة المخصصة لحكومة الإمبراطورية العثمانية مقابل استغلال فنارات البحر الأبيض المتوسط.

المادة الرابعة: تُعفى المواد المخصصة لبناء وصيانة وإصلاح الأبراج والمباني وأجهزة الإضاءة وكافة أصناف المؤن من الرسوم الجمركية وكافة أنواع الضرائب خلال كامل فترة حق الامتياز.

المادة الخامسة: وفقاً لما هو محدد في اتفاقية ٢/ ١٤ أبريل ١٨٨١، تتولى الشركة صاحبة الامتياز إدارة هذه الفنارات إدارة شاملة، ولحكومة الإمبراطورية العثمانية حق الإشراف الرقابي التام. ويكون اختيار المواقع ووضع الخطط وإدارة الأعمال وتنظيم الخدمات وطريقة الاستثمار واختيار العاملين وإقالتهم وتحديد الأجور وتقسيم المخصصات وكل ما يتعلق بالبناء والاستثمار بشكل عام، يكون ضمن اختصاص الشركة صاحبة حق الامتياز.

إضافةً إلى ذلك لا تتحمل الشركة أية مسؤولية عن الأضرار الناجمة عن الزلازل، والحروب، والحرائق، والهجمات المسلّحة، وهيجان البحر، أو عن تلك الناجمة عن الكوارث الطبيعية الأخرى كافّة. على أن تتحمل حكومة الإمبراطورية العثمانية كافة النفقات أيّاً كانت، وتلتزم الشركة صاحبة حق الامتياز بتغطيتها وفقاً للشروط المنصوص عليها في المادة الأولى.

المادة السادسة: تقدَّر تكاليف بناء الفنارات الأربع بمبلغ حوالي ١٥٠٠٠٠ جنية تركي، ومع ذلك ينبغي العمل على بناء الفنارات بأقل تكلفة ممكنة، وفي حال الانتهاء من بناء أحد هذه الفنارات يتوجه فريق فني معيّن من قبل الطرفين المتعاقدين إلى موقع العمل لعمل تقدير دقيق للتكاليف المدفوعة، ويعد هذا التقدير كأساس مرجعي لسداد الدين.

المادة السابعة: تُقدّر تكاليف الصيانة والإضاءة بمبلغ ١٠٥٠٠ جنية تركي سنوياً، إلا أن هذا التقدير يظل تقريبياً، ولن يتأتى تحديد هذه المبالغ بدقة إلا بعد الانتهاء من بناء الفنارات، وهي التي ستدخل ضمن مديونية وزارة البحرية.

المادة الثامنة: في حالة التوصل لتحصيل رسوم على السفن التي استفادت من إضاءة الفنارات المذكورة بأثر رجعي، فلا يحق لشركة الفنارات صاحبة حق الامتياز المطالبة بنصف هذه المبالغ المحصلة التي ستعود بمجملها لوزارة البحرية.

المادة التاسعة: تحظى الشركة صاحبة الإمتياز بدعم السلطات الإمبراطورية لحماية وتأمين بناء وصيانة وإضاءة الفنارات الأربعة. وتتعهد إدارة الفنارات من جانبها بالعمل بنزاهة، وباتخاذ كافة الإجراءات بهدف إنجاز هذا المشروع بأقل تكلفة.

المادة العاشرة: لا تتجاوز مُدّة هذه الإتفاقية – إلا في حال إبرام اتفاق جديد – فترة حقّ الامتياز في استغلال فنارات البحر الأبيض المتوسط والتي تنتهي في ٣ سبتمبر ١٩٢٤.

حُرّرت من نسختين أصليتين في القسطنطينية بتاريخ ٢٧/ ٩ مايو ١٨٩٩.

الموقعون:

مسيو دوفوريال حسن باشا

النزاع الفرنسي – البريطاني على فنارات البحر الأحمر:

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى في يوليو- أغسطس من عام ١٩١٤، تغيرت خارطة التحالفات؛ فوقفت فرنسا وبريطانيا إلى جانب روسيا، ودخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب في نوفمبر من نفس العام إلى جانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر. وقد وقفت الدول العربية في هذه الحرب إلى جانب مكماهون وانتفضت ضد الخلافة العثمانية؛ وأصبحت شواطئ البحر الأحمر تحت السيطرة الفعلية لبريطانيا.

وفي يناير من عام ١٩١٥ أخضعت بريطانيا الفنارات في هذه المناطق لنفوذ البحرية الملكية البريطانية، واستولت على فنارات (جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي) ولم تعترف بحق الامتياز الذي كانت تحظى به شركةكولاس – ميشل الفرنسية إبّان الحكم العثماني. وكانت الحكومة البريطانية تحتج بأن الإمبراطورية العثمانية اتخذت في بناء فنارات البحر الأحمر إجراءات مغايرة لما تضمنته اتفاقية الامتياز الموقعة بينها وبين شركة كولاس – ميشل الفرنسية في عام ١٨٨١، فقد أنشئت الفنارات الأربعة على نفقة الحكومة العثمانية، وتكفّلت بتغطية نفقاتها التشغيلية وبصيانتها، مما يتنافى مع حقوق الامتياز التي تدّعيها الشركة الفرنسية.

أقلق الموقف البريطاني إدارة الفنارات، وبدأت بمناشدة الحكومة الفرنسية للتدخل لدى البريطانيين للاعتراف بحق الشركة الفرنسية في استغلال الفنارات. فوجهت رسالة في تاريخ ٢٩ يناير من عام ١٩١٦ لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسي ألكسندر ميليران Alexandre Millerand تناشده فيها التدخل لدى الجانب البريطاني لحل الخلاف القائم. لم تتلق إدارة الفنارات أي ردّ، فعقّبت برسالة أخرى في ٥ سبتمبر من نفس العام. وقد تلقت إدارة الفنارات تطمينات الحكومة الفرنسية والتي أكدتها في رسالة رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية السيد ميليران بتاريخ ١١ سبتمبر من عام ١٩١٦، والتي جاء فيها:

« بأن المصالح الفرنسية ستكون في الحماية، وبأن تعليمات قد صدرت

للمسيو/ كامبون Cambon سفير فرنسا في لندن لإبلاغ الحكومة البريطانية بالحقوق والامتيازات التي تحظى بها الشركة بموجب اتفاقيات الامتياز الموقعة».

خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ظل الوضع على ما هو عليه، مع الاستمرار في تبادل المراسلات بين الشركة والحكومة الفرنسية من جهة، وبينهما وبين الحكومة البريطانية من جهة أخرى. وفي مطلع عام ١٩٢٠ وجّهت إدارة الفنارات رسالة للمسيو ميليران MILLERAND وزير الخارجية الفرنسي، بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩٢٠ أرشفت تحت رقم (E-335-5/5-6)، تطلعه فيها على المستجدات حول الفنارات الأربعة التي أنشئت في اليمن، وقد أوضحت في رسالتها بأنها كلّفت موظفها القائم على إدارة أعمال فنار المخا بالمطالبة بالحقوق والصلاحيات التي مُنحت لها من قبل العثمانيين، خاصةً وأن الحرب قد وضعت أوزارها ولم يعد هناك أي مبرر للاستمرار في احتلال الفنارات. وتضمنت الرسالة تذكيراً للوزير بأن فنارات (جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي) ما زالت تحت الاحتلال البريطاني، ولم يتبق سوى فنار المخا الذي ما زال تحت سيطرة الشركة، وشددت على أن الشركة قد تفقد سيطرتها على هذا الفنار الاستراتيجي إذا لم تتدخل الحكومة لحماية المصالح الفرنسية في المنطقة. كما أرفقت إدارة الفنارات للوزير الفرنسي نسخة من الرسالة الجوابية التي تلقتها من موظفها المسؤول على فنار المخا بتاريخ ١٦ يناير ١٩٢٠ والتي أرشفت تحت رقم (E-335-5/7)، وفيما يلي ترجمة لها، لما لها من أهمية وما تتضمنه من معلومات تاريخية:

«لقد وصلتني تعليماتكم بمتابعة مطالبنا الحقوقية، ولكن مع أي سلطة سيادية يمكنني التخاطب. فبالنسبة للمخا، وكما ذكرتُ لكم في رسالتي الأخيرة، فقد تناوبتْ عليها حكومات عدة بعد رحيل العثمانيين، ومن المحتمل جداً أن تكون هناك سلطة جديدة في قادم الأيام، مع اقتراب قوات الإدريسي من مدينة زبيد التي تبعد حوالي ٧٠ كيلومتراً عن المخا. وقد يكون ضربٌ من الجنون مطالبة هذه القبائل الشرسة بميزانية سنوية للفنار الذي تعتبره من مخلفات العثمانيين، ويرجع الفضل في الإبقاء عليه لتواجدنا هنا، وقد تلقيتُ مطالبة في وقت قريب لتسليمهم محتويات الخزانة التي كانت بحوزة الحكومة العثمانية وسُلّمَت لي. ولن أسلمهم

أي شيء طالما كان بمقدوري ذلك.

البريطانيون هم من يمونون الجزر المحيطة، ولكن لن يكون بمقدوري ترك المكان للأسباب التي ذكرتها أعلاه، وبالتالي لن يتسنى لي الحصول على المعلومات، ولا أدري لمن أتوجه. هل أتوجه للحكومة الهندية، أم للسلطات العسكرية، أم لميناء عدن، أو للقاعدة في كمران؟ وكي أتمكن من التصرف بفعالية، وكي لا أضع نفسي موضع سخرية، فربما ينبغي عليّ التوجّه إلى ميناء عدن، وسيكون ذلك مستحيلاً في الوقت الراهن لعدم توفر السيولة النقدية، رغم عدم وجود مخاطر من ترك المخا. وسيكون السفر عن طريق البحر، بالقوارب التقليدية، وقد تستغرق الرحلة ما بين عشرة أيام وخمسة عشر يوماً عن طريق باب المندب.

من المؤكد أن كل شيء نهب في جزيرة بريم، وقد أعيدت رسائلنا الشخصية مرتين.

إنها الفوضى العارمة.

التوقيع / كوكالي »

عقب مطالبة إدارة الفنارات بحقوق الامتيازات على فنارات البحر الأحمر، تلقت الإدارة رسالة من الحاكم العسكري البريطاني في عدن بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٢٠، يطالبها بسرعة تسليم خرائط ومخططات الفنارات ومصابيح الإضاءة وكافة المواصفات التقنية المتعلقة بفنارات (جبل الطير، وجبل الزبير، وابو علي). وقد ردت إدارة الفنارات على رسالة الحاكم البريطاني في عدن برسالة جوابية بتاريخ ١٧ أبريل ١٩٢٠، أرشفت تحت رقم (E-335-5/10) جاءت كما يلي:

« السيد / الحاكم العسكري البريطاني في عدن

سلمتنا شركة إنشاء الفنارات ممثلة بالسادة / باربيه، بيرنار، تورن Barbier, Bérnard et Turenne، (٨٢ شارع كوريال- باريس)، رسالتكم رقم (٢١١٧)

والمؤرّخة ٢٧ مارس ١٩٢٠، والتي تتضمن مطالبتكم لهم بسرعة تسليمكم نسخ من خرائط ومخططات الفنارات ومصابيح الإضاءة وكافة المواصفات التقنية المتعلقة بفنارات (جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي)

نود تذكيركم برسالتنا التي تشرفنا بتوجيهها لحضرتكم في ٥ سبتمبر من عام ١٩١٦، لإعلامكم بأن الفنارات المذكورة بعالية أنشئت بواسطة شركة السادة باربييه، بيرنار، تورن، لحسابنا، وبأننا أصحاب حق الامتياز الوحيدون في إنشاء الفنارات العثمانية في البحر الأحمر.

وبموجب حق الامتياز المكفول بالمرسوم الإمبراطوري ٢/ ١٤ أبريل ١٨٨١، فإن كافة فنارات الإضاءة على السواحل العثمانية في البحر الأحمر وفي الخليج الفارسي يجب أن تنشأ من قبلنا. وقد تم بناء أربعة فنارات (المخا، جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي) وفق شروط خاصة بموجب الاتفاقية ٢٧/ ٩ مايو ١٨٩٩، وذلك نظراً لضرورتها القصوى للملاحة الدولية النشطة حينذاك، فلم يكن من الممكن تأخير بنائها حتى إبرام اتفاق حول تحصيل الرسوم، وانتظار التنفيذ الكامل لاتفاقية تطبيق التعريفة الدولية.

لقد قامت الشركة بإخطار وزارة الخارجية الفرنسية بالوضع الناجم عن الحرب، والتي قامت بدورها بإبلاغ وزارة الخارجية البريطانية باحتجاجنا على استيلاء القوات البحرية البريطانية، دون أي اعتبار،على الفنارات الثلاثة. وفي تاريخ ١١ سبتمبر ١٩١٦، أبلغتنا الخارجية الفرنسية بأنها طلبت من سفير فرنسا في لندن، إبلاغ الحكومة البريطانية بأن شركتنا ورغم أنها قلقة على حقوقها وامتيازاتها في البحر الأحمر والخليج الفارسي، إلا أنها لا ترغب في منازعة احتلال تم لمصلحة عسكرية مشتركة للقوى الحليفة، ولكنّها لن تتخلى عن حقوقها وامتيازاتها المنبثقة عن الاتفاقيات. كما طلبت حكومتنا من الحكومة البريطانية مخاطبة شركتنا مباشرة –عند الضرورة– وفي حالة احتياجها لمزيد من المعلومات. والآن وبعد أن تم الانتهاء من العمليات العسكرية، ولم يعد هناك ما يستدعي استمرار القوات البحرية البريطانية في احتلال فناراتنا، فإننا نطالب بتسليمنا هذه الفنارات؛ حتى نتمكن من استغلالها مباشرة بموجب الاتفاقيات

والعقود.

وسنظل رهن الإشارة لتزويدكم بالمعلومات التي قد تحتاجها الإدارات التابعة لكم، وفي انتظار تمكيننا وفي أسرع وقت ممكن من استغلال حقوق الامتياز التي نحظى بها والتي ستكون الحكومة البريطانية سبّاقة للاعتراف بها واحترامها.

وتفضلوا بقبول فائق تقديرنا.

التوقيع / شركة كولاس-ميشل»

بعد ثلاثة أيام من إرسال شركة الفنارات هذه الرسالة إلى الحاكم البريطاني في عدن، وجهت رسالة أخرى لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية إلكسندر ميليران **Alexandre Millerand**، بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٢٠، أرشفت تحت رقم (E-335-5/8)، وأرفقت معها رسالة الحاكم العسكري البريطاني في عدن، وأشارت فيها إلى امتعاضها من تجاهل الحكومة البريطانية لحقوقها على الفنارات واستفادة البريطانيين من الهدنة للاستمرار في احتلال الفنارات واستغلالها. وردَ فيها :

«رغم الجهود التي يقوم بها سفيرنا في لندن، فإن هذه الرسالة تؤكد على استمرار السلطات البريطانية في تجاهلها عمداً لأي وجود لنا (...) إننا على ثقة من تقديركم للمخاوف التي تنتابنا جراء تعنّت البريطانيين وتمسكّهم بموقفهم، ونخشى ما نخشاه من إدراك أهدافهم».

وذيّلت الشركة رسالتها بمطالبة وزير الخارجية الفرنسي بالتدخل مجدداً لدى الجانب البريطاني لحثه على احترام اتفاقية الامتياز حاضراً ومستقبلاً.

حماية البحريّة الفرنسيّة لفنار المخا:

في إطار ما يُمكن أن نطلق عليه سياسة الشركات في السلم ودورها في الحروب، بعثت شركة كولاس-ميشل عبر إدارة الفنارات العثمانية رسالة هامة لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسي ارستيد بريان Aristide BRIAND، توضح فيها الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للإبقاء على فنار المخا تحت السيطرة الفرنسية. هذه الرسالة تعد وثيقة تاريخية هامة، وقد حررت بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٢١، وأرشفت تحت رقم (E-335-5/13)، وفيما يلي ترجمة لما جاء فيها:

«سيادة رئيس مجلس الوزراء،

تعقيباً على رسائلنا السابقة حول وضع فناراتنا في البحر الأحمر، والتي لفتنا فيها نظر معاليكم إلى سيطرة القوات البحرية البريطانية الفعلية على ثلاثة منها. وقد بنيت هذه الفنارات بأيدينا وتتبعنا إدارياً. ويؤسفنا إبلاغكم بأننا سنضطر -خلال الفترة القريبة القادمة- إلى استدعاء مسؤول خدمات فنارات البحر الأحمر، للعودة إلى القسطنطينية، وهو مقيم حالياً في المخا حيث يتواجد الفنار الوحيد الذي ما زال تحت سيطرتنا.

هذا الموظف القائم بأعمالنا في البحر الأحمر منذ سنوات طوال في ظل ظروف قاسية جداً، في حالة صحية متدهورة تجبرنا على منحة راحة اضطرارية.

وبسبب الظروف التي تمر بها شركتنا، وشح الموارد المالية، فلن يكون في مقدورنا استبداله بشخص آخر، وسيكون من المخاطرة ترك الفنار دون رقابة لفترة قد تطول.

نرجو من معاليكم إصدار الأوامر كي تساعدنا البحرية الفرنسية في تأمين الرقابة لفترة مؤقتة.

اسمحوا لنا بتذكير معاليكم وبشكل مقتضب بأن إدارة الفنارات قد أنشأت فنارات البحر الأحمر بناءً على طلب من الحكومة الفرنسية، ومن دون أن تتحصل

الإدارة على أية عوائد مقابل خدماتها، سوى تعويضات محددة تكاد تغطي النفقات، والتي قطعت منذ اندلاع الحرب، (وتحديداً منذ أول سبتمبر ١٩١٤).

وقد رفضت الحكومة العثمانية دفع هذه التعويضات التي كانت بمثابة الدعم بحجة الاحتلال البريطاني، وسيكون من المؤكد بأن الحكومة البريطانية سترفض سداد ذلك.

نرجو من معاليكم إلحاقاً لما تضمنته رسائلنا السابقة، مساعدتنا في إيجاد حل شامل لهذا المشكلة، والتي تتفاقم أكثر مع شحّ الموارد التي تتحصل عليها الإدارة في المناطق الأخرى. ومع هذا فإننا نصر وبشكل رئيسي على احتفاظ إدارتنا بفنار المخا الذي ما زال تحت سلطتنا وبالتالي يخضع للنفوذ الفرنسي.

وقد تناهى إلى مسامعنا سعي وزارتكم لتعيين موظف قنصلي في المخا. وهنا لا نحتاج إلى تذكير معاليكم بالأهمية الإستثنائية لمنطقة المخا وأهمية الفنار الفرنسي فيها.

نحن على ثقة من أن استجابة معاليكم لطلبنا ستوفر على إدارتنا نفقات جديدة خلال المرحلة الانتقالية، والتي ستسهم خطواتكم في تقصير أمدها. كما أننا على ثقة من أنكم ستعطون الأوامر كي تصد البحرية الفرنسية كل من يحاول السطو مجدداً على حقوقنا، وبأن تضعوا تحت تصرفنا في المخا وفي أسرع وقت ممكن الوسائل التي تمكننا من تأمين حراسة مؤقتة.»

وسوف تعوّض إدارتنا النفقات الناجمة عن هذا الإجراء بمجرد حصولها، وبفضل مساعي معاليكم، على المبالغ المستحقة لها.« وتفضلوا بقبول فائق تقديرنا،

توقيع شركة / كولاس-ميشل»

انقضت مدة تربو عن الستة أشهر، ولم تتلق شركة كولاس-ميشل خلالها أية إجابة على طلبها الذي تقدمت به بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٢١ لرئيس مجلس الوزراء

وزير الخارجية الفرنسي، لتأمين حماية فنار المخا، فما كان منها إلا أن عقّبت برسالة بتاريخ ٢٩ نوفمبر من نفس العام ١٩٢١، والتي أرشفت تحت رقم (E-335-5/16)، اضطرت فيها الشركة إلى كشف بعض الحقائق التي لم تضمنها مراسلاتها السابقة.

« نود تذكير معاليكم بأننا لم نتلق رداً على رسالتنا بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٢١ (...)، كما نود تذكيركم بأن إدارة الفنارات كانت تقوم بصيانة الفنارات الأربعة في (المخا، وجبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي)، قبل الحرب مقابل دفع الحكومة العثمانية مبلغ سنوي مقطوع (٨٠٠٠) جنيه تركي. ومنذ الأول من سبتمبر ١٩١٤ لم تتسلم إدارتنا أية مبالغ. (...) ومنذ ديسمبر ١٩١٤ وحتى يومنا هذا أنفقت إدارتنا ما يفوق الـ (٣٠٠) ألف فرنك فرنسي، مقابل صيانة فنار المخا وحدها، دون أن يشمل هذا المبلغ النفقات الإدارية. وعلاوة على سلب ثلاثة فنارات تابعة لنا، تجد إدارة الفنارات نفسها محرومة من المبالغ المرصودة للصيانة، والتي وافقت عليها في الماضي وبشكل مؤقت من باب التراضي ونزولاً على طلب الحكومة الفرنسية – كما تعلمون – رغم أحقيتها بنسبة من الرسوم»

استرسلت إدارة الفنار في رسالتها، موضحة أنّ استمرار الاحتلال البريطاني للفنارات الثلاثة يضرّ بالمصالح الفرنسية وسيؤدي إلى انهيار الشركة. وفي الرسالة ما يشير إلى أن الشركة الفرنسية كانت تتصرف بإيعاز من الحكومة الفرنسية.

«وسيتضح لمعاليكم أن هذا الوضع غير السوي مضرّ، ليس بإدارة الفنارات فحسب، بل بالمصالح الفرنسية (...) وبدون العودة إلى التفاصيل التاريخية لحصول شركتنا على حق الامتياز في البحر الأحمر، والتي تعرفها وزارتكم كاملة، نؤمن بأن الواجب حتّم علينا إقامة منشآتنا لتسيير الخدمات في هذا البحر، وقبلنا بعدم تحديد رسوم معينة في حينه، وكان ذلك استجابة للرؤية السياسية الفرنسية في عام ١٨٩٨؛ التي كانت تسعى لوضع العراقيل أمام مخططات الحكومة البريطانية التي سيطرت على مصر، وسعت إلى منع إقامة منشأة يعود حق الامتياز فيها لشركة فرنسية، كي تقوم بذلك لحسابها بغية تثبيت حقوق وصكوك ملكية على الشاطئ العربي.»

مطالبة الإمام يحيى برفع العلم اليمني فوق فنار المخا:

يشير التسلسل التاريخي للوثائق إلى أن شركة كولاس-ميشل - التي كانت تتولى إدارة الفنارات التابعة للإمبراطورية العثمانية وتقوم بكافة مراسلاتها تحت هذه الصفة- بعثت برسالة بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩٢٢، أرشفت تحت رقم (E-335-5/26,27,28)، وجهتها للمسيو بوانكاريه **POINCARE** رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسي حينها، ضمنتها نفس المطالب المذكورة أعلاه، وأشارت إلى استمرار احتلال القوات البحرية البريطانية للفنارات الثلاثة، وأكدت فيها على أطماع البريطانيين التوسعية. وقد ذيلت رسالتها بالمقترح التالي:

«وفي هذا الصدد، نود أن نلفت عناية معاليكم إلى أمر يعد في غاية الأهمية بالنسبة لنا في الوقت الراهن حيث تخضع بنود معاهدة سيفر[1] Traité de Sèvres للدراسة والمراجعة، وهو أن اليمن بشواطئه وبمياهه الإقليمية التي تقع فيها فناراتنا غير مذكور في هذه المعاهدة. وقد يكون من الأفضل التوضيح صراحةً هل هذا البلد مُستَقل، أم أنّه في نفس وضع الحجاز، أم أنه تحت الانتداب أم ما زال تابعاً للعثمانيين؟»

وفي استقراء لهذه الوثيقة، وردّ وزارة الخارجية الفرنسية المذكور أدناه يتضح أنّ إدارة الفنارات قد أبلغت وزارة الخارجية في رسالة لها بتاريخ ٦ أكتوبر ١٩٢٢، بطلب الإمام يحيى رفع العلم اليمني فوق الفنار. ولم نقرأ في الوثائق ما يشير إلى موقف السلطات اليمنية في هذا الشأن، حتى شهر أكتوبر من عام ١٩٢٢ حيث أشارت وثيقة بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٢٢، والتي أرشفت تحت رقم (E-335-5/22)، وتضمنت ردّ

---

(١) وقعت معاهدة سيفر في ١٠ أغسطس عام ١٩٢٠، بين الحلفاء والإمبراطورية العثمانية عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وجاءت لتنفيذ وتثبيت القرارات الخاصة بتقسيم الاراضي العربية التي كانت تحت السيطرة العثمانية. وقد اتخذت هذه القرارات في مؤتمر سان ريمو في أبريل من نفس العام، وكان أهمها وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. ولم يتم المصادقة على هذه الاتفاقية من قبل كافة الأطراف الموقعة عليها، وقد كانت هذه المعاهدة مجحفة في حق الإمبراطورية العثمانية وأدت إلى انتفاضة شعبية عارمة انضوت تحت لواء مصطفى كمال أتاتورك وأدت إلى إسقاط آخر سلاطين الإمبراطورية العثمانية السلطان محمد السادس في ١ نوفمبر من عام ١٩٢٢. لم يتم المصادقة على معاهدة سيفر وتم الإستعاضة عنها بمعاهدة لوزان والتي وقعت في ٢٤ يوليو من عام ١٩٢٣. [موسوعة ويكيبيديا]

الحكومة الفرنسية ممثلة في وزارة الخارجية على استفسارات إدارة الفنارات حول مطالبة الإمام يحيى رفع علم اليمن فوق فنار المخا، حيث جاء فيها:

«وفيما يتعلق بمطالبة الإمام يحيى برفع العلم اليمني فوق فنار المخا، نود إبلاغكم والتذكير بأن اليمن مشمولة ضمن بنود معاهدة سيفر Traité de Sèvres، وتدخل ضمن الأراضي المنزوعة من تركيا، والتي لم يحسم تخصيصها بعد.»

تلقت الخارجية الفرنسية عبر سفيرها في لندن رسالة من وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٢٣ ترفض فيها مطالب شركة كولاس-ميشل التي تدير الفنارات التابعة للإمبراطورية العثمانية، وقد أرفقت وزارة الخارجية الفرنسية نسخة منها لإدارة الفنارات طي رسالتها بتاريخ ٢٩ أغسطس ١٩٢٣.

في ١٨ سبتمبر ١٩٢٣، ردّت الشركة الفرنسية كولاس-ميشل برسالة أرشفت تحت رقم(E-335-5/36-38) موجهة للسيد بوانكاريه POINCARE رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الفرنسي، رفضت فيها الموقف البريطاني واتهمت البريطانيين بفرض سياسة الأمر الواقع، وساقت الحجج التالية:

- رسالة اللورد كيورتسون Lord Curzon وزير الخارجية البريطاني الموجهة بتاريخ ٢٣ أكتوبر من عام ١٩١٩ للمسيو بول كامبون P. Cambon، سفير فرنسا في لندن والتي أشارت إلى السبب في احتلال فنارات جبل الطير، وجبل الزبير، وابو علي:

(...) were taken over as a war measure, and have been controlled throughout the period of the war by his Majesty's Naval and Military Authorities at Aden.

«تم الاستيلاء عليها (الفنارات) كإجراء حربي، وخضعت خلال فترة الحرب للسلطات البحرية والعسكرية التابعة لصاحب الجلالة في عدن».

- لم يعد للبريطانيين أي مبرر للاحتفاظ بالفنارات بعد أن ساد السلام بين القوات الحليفة وبين تركيا.

- ليس لبريطانيا أي حق في مصادرة ملكيتنا على فنارات البحر الأحمر، التي استولت عليها جميعاً فيما عدا فنار المخا، لكونه على اليابسة ويصعب السيطرة عليه.

- ليس من حق أيّة دولة كانت السطو على ممتلكات شركتنا من الفنـارات في البحر الأحمر، ما دامت ليست تحت انتدابها.

عقب هذه الرسالة طلبت وزارة الخارجية الفرنسية من سفيرها في لندن تجديد الضغوط على الحكومة البريطانية للاعتراف بحقوق الشركة الفرنسية على فنارات البحر الأحمر. وذلك كما جاء في رسالة كونت دو سانت-أولاير Comte de Saint-Aulaire السفير الفرنسي في لندن الموجهة لوزير الخارجيـة الفرنسـي بتـاريخ ١٤ يناير ١٩٢٤، وقد أرشفت هذه الرسالة تحت رقم (E-335-5/24)، وجاء فيها:

«بموجب توجيهات معاليكم في الرسالة رقم (٢١٦٣)، فقـد جـددتُ بتـاريخ ٢٠ أكتـوبر الماضـي، مطالبنـا للحكومـة البريطانيـة بـالاعتراف بحقـوق شـركة الفنارات في البحر الأحمر.

ما زالـت الحكومـة البريطانيـة متمسـكة بوجهـة نظرهـا السـابقة حـول هـذا الموضوع. ورسـالة اللـورد كيـورزون Lord Curzon المرفـق لكـم نسـخة منهـا صريحة في هذا الصدد.»

ولكنه أضاف فيها ما يشير إلى أن باب المفاوضات ما زال مفتوحاً:

«ومع ذلك تشـير هـذه الرسـالة إلى المحادثـات الجاريـة بـين إدارة الفنـارات والمجلس التجاري بغية التوصل إلى حل مباشر مع السلطات البريطانية. وبحسب قول كـوزنز هـاردي Cozens Hardy المحـامي الشـهير، الـذي يترافـع عـن إدارة الفنارات، أن الفرصة تكمن حالياً في التوصل إلى اتفاق مـن هـذا النـوع يفضـي إلى حل مرضٍ لهذه المسألة»

وفي رسـالة وزير الخارجية البريطاني التي تحدث عنها السفير الفرنسـي، رقـم (E 227/227/91) وتاريخ ١٢ يناير ١٩٢٤ نقرأ ما يلي:

«سعادة السفير،

ردّاً على مذكرتكم بتاريخ ٢٠ أكتوبر المتعلّقة بـالإدارة المسـتقبلية لفنـارات البحـر الأحمر، يشرفنا إبلاغ سعادتكم أن حكومة صاحب الجلالة تولي الأمر بالغ اهتمامها.

٢- إنكم تدركون بأن تاريخ حق الامتياز لإدارة الفنارات العثمانية يبين بوضوح -كما ذكرت بالتفصيل في رسالتي بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩١٩- أنّ الحكومة العثمانية كانت تقوم بصيانة هذه الفنارات قبل اندلاع الحرب، وبأن الدور الوحيد الذي كانت تلعبه إدارة الفنار العثمانية هو جلب العاملين لبناء الفنارات وعلى حساب الحكومة العثمانية. وفيما يتعلق بادعائكم أنّ اتفاق السلام قد وُقع بين دول الحلفاء وتركيا، وبأنه لم يعد هناك أيُّ مبرر لاستمرار احتلال هذه الفنارات من قِبل حكومة صاحب الجلالة، وينبغي تسليمها لإدارة الفنارات العثمانية، فلا يسعني هنا إلا تذكيركم بأنه ووفقاً لمعاهدة لوزان[1] Lausanne Treaty فإن الحكومة التركية قد تنازلت عن كافة حقوقها في الجزيرة العربية والجزر المجاورة لها. وبتلاشي حقوق الحكومة التركية على كافة هذه الأراضي، فإن حكومة صاحب الجلالة تأسف عن الاعتراف بأيّ حق تدَّعيه إدارة الفنارات العثمانية، يعيدها إلى نفس الوضع الذي كانت تتمتع به في ظل الامبراطورية العثمانية فيما يخص فنارات البحر الأحمر.

وفي نفس الوقت، سيكون من المفيد إطلاع سعادتكم على أن المفاوضات ما زالت جارية بين الإدارة المختصة في حكومة صاحب الجلالة وبين إدارة الفنارات العثمانية بخصوص مستقبل هذه الفنارات.

سأظل رهن إشارتكم وتفضلوا بقبول فائق تقديري

عن وزير الخارجية

توقيع / لانسلو أوليفانت.

Lancelot Oliphant

---

(١) وقعت معاهدة لوزان في ٢٤ يوليو ١٩٢٣ بين تركيا من طرف ودول الحلفاء المنتصرة في الحرب العالمية الأولى من طرف آخر. دخلت حيّز التنفيذ في ٦ أغسطس ١٩٢٤، وحلّت محل معاهدة سيفر التي وقعب في ١٠ أغسطس ١٩٢٠. ومن أبرز ما نصت عليه الاعتراف بنظام أتاتورك، ورسم الحدود لتركيا الجديدة، وتنازل تركيا عن المناطق العربية التي كانت تحت سيطرتها.

بداية انفراج أزمة النّزاع:

عقدت شركة كولاس-ميشل، تحت مسمى إدارة الفنارات العثمانية، جلسة مفاوضات رسمية مع المجلس التجاري البريطاني، في ٢٠ أكتوبر ١٩٢٤، وبعثت بنسخة من محضر هذه المفاوضات إلى المسيو / إدوار هيريو EDOUARD HERRIOT رئيس الحكومة الفرنسية ووزير الخارجية طيّ رسالتها المؤرخة ٧ يناير ١٩٢٥ والتي أرشفت تحت رقم (E-335-5/58,59,70)، وقد تضمن المحضر معلومات هامة حول تكشّف النوايا والأطماع السياسية الفرنسية والبريطانية في المنطقة العربية وفي الجُزُرِ التي أُنشئت فيها الفنارات الثلاثة. وفيما يلي ترجمة لما جاء في هذا المحضر:

«تلخص مذكرة الـ ٢٠ من أكتوبر المرفقة المفاوضات الرسمية التي تمت في المجلس التجاري منهيةً سلسلة من المفاوضات الطويلة عبر الرسائل بين وزارتي الخارجية الفرنسية والبريطانية. بدأت المفاوضات المباشرة بين إدارتنا والحكومة البريطانية في يوليو ١٩٢٤ نزولاً عند نصيحة وزارة الخارجية الفرنسية.

وقد بدأت هذه المفاوضات في ظل الظروف التالية: وزارة الخارجية البريطانية تتصرف من تلقاء نفسها دون مشورة المجلس التجاري الأكثر اطلاعاً على قضية الفنارات، وتصر على التأكيد على أن الحكومة التركية تخلّت عن حقوقها في المنطقة حيث تتواجد الفنارات، وبأن هذا ينطبق على كافة حقوق إدارة الفنارات.

تتعارض هذه المزاعم مع معاهدة لوزان Le Traité de Lausanne التي تنص على نقل الحقوق الممنوحة، والتي ناضلت السفارة الفرنسية في لندن من أجل ذلك، وتكمن المشكلة فيما يلي: عدم وجود دولة سيادية بديلة في اليمن، في وقت تقع فيه الجزر التي تتواجد فيها فنارات أبو علي والزبير وجبل الطير تحت الإحتلال الفعلي للإنجليز منذ عام ١٩١٥، وتتولى البحرية البريطانية منذ ذلك التاريخ عملية الإضاءة. في حين أن فنار المخا الذي يقع على الساحل اليمني لم يعد يُضاء ويتم صيانته وحيازته من قبل موظفي الإدارة الفرنسية للفنارات.

في البداية لم تتخاطب إدارة الفنارات سوى مع المجلس التجاري والذي أبدى ومن دون أي تردد رغبته في أن تستأنف الإضاءة بواسطتها ، وبأنه وفيما يخصه لا يرى أيّ مانعٍ من تحديد رسوم تؤمّن «رِبحاً معقولاً» للإدارة. ومع ذلك أشار المجلس التجاري إلى ضرورة أن يكون لوزارة الخارجية البريطانية رأي في ذلك. وهذا الرأي نجده في المذكرة المؤرّخة ٢٠ أكتوبر.

يبدو لنا أن مقترح وزارة الخارجية البريطانية مثير للاهتمام؛ فهو يتضمن من ناحية موافقةً على تحديد رسوم لإدارة الفنارات تتيحُ استغلالاً مستداماً للفنارات، ويضع حداً لمشكلة غير قابلة للحل بدون ذلك. ومن ناحية أخرى فهو يتيح لوزارة خارجيتنا –دون الحاجة إلى التطرق إلى المسألة السياسية إن رغبت في ذلك– بأن تضع نهاية للاحتلال العسكري غير المبرر لفنارات خاضعة للاستغلال الفرنسي.

وحسبما تضمنته مذكرة الخارجية البريطانية، يبدو جلياً أنّها لا ترغب البتة في التطرق للمسألة العربية، ولا لأية مسألة سياسية أخرى مرتبطة بالفنارات.

وقد تم الاتفاق – في واقع الأمر، ومنذ مطلع المحادثات في لندن – على ترك موضوع فنار المخا خارج المفاوضات، لكونه على اليابسة، ويُخشى أن يتسبب في إثارة القضيّة العربية، حيث صرّحت وزارة الخارجية البريطانية بأن «لدى بريطانيا ما يكفيها مما عليها القيام به وكثير من التحديات تغنيها عن البحث عن المزيد»

والرسوم الممنوحة تكاد تغطي وتشمل نفقات تشغيل فنار المخا.

ليس في طرح الإنجليز ما يوحي برغبتهم في التطرق لموضوع الدول العربية أو لمسألة السيادة على الجزر على وجه التحديد؛ فهم لا يلمحون إلى الجانب السياسي لهذه المسألة خصوصاً، إلا للتأكيد وبكل بساطة على أن البحرية العسكرية البريطانية احتلت هذه الفنارات، وأن إعادتها تمثل إخلاءً عسكرياً فقط وبما لا يثير أية مسألة سياسية.

إذا وقفنا عند هذه الرغبة ولم نهتم بالبحث عن نوايا افتراضية خفية، فسيكون من السهل التوصل إلى صيغة. وفوق ذلك، فإن لطلب الإنجليز التهدئة فائدة في

عدم إطالة أمد الوضع الحالي الذي يصب يومياً في مصلحة الإنجليز كما في قبرص ومصر، وبما يدعم موقفهم حين مناقشة جوهر هذه القضية وما تكبدوه من تكاليف لصيانة الفنارات.

وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أنّه، وفي حال رفض هذا المقترح، وتمسكنا بالمطالبة بعودة الأوضاع إلى سابقها، فلن يكون بمقدور إدارة الفنارات دون رسوم ودون أية تعويضات القيام بخدماتها، ولا تعرف لأي بلد تتوجه، لا سيما وأن مصير اليمن لم يتحدد بعد.»

وجهة النظر البريطانية للحلّ:

بعث السفير الفرنسي لدى بريطانيا المسيو/ فلوريو Fleuriau، لوزير الخارجية الفرنسي المسيو بريان Briand، بمذكرة بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٢٥، أرشفت تحت رقم (E-335-5/81)، أوضح فيها بأنه التقى بالسير/ أوستن شامبيرلاين Austen Chamberlain، وأرفق الرسالة التي تسلمها منه بتاريخ ١٨ مايو ١٩٢٥ المرقّمة (E-2672/181/91) والتي تتضمن مقترحات الجانب البريطاني لحل مسألة فنارات البحر الأحمر، وقد جاء فيها:

«لا شك بأن سعادتكم على اطلاع على المراسلات التي تبادلتها مع المسيو دوسانت أولاير M. De Saint-Aulaire، فيما يتعلق بالفنارات العثمانية في البحر الأحمر، والتي كان آخرها الرسالة التي تلقيتها من سلفكم بتاريخ ١٩ نوفمبر المنصرم.

٢- إنّني أدرك أن الحكومة الفرنسية حريصة على التوصل إلى تفاهم مع حكومة صاحب الجلالة حول مستقبل هذه الفنارات. وأود التأكيد على أن الحل الودي لهذه المسألة وبما يمكّن إدارة الفنارات العثمانية من استئناف مهمة صيانة وتشغيل الفنارات سيحوز كثيراً على رضا حكومة صاحب الجلالة. ووفق هذا المنظور، تتقدم المفاوضات غير الرسمية الجارية منذ عدة أشهر مضت بين الإدارة المختصة في حكومة صاحب الجلالة وبين ممثلين عن إدارة الفنارات العثمانية، وتغذي الأمل بإمكانية التوصل إلى حل مرضٍ لجميع الأطراف. ومع ذلك، ونظراً للوضع غير المحدد للجزر الثلاث (جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو

علي) فإنّني أقرّ بوجود صعوبات تعيق التوصل إلى تسوية بين حكومة صاحب الجلالة وبين إدارة الفنارات العثمانية على الأساس المقترح. وتوضح المذكرة المرفقة طبيعة هذا الصعوبات.

٣- إن الوضع الذي قد يتمخض عن التطبيق الصارم لبروتوكول الامتيازات في معاهدة لوزان وعلى النحو المبين في المذكرة، لن يكون مرضياً كثيراً كأساسٍ لحل ودي للمشكلة بين الحكومة الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة. إن الإخفاق في التوصل إلى اتفاق سيضر بمصالح كافة الأطراف، وخاصة المصالح المرتبطة بالإدارة العثمانية للفنارات التي تجد نفسها في الوقت الراهن محرومة من استغلال حق الامتياز.

٤- من دواعي المصلحة العامة صيانة هذه الفنارات بحيث تظل بكامل جاهزيتها لتسهيل الملاحة لكافة الأمم، ومع ذلك لا يمكن التوصل إلى اتفاق دائم ومرضٍ بين حكومة صاحب الجلالة وإدارة الفنارات طالما ظلّتْ الجُزر الثلاث تحت احتلال حكومة صاحب الجلالة وظلّتْ مسألة السيادة عليها غير محسومة.

٥- يكمُن الحل الأكثر قبولاً- من وجهة نظري- في اتفاق بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة الفرنسية، تُدعَى القوى العظمى المهتمة لتكون طرفاً فيه، يمنح حكومة صاحب الجلالة السيادة على الجزر، وينيط مهمة صيانة الفنارات لإدارة الفنارات مقابل شروط معقولة خلال فترة حق الامتياز، وبحيث تُفرض مستحقات الإضاءة على سفن الشحن المستفيدة من ذلك.

٦- فيما يتعلق بفنار المخا، فالوضع يختلف بالطبع، كونها تقع على أراض خاضعة لإمام اليمن. ومع ذلك، تتعهد حكومة صاحب الجلالة ببذل كل ما بوسعها للترتيب مع الإمام كي تستأنف إدارة الفنارات استغلالها لفنار المخا.

٧- إنّني على ثقة من أن الحكومة الفرنسية ستدرك أن وضع حد لهذا الوضع غير المستقر وفي أسرع وقت هام ولمصلحة كافة الأطراف. وآمل أن يصلني من سعادتكم ما يفيد بأن المقترح أعلاه قد قوبل بالموافقة.

Austen Chamberlain

أوستن شامبرلاين

وجهة النّظر الفرنسيّة للحلّ:

أخضعت إدارة الفنارات هذه الرسالة التي تتضمن وجهة النظر البريطانية للدراسة والتحليل، وخرجت بالملاحظات التالية:

١- إشارة وزير الخارجية البريطاني أوستن شامبرلاين إلى مذكرة السفير الفرنسي مسيو دوسانت اولاير بتاريخ ١٩ نوفمبر، توحي بتغافل البريطانيين للمحادثات غير الرسمية التي أعقبت هذا التاريخ بين إدارة الفنارات والجهات المعنية البريطانية.

٢- جاءت الفقرة الثانية بهدف إثبات رغبة البريطانيين في إرضاء إدارة الفنارات، لكن هذه الرغبة تصطدم بعراقيل كبيرة تتمحور حول الوضع السيادي غير المحسوم للجزر الثلاث.

٣- تشير الفقرة الثالثة إلى أن الحل لن يتأتى إلا عبر اتفاق ودي بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية، وخارج إطار أي اتفاق من هذا القبيل ستكون إدارة الفنارات هي الخاسر الوحيد وستحرم من حق الامتياز. وهذه الفقرة تتضمن الاعتراف بحق الامتياز الذي تتمتع به شركة كولاس-ميشل، وتعد المرّة الأولى التي يُذكر فيها حق الامتياز من قِبل الجانب البريطاني وعلى مثل هذا المستوى العالي.

٤- تبين الفقرة الرابعة أنّ الحلّ الوحيد يكمُن في تحديد السيادة على الجُزُرِ؛ لأن الاحتلال البريطاني يُمثل أمراً واقعاً لا سيادة مستديمة.

٥- تتضمن هذه الفقرة المقترح البريطاني بتوافق الحكومتين البريطانية والفرنسية على الاعتراف بسيادة بريطانيا على الجُزُرِ مقابل منح إدارة الفنارات حق استغلال الفنارات بشروط معقولة.

٦- بالنسبة لفنار المخا الواقع تحت سلطة الإمام يحيى، لم تكن تطمح إدارة الفنارات بأكثر من توسط البريطانيين لدى الإمام لتسهيل استغلال هذا الفنار.

٧- الفقرة السابعة توضح إقرار السير اوستن شامبرلاين بأن الوضع القائم

غير مستقر.

وقد خرج الجانب الفرنسيّ بالخلاصة التالية:

١- المقترحات جاءت من الجانب البريطاني وليس من الجانب الفرنسي.

٢- النّبرة العامّة تصالحيّة وديّة.

٣- اعتراف الجانب البريطاني بحق الامتياز الفرنسي.

٤- اعتراف الجانب البريطاني بأن ميناء المخا يخضع للسيادة اليمنية ولسلطة الإمام يحيى، وكون الجزر الثلاث تقع في المياه الإقليمية اليمنية وبالتالي تخضع لسلطة الإمام يحيى وأنه بإمكان الجانب الفرنسي استغلال هذه النقطة.

رد وزير الخارجية الفرنسي مسيو بريان في يونيو ١٩٢٥، على رسالة السير أوستن شامبرلاين، وزير الخارجية البريطانية، ونجد في مشروع هذه الرسالة والتي أرشفت تحت رقم (E-335-5/84) ما يلي:

معالي الوزير،

« إنني بالتأكيد على اطلاع على المراسلات التي جرت بين معاليكم ومسيو سانت اولاير، وكذا على المفاوضات غير الرسمية التي تمت بين الشركة الفرنسية للفنارات العثمانية وبين الجهات المختصة في حكومة صاحب الجلالة، إضافة إلى اطلاعي على المحادثات التي أجراها السفير دوفلوريو مع وزارة الخارجية البريطانية.

ولا يسعني إلا أن أشكر معاليكم على الرسالة رقم (٩١/ ١٨١/ ٢٦٧٢) والمؤرخّة ١٨ مايو ١٩٢٥، وعلى المقترحات التي تضمنتها، آملاً التوصل إلى حل مرضٍ لجميع الأطراف. وأرغب في التأكيد لمعاليكم بأن الحكومة الفرنسيةً ستسعى للحل بذات الروح الودية التي لمسناها من خلال رسالة معاليكم.

لا ريب أن النقطة الحسّاسة في هذه القضية تكمن في مسألة السيادة غير المحسومة على الجزر الثلاث وعلى ميناء المخا، وأخشى أن يكون الحل المقترح مِن قِبَلِ معاليكم بالاعتراف بسيادة صاحب الجلالة على الجزر المحتلة فعلاً من

قِبَل قوات صاحب الجلالة البحرية، صعب التحقيق بتوافق مجرد دون العثور على سندٍ قانوني. ومع ذلك، أعتقد بإمكانية التوصل إلى تسوية وديّة بين حكومتينا ترتكز على ما توصلت إليه المفاوضات غير الرسميّة بين الشركة الفرنسية والجهات المختصة في حكومة معاليكم. وذلك بإيجاد صيغة تطمينيه لحكومة صاحب الجلالة بعدم وضع الحكومة الفرنسية للعراقيل فيما يخص القضايا ذات الطابع السياسي التي قد يثيرها الاحتلال البريطاني للجزر. يبدو لي بأن البحث عن هذه الصيغة يعد خطوةً ضروريةً، وحكومة الجمهورية الفرنسية مستعدة للشروع بها وبتفاهم مشترك مع حكومة صاحب الجلالة. من المعلوم أن الصيغة المذكورة ستكون ثمرة اتفاق متبادل سواءً فيما يتعلق بالجُزُر أو فيما يتعلق بالمخا، بحيث تتضمن اعترافاً بحق الامتياز الفرنسي وإقرار رسوم ملاحة وتطبيقها.

أما فيما يتعلق باتفاقية شركة الفنارات، فإنّني أعرب عن كامل تحفظي فيما يخص تفسيرها كما ورد في المذكرة المرفقة بخطاب معاليكم. وأظن بأنه من الملائم، بعد موافقة معاليكم، أن ندع الشركة تناقش بنفسها بنود الاتفاقية مع الجهات المختصة في حكومة صاحب الجلالة».

المفاوضات النهائيّة:

تشير الوثائق والمراسلات إلى أن المفاوضات النهائية بين الجانبين الفرنسي والبريطاني تركزت حول أربع نقاط رئيسية:

- عدم إثارة مسألة السيادة على الجزر التي تتواجد فيها الفنارات الثلاث.
- التسليم بحق إدارة الفنارات العثمانية (شركة كولاس-ميشل الفرنسية) في استغلال هذه الفنارات.
- الاتفاق على تطبيق تعريفة معقولة مقابل خدمات الإضاءة الإرشادية.
- الاتفاق على وضع فنار المخا.

وقد أفضت هذه المفاوضات المضنية إلى التوصل إلى مشروع اتفاق من خمس نقاط، كما تضمنت ذلك الوثيقة المؤرشفة تحت رقم (E-335-5/80):

١) اتفقت الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية على أن الإقرار بتسليم فنارات جبل الطير، وجبل الزبير، وأبو علي، المشمولة بحق الاستغلال للإدارة العامة لفنارات الإمبراطورية العثمانية (شركة كولاس وميشل الفرنسية) لا يعني حكماً مسبقاً في المسائل السياسية الناجمة عن موضوع السيادة على هذه الجزر، مع مراعاة الحقوق المعترف بها لشركة الفنارات عند التطرّق لأي حلٍ.

٢) تم الاتفاق على أن الإعلان المذكور يرتبط بإعادة منح كافة الحقوق لشركة كولاس وميشل وبتطبيق تسعيرة معقولة.

٣) تم الاتفاق أيضا على أن تُصدِر الحكومتان إعلاناً مشتركاً فيما يتعلق بوضع فنار المخا.

٤) تم الاتفاق على أن تدرس الحكومتان أنجع السبل للتنفيذ العملي والسريع للإضاءة الجيدة للبحر الأحمر، وتحصيل الحقوق المنبثقة عن ذلك.

٥) تم الاتفاق على أمر بديل بأن تكون الرسوم التي ستفرض مقابل الفنارات في الفقرة (١) كافية لتشمل الحقوق المنبثقة عن فنار المخا (الفنار الرابع).

هذا فيما يتعلق بالمفاوضات التي جرت بين الإنجليز والفرنسيين بخصوص حق الامتياز ومسألة السيطرة على الفنارات اليمنية، أما فيما يخص الديون المتعثرة التي استدانتها الحكومة العثمانية من الشركة الفرنسية كولاس- ميشل لتمويل هذه الفنارات، فكانت هناك محاولات لاستيفائها من الحكومات التي استقلت عن الحكم العثماني، وحازت على السيادة على أراضيها ومنها اليمن. إلا أن حكومة الإمام يحيى ومنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى أعربت عن رفضها التام لهذا الطرح والاعتراف بأيّة ديون.[١]

(١) انظر كتاب:
Jacques THOBIE, 1972, Phares ottomans et emprunts turcs (1904-1961), édition de Richelieu, Paris.

الباب السادس

الرّحلات الاستكشافية الفرنسيّة إلى اليمن

حتى نهاية القرن التاسع عشر

الرّحلات الاستكشافية الفرنسيّة إلى اليمن

لم تنل الرحلات الاستكشافية الفرنسية إلى اليمن حظها من الشهرة ؛ كتلك الرحلة التي قام بها الدنماركي – الألماني كارستن نيبهور Carsten Niebuhr ورفاقه إلى اليمن في ديسمبر من عام ١٧٦٢، والتي استغرق إعدادها والتهيئة لها عدّة سنوات، وقد اكتسبت هذه البعثة أهمية بالغة في الأوساط السياسية والعلمية والشعبية في أوروبا التي كانت تتعطش حينها إلى العلم والمعرفة والتطلّع لحياة الشعوب في ذلك الشرق البعيد مهبط الرسالات السماوية.

تشكّلت هذه البعثة بأوامر ملكيّة وبتمويل من ملك الدنمارك فريدريك الخامس، وكانت تضم مجموعة من العلماء المتميزين والمشهورين في ذلك الزمن وفي مجالات مختلفة (عالم الجغرافيا والفلك نيبهور Niebuhr، عالم النباتات والأجناس فورسكال Forskahl، عالم اللغات دو هافن De Haven، الرّسام باورنفايند Baurenfeind، وطبيب البعثة كرامن Cramen).

كانت هذه الرحلة محفوفة بالمخاطر، وتعرض جميع أفراد البعثة لأمراض فتّاكة أودت بحياتهم جميعاً، ولم ينجُ منهم سوى كارستن نيبهور Carsten Niebuhr (١٧٣٣-١٨١٥) الذي يعود له الفضل في نشر مجلّدين كبيرين يحتويان على تفاصيل جغرافية وعلمية واجتماعية دقيقة ومتنوعة عن الرحلة أكسبته وبعثته شهرة عالميّة حتى وقتنا الحاضر.

الرحلة الاستكشافية التي قام بها الرّحالة الإيطالي لودفيكو دي فارتيما Ludovico Di Varthema (١٤٧٠-١٥١٧)، ضمن جولته إلى مصر وسوريا والصحراء العربية والعربية السعيدة وبلاد فارس وبلاد الهند وأثيوبيا بين عامي ١٥٠٣ و ١٥٠٩، تُعَدُّ من أوائل الرحلات الاستكشافية التي يقوم بها أوروبيٌّ لليمن، والتي جاءت بغرض تقصي بعض البقاع الصغيرة والبعيدة في

الكرة الأرضية، حسب وصفه، كي يرى بأم عينه ويتأكد بنفسه من مواقع الأماكن ونوعيات البشر وأجناس الحيوان وأنواع الأشجار والثمار[1]. وقد خصص باب «السّفر الثالث» من يومياته لبلاد العرب السعيدة (اليمن)، فتحدث عن جيزان وخصوبتها، ووصفها بقوله : «وهي تمثل منطقة مثمرة جداً ذات مناظر خلابة ؛ شبيهة بالمناطق المسيحية في أوروبا، ويوجد فيها عنب، وخوخ، وسفرجل، ورمان، وثوم له رائحة نفاذه جداً، وبصل طيب، وجوز، وبطيخ، وورود، وأزهار، وتين، ويقطين، وأترج، وليمون، وبرتقال حامض، ولكل هذا فهي فردوس حقيقي.»[2]

وصف سكّان «جيزان» بأنهم يسيرون شبه عُراة ولا يرتدون سوى (فوطة) تغطّي الجزء السفلي من أجسادهم.

زار جزيرة «كمران» التي كانت تقطنها حوالي مائتا أسرة من المسلمين، وفيها ماء عذب ولحم وأجود أنواع الملح حسب وصفه. بعدها انتقل إلى ميناء «عدن» مروراً بمضيق باب المندب، ووجد «عدن» من أكثر المدن تحصيناً، ومحميّة بجبال، وعلى هذه الجبال خمس قلاع، وقال فيها :

« أرضها مستوية سهلة، وتضم خمسة آلاف أو ستة آلاف أسرة، ويعقد بها سوق في الساعة الثامنة مساءً تجنباً للحرارة الشديدة. وعلى مرمى حجر من المدينة يوجد جبل، عليه قلعة، وعند سفح هذا الجبل تلقي السفن بمراسيها. ومدينة عدن

---

(١) شكّك كثيرٌ من الباحثين ومن ضمنهم الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الذي ترجم إلى العربية انطباعات الرحّالة فارتيما، بالمغزى الذي يسوقه الرحّالة من هذه الجولة، ويصف المترجم جولته بأنها أقرب إلى مهمة تجسسية لحساب ملك البرتغال، حيث يقول في مقدمة الترجمة : «إذا كانت مهمة دي جاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحري للهند، فإن مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيداً، فقد كان مكلّفاً بوصف عادات الشعوب التي يمر بها في طريقه للهند، وفي الهند نفسها، وكتابة تقارير عن جيوشها خاصة ما يتعلق بالمدافع، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، خاصة ذات القيمة في التجارة العالمية. وباختصار، فإن مهمته كانت التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعات التي مرّ بها، وخاصة الإسلامية منها.»

(٢) (أنظر : رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٩٤، ص ٦٥)

في غاية الجمال وهي عاصمة وأهم مُدن بلاد العرب السعيدة ؛ فهي ملتقى السفن التي تأتي من الهند الكبرى والهند الصغرى ومن أثيوبيا ومن بلاد فارس، وترسو فيها كلّ السفن التي تقصد مكّة. وبمجرد أن تصل السفينة للميناء يصعد إليها موظفو سلطان هذه المدينة ليعرفوا من أين أتت وما هي حمولتها، ومتى تغادر، وكم عدد الأشخاص على متنها، وعندما يجمعون كل هذه البيانات، يقومون بنزع أشرعة السفينه وساريتها ودفتها ومراسيها، ويحملون كل ذلك معهم، وذلك مخافة أن يغادر الأشخاص المسؤولون عن السفينة الميناء، دون دفع الرسوم للسلطان.[1]»

تمّ القبض على الرحالة الإيطالي دي فارتيما، ثاني يوم وصوله إلى عدن بتهمة التجسس[2]، وظل في سجن عدن مكبلاً بالقيود لمدة خمسة وستين يوماً، قبل أن يتم نقله إلى مدينة رداع مقر إقامة السلطان عامر بن عبد الوهاب، حيث وجده يستعرض قوة عسكرية قوامها ٨٠٠٠٠ مقاتل[3]، لمحاربة إمام صنعاء. وصف الجنود بالهزلاء، وبأنهم عُراة إلا من قطعة من الكتان يرتدونها كسترة، وأسلحتهم عبارة عن رمح وسيف ومقاليع لقذف الأحجار، وتروس مصنوعة من جلد الأبقار.

بعد أن شفعت له زوجة السلطان وتم إطلاق سراحه بعد ما يقارب العام من سجنه، زار لحجَ وعزعز ودمت والمقرانة ويريم وصنعاء وذمار وزبيد وتعز، وكان مقتصداً في وصف هذه الأماكن وعادات الناس وتقاليدهم وملابسهم وأنواع الأشجار والثمار، قبل أن يهرب عبر ميناء عدن باتجاه بلاد فارس.

***

(١) نفس المرجع السابق، ص ٦٧، ٦٨

(٢) بعد أن أنهى الرّحالة الإيطالي رحلته في عام ١٥٠٩، تعرّضت عدن للغزو البرتغالي في عام ١٥١٣، مما يعزز الشكوك حول المغزى الحقيقي من جولته هذه، وبأنه كان جاسوساً يعمل لحساب ملك البرتغال الذي موّل رحلته وجاء في مهمة لجمع معلومات عن التحصينات في المدن الساحلية وجاهزية الجيوش وتجهيزاتها.

(٣) كان من ضمنهم ثلاثة ألف فارس من أبناء المسيحيين ذوي البشرة السوداء من الأحباش من أتباع القديس يوحنا، حسب وصفه.

رحلة بول ايميل بوتا

Paul Emile Botta (١٨٠٢ -١٨٧٠)[١]

في عام ١٨٣٦ بعث متحف التاريخ الطبيعي في باريس Le Musée d'Histoire Naturelle de Paris عالم النباتات والمستشرق بول ايميل بوتا[٢] Paul Emile Botta إلى اليمن بهدف جمع عيّنات نادرة من الأعشاب الطبية ومن النباتات التي تتميز بها المنطقة. وقد نشر في عام ١٨٤١ كتيباً عن رحلته هذه وعمّا شاهد من أماكن وعايش من أحداث في ذلك الوقت. أشار في مقدمته إلى رحلة نيبهور الشهيرة التي تحدثنا عنها سابقاً وقال فيها ما يلي: « لا يخفى على أحد أنّ اليمن كانت قبل قرن مضى أهم المحطّات الاستكشافية للبعثة الدنماركية والتي كان نيبهور أحد أعضائها، والتي عاد منها وحيداً على قيد الحياة وتمكن من نشر نتائج الرحلة. وقد بلغت دقة هذا العالم في وصف مشاهداته درجةً جعلتني أعتقد أن نشر ملاحظاتي سيكون ضرباً من العبث، لولا نجاحي في بلوغ أماكن لم يتمكن من زيارتها، وزد على ذلك الفائدة من رصد المتغيرات التي أحدثها الزمن ».

ورغم إشادته برحلة نيبهور ونتائجها إلا أنه وجّه النقد لكتاب نيبهور بقوله : «يمكنني أنه أوجّه نقداً لكتاب نيبهور الذي يبدو لي بأنه جاء كنتاج للفكر السائد في ذلك الوقت، حيث تم التركيز على الدقة العلمية وعلى جوانب معينة محدودة

---

(١) ترجمة لما جاء في يوميات المستشرق الفرنسي بول إيميل بوتا والتي نشرت عام ١٨٤١، ونجدها في المرجع التالي:

Botta, Paul-Emile, 1841, Relation d'un voyage dans l'Yémen : entrepris en 1837 pour le Muséum d'histoire naturelle de Paris, Paris, B. Duprat.

(٢) بول ايميل بوتا Paul Emile Botta من مواليد ١٨٠٢ في مدينة تورين الإيطالية Turin ووالده هو المؤرخ كارلو جيسب بوتا Carlo Giuseppe Botta ، بعد عودته من رحلته إلى اليمن عينته الحكومة الفرنسية قنصلاً لها في الموصل بين عامي ١٨٤١-١٨٤٥، وهناك بدأ يهتم بالأثار، وينسب إليه اكتشاف بقايا عاصمة الآشوريين القدماء. وفي عام ١٨٤٦ عين قنصلاً لفرنسا في القدس، وعمل ما بين عامي (١٨٥٧-١٨٦٨) قنصلاً لفرنسا في طرابلس وتوفي في اشر Achères في فرنسا عام ١٨٧٠. [موسوعة ويكيبيديا]

المتعة، وذلك على حساب السمات العامة التي يمكن ملاحظتها من قِبل من يمر مرور الكرام، وجعل من الكتاب مسرداً للأشياء المادية الملاحظَة والموصوفة بدقة متناهية، مثله مثل كتاب بورخاردت Burckhardt عن العربية السعيدة، وحسب اعتقادي لا تساعدنا قراءة كتاب كهذا على الخروج بصورة واضحة عن العقلية والطبائع العربية، ويظل هذا الجانب مجهولاً.»

حدد بول بوتا أهدافه من الرحلة باستكمال المعلومات التي جمعها سابقوه من الرحّالة وبدراسة حياة عرب اليمن واهتماماتهم وطباعهم عِوضَاً عن الجوانب المادية التي لن تضيف شيئاً إلى ما اكتشفته بعثة نيبهور. ولم يكن له خط سير محدد لرحلته الاستكشافية إلى اليمن، بل ترك للظروف تحديد وجهته.

من هنا سأترك للقارئ الكريم الاطّلاع على تفاصيل رحلة بول بوتا حسب روايته الشخصيّة:

«بعد قضاء عدة أشهر في الأجزاء الشمالية من البحر الأحمر، غادرت ميناء جدة على متن قارب عربي كبير، كان يحمل على متنه شحنة من العدس كتموين غذائي للقوات العثمانية المرابطة في اليمن. كان القارب يبحر خلال النهار ويرسو أثناء الليل كما جرت العادة اتقاءً للمخاطر. وصلنا ميناء الحديدة عند الغروب في نهاية شهر سبتمبر عام ١٨٣٦، وتوجهتُ على الفور لزيارة حاكم الحديدة «حسين أفندي»، وهو من مواليد مدينة «بلجراد» وترعرع فيها، وكان على تواصل دائم مع الأوروبيين، وقد أحسن استقبالي باللطافة المعهودة عن الأتراك، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون من غلظة في القلب. من ثمّ أوصلوني إلى تاجر مشهور يدعى «أبو بكر القحطاني»، يتمتع بالثراء والأمانة والسمعة الطيبة كما أكد لي الكثير من الناس، وهو من أبناء حضرموت جاء إلى الحديدة طلباً للرزق والسعي وراء المال والثروة، وينحدر أهم تجار اليمن والحجاز من مناطق حضرموت الفقيرة.

كان الشيخ قحطان يمتلك عدّة قوارب كبيرة للاتجار مع بلاد فارس والهند ويُعدّ من كبار الأثرياء، جميل الهيئة ويميل إلى البياض مقارنةً بسحنة اليمنيين هنا. ورغم ثرائه ؛ كان شخصاً متواضعاً يرتدي ملابس بسيطة كجميع أبناء المناطق

الساحلية، حيث يأتزر بمئزر حتى الخاصرة، ويضع كوفيّة قطنية مطرّزة بالحرير على الرأس، وبقية الجسد عارٍ تماماً. بعد تناول وجبة عشاء متواضعة في منزلة، قدّم لي قهوة مشبّعة بالبهارات مما أعطاها مذاقاً لم يرق لي. قضيت الليلة بضيافته قبل أن يستأجر لي في اليوم التالي منزلاً أقمت فيه عدة أيام بانتظار عودة إبراهيم باشا[1]، ابن شقيق باشا مصرَ وحاكم المناطق اليمنية المحتلّة من قبل العثمانيين.

لم يتمكّن العثمانيون حتى هذا الوقت من التقدم في المناطق الداخليّة، وظلّ حضورهم محصوراً في المناطق الساحليّة، ولكنّهم استغلّوا بدهاء الخلافات بين اليمنيين، ووظّفوها بنجاح للتوغّل في المناطق الجبلية. فحاكم اليمن الشّاب في صنعاء لم يكن يحظى بشعبية ؛ نظراً لضعف أداء حكومته، وبسبب صفاته الشخصية السيئة، زد على ذلك خروج عامل تعز عليه وهو أحد أعمامه الذي لم يتوان عن حشد الجيش للإطاحة بإبن أخيه وتنصيب نفسه إماماً. عاملون آخرون ذوو نفوذ خرجوا على الإمام وأعلنوا استقلالهم عن حكمه وعمّت الفوضى والبؤس في أنحاء البلاد نتيجة لأطماع المتنافسين على الحكم، مما حدا بالشعب أن يحلم بأي تغيير يحدث، وبانتقال السلطة إلى أيادٍ قوية قادرة على فرض الأمن واستعادة السلام الذي حُرم منهما لوقت طويل.

كان حاكم مصرَ محمّد علي باشا، الوحيد القادر على بسط نفوذه وإعادة الأمن والاستقرار لليمن، ويكنّ له اليمنيون مشاعر طيبة. وكان المزارعون والحرفيون لا يرفضون فكرة العودة للخضوع لحكم العثمانيين الذي عرفوه في السابق، ومستعدين للتخلي عن استقلال مضطرب مقابل استعادة هدوئهم وازدهار أعمالهم.

وها هو ذا إبراهيم باشا ينجح في استمالة الشيخ حسن بن يحيى بن علي سعد، أحد زعماء القبائل المتنفذين، الذي حكم تعز لفترة طويلة تحت سلطة الإمام قبل أن يلوذ بجبال أصاب السافل، ويعلن استقلاله بها، وقد لعب هذا الشيخ دوراً هاماً

---

(١) تشير كثير من المصادر التاريخية إلى أنّ إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨) هو الإبن الأكبر لمحمّد علي باشا والي مصر، وليس ابن أخيه كما ذكر المستشرق بوتا، وقد عيّنهُ والده قائداً للحملة العسكرية على شبه الجزيرة العربية عام ١٨١٦. نُصّبَ إبراهيم باشا قبل وفاته بأشهرٍ معدودة في عام ١٨٤٨، كقائمٍ على العرش نيابةً عن أبيه الذي كان يعاني من المرض.

أثناء الانتفاضة التي قادها تركي-بيلماز Turki-Bilmez ضد محمد علي باشا، وأثناء غزو عرب عسير، الذين نصَّبوه حاكماً على المخا، وظل كذلك حتى وصول قوات إبراهيم باشا واحتلال المخا. وقد رغب إبراهيم باشا باستمالة الشيخ حسن لكونه لم يبد أية مقاومة، فمكّنه من منطقة حيس وما حولها كمكافأة له.

ولكون السّفر إلى المناطق الداخلية في اليمن مستحيلاً دون التمتّع بحماية، فقد اضطررتُ لانتظار إبراهيم باشا كي أحصل منه على توصية للشيخ حسن. وفي غضون ذلك تفرغت لجمع كافة المعلومات الضرورية.

يوجد في مدينة «الحُديدة» عدد كبير من العشش المبنية بالقش والجريد، وبها منازل جميلة مبنية بالطوب ويتم طلاؤها بالنّورة (الجير الأبيض)، سطوحها مستوية كأنها شُرَف محاطة بدرابزين ذي أشكال مختلفة مما يضفي عليها مظهر المنازل الإيطالية، النوافذ مغلقة ومحاطة بمشربيات تطل على الشارع ومزيّنة بسياج خشبي مصمم بطريقة حِرفيّة فريدة تعكس الذوق الرفيع ودقّة العمل. الأبواب كذلك، كتلك الموجودة في جدة، منحوتة بدقة متناهية تثير الإعجاب وتشبه الخزنات المزخرفة في أوروبا. الشّوَارع أكثر سِعَة ونظافة من مثيلاتها في المدن المصرية، لكن الأسواق صغيرة وقذرة، وكنت أَتحاشى الذهاب إليها حتى لا أتألم من منظر المتسولين الذين يعانون من جروح الغرغرينا، وهو مرض منتشر بين أوساط المُعدَمين في المناطق الساحلية. هؤلاء البؤساء يقطنون الشوارع ويموتون غالباً أمام أعين المّارة، دون أن يفكر شخصٌ في التخفيف من آلامهم. المدينة تعجُّ بمثل هؤلاء، وكانت الكوليرا قد تفشَت لعدة أيام قبل ثلاثة أشهر وحصدت أرواحاً كثيرة، وقد عرض طبيب فرنسي كان في خدمة إبراهيم باشا أن يُنشئ مشفى لمعالجتهم مجاناً، ولكنَّ الحاجة لتوفير الغذاء لهم دفعت إبراهيم باشا للرفض.

سُكان الحديدة خليط متنوع ؛ فالتجّار الرئيسيون هم من الحضارمة كما أسلفتُ، إلى جانب عدد من اليهود والهنود البانيان. ولا يسمح للبانيان باصطحاب زوجاتهم، وهم لا يمكثون إلا الوقت الكافي لجمع ثروة. ويحرص الهنود البانيان على إطعام الحمام في المدينة بنشر الحبوب بشكل منتظم على سطوح منازلهم،

وتتسع عنايتهم لتشمل الكلاب التي تنحدر من نفس الفصيلة في كافة دول المشرق، ولا يُسمح لها بدخول المدينة ويتم مطاردتها إن دخلت، ويشتري البانيان اللحوم التي توزع عليها كل صباح خارج الأسوار. الصوماليون هم الأغلب الذين يمكن مصادفتهم في الحديدة وعلى طول السواحل الممتدة حتى جدة، وهم ذوو بشرة سوداء وشعر طويل وملامح أوروبية. وهم من سكان السواحل المقابلة، ويأتون للحديدة بغرض بيع الزبدة والخرفان ومنتجات أخرى يجلبونها من بلدهم. أجسامهم ممشوقة القوام، ويتميزون بالشجاعة وبالكبرياء، ويتحدثون لغةً تشبه إلى حد كبير لغة قبيلة البيشاري Bicharris، التي تقطن ما بين نهر النيل والبحر الأحمر، إضافةً إلى تشابه كبير في هيئة الأشخاص. يرتدي الصوماليون قطعة فضفاضة من قماش القطن يضعونها على شكل رداء، وينتعلون صنادل جيدة الصنع، ويتسلحون بخنجر يربطونه على الذراع، وما يلفت النظر كثيراً لديهم هو شَعرُهم الكثيف الأشعث الذي يقصُّونه ويسرِّحونه بطريقة فريدة. بعض هذه التسريحات تشبه إلى حد كبير تلك التي نجدها مرسومة على المقابر المصريّة.

يوجد في مدينة الحُديدة ميناءٌ أو بالأحرى مرفأ شديد الخطورة، وبه حركة تجارية نشطة، كانت أكثر ازدهاراً فيما مضى قبل أن يمارس باشا مصر احتكار تصدير البُن، مستأثراً بـ ٥٠٪ منه وتاركاً النصف الآخر للتّجار، ولكنه حظر عليهم سوق مصر، حيث يستأثر بمفرده بحق البيع. ترسو كثيرٌ من السفن الهندية والإيرانية العائدة من ميناء جدة -حيث تباع شحنتها من البضائع مقابل مبالغ نقدية- في ميناء الحُديدَة وتُحمّل بضائع متنوعة تتألف أساساً من البُن واللبان والبخور والعاج وغيرها من منتجات السواحل المقابلة. ويُجلب اللؤلؤ الذي يتم استخراجه من الجزر العديدة الواقعة قبالة اللحيّة، إلى الحديدة، ويحتكر الهنودُ البانيان الاتجارَ به، ويصدرونه إلى الهند، حيث يتفوق على اللؤلؤ الفارسي يفضل لونه الوردي الجميل. وقد صادف ورأيتُ لدى الشيخ أبي بكر قحطان قلادة أو مسبحة محجوزة لباشا مصر تقدّر قيمتها بأكثر من خمسين ألف فرنك.

ما إن عاد إبراهيم باشا من المخا، حتى حصلتُ منه على رسالة توصية للشيخ

حسن، وأعطاني إياها بكل يسر على أمل أن أوافيه بمعلومات عن الوضع في البلاد عند عودتي. حصلتُ على رسالة أخرى من شخص تركي يدعى يوسف آغا، وهو مقيم في اليمن منذ وقت طويل وله يدٌ في كل المؤامرات السياسية التي تحصل في اليمن، واستطاع الحفاظ على نفوذ كبير لدى كافة الحكومات المتعاقبة، وها هو ذا اليوم يشغل منصب معاون أو مستشار لإبزاهيم باشا، وهذا المنصب لم يمنعه من الاحتفاظ بعلاقات حميمية ليس فقط مع أنصار العثمانيين فحسب، بل مع إمام صنعاء نفسه.

ونظراً للوضع السياسي المضطرب في اليمن، حاولتُ عدم إثارة الشّكوك بشخصي، وعدم إعطاء الانطباع بأني على علاقة جيدة مع الحكومة التركية، فارتديت ملابسي الأوروبية التي كنت قد تركتها منذ وقت، ولم يكن لي بُد من ذلك، رغم أنها تثير في الغالب فضولا غير مرغوب فيه، لكنها على الأقل توفر لي مزيداً من الاحترام وتبُعد عني الشكوك.

بعد أن انتهيتُ من التجهيزات اللازمة لرحلتي، غادرتُ الحديدة في الأول من أكتوبر مساءً برفقة ثلاثة معاونين مصريين ومُرشد. وهذا الإجراء الاحترازي ضروري لعبور هذه المناطق التي تسمى (تهامة) والممتدة على طول الساحل، والتي تتخللها مناطق زراعية وكثبان متعرجة ومضنية، وحواجز يقيمها الأهالي حول حقولهم لحجز مياه الأمطار المنحدرة من السيول المتدفقة من الجبال. ومن السهل أن يضل المرء طريقه هنا، وقد حصل لنا ذلك عدة مرات رغم مساعدة المرشد. حمّلتُ أمتعتي على ظهور الجمال، واقتنيت لنفسي حماراً جبلياً مريحًا في السفر مقارنة بالدّواب الأخرى. والحمير الجبلية هنا كبيرة وقوية، وأكثر انصياعاً من البغال التي تساويها في الحجم تقريباً، وتتوخى السلامة في السير، وهي حيوانات مرغوبة ويساوي سعرها - بل يتجاوز في بعض الأحيان - سعر الخيل.

بعد مغادرتنا الحديدة سلكنا سهولاً رملية جرداء أو مغطاة بنباتات السالييناس salines، حيث يستخرج الأهالي منها مشروباً من الصودا la soude ، وهي تُغطّي مساحات شاسعة، تمكّن من تصدير كميات كبيرة من الصودا إذا ما تم تحضيره

بعناية أكثر وذكاء أكبر. توقفنا عند منتصف الليل في إحدى القرى، وواصلنا المسير قبل طلوع النهار، ولأن وجهتنا كانت «بيت الفقيه» فقد ابتعدنا قليلاً عن البحر، وأصبحت الطبيعة أفضل، حيث عبرنا مناطق خصبة ومغطّاة بحقول القمح والذرة وقصب السكر ونبات النيلي L'indigo. هذا النبات الأخير منتشر وينمو جيداً في اليمن، لكن صبغة النيلي[1] المستخاصة منه تُحضّر بطريقة رديئة تفقدها قيمتها التجارية. ونظراً لوفرة هذا النبات فإنني أعتقد أن إنشاء مصنع هنا مِنْ قِبَل أوروبي فطن لطريقة تحضيره، سيكون مشروعاً مربحاً.

توقفت في وسط النهار في قرية صغيرة، حيث ذكّرتني العشش القليلة المتناثرة في وسط واحة من أشجار الطلح بقرى سِنّار[2] Sennar، وهي مبنية من أغصان الأشجار ومغطّاة بالقش، وتختلف أشكالها عن تلك المتواجدة في أفريقيا، فالعشش التي تسمى عريشاً هنا مربّعة، بينما عشش زنوج سِنّار مستديرة وشبيهة بأكوام التبن. الغطاء النباتي في هذه المنطقة يشبه إلى حد كبير الغطاء النباتي في أفريقيا، ويوجد عدد كبير من النباتات نفسها.

بعد قضاء أوقات متفرقة للرّاحة، واصلنا المسير، ووصلنا مدينة «بيت الفقيه» قبل غروب الشمس، مدينة كانت فيما مضى في ذروة الازدهار، وفقدت أهميتها بعد أن طمرت الرمال ميناءها «غلافقة» Ghalefka، وانتقلت تجارة البُن إلى الحديدة والمخا. وكي لا أثير فضول الأهالي، قرّرت قضاء الليلة في أحد المقاهي المشابه لتلك المتواجدة على كل طرق اليمن، وهو عبارة عن عشة أو بالأحرى سقيفة، حيث يتوفر الماء والنار وقهوة البن والقشر وسرير، وهو عبارة عن مقعد

---

(١) النيلة (بالإنجليزية Indigo Dye): صبغ ذو لون أزرق مميز. والمركّب الكيميائي الذي يشكل النيلة هو أنديغوتين. يمكن الحصول عليه من نبات نيلة الأشيَوي، أو من نبات الوسمة ويصبغ الصوف، والقطن (وهو الصباغ الأساسي للجينز) [موسوعة ويكيبيديا]

(٢) سنّار (بكسر السين وتشديد النون وفتحها)، مدينة تقع في ولاية تحمل اسمها في وسط السودان على الضفة الغربية لنهر النيل الأزرق على ارتفاع ٤٢٧ متر فوق سطح البحر وتبعد عن العاصمة الخرطوم مسافة ٢٨٠ كيلومتر جنوباً، وكانت سنار لقرون عديدة عاصمة للسلطنة الزرقاء التي حكمت السودان في القرن السابع عشر وحتى عام ١٨٢١ م. وهي اليوم واحدة من أكبر المراكز التجارية وأبرز نقطة تقاطع لخطوط السكك الحديدية في السودان. [موسوعة ويكيبيديا]

طويل مسنود بأربع دعامات يُستخدم أيضا للنوم. وقهوة القشر تعد من القشور المحيطة بلب بذرة البُن التي تشبه الكرز الإنجليزي، التي يتم تجفيفها وتستخدم في إعداد مشروب ساخن يتناوله الأهالي ساخناً في كل ساعات النهار، وهو مشروب سائغ وحلو ويمتلك قليلاً من نكهة القهوة وجزءًا من خصائصها المنبهة. يعتقد البعض أن اليمنيين يحتسون قهوة القشر من باب الاقتصاد، ويفضلون الاحتفاظ ببذور البُن لبيعها، ولكنّني أشكك بصحة ذلك؛ لأنَّ جميع اليمنيين ومن مختلف الطبقات غنية كانت أو فقيرة يتناولون قهوة القشر في كل أوقات النهار، ولا يتناولون القهوة المعتادة إلا بعد وجبات الأكل؛ لأنهم يعتبرون القهوة مشروباً يسبب السخونة في المناخ المحيط بهم فلا يمكنهم تناولها في كل وقت.

غادرت في اليوم التالي مدينة بيت الفقيه قبل بزوغ الشمس، ووصلت في المساء إلى مدينة زبيد التي كانت فيما مضى عاصمة تهامة. وهي مدينة كبيرة محاطة بسورٍ مهتري، وتضم بيوتاً جميلة مبنية جيداً من الطوب. قضيت اليوم التالي في البحث عن جِمالٍ أخرى لنقل أمتعتي إلى مدينة حيس، ولم أتمكن من السفر إلّا في الليل برفقة مُرْشدَين وحارسين من جنود الشيخ حسن للدخول إلى المنطقة التي كانت تحت نفوذه.

بعد خروجنا من المدينة قطعنا وادي زبيد الذي يُسقَى من معظم السيول المنحدرة من الجبال ويقوم الأهالي بتحويل المياه الى أراضٍ شاسعة وخصبة. عندما حلّ الظلام أخطأ المرشدان الطريق وتُهنا لبعض الوقت في سهل مترامي الأطراف، وسرنا في جميع الاتجاهات كي نعود إلى الطريق الصحيح ولكن دون جدوى. عندما أخفقنا في معرفة طريقنا عقدتُ العزم على قضاء الليل حيث كنا، وما أن وضعنا أمتعتنا حتى تناهى إلى سمعي نباح كلاب آتية من المدى البعيد، وهي أصوات تسعد أي مسافر في الصحراء. أطلقتُ عدة أعيرة نارية كي ألفت انتباه الأعراب القاطنين هناك والذين لم يتأخروا عن الحضور، وقادونا مقابل مكافأة بسيطة دفعتُها عن طيب خاطر، إلى مقهى قضينا فيه الليل. وفي صباح الغد وبعد شروق الشمس بقليل وصلنا «حَيس».

ما إن وصلت إلى «مدينة حيس» حتى تم إيصالي إلى منزل كان الشيخ حسن قد

أمر بتجهيزه لي. وما إن وطأت قدماي المنزل حتى جاء رسول الشيخ (المقدمي) ليبلغني بترحيب الشيخ بوصولي، وبأنه يعتبرني ضيفه، وكلّ ما أحتاج إليه سيكون ضيافةً منه. وكمؤشر على الحفاوة أرسل لي عدة أغنام وطحيناً وزبدة وقهوة وشموعاً،...الخ أي كُلَّ الأشياء التي سأحتاجها، كما سمعتُ أنّه أوعز إلى الأهالي بعدم أخذ أي شيء مني وتحت أيّ مبرر، والحكومة ستتكفل بدفع قيمة كل ما آخذه منهم ومقابل أية خدمات يقدمونها.

لا يرتبط هذا الكرم بفرد بعينة، فإكرام الضيف عند العرب يعتبر واجباً مقدّساً منذ القدم. فها هو ذا أحد ملوك العرب قبل الإسلام «كُليب بن وائل» كان لا يحتمل أن تُوْقدَ نار جُوار ناره، بمعنى أنه يكره أن ينافسه أحد في الكرم، وفي أيامنا هذه، كاد الملك الوهابي الشهير سعود أن يَحرم ابنه الأكبر عبد الله من خلافته لأنه قدّمَ عشاءً لأجانب، بطريقة تتعارض مع العُرف. وبالمثل فقد نظر حكام اليمن من الأئمة لكرم الضيافة على أنه من سِمَات المُلُوك. ونلمس ذلك فيما رواه نيبهور في الماضي، من أنّ الأئمة كانوا يأمرون بتزويد الرحّالة بما يحتاجونه، بل قُدّمت لهم الأموال عند مغادرتهم كي يتمكنوا من مواصلة رحلتهم. وحفاوة الشيخ حسن -الحاكم المستقل- بي وحُسنَ ضيافته نابعة من هذا الاعتقاد بأن الكرم من سمات الملوك.

بعد الظهيرة، أتى رسولٌ يبلغني بأن الشيخ حسن في انتظاري في بيت الدولة أو قصر الحاكم. كان القصر عبارة عن مجموعة من المباني والنوبات المتينة البناء والقادرة على الصمود لوقت طويل أمام هجمات أفراد مسلحين لا تساندهم مدفعية كما هو حال الحروب هنا. كان له مدخل واحد يليه ممر بدعامات مقوَّسة، وعلى الجانبين ينتشر جنود الشيخ ؛ إما قاعدين على منصّات أو نائمين على أسِرّة ، وبنادقهم الطويلة معلّقة على الحائط. يلي هذا الممر فناءٌ محاط بالاصطبلات والحظائر مما يعطي الانطباع بأننا في مزرعة فلاح لا في قصر أمير حاكم. بعد دقائق من الانتظار سُمح لي بالدخول إلى الشيخ حسن الذي وجدته واقفاً بانتظاري، ربما حتى لا يتحرج من القيام حال دخولي عليه، وقد استقبلني في ديوان واسع على جوانبه خِزانات أو صناديق هنديّة مليئة بالأواني أو بالأغراض الشخصيّة، وقد أجلسني على أريكة إلى جانبه. كان يرتدي ملابس متواضعة على غرار تجار جدة

الأثرياء، مكوّنة من قفطان أو ثوب من الحرير ومعطف أحمر، وشال من الكشمير ملفوف حوله وحول الحزام الذي يتوسطه خنجر طويل معقوف في غِمدٍ من الذهب يُطلق عليه اليمنيون اسم «الجنبية». كان يعتمر قبّعة من الحرير مطرّزة بعدة ألوان مختلفة كتلك التي يرتديها أهالي جنوب اليمن، يلف حولها قطعة من قماش الموصلين الهندي. وكان الشيء الملفت للنظر في لباسه هو شال صغير من الصوف يغطي به الجزء الأسفل من وجهه لإخفاء عيب خِلْقي مُشِين عند العرب، فلم يكن للشيخ أي أثر للحية أو لشارب، زد على ذلك رخامة صوته ونعومة يديه المائلة للأنوثة تقريباً. كل هذه السّمات كانت كافية لإثارة الشّكوك حول رجولته، لولا أبوّته للعديد من الأبناء الذين يشبهونه كثيراً ويثبتون العكس!.

لم يكُن هذا الشال يسمح إلا برؤية الجزء العلوي من وجه الشيخ الذي له نفس ملامح اليمنيين ؛ الأنف المعقوف، والعينان الواسعتان الجميلتان، والنظرة الثاقبة التي يزيد من تعبيرها وضع الكحل الأسود -كعادة كل اليمنيين- حول الرموش. أساليبه اللطيفة وهيئته يشكلان تناقضاً فريداً مع شجاعته المشهود لها في أنحاء اليمن، وطبعه المقدام الذي لا يتورع في إعمال الوسائل الضرورية لبلوغ غاياته. عند رؤيته، يصعب تصديق حقيقة قصته التي أكدها لي ابنه، فليس في هيئته ما يوحي بأنه من أولئك الذين يتخلصون من منافسيهم على السلطة، وبأنه قتل بيديه أخوَيْه وعمّه والد زوجته الأولى، وهو عمل عنيف لكنه مقبول، ويتقبله اليمنيون ويرجعون دافع ذلك إلى شهوة الحكم.

بعد تبادل عبارات المجاملات المعتادة سلمتُه خطاب إبراهيم باشا، وبعد اطّلاعه على فحواه، أكد لي بأنني سأبقى تحت حمايته، وبأنه سيسافر بعد بضعة أيام إلى المنطقة الجبلية وسيصحبني معه، وهناك أقوم بالأبحاث التي جئت من أجلها بكل أمان. كان يبدو لي متفهماً للأهمية الطبية إن لم نقل العلمية لرحلتي.

تجاذبنا أطراف الحديث، وحدثته عن الرحلة الممتعة التي قام بها نيبهور ورفاقه في القرن الماضي، وأعربت له عن أسفي لما آل إليه حال البلاد من التدهور بسبب سوء الحكم بعد أن كانت غنية ومزدهرة. وحدثني بدوره عن طموحه ورغبته في إعادة الأمور إلى نصابها، وذلك بمساعدة باشا مصر في الاستيلاء على

السلطة. كنت على قناعة بأنه يسعى في قرارة نفسه إلى السلطة ولا يرى في الأتراك أكثر من أداة لبسط سلطاته الذاتية، لأنَّ كراهيّة الأجنبي شعور طبيعي لدى العرب، متغلغل في قلوبهم، يستحيل أن يتبدل مجاراةً للمنطق، ناهيك أن يزول من أجل المصلحة العامة.

عندما حان وقتُ العصر، وهي صلاة ما بعد الظهيرة، جُيء بسلّة كبيرة مملوءة بالخبز وضعوها أمام الشيخ ليقوم بتوزيعها من خلال النافذة – كما جرت العادة – على عدد من المتسولين الذي ينتظرون بالخارج لهذه المكرمة.

غادرت قصر الشيخ حسن مغتبطاً لودّه ولتطميناته لي باصطحابي إلى المناطق الجبلية.

بقيتُ لعدة أيام في حيس أشغل نفسي بجمع الأعشاب والنباتات من المناطق المحيطة بمدينة «حيس» التي تقع في وسط سهل، وتتداخل قليلاً مع مناطق جبلية تقع بين جبل راس Djebel Ras في الشمال الشرقي، وبين جبل إمبركة Oumbaracha. وتتكون القشرة الأرضية من أراضي صلبة أو طمي. خلال موسم الأمطار، تُسقى الأرض بواسطة السواقي والسيول التي تجف خلال موسم الجفاف أو تذهب إلى الصحراء. ضفاف الترع مزروعة كما هو الحال في كل تهامة، أي أن الأهالي يسيّرون السواقي إلى حقولهم، ويرفعون مستوى الأرض حولها لحجز المياه. ويُزرع هنا نبات النيلي والقمح والسمسم لاستخلاص الزيت، والذرة وقصب السكر وغير ذلك. في الأجزاء الجرداء من السهل لا توجد أية نباتات سوى بعض الأشجار النادرة، وأهمها شجرة الأراك التي يستخرج منها بلسم مكة وتستخدم جذورها كسواك ذي رائحة زكية للأسنان.

«حيس» مدينة مفتوحة دون أية تحصينات ما خلا قصر الحاكم، والبيوت مبنية بالطوب، كالبيت الذي نزلت فيه، وهو مكوّن من طابق واحد ومن عدة غرف تحيط بفناء تزرع فيه بعض الأشجار. ومع هذا فإن معظم الأهالي يقطنون في عشش مبنية من القش ومحاطة بسور من فروع الأشجار الشوكيّة. لا يوجد في مدينة حيس نشاط تجاري سوى تجارة الفخار التي تشتهر بصناعته في جميع أنحاء اليمن.

ومادته الخام عبارة عن صخور طينية تُكسّر وتُحوَّل إلى تراب يُعجن ويُسخّن ويُشكّل منه أوانٍ فخارية متنوعة لاستخدامات عدة ؛ كفناجين شرب قهوة القشر، وصحون وأكواز من مختلف الأنواع. وحيس هي المكان الوحيد في اليمن حيث يبرع الحرفيون في وضع الورنيش على الفخار ويتم تصنيع الخزف الموشى باللون الأخضر أو الأصفر او الأزرق والذي يستخدم لتزيين المنازل.

كانت من عادة الشيخ حسن البقاء في منزله، وكان لا يظهر للناس إلّا نادراً، فمنذ لقائي الأول به، لم أتمكن من رؤيته، وبدأت أتململ من ذرع المناطق المحيطة بحيس الشحيحة في الثروة النباتية. كنت أرغب في تذكيره بوعده لي وبالحصول على إذن ووسيلة للسفر إلى أماكن أكثر فائدة لي.

قررت أن أكتب رسالة للشيخ حسن لأعرض عليه رغبتي وأطلب موافقته على مقابلتي التي منحني إياها على الفور. وقد عبّر عن دهشته الكبيرة برؤية رسالة كتبها أوروبي باللغة العربية، وأبدى اعجابه بالأسلوب التلقائي في السرد الذي مكّنه مِن فهم ما أريد دون صعوبة، كما أشاد بالعقل الأوروبي الذي يبتعد عن التصنّع في الكتابة في حين يعتقد العرب والأتراك بضرورة حشو أفكارهم بعبارات تقليدية. ذكّرني هذا بإشادة حاكم الحديدة حسين أفندي بالمستوى التعليمي العالي لإبراهيم باشا، ودلّل على كلامه بأن رشاقة أسلوبه في الكتابة تجعله عصيّاً على الفهم، لدرجة انه لا يوجد سوى شخص واحد في جدة قادر على فهم وشرح مراسلاته. جددتُ طلبي للشيخ برغبتي بأن أجوب الجبال، ورد عليّ بأنه قد أجّل سفره، لكن بإمكاني إن أردتُ الذهاب من دونه إلى جبل «راس» في شمال شرق حيس. وبمجرد موافقتي، أرسل في طلب أحد رجاله الثقات، وكلّفه بتأمين سلامتي وبمرافقتي أينما ذهبت. كان الرّجلُ يُدعى الحاج عزي الحضرمي، وأصله من حضرموت كما يوحي اسمه، شخص لطيف وبسيط حريص على أداء فروضه الدينية دون تعصب. أصبح الحاج عزي البشوش والنّاصح رفيق رحلتي المسلّي والمفيد حتى آخر لحظة، ولا يسَعني إلا الثناء على مرافقته، ولطفه ورقة طباعه وكثير من صفات الرفق واللين النادرة في أوساط المسلمين.

جبل راس :

في صباح يوم ١٥ أكتوبر غادرتُ مدينة حيس برفقة الحاج عزي ومجموعة من الجنود الذين كلّفهم الشيخ بحراستي، باتجاه جبل راس. قطعنا السهلَ الممتدَّ بين المدينة والجبل بسرعة، ووصلنا إلى القرب من سفح الجبل حيث أجبرتنا طبيعة الطريق على النزول من على ظهور الدّواب التي كان يصعب عليها المشي في بعض الأماكن. بعد يومٍ مضنٍ جداً وصلنا عند حلول أول الليل إلى قرية تقع في منتصف الطريق الصاعد للجبل، وتوقفنا هناك للمبيت.

كانت عائلة الشيخ الجليل ياسين تقطن هذه القرية، وهو شيخ طاعن في السن تجاوز عمره المائة سنة، وأخذ اسمه من حروف غامضة المعنى تبدأ بها سورة في القرآن الكريم، وهو اسمٌ شائع في اليمن. كان منزله قبلة المحتاجين، فعمرُ هذا الشيخ وقدسيّة مكانته جعلاه مشهوراً في هذا الجزء من اليمن، مما شجّع الكثير من الناس على إرسال جميع أصناف العطايا له تبركاً به، وكان يعيد توزيعها على جميع المحتاجين بسخاء ليس له حدود. الشيخ ياسين الذي قضى مائة عام في قريته راغباً عن السفر حتى إلى مدينة «حيس»؛ أصيب بالحيرة من الظهور المفاجئ لأوروبي بملابسه الغريبة. ومع ذلك فإنّني لا أنكر لطفه نحوي رغم اختلاف ديانتي، وقد استقبلني بكل ما استطاع من ودّ، لكنّه كان متوجّساً من أن يثير وصولي قلق أهالي الجزء العلوي من الجبل. وقد رأى أنّه من الحكمة أن يبعث إليهم رسولاً يسألهم هل سيسمحون لطبيب أوروبي أن يأتي إلى منطقتهم للبحث عن نباتات طبية. كانت هذه حجتي التي كنت مضطراً لتقديمها لتبرير أبحاثي، وللإجابة على الأسئلة الكثيرة التي كانت تنهال عليّ لمعرفة الغرض من كل ما أجمعه. وما عدا هذا، علمتُ بأنني لست أول من يزور هذه المناطق لهذا الهدف الحقيقي أو الظاهري، وبأن هناك من العرب البرابرة من يأتي من حين إلى آخر إلى اليمن للبحث عن نباتات طبية حيث تشير كتبهم إلى أماكن وجودها واستخدامها، وكانوا ينقلون معهم كميات كبيرة منها. ما هي هذه النباتات؟ ولأي غاية يأتي هؤلاء العرب للبحث عنها بعيداً عن بلدانهم؟ كان من المحال معرفة ذلك، لكن الأكيد في الأمر بأن كثيراً من الأشخاص شهدوا بذلك وبما لا يدع مجالاً للشك.

اضطررت إلى انتظار عودة الرسل، وقضيت يومي في البحث في المناطق المحيطة بمنزل الشيخ ياسين. كانت القرية -إذا كانت المنازل القليلة تكفي لإعطائها هذا الاسم- تقع على شَفا قمة بارزة من الجبل، تطل من جهةٍ على سهل حيس، ومن الجهة الأخرى تُشرف على طريق يؤدي إلى مدينة زبيد. وتوجد فيها بعض حقول القمح التي تُسقى من مياه تتراكم عند حاجز مائي على هيئة بركة أو حوض يقع في قعر الوادي.

هذا النمط من الحواجز المائية شائع جداً في اليمن، وبالرغم من سعتها القليلة، إلا أن أهميتها وفكرتها غائرة في القدم وما زالت كلمة «سَد» تستخدم حتى يومنا هذا تأسيّاً باسم سَد مأرب الشهير الذي ينسب اليمنيون بناءه إلى الملكة بلقيس ملكة سبأ التي قامت بالزيارة الشهيرة لسليمان. وقد أدى تهدم هذا السّد قبل ظهور الإسلام إلى فيضان تسبب في تدمير العاصمة القديمة للسبئيين، وكان ذلك سبباً لا يمكن تفسيره في تشتت القبائل اليمنية.

على الرغم من أنّني لم أصل إلى علو مرتفع من الجبل، إلا أنّ الغطاء النباتي في هذا المكان من جبل «راس» مختلف كثيراً عمّا كان عليه في السهول. وهنا وجدتُ وللمرّة الأولى شجرة الدفلى الغريبة Nerium Obesum التي اكتشفها فورسكال، وهو نبات فريد، جذعه حليبي لين، وله لحاء أبيض، وهو ذو شكلٍ مخروطي كبير متعرج وغير منتظم، تعلوه أوراق قليلة، ومجموعة من الزهور الحمراء الجميلة الشبيهة بزهور الغار. وجدتُ أيضاً أول مجموعة من القرود تلهو وتلعب بحرية على ضفة ساقية تظللها أشجار التمر الهندي الكبيرة. والنوع الوحيد الذي نجده من القردة في الجزيرة العربية وعلى طول الجزء الجنوبي من الجبال المحيطة بمكة حتى اليمن، هو قرد البابون (بابون هامادرياس)، ذو القلنسوة، وهو من القرود الكبيرة التي تتميز بالقُبْح والذّكاء، وقد سنحت لي الفرصة في جلب واحد منها إلى منزلي، ولم يتوقف عن إدهاشي خلال الثلاث السنوات التي ظلّ فيها معي.

عدت إلى القرية بعد أن قضيت وقتاً ممتعاً في مكان جديد بالنسبة لي، وهناك عكفت على حفظ النباتات وتثبيت الحشرات التي جمعتها، بينما كان الشيخ ياسين يراقب بفضول بالغ كل حركة أقوم بها لائماً وحشيتي تجاه مخلوقات الله. وكان

يظهر استغرابه بالتنهد المتكرر المصحوب بالحوقلة كعادة المسلمين في مثل هذه المواقف. ولقد ترك مسدسي ذو المكبس وحافظة البارود وحافظة الرصاص، لدى الشيخ المسن انطباعاً عن عبقرية التقنية الأوروبية، ولم يستطع تخيّل قدرة حافظة الرصاص على السماح التلقائي بانسياب الشحنة المطلوبة فقط. من ناحيتي، لم يكن لديّ أية رغبة في الإمعان في إثارة الدهشة التي ارتسمت على محيّاه الوقور، الذي زاد من بهائه لون لحيته المحنّاة التي اعتاد المسنون في اليمن على صبغها بالحنّاء. فكان عليَّ مراعاة مصلحتي الخاصة دون نسيان مكانة هذا الرجل والاحترام الذي يحظى به من قِبل أُسرتِه الكبيرة والناس الذين كانوا يأتون لمشاهدتي من باب الفضول. مازالَ احترام كبار السن قائماً في المشرق حيث يسير العمر بالإنسان دون أن يشعر بالندم، بينما في بلداننا أصبحت العلاقات المجتمعية تبنى على المصلحة ولم يعد لكِبرِ السّنِ أيّ اعتبار.

عاد الرُّسل في اليوم التالي من قمة الجبل، وبعد همسٍ وتحفظٍ في الكلام أبلغوني رفضهم استقبالي لديهم خشية أن يصاب زرعهم بالفأل السيئ، ولم يهمهم غضبُ الشيخ حسن الذي عاقبهم بشدة فيما بعد لكونهم عصوا أوامره. ومع ذلك سمحوا لي بزيارة منطقتهم شريطة ألّا ألمس أيَّ نبات، ولأن هذا الشرط يقيدني رفضتُ، وقضيتُ بقية اليوم في جمع الأعشاب في الأماكن المجاورة قبل أن أعود في اليوم التالي إلى مدينة حيس. كلف الشيخ ياسين أربعةً من أبنائه لمرافقتي إلى أسفل الجبل، وكانوا مسلحين ببنادق أشعلوا فتيلها كما لو كانوا في مهمة خطرة، وبالرغم من توسلي لهم فقد رفضوا مرافقتي إلى المدينة، ورفضوا أن يقبلوا منّي أي شيء قدّمتُه لهم. ومع ذلك ورغبةً منّي في ردِّ الجميل، اشتريتُ كيس قمحٍ وأرسلته للشيخ ياسين الذي سيستخدمه في الخير وكرم الضيافة لا محالة.

حصن مؤيمرة[1] Maammara :

بعد عودتي من جبل «راس»؛ قضيت بضعة أيام في مدينة «حيس» في انتظار

(١) حصن مؤيمرة يقع فوق جبل مؤيمرة الذي يطل على قرية ركاب (الحنكة) وقرية الأشعوب وقرية الحقيل، وعزلة السواغ في مديرية شمير، محافظة تعز.

سفري مع الشيخ حسن الذي أبلغني بأنه سيأخذني معه إلى حصنِ «مؤيمرة» Maammara الذي بناه على قمة جبل عال ويقع على مسير يوم ونصف إلى الجنوب من مدينة حيس. لم يكن بلوغ هذا المكان ممكناً قبل أن ينفق الشيخ حسن مبالغ ضخمة لشق طريق حلزوني يصل السفح بالقمة. عندما كان حاكما على تعز، أراد أن يُهيّأ له مكانٌ آمنٌ تحسّباً لحرب مع إمام صنعاء، فشيد هذا الحصن الصغير بمنأى عن متناول المدفعية ومنيع عن السقوط إلا بحدوث خيانة أو تجويع. وكان هذا الحصن مفيداً جداً له ؛ فقد ساعده على الدفاع ومقاومة حصار أعدائه مرتين. حيث حدث وأن استُدعي إلى صنعاء لمحاسبته على بعض الممارسات الخاطئة التي اتهم بها، فرفض الانصياع للأمر، فأرسل الإمام جيشاً في طلبه، وبعد حصار لا طائل منه، وعطايا الشيخ السرّية، تراجع الجيش في نهاية المطاف. ثم جاء الإمام بنفسه لمحاصرته مرة ثانية وعندما لمس استحالة النفوذ إلى الحصن، فضّل الإمام مساومته على الصلح معه شريطة أن يرسل الشيخ أحد أبنائه إلى صنعاء، ووعد الإمام بحسن معاملته وإطلاق سراحه على الفور، وأنه لم يشترط ذلك إلا اعتباراً للجيش أو كما يقول اليمنيون «بياض وجه».

هيأتُ نفسي لهذه الرحلة بسرورٍ بالغٍ لأن التوقيت كان مناسبًا جداً لرحلة نباتية. كان ذلك نهاية موسم الأمطار حيث يكون الغطاء النباتي بكامل رونقه ونموّه. لكن، حصل –وللأسف– أن تسلّم الشيخ حسن مبلغ عشرة ألف ثالاري Thalaris (تالر– ريال ماريا تريزا) العملة الوحيدة المستخدمة في اليمن، وكان يريد نقلها بسرّية إلى قصره، وطلب منّي أن أضعها في الصناديق المخصصة لجمع الأعشاب. ولم يكن لي مفرّ من الموافقة، ووضعت في كل صندوق مبلغ ألف ثالاري، جُلبتْ لي ليلاً في حيطة تامة، ولكن وبرغم التكتم على الأمر، سرتْ الشائعات بأني أحمل كنز الشيخ في صناديقي، وقد تسببت هذه الشائعة في محاولة نهب أغراضي لاحقاً. وُضعت الصناديق على ظهور الجمال ورافقها صديقي الحاج عزي الذي كُلّف بتأمين وصول الوديعة، وقد سار قبلي، جنباً إلى جنب مع الشيخ حسن الذي ودَّع مدينة حيس وسط جموع من الأهالي الذين كانوا يدعون الله بأن يحميه. ركب فوق بغلة في حين اقتيد حصانه الأصيل أمامه، وكان حرّاسه

يسيرون خلفه، بينما كان أحد حرّاسِه يسيرُ أمَامهُ حاملاً رمحاً طويلاً من الحديد تعلوه زينة من ريش النعام كعلامةٍ مميزةٍ لأهمية ومكانة هذه الشخصيّة.

لم أتمكّن من اللحاق به إلا في اليوم التالي برفقة بعض الجنود الذين تركهم لحراستي، وكان سبب تأخري هو منع الشيخ حسن للأهالي مِن أخذ أي مقابل ماديٍّ مني، فلم يتجرأ أيّ شخص أن يؤجر لي حميراً لنقل معاونيّ، لخشيتهم من عصيان أوامره في حال اتفاقنا على سعر من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لم تَكُنْ وعود الشيخ بالتعويض محلَّ تصديق كما هو الحال مع جميع الحكّام في المشرق. تمكنتُ أخيراً من تجاوز هذه المعضلة، بضماني لهم بمصداقية الشيخ وبأني مستعد لتعويضهم إذا لم يعوضهم الشيخ.

غادرنا مدينة حيس وعند السهل المحيط بالمدينة، هاجَمنا سربٌ من الدبابير بشراسة أثارت حالة من الفوضى، وتعرَّض بعضُ الحرّاس للدغات مؤلمة جداً أدت إلى تقرحات في الجلد. سرنا بالقرب من سفح جبل ام بركة Oumbaracha الذي يحد السّهل جنوباً، حيث يجري جدول ماء بشكل دائم وقد اسماه نيبهور سُراجي Suradji ، ولكني سمعتُ أن اسمه أبو سُراه Abou-Souera. ويستخدم هذا الجدول لري سهل حيس، ولا أظن بأنه يبلغ البحر حتى في موسم الأمطار، بل يضيع في الأراضي الرملية المحيطة. بعد أن تجاوزنا هذا الجدول، دخلنا في سهل فسيح قليل الزرع والخصوبة، حيث تقع قرية مدروبة Madruba، ومنها واصلنا طريقنا دون كلل حتى وجدنا أنفسنا بعد الظهر في قرية حمرة Hamara ، التي توقفنا فيها لتناول طعامنا. وكان الشيخ حسن قد مرّ بها في الليلة الماضية وترك شخصاً لإبلاغي باللحاق به دون تأخير، وهذا ما عملته بعد أخذ قسط من الرّاحة.

كان الطريق سالكاً نوعاً ما حتى قرية حمرة Hamara، بعد ذلك بدأت تظهر الصعوبة والارتفاع السريع، فصعدنا سلسلة من التلال الوعرة والمغطاة بأشجار الميموزا والبلسم Mimosas et Baumiers، وتابعنا السير حتى غروب الشمس. وصلنا بعد ذلك إلى وادي حيدان Heidan الذي يتمتع بخصوبة عالية وبهِ زرع كثير وأحواض مائية. سرنا لبعض الوقت في الطريق المؤدي إلى مدينة تعز، قبل أن

نتركها على يسارنا ونتجه صوب الجهة الغربية لهذا السهل. بلغ بنا التعب وقلة النوم مبلغاً أجبرنا على التوقف بالقرب من قرية صغيرة لعدة ساعات، قبل أن نواصل طريقنا قبل طلوع الشمس بوقت طويل، وعبرنا سهولاً ضيقة وعميقة تحوي أشجاراً كبيرة لم أتمكن من تمييز نوعها في ظلمة الليل الذي كانت تزيده ظلمة. ومع ذلك عرفتُ من رائحتها الفوّاحة بأنها شجرة الكادي، وهي نوع من النخيل المزهر، يفوح منه عطرٌ قويّ يحبه العرب كثيراً ويزينون به عمائمهم.

وصلنا أخيراً إلى مؤيمرة Maammara حيث ينتصب في القمة حصن الشيخ حسن الذي بدأ يستقبل أشعة الشمس الأولى. ولبلوغ الحصن لا بد من السير في طريق متعرج على طول المنحدرات الجبلية، حيث تدعم الجدران الصخرية الأماكن الخطرة والتي كلفت كثيراً من العمل والجهد. ورغم تأثر الطريق بمياه الأمطار إلا أنها كانت سالكة لسير الدواب، وحتى للجمال المحمّلة بالأمتعة التي سارت فيها ووصلت قبلنا. زاد حماسي بفضل الهواء المنعش وانتشار الأزهار الجديدة عند كل خطوة، وفضّلت مواصلة الصعود سَيْراً على الأقدام حتى تلة صغيرة تقع على انخفاض مائتي أو ثلاثمائة قدم أسفل الحصن. وقد بُني عليها منزل كبير من الحجر مخصص لإيواء المسافرين. وهناك وجدت بغلة في انتظاري كان الشيخ قد أرسل بها لتنقلني إلى الحصن الذي يتم الصعود إليه عبرَ مدرجات صخرية عشوائية وشديدة الانحدار.

وفيما عدا جهة المدخل التي وصلنا منها، كان الحصن ببنائه العمودي يحتلّ قمة الجبل كاملة، ولم يعد هناك حتى موضع لقدم. كان الحصن غير منتظم الشكل ؛ فجدرانه عالية جداً ذات بناء حجري متين جداً ومتناسق مع تعرجات الأرض، ومطلي في بعض جنباته بالنّورة (الجير)، وكانت أسواره وأبراجه توحي بالعظمة وتضفي عليه هيئة القصور الإقطاعية القديمة.

يؤدي الدّرَج الذي تحدثتُ عنه إلى بوابة حديدية، تقع بين برجين بارزين عن الجدار، يفتح على ممر طويل ذي سقف مقوّس، وعلى جانبيه مراتب لجنود الحراسة. وقد لاحظتُ شيئاً يمكن وصفه بالوحشيّ، وهو منظر سجناء مكبلين بالسلاسل يُقال إنهم مجرمون أو متمردون على سلطة الشيخ، ويرفضون دفع

الإتاوات، ويظلون رهن الاعتقال لإجبارهم أو أسرهم على السداد. وكان من بين المساجين من هم من أقرباء الشيخ الذين كان يشك في ولائهم، ووضعهم في السجن احترازاً من تمردهم عليه. وعند نهاية الممر ثمّة باب ثانٍ يفتح على فناء أسمنتي غير منتظم الشكل لكنه مستو، وتتخلله قنوات لتجميع وتصريف مياه الأمطار. كان يضم مخازن وسكناً سفلياً، وفوقها مسكن الشيخ ومساكن أخرى ومُصلًّى.

تمّ إدخالي إلى الشيخ فور وصولي، ووجدته جالساً على أريكة مغطّاة بسجادة وتقع في نهاية ديوان طويل ونظيف جداً، ولم يكن مؤثّثًا بأي شيء يمكن أن يجذب النظر، ما عدا خزنة ذات أدراج عليها أكواب صينية وزجاجات مختلفة الأشكال من الكريستال الموشّى برسوم من مختلف الألوان وعلى ما أظنها صناعة فارسية قديمة. بدا لي الشيخ في حصنه أقل تحفظاً وصرامةً عمّا كان عليه في حيس، وقد رحّب بي بلطف في قصره الفخم. ولاحظ أن سروالي قد تمزّق بطريقة تجلب السخرية بسبب فروع الأشجار الشوكية التي عبرنا من خلالها أثناء الليل، فأمر بإحضار سروالٍ من سراويله ولكنّه لم يتناسب تماماً مع بدلتي. أكد لي مجدداً بأن لي كامل الحرية في التحرك حيثما شئت لإجراء أبحاثي دون أي وجل، وشدّد أوامره للحاج عزي بلزوم مرافقتي والحرص على ألّا أتعرّض لأيّ مكروه. وأخيراً، وبسخاء العرب المعهود، أمرَ بتوفير كل ما قد أحتاجه على الفور وبأيٍّ ثمنٍ كان، وكان ذلك يتعارض مع قناعاتي كأوروبي ويسبب لي بعض الحرج.

وخلال حديثنا أطلعني على بعض تفاصيل بناء حصنه الذي قال إن كُلفته بلغت خمسة وسبعين ألف ثالاري (تالر- ريال ماريا تريزا) وهو ما يعادل اربعمائة ألف فرنك، ويمثل هذا المبلغ قيمة المواد التي جُلبت من خارج المنطقة، أما اليد العاملة فلم تكلفّه شيء. وقد شيّد هذا الحصن عندما كان حاكماً على تعز، وفرض على الأهالي بناءه دون أن يدفع لهم مقابل هذا العمل الشاق كما جرت عليه العادة.

بعد الانتهاء من التدخين وشرب القهوة مع الشيخ، تم إرشادي إلى الغرفة التي خُصصت لي، وكانت تقع في البرج الجنوبي للحصن، ومضاءة بأربع نوافذ صغيرة. كانت إحدى النوافذ تطلّ على بركة محفورة في صخرة، وعليها طبقة أسمنتية

ملساء، ويقال إنّ عُمقها يصل إلى عشرين ذراعاً، وتتجمع فيها مياه الأمطار التي تتساقط في فناءات الحصن، كانت سعتها تكفي لتوفير الاحتياجات من الماء لمدة ثلاث سنوات، على الرغم من أن المياه كانت تتجدد فيها كل سنة خلال موسم هطول الأمطار. تطلّ النوافذ الأخرى على أفق رحب، وخاصةً من الجهة الجنوبية، حيث تنبسط أمام الناظر سلسلة من الجبال ذات الأشكال العجيبة والألوان المتنوعة والجميلة سواء كانت جرداء أو مغطاة بالنباتات، وتمتد الرؤية حتى تصل إلى جبل صبر الذي يكمّل جمال المنظر، ونستطيع أن نميز عند سفحه قلعة القاهرة.

نقاوة الهواء المنعش التي تعطي دفعةَ نشاطٍ لشخصٍ خرج لتوّه من معاناة حرّ السّهول، وفرادة موقع الحصن حيث يمكن رؤية ظهور الصقور وهي تطير مئات الأقدام تحت ناظريك، وغرابة تواجدي في أحضان بلدٍ جديدٍ عليّ وفي أوساط شعبٍ غير معروف كثيراً، وجمال الدهشة، كل هذا ولّدَ عندي شعوراً جميلاً لا يمكن نسيانه.

بسبب إجهاد السفر، كرستُ يومي للراحة والتعرّف على أولاد الشيخ حسن الذين كانوا يأتون بالتناوب لإشباع فضولهم. وكانوا من مختلف الأعمار والألوان؛ ففيهم الأسود وفيهم الأبيض حسب لون بشرة الأم. كانوا يرتدون ملابس عادية لا تميزهم عن بقية الأهالي فيما عدا الجنابي التي كانوا يتحزمون بها، فقد كانت أغمادها مطليّة بالذهب بينما كانت جنابي الآخرين في أغماد من خشب أو من الفضة. أحدهم كان قبيحاً جداً لكنه كان ملفتاً للنظر بدلاله الزائد، حيث كان يحشو عمامته بالأزهار، وبدلاً من ارتداء ثوب أزرق مثل بقية اخوته، كان يرتدي أثواباً صوفية مثيرة للسخرية، وكان يبدلها عدة مرات في اليوم، ويأتي إليّ كي يحظى بإعجابي. كان يمثل النموذج الأوحد المتكلّف والمغرور الذي قابلته في اليمن، حيث يتميز الجميع بالنخوة والكرامة أيّاً كانت الطبقة التي ينتمون إليها؛ فاليمنيون يتكلمون ويمشون ويتصرفون بكل بساطة، ويقومون بعمل الأشياء كما ينبغي دون السعي لجذب الانتباه.

في مساء يوم وصولي إلى حصن مؤيمرة، وفي كلّ مساء كان الشيخ حسن يبعث

لي حسب أعراف بلاده، بحزمة من أغصان القات، وهي أغصان شجرة ذات أصل حبشي مثل شجرة البُن، والتي تُزرع بعناية فايقة، ويمضغ منها البراعم والأوراق الطريّة. وتتمتع بخاصية مثيرة، مُسْكِرَة نوعاً ما، تقضي على التّعب، وتسلب النّوم، وتجعل المرء يميل إلى قضاء ليلته في حديث هادئ وأُنس. ليس هناك أناسٌ ينامون أقلَّ من اليمنيين، وهذا فيما يبدو لا يؤثر على صحتهم، خاصة مع شيوع حالات المعمّرين في اليمن. وللقات خصائص منشّطة لا تضاهَى ؛ لدرجة أن حاملي الرسائل المستعجلَة اعتادوا على السير عدة أيام بلياليها ولا قوت لهم سوى وريقات القات التي يمضغونها. بالنسبة لي كنت قد تعودت فوراً على تعاطيه، ووجدت فيه متعة كبيرة وإثارة منعشة، ومصدراً للأحلام التي لا تقل إدهاشاً عن الواقع المعاش.

كان الشيخ حسن الموجود في حصنه وبين ممتلكاته، لا ينسى التذكير بأنه الحاكم، فكان أحد الأشخاص الذي يدعى (الدوشان[1]) لا وظيفة له سوى الوقوف كل يوم عند الوقت المحدد تحت النوافذ حينما يحل وقت صلاة العشاء، وينادي بأعلى صوته بمناقب الشيخ حسن (سيف الدين، سند الحكومة، سند الإسلام..الخ) ومن ثم ينشد بعض الأبيات الشعرية التي تمجده وتدعوالله لمباركة خطواته. لاحظتُ أيضاً تظاهرةً أخرى مثيرة للاهتمام تتعلق بحضور مجموعة من الطبالين في المساء يقرعون على طبول وطاسات من مختلف الأحجام، وذلك على شرف الشيخ، وكانت الأصوات الصادرة في سكون الليل خلابة وتترك أثراً ساحراً يتناغم تماماً مع عظمة المكان. تقرع الطبول بوتيرة متباعدة في البداية، ثمّ تتقارب وتيرة القرعات بشكل تدريجي وبطريقة منتظمة ومتناغمة، وتنتهي بقرعات متباطئة تقل حدتها تدريجيّاً حتى تختفي بهدوء تاركة

---

(١) علق بوتا على كلمة دوشان الذي اعتقد خطأً أنّه أحد ضُبّاط الشيخ حسن بما يلي: «لا أعرف المعني الصحيح لهذه الكلمة في اللغة العربية، وربّما أنها مأخوذة من النعوت التي تعطى للأشخاص (ذو شأن) ذو المكانة الرفيعة»، ولكنّه تدارك قائلاً: «بأن هناك أشخاصاً فقراء ومظلومين يحضرون في كثير من الأحيان ويقومون بنفس المهمة وما أن ينتهوا من الصراخ حتى يتقدموا بعريضة شكوى أو بطلب معونة، تماماً مثلما كان يعمل الشعراء المتجولون الذين كانوا يتغنون بسخاء الحكام.»

لصداها الراجع من الجبال سحره العجيب. ثم نسمع القرعات تُبعث من جديد، وتتجاوب الطبول والطاسات فيما بينهما بتنوع موزون من حيث القوة والتوقيت، وتُحدث أثراً غريباً وقوياً في النفس، وتثير مشاعر لا يمكن السيطرة عليها.

قضيتُ عدّة أيام في جمع النباتات في محيط الحصن، وعلى الرغم من أن الجبل لم يكن سوى كتل صخريةٍ تقريباً، إلا أنّني وجدت أعداداً كبيرة من النباتات ومنها زهور من فصيلة الـ Justicia الجميلة التي تصلح للزينة. في الأماكن الأقل انحداراً من الجبل قُسِّمَت الأرض إلى حقول لزراعة القمح والذرة. وإلى جوار المنزل (السقيفة)، توجد مجموعة من البيوت المبنية بالأحجار كانت تأوي أسر الجنود والعاملين في الحصن، كما توجد بركة كبيرة مبلّطة بالأسمنت تتجمع فيها المياه، كانت مخصصة لاستخدام هذه الأسر والمسافرين، ليس للشرب فحسب، بل للاغتسال والوضوء حسبما يقتضيه الدين والعادات لديهم. يبدو هذا السلوك البغيض - بالنسبة لنا ولكثير من المسلمين الآخرين- مقبولاً لدى طائفة معينة ينتمي إليها اليمنيون. فهم يعتقدون بجواز الوضوء والاغتسال في مياه غير جارية ولا تتجدّد تلقائياً، شريطة أن تكون وفرتها مزيلة للشبهة. بينما يعتقد المسلم السّنّي بأن الوضوء بهذه الطريقة لا يكفي شرعاً للطّهارة. وكما هو الحال دائماً، وفي كل الممارسات الغريبة، نجد ذريعةً لإرضاء النفس أو لإقناع الآخرين، وفي هذا المقام يعتقد اليمنيون أن وجود الطحالب البطيّة، التي تُغطّي سطح المياه الراكدة، تتميز بقدرتها على تنقية المياه، وبالتالي فهم لا يستخدمون لوضوئهم ماءً راكداً إذا لم يكن مغطًّى بهذا النوع من الطحالب. وينبغي الإشارة هنا إلى أن معظم سكان اليمن ينتمون إلى المذهب الزيدي، ومهما زعموا بأن هذا المذهب أقرب إلى المذاهب السنية، فإن الآخرين لا يقبلون بهذا الرأي، وينسبونهم إلى طائفة الشيعة الفارسية، وبالتالي يتُهمون بالزندقة. وطريقة الوضوء هذه هي نقطة التقاء بين هاتين الطائفتين.

رأيتُ ولأول مرّة شجرة البُن عند سفح جبل مؤيمرة، وكانت هذه الشجرة تزرع في أودية عميقة، ضيقة ورطبة حيث لا تصلها الشمس إلا بضع ساعات في اليوم. كانت حقول البن التي وجدتها في مؤيمرة كبيرةً نوعاً ما، وكانت زراعتها

تجريبية بأمر من الشيخ حسن، فشجرة البُن لم تكن تزرع في هذا الجزء من اليمن، وكانت تزرع بكثافة وبجودة عالية في مناطق صنعاء والعدين.

بينما كنتُ مشغولاً بممارسة اهتماماتي السلميّة، كان الشيخ حسن يظل حبيس حصنه مشغولاً بإعداد خططه الحربيّة. ولم تسنح لي الفرصة لكي أراه مرة أخرى، ورغم ذلك لم يكن ينسى أن يبعث لي يومياً بالحاجات التي كان يعتقد بأنها ستكون ممتعة لي، وتؤكد بأنّي على باله.

كما ذكرتُ سابقاً بأن عمّ الإمام تمرّد على ابن أخيه الإمام وبدأ بحشد الجيش في مدينة تعز لمهاجمته في صنعاء. وكان يسعى للحصول على مساندة الشيخ حسن واستقطابه إلى صفه. وكان الشيخ حسن، ورغم صفات النّبل والكرَم التي أظهرها نحوي، يفكر بطريقةٍ عربيةٍ خالصة، ويُمعنُ النّظر في اغتنام الفرصة لإدخال قواته إلى مدينة «تعز»، وبالتالي يُهيئ لإنجاح دخول الأتراك إليها. استمرت المفاوضات الحثيثة أثناء فترة إقامتي في الحصن، وبعد محادثات طويلة، وافق الشيخ حسن على التوجه للقاء عم الإمام في تعز، ولكنه اشترط مَدَّه برهائن ليأمن على نفسه. أرسل إمام تعز بعض أقربائه كرهائن إلى حصن مؤيمرة، والذين تم استقبالهم بحفاوة وتكريم، ولكنّهم قُيِّدوا على الفور بالسلاسل، كإجراء احترازي يمنع هروبهم، وليس في ذلك مخالفة للأعراف أو إهانة للرهائن كما يبدو، فسيعاملون برفق ويتعايشون بسهولة مع القيود. ما إنْ تسلَّم الشيخ حسن الرهائن حتى بدأ يستعد للتوجه إلى تعز، وكان يرغب بأن يذهب برفقة قوة كي يُحسِّن من وضعه التفاوضي، فدعا أفراد جيشه الصغير، الذين كانوا يقيمون في القرى المختلفة التي تقع تحت سلطته، وتجمعوا حول الحصن.

ورغم أن جميع اليمنيين يحملون السلاح، إلا أن سكان هذه المناطق لا يحبون أن يَخدموا كجنودٍ، مما يحدو بالقادة الرئيسيين إلى جلب رجال من منطقة الجوف شرقي صنعاء ومن حضرموت، يجندونهم لحسابهم ويتقاتلون فيما بينهم. هؤلاء المقاتلون تحت الطلب يجدون أنفسهم في مناطق ليس لهم بها أية قرابة أو انتماء، فيعيثون فيها فساداً كي يجمعوا مالاً يمكّنهم من الاستقرار في قُراهم، وهم يعلمون أنّ العقاب لن يطالهم ؛ لأنهم تحت حماية هؤلاء الوجهاء الذين هم بحاجتهم.

ووجودهم يشكل آفة بالنسبة لأهالي المنطقة الذين يرحبون بأي تغيير حكومي يخلّصهم منهم.

يُقالُ إنّ ستة آلاف رجل منهم، كانوا يأتمرون بأمر الشيخ حسن، وسواء كان هذا الرقم -المبالغ فيه حتماً- صحيحاً أم غير ذلك فإنه يعطي الرجل مكانةً مُهابة. وكي يتمكن من احتوائهم عند عدم الحاجة لخدماتهم كان الشيخ يحرص على تفريقهم بين القرى المختلفة التي تقع تحت سيطرته. وبانتشارهم بهذا الشكل يصبح خوف الأهالي منهم حائلاً دون حدوث أيّ فوضى. عندما كان الشيخ يجمعهم، كان يدعو في نفس الوقت مجاميع من الأهالي المقيمين الذين كانوا يشكّلون مليشيات حراسة أهلية، وكان وجودهم يحد من اطماع المجاميع المسلحة المُستأجَرة. كان المشهد مثيراً لعجبي عندما رأيت وصول ما بين ألف ومأتين إلى ألف وخمسمائة جندي حماية لمرافقة الشيخ في رحلته إلى تعز. ومن نافذة غرفتي كان بإمكاني رؤية الفصائل المختلفة مسبوقة بفرق الطبالين ويتقدمها النقيب على حصان حاملاً رمحاً مزيّناً بريش النعام، وهم يصلون تباعاً إلى أسفل الجبل، ويصعدون الطريق الوعر ويظهرون ويختفون تبعاً لتعرجات الطريق. وما إن يصلوا إلى مكان يُسمَعونَ منه حتّى تقوم كل مجموعة بإنشاد أهازيج أو زوامل مديح للشيخ، تعبر في جوهرها عن الحزن والهموم. ويفضّل اليمنيون الأنغام الحادّة الشيقة التي تقترب كثيراً من ملامح الطابع الموسيقي لدينا. وعندما يبدأ التباطؤ في المشي تكون المجموعة قد وصلت إلى باب الحصن ويتوقف الإنشاد. يردد الدوشان عباراته، ويطلق الجنود أعيرة ناريّة في الهواء قبل أن ينتشروا لتأمين أماكن لهم، بينما يصعد النقباء للجلوس مع الشيخ.

هذا المشهد، ومنظر الأسلحة تتوهج في أشعة الشمس وقرع الطبول وإطلاق الأعيرة النارية المتداخلة مع الهتافات التي تصل إلى مسامعك من نواحٍ مختلفة. كل ذلك يوحي بالشراسة التي تذكرني بوصف وولتر سكوت Walter Scott لتجمعات القبائل السكوتلاندية.

ملابس هؤلاء الجنود لا تختلف في شيء عن ملابس سكان الجبال في اليمن، وبوصف أحدهم كأنك تصف الجميع. حيث يضعون كوافيَ من القطن وحولها

قطعة من القماش الموصلي، أو قطعة من أي قماش أزرق، وسراويل عريضة وقمصاناً ذات أكمام عريضة مصبوغة بصبغة النيلي المحلية ذات اللون الأزرق الداكن، ويتحزّمون بحزام من الحرير أو القطن أو من الجلد المنمق بزخارف من القصدير أو الفضة. كان النقباء وبعض الأهالي يضعون تحت القميص سترة أو قفطاناً من الحرير يغطي الصدر. والكثير منهم يضع قطعة قماش حول الخاصرة بدلاً من السروال كما يفعل معظم سكان السهول. وكانت الأحذية عبارة عن صنادل مصنوعة بمهارة من الجلد المطليّ بألوان مختلفة والمغشّى بالرسوم والتي تشتهر مدينة زبيد بصناعتها. ومن المفارقات الغريبة، أن الشيخ حسن كان يسير حافي القدمين، ويقال بأنها عادة أُسريّة لديهم. جميع الجنود والأهالي يُطلقون لحاهم بطريقة خاصة باليمنيين ويحلقون الشوارب، عملاً بقول النبي[1] «قصّوا الشوارب وأعفوا اللحى». يتسلح الجنود كغيرهم من اليمنيين ببنادق طويلة وجنابي، وبعض الأحيان بسيوف تركية أو مصنوعة محليّاً. وكعادة أهل المشرق، يحب اليمنيون أن يحملوا كميات من البارود، وجعباً للخراطيش والرصاص، وجميعها مزخرفة على الطريقة اليمنية الجميلة المثيرة للإعجاب.

بعد حصول الشيخ حسن على الرهائن وتجهيز فرق الحراسة الكبيرة، قرر أخيراً التوجه إلى تعز. وكما هي عادته كان يسافر فجأة دون إبلاغ أحد، وكان يعتبر ذلك إجراءً احترازياً حتى لا يعلم أعداؤه وينصبوا له كميناً في الطرق الجبلية الضيقة، حيث يسهل التواري عن الأنظار والتحصن لقتل من يُراد تصفيته. ولم أتنبه لساعة مغادرته، إلا عند سماع أصوات الطبول وجلبة الخيل، وقد أرسل من يبلغني بضرورة بقائي في «مؤيمّرة» بضعة أيام ؛ لأنّه يتعذّر عليه اصطحابي معه لصعوبة توقع ما قد يحدث، ووعد بأن يُرسل في طلبي حالما تسنح الفرصة وعندما يشعر بعدم وجود خطر عليّ. بقيتُ على غير رغبة مني وتابعت جمع النباتات في المناطق المحيطة.

في الليلة التالية لمغادرة الشيخ أرسل الشيخ قاسم الابن الأكبر والمفضّل لدى

---

(١) عليه الصلاة والسلام.

الشيخ حسن في طلبي، والذي لم يسبق لي وعرفته. ذهبت إليه، وهيأت نفسي على مضض استعداداً للإجابة على الأسئلة التي يطرحها كلّ من تعرفت عليه، ولتقديم عرض إجباري لمسدسي ذي المكبس. لكنني أخطأت هذه المرّة، فقد كان الشيخ قاسم شاباً طويل القامة، وقويّاً، في العشرين من عمره، يُشبه أباه لدرجةٍ لا تُصدّق، ويغطي الجزء السفلي من وجهه بشال كما يفعل أبوه، من باب التقليد فقط، إذ لم يكن مضطراً لذلك مثل أبيه. استقبلني في غرفة كبيرة، وكان يرتدي ثوباً متواضعاً، وكان يجلس على سجاد فوق الأرض. لم يكن استدعاؤه لي من باب الفضول، كما كنت أخمّن، لكنّه سمع بأنّي أحمل بين أمتعتي وعاءً كبيراً يحتوي على مشروب كحولي أستخدمه لحفظ الحيوانات من التلف. وكان يرغب في تعاطيه كخمره مُسكرة والتي أصبح مدمناً عليها بشكل مثير للقرف. فمشروب العرَق الذي كان بحوزته والذي كان يصنعه بعض اليهود، لم يَعُدْ يفي بالغرض وهو الوصول به إلى حالة السُّكْرِ التي يُحبّ أن يكون عليها. وهي المتعة الوحيدة لدى الشرقيين بشكل عام عندما يتعاطون المشروبات الروحيّة. كان يتمتع بحريّة أكثر في ظل غياب والده الذي كانَ يخشاه كثيراً، ولا أدري كيف يخفَى عليه سلوكٌ كهذا. كان يريد أن يجرّب نوعية النبيذ الذي جلبته ومدى تأثيره عليه، ورغم رفضي القاطع إلا أنّه أمر خدمي بإحضار شيء منه، والذين لم يمانعوا على أمل الحصول على بقشيش أو مكرمّة منه. وكقرد يتذوق شيئاً جديداً، طعمَ بطرف لسانه، وسألني إذا لم يكن سامًّا؟. وبحماقة مني نفيتُ الأمر، فشرب فنجاناً صغيراً، ومن ثمّ كأساً كبيرة، وبدأ التأثير يتجاوز توقعاته، وبدأ ينتشي طرباً بفعل هذا المُسكر القوي. وكي تكمل سعادته، قام بإشعال عدد من الشموع الكبيرة، ولعدم وجود شمعدان، وضعها على صف من القوارير الفارغة والتي كانت متوفرة لديه، والتي كان يزداد عددها كلّما رست سفينة أوروبية في المخا أو الحديدة. وطلب حضور عازفَيْ موسيقى من أهل صنعاء كانا يقيمان في منزله.

كان الشيخ قاسم قد أُرسل مِن قِبَل أبيه كرهينة لدى الإمام في صنعاء، وفي هذه العاصمة المتحضّرة، والتي يفتقدها كَثيراً، تعلّق بشدّة بالملذات وأنواع العربدة، التي يستعرض بها أمامي، والتي لم أتوقع أن أعايشها في بلد كاليمن. وحينما عاد إلى

أبيه، اصطحب معه راقصاً شاباً، وكان أبوه وعمه عازفان (مزاينه، ج. مزيّن) وهما من أهدياني عينة من الموسيقى اليمنية. وكانت آلاتهم الموسيقية الوحيدة هي المزمار وطاسة وطبل صغير، يتخلل الألحان الجميلة غناء ورقصات مثيرة وأكثر تقدماً من كثير من الألحان العربية بشكل عام. كان الراقص مريضاً لا يقوى على الرقص، فأجبر الشيخ قاسم والدَهُ على الرّقص إلى جانب العزف، ورغم أن المشهد كان فجّاً، إلا أنه فريد من نوعه إذا ما تأملنا بالبلد الذي نحن فيه: رجل مسن بلحية بيضاء، يؤدي رقصًا شرقيّاً ماجناً، وابن أحد كبار وجهاء اليمن يلهو بالوقت، ويصفق بالصاجات ويتفاعل مع الصوت والحركة.

تكرّرت هذه المشاهد كلّ ليلة، بل وأثناء النهار، فقد وجدتُ الشيخ الشاب الأحمق ذات يوم، مشغولاً في غرفة نومه يتأمل حصاناً جُيء به من بلاد الجوف، اشتراه للتو وأمر بإصعاده إلى شقته لأنه كان في حالة لم يكن قادراً معها على النزول.

تعبتُ من كل هذه التفاهات التي استحسنتها لمرّة واحدة فقط بسبب تأثير القات الذي يُساعد على التغاضي والتسامح، وأصبح الاستمرار فيها لا يُطاق، فقررت أن أضع بعض الزواحف فيما تبقى لي من كحول، ولم أكن متأكداً حتى من أن ذلك كافٍ لإثارة اشمئزازه. كان الشيخ قاسم يجد حوله أشخاصاً يستمتعون بمشاركته هذه العادات المشينة، ومن بينهم حموه أبو زوجته، أحد تجّار المخا الذي زوجَّه ابنته المشهود لها بالجمال.

في اليمن كما في بلاد فارس، يدفع الحكام أجور الموظفين عن طريق منحهم صكوكاً أو أوامر دفع من قبل أهالي القرى التي تقع تحت سلطتهم، ويدفع الأهالي هذه الأجور كجزء من الإتاوات المفروضة عليهم. عندما يكون الشيخ الشاب في حالة سكر، يغتنم مَن حوله الفرصة ويجعلونه يوقّع على ما يريدون، وكان حموه أكثر من يلجأ لهذه الطريقة المخجلة للحصول على ما يريد.

وكي أروّح عن نفسي من هذه المشاهد التي كنت أسعى إلى تجنبها، كنت ألزم مرافقة الحاج عزي وقاضي الشيخ حسن، وهو رجل متزن واجتماعي، ولم يكن بمقدوره الاعتراض على سلوك الشيخ قاسم، وفضّل غضّ الطرف عن انحرافاته.

وكانت تقتصر مهامُّه على أن يؤم المصلّين في صلاة الجمعة ويُحرر مراسلات الشيخ، ويفصل في الخصومات التي قد تنشأ بين أهالي المناطق المجاورة، وأن يعقد زيجات الشيخ قاسم، ويقوم بإجراءات الطلاق كلما رغب هذا بالتغيير، وقد حدث ذلك مراراً. كنت أسعى للحصول منه على بعض المعلومات التاريخيّة حول بلده، ولكن دون جدوى، وكان مثل جميع الشرقيين عموماً يجهل تماماً هذا الموضوع، ولم يدرس سوى ما كان يرجع عليه بمصلحة أو بفائدة مادية مباشرة، ولم يظهر سوى اهتمام بسيط بالتّبابعة ملوك اليمن القدماء، جاهلاً الفائدة من معرفة هذه الحقبة التاريخية. أكد لي، مع ذلك، بأنه لا يوجد شخص أغزر منه علماً حتى في صنعاء، وبأننا لا نستطيع إيجاد أي كتاب تاريخي في تلك المدينة. وإن وجِدَت مثل هذه الكتب، فلا يمكن العثور عليها إلا في «زبيد» لأنّها مدينة عِلمٍ، وكان فيها فيما مضى جامعة، أما صنعاء فهي مدينة للملذات.

قرية ساهم[1] Cahim

بعد مغادرة الشيخ حسن، لم أمكث في حصن «مؤيمرة» سوى بضعة أيام، سافرت بعد ذلك بصحبة الشيخ قاسم إلى قرية ساهم Cahim ، وفيها قصرٌ لوالده، وكانت تحت سيطرته رغم تبعيتها لمحافظة تعز. وتقع في الجهة الغربية من سلسلة جبال وادي حيدان Heidan . ورغم قرب قرية Cahim من مؤيمرة، ولا يفصل بينهما سوى جبال شديدة الانحدار ووديان عميقة، فقد كان علينا أن نقضي قرابة نهار كامل من السير المضني للوصول إليها عبر طريق لا تصلح إلا لسير البغال. أمّا الجمال التي كانت تحمل أمتعتي فقد استغرقت يومين لقطع نفس المسافة وفي عدة أماكن أنزلت الحمولة من على ظهورها وحملها المرافقون لضيق الطريق.

وفي اليمن كما في جبال سيناء سنحت لي الفرصة للتأكد من الفكرة الخاطئة الشائعة عمومًا في أوروبا عن الجمل، والاعتقاد بأن شكل قدمه لا تسمح له بسلوك الطرق الجبلية. فليس هناك أيُّ حيوان بما فيها البغال أكثر أمناً من الجمال في أكثر الطرق خطورة ؛ فقدمُه لا تنزلق أبداً، حتى على الصخور الملساء. وله قدرة

(١) كما أسماها الرحّالة بوتا في يومياته.

غريزية فريدة على اختيار الموضع الأكثر سلامة لقدمه، حتى أنه في بعض الأحيان وفي المنحدرات الشديدة يثني ساقيه من تلقاء نفسه ويسير على ركبتيه المغطاة بغضروف صلب، كي يحتفظ بوضع جسمه أفقياً على الرغم من انحدار الأرض. ولا يفقد هذا الحيوان ميزاته المفيدة هذه سوى على الطرقات الموحلة والزلقة، ولم أرَ سقوط بعضها إلا في مثل هذه الأماكن.

غادرتُ مؤيمرة عند الصباح برفقة الشيخ قاسم ومعه القاضي وعدد من الحرس، كان أحدهم يحمل الرمح أمامه، ووصلنا عند غروب الشمس إلى قرية Cahim، وباستثناء بعض الأماكن المحيطة بسفح الجبل والوادي الكبير الذي قطعناه في طريقنا إلى قرية Cahim، كانت المناطق التي مررنا من خلالها جرداء قاحلة غير صالحة للزراعة، وكانت المنعطفات الجبلية شديدة الانحدار ولا يمكن استغلالها كمدرجات زراعية. وعند الموضع السفلي للوديان توجد بعض حقول القمح والذرة والبُن. وفي قرية Cahim استُقبِلَ الشيخ قاسم بإطلاق أعيرة نارية تحت هتافات ترحيب الرجال وزغاريد النساء.

والقرية تقع على هضبة عند ملتقى سلسلة جبال باتجاه الجنوب الشرقي. ومنها نكتشف أجزاء من مدينة تعز التي تقع على مسافة مسير يوم. قصرُ الشيخ أو الدّار كانت خالية من ملامح الفخامة والتحصين التي كان يتميز بها حصن مؤيمرة، ولم يكن القصر سوى منزل كبير مربع الشكل، مبني بالأحجار المتينة، يطل على القرية ويسهل الوصول إليه من جميع الجهات. مدخله مفتوح على فناء صغير محاط بغرف صغيرة مخصصة للحراسة والخدم. وأمام البوابة ينتصب درجٌ ضيق ومظلم يؤدي إلى الطابق الأول والطابق الثاني حيث توجد غرف صغيرة متهالكة، توحي حالتها بأنها لم تكن تُسكن بشكل دائم. أُنزلت في البداية في غرفة في الطابق السفلي، ووجدتُ نفسي محاطاً بالحرس ورجال الشيخ، فطلبتُ أن أنتقل إلى غرفة أخرى في الطابق العلوي، فمُنحت غرفة على السّطح مخصّصة للنساء ولكنها كانت شاغرة في ذلك الحين.

لم يكن للشيخ الشاب هيبة والده لدى رجالهم المسلحين، ووجدت نفسي في وضع غير مريح مقارنةً بما كنت فيه في حصن مؤيمرة، خاصةً وأنه استمر في

إزعاجي في كل ساعات الليل ويلحّ في الحصول على المشروب الكحُلّي. وكنت أجد نفسي مجبراً على معايشة الآثار السلبية لإفراطه في تعاطي المُسكرات. لم يكن السُّكر هو سلوكه الماجن الوحيد الذي يتعارض مع عادات الشرقيين، فقد وجدته ذات مساء جالساً وسط رفاقه بالقرب من فتاة في نفس حالته تقريباً، ورغم قبحها وقذارتها، إلا أنه كان يظهر لها تودداً ملحوظاً.

وقد أدهشني هذا السلوك المتحرر، الذي يشكل استثناءً لدى المسلمين، فرغم كثرة الفواحش والرذائل التي يرتكبونها، إلا أنّهم يحرصون على الحشمة في الفعل، وأكثر من ذلك في القول. وقد أسرّ لي أحد مساعديه، بأن من إحدى الصفات التي تعرف بها أسرة علي سعد التي ينحدر منها الشيخ، أنّها لا تتورع عن عمل أي شيء. ولم يكن لديَّ أيّ تعليق على هذه الملاحظة، وأفسحت له المجال للتدليل على نبل نسل هذه الأسرة. لم يكن سلوك الشيخ قاسم هذا نابعاً فقط من رغباته، بل نتيجة لقناعاته التي اعتبرها كمبدأ، وكان يعتقد أنَّ السيطرة على الجند تتطلب عمل أشياء استثنائية والانغماس في الملذّات والمحرمات.

تمكنتُ، رغم معارضة الجنود، من استكشاف المناطق المحيطة بقرية Cahim بكل حرية وجمعت أعشاباً كثيرة، ولكني لم أكن محظوظاً في تعميق أبحاثي في فروع التاريخ الطبيعي الأخرى. ففي هذا المكان ومثله في الأجزاء الأخرى من الجبال، نلاحظ ندرة الطيور والحشرات رغم وفرة الغطاء النباتي. والنمر يعدّ من الحيوانات المفترسة النادرة هنا، وقد رأيتُ واحداً منها يقطع القرية في وضح النهار. كان هناك العديد من الضباع، وكان الأهالي يتحدثون عن حيوان مفترس آخر كانوا يسمونه «بالطاهش»، وكانوا ينسجون قصصاً كثيرة حوله ويطعّمونها بكثير من الخرافات.

ومن خلال وصفهم له، فإنه لا يعدو في الحقيقية أن يكون ضبعاً من الأصناف الكبيرة التي تتميز بشعرها الأسود وصدرها الأبيض، وهي كما تُوصف حيواناتٌ قويّة وبما يكفي لانتزاع ثور. وعلى الرغم من أنني قد عرضت مبلغاً كبيراً من المال لمن يستطيع أن يحضر لي «طاهشاً»، لكنني لم أنجح في هذا المسعى، وقد حاول الأهالي قنص أحدها ليلاً بعد محاولة استدراجه ببقرة قتلت لهذا الغرض ولكن

دون فائدة.

بعد أيام قليلة من وصولنا إلى قرية Cahim، تلقى الشيخ قاسم مرسُومًا من إمام تعز، بتنصيبه على منطقة Cahim، وكان المرسوم كجميع المراسلات يتسم بعدم انتظام الكتابة وبصعوبة قراءتها، حيث لا توضع النقاط التي تميز الحروف عن بعضها البعض، ويتم الربط بين كلمات ينبغي أن تكون منفصلة تماماً، ويتم الاستعاضة بعض الأحيان عن العبارات برموز تشبه إلى حدٍ مّا تلك الموجودة على المخطوطات الصينية. ومن المستحيل فهم المضمون إذا لم نكن متعودين على هذا النمط من الكتابة، مثل الأهالي الذين يقرؤونه بيسر، بل ويعتبرونه واضحاً جداً. ويتميز المرسُوم عن المراسلات العادية بكونه ممهوراً بالشمع الأحمر، المحظور استخدامه إلا للائمة، ولا يسمح لأي شخص آخر باستخدامه. ولكون إمام تعز يدّعي الإمامة لنفسه، فقد سمح لنفسه باستخدام هذه الميزة، بينما الشيخ حسن ورغم نفوذه لم يجرؤ على استخدام ذلك في مراسلاته.

وبمناسبة تعيين الشيخ قاسم في هذا المنصب، حضر وجهاء القرى المختلفة في المنطقة لتهنئته، وجاء كل منهم برفقة رجاله المسلحين، يردّدون جميعاً الزوامل للإطراء، ويُطلقون بعض الأعيرة النارية، ويقدِّمون له الهدايا من أغنام وأبقار وقمح وبعض النقود. وكان يعطيهم بالمقابل هدية، وكان يأخذ الهدية من الأول ليعطيها للثاني وهكذا، فيما عدا النقود ؛ فقد كان يحتفظ بها. ولكنها لا تظل طويلاً في حوزته، فقد كانت فرصة لرفاق السوء كي يستحوذوا عليها ويعملون ما بوسعهم كي يظل في حالة سُكر دائم، ليستأثروا بكرمه، وكي لا يتمكن من مقاومة جشعهم الفج.

وذات يوم كنت برفقة الشيخ قاسم، وإذا برجل يصل إليه، وملابسه رثة ومغطًى بصوف خروف وكأنه آت من بلد بارد. كان هذا الرّجل مبعوث الشيخ حسن إلى بلاد الجوف وإلى حضرموت لاستقطاب وجهائها للانضمام إليه في دعم مطالب حاكم تعز لتولي الإمامة، ويعتبر ذلك خطوة أولى لتأسيس سلطة الأتراك، وبالتالي سلطته. كانت طريقة لبس هذا الرجل توحي بتخفيه كي لا يثير الشكوك عندما يعبر مناطق صنعاء. كان وجودي غير المتوقع مقلقاً له حتى حصل على

التطمينات بأني صديق الشيخ حسن، ويمكنه التحدث أمامي دون قلق، فانفرجت أساريره على الفور، وأخرج رسالةً كان يخفيها بين طبقتين جلديتين في نعله، موقّعة من كافة الوجهاء المعنيين، وتتضمن موافقتهم على التحالف مع الشيخ حسن، وقيل إنّ قوام قوتهم تصل إلى عشرة آلاف مقاتل. بين هذه التوقيعات أو الأختام، رأيت باهتمام ختم شيخ مأرب، هذا المنطقة الغامضة والمشهورة في تاريخ العرب، والتي ازدادت أهميتها بعد التأكد من وجود مخطوطات تشبه المخطوطات التي اكتشفت في الساحل الجنوبي لليمن من قبل الملازم ولستد Wellsted. وكنت أنوي الذهاب إليها، وتحت حماية الشيخ حسن كنت متأكداً بأن رحلتي إليها ستكون آمنة. لكن المرض الذي داهمني فيما بعد في المخا وأجبرني على العودة إلى القاهرة، منعني من القيام بهذه الرحلة.

علاوةً على الوضع المدني والسياسي البائس في هذا البلد، يمكنني أن أضيف أمراً آخر كان ماثلاً أمام عينيَّ. ففي الجهة الشرقية من دائرة الجبال المحيطة بالسهل الذي تقع فيه قرية Cahim، يقبع منزل أو حصن يملكه شيخ يُدعى محمّد عليّ، كان ذلك الشيخ يرفض الانصياع لأوامر الشيخ حسن، وظلّ في حالة حرب معه لسنوات عديدة، وكان يتحصن في حصنه الصغير هذا مع أفراد عائلته وعدد قليل من الجنود تحت إمرته، وقيل بأنه لا يخرج إلا لجمع الإتاوات من القرى المحيطة الخاضعة لسلطته. كان حصنه يُرى قريباً جداً من قرية Cahim، ولكنّه في واقع الأمر بعيد، لاستحالة تسلّق الجبل الذي يقع عليه حصنه، وكان الطريق الوحيد الموصل إليه بعيداً جداً عند نهاية المنحدر. كان بإمكاننا رؤيته يتمشّى على شرفة الحصن. وقام بحفر خندق كبير أمام حصنه لقطع الطريق الوحيد الموصل إليه. عندما وصل الشيخ قاسم إلى قرية Cahim كان الشيخ محمّد عليّ يرغب في الدخول معه في صلح، «طالباً وجهَه» حسب التعبير المتعارَف عليه في المنطقة.

تمت الموافقة على اللقاء، ووصل الشيخ محمّد عليّ ومعه مجموعة من حراسته، وأدّوْا كل ما يتطلب العُرف؛ أنشد الدوشان عبارات الإطراء للشيخ قاسم، وأطلق الجنود أعيرة نارية، بعد ذلك صعد الشيخ محمد علي لدى الشيخ الشاب الذي استقبله بغاية اللطف. كان الشيخ محمد علي قصير القامة، يتمتع

بحيوية كبيرة وروح مرحة، ولم تظهر عليه أية علامة للقلق بسبب وجوده بين يدي عدوه الشخصي، لأنّه يثق بوعد خصمه، ويعرفُ أنّ الشيخ قاسم لن يخونه، ولا يرغب في سواد وجهه، وسيكون من العار عليه أن يعتدي على خصمهِ وهو تحت سقفه. ما إن دخل عليه، حتى قدّم له جنبيته كعدَل[1]، والتي أعادها له الشيخ قاسم على الفور، وبعد تبادل عبارات الترحيب، أوضح الشيخ محمد عليّ أنّه يتفاهم جيداً مع الشيخ قاسم، لكنّه لن يطلب ولن يقبل أي شيء من والده. بدأ اللقاء واستمر بذات الجدية لوقت طويل، ولكنه لم يخرج بنتيجة ولم يتوصل الشيخان إلى وفاق، وغادر الشيخ محمّد عليّ بعد أن منحه الشيخ قاسم بعض الأغنام كهدية.

قبل مغادرتي للمناطق الجبلية، علمتُ أنّ الشيخ قاسم هاجم بشجاعة حصن الشيخ محمد علي المتمرد عليه، ونجح في الاستيلاء على الحصن، وخسر سبعة عشر من رجاله، وهو عدد كبير مقارنةً بحملة صغيرة من هذا النوع، ومما يدل على أن كلا الجانبين قاتلا بشجاعة.

انتهى موسم الأمطار، وكنت أخشى أن أصل متأخراً لمشاهدة الغطاء النباتي الذي يعقب الموسم، وانتظرت بفارغ الصبر الذهاب إلى تعز، لمعاينة نباتات وأعشاب جبل صبر، حيث يزعم اليمنيون اليوم وكما في أيام فورسكال أنه يضم كل نباتات الأرض. ولعدم تسلمي أية أخبار من الشيخ حسن، بعثت له بأحد معاونيَّ محمّلاً برسالة أطلب فيها الإذن بالسماح لي بالتوجه إليه. فردّ عليّ بأنه ينتظرني، وبأن الظروف مواتيه للقيام برحلتي دون أي خوف.

السفر إلى تعز:

غادرتُ قرية Cahim برفقة الحاج عزي وبعض الحرس، وكنت سعيداً جداً للخروج من هذا المكان، حيث لم أر سوى مشاهد مثيرة للاشمئزاز، وفي الليل مثلما النهار لم أذق طعم الراحة إلا نادراً. وقبل مغادرتي ظهرَ لي دليلٌ آخر على خسّة الشيخ قاسم، وهنا أعترف بأنه حتى بين أوساط العرب المشهورين على مر الزمن

(١) في العُرف القِبَلي اليمنيّ تُقدّم الجنبيّة كعدَل (بفتح الدال) عند الخصام أو في حالة التحكيم بين المتخاصمين.

بالنبل والكرم، يُمكن أن نصادف استثناءً. فقد أعطيته منظاراً، وقبله مني بكل سرور، ولكنه ما إن لاحظ على إصبعي خاتماً من الذهب، من النوع الرخيص لكنه كان غالياً لديَّ كتذكار، رغبَ باقتنائه، وطلبه مني بدلاً عن المنظار. رفضتُ إعطاءه الخاتم وأخذ المنظار، وظلّ لعدة أيام يُلحّ عليّ هو وأصدقاؤه بطريقة وضيعة لا يُمكن تبريرها حتى لاقتناء أثمن الأشياء، واستمر في الضغط عليّ حتى بعد مغادرتي للحاق بوالده. تعبتُ ومللتُ من رسائله المستمرة حول هذا الموضوع، فرضخت أخيراً لإلحاحه وأعطيته ما يريد. أرسل يشكرني ويتوسل إليّ بأن لا أخبر والده، الذي قال لي بأنه سيقتله لو علم بأنه طلب شيئاً من شخص غريب. وكان هذا آخر تواصل لي بالشيخ الشاب الذي أفسد بطباعه جزءاً من رحلتي التي لولاه لكانت كاملة الإثارة والمتعة.

غادرنا قرية Cahim في الصباح، ومررنا بمناطق جميلة كثيرة الزرع، تغطيها حقول القمح والذرة وأشجار البن، وصلنا عند غروب الشمس إلى قرية تقع على مسير ثلاث ساعات من تعز. كان الطريق سهلاً، والجبال منخفضة، والوديان فسيحة ومتقاربة وتُروى من عدة سواقٍ. كانت إحدى هذه السواقي مالحة وتعَبُرُ أحد السهول المليئة بالمستنقعات، حيث وجدت بعض النباتات التي تنمو في المياه المالحة على شواطئ البحر وبعض أشجار النخيل المهملة لأن ثمرتها لا تصل إلى مرحلة النضج كما قيل لي. في هذه القرية قضيتُ ليلةً مزعجة بسبب البراغيث.

واصلنا طريقنا في اليوم التالي صوب مدينة تعز، وقطعنا سلسلةً من التلال الجرداء والقاحلة، وليس فيها سوى بضع شجيرات جافة. وصلنا بعد ذلك إلى منطقة «بير باشا» وفيها حوضٌ كبير من عهد الأتراك كما يدل على ذلك اسمه. كان فيما مضى يمتلئ بالماء الذي ينتقل عبر قناة من جبل صبر، تظللّه الآن شجرة تين رائعة ذات أوراق بيضاوية كبيرة، ولها جذع هائل وفروع كبيرة يمكن أن تظلّل تحتها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة شخص. ويوجد في اليمن عدة أصناف من شجر التين، تمتاز جميعها بالعظمة وجمال الأوراق. تفضّل النمو ما بين الصخور، وتلتصق بالجدران الجبلية، دون أن نتمكن من تَبيُّن مصدر الغذاء الضروري لها

وهي بهذا الحجم الهائل. بعد وقت قصير من مغادرتنا «لبير باشا» عقب ظهور مجاميع كبيرة من القرود، رأينا مدينة تعز، التي بُنيت على منحدر عند سفح جبل صبر، تحت تل شديد الانحدار، بنُيت على قمته قلعة تسمى «قلعة القاهرة». لم أدخل المدينة، بل واصلتُ السير بجانب السهل الذي تقع عليه، وتوجهت إلى محل إقامة الشيخ حسن في وادي صينة على مسافة كيلومترين تقريباً من المدينة، حيث عسكر في منزل يقع عند سفح جبل صبر، محاط بثلاثة إلى أربعة آلاف من جنوده، تسبّبوا في سحق الغطاء النباتي لحلفائهم في تعز في انتظار ممارسة أعمالهم التخريبية ضد أعدائهم. في هذا الوادي الضيق والعميق الذي لا تصله الشمس إلا لبضعة ساعات، كان الهواء بارداً ورطباً، وكنت أستمتع بالجلوسِ إلى جانب الشيخ، وأتدفأ بالنار التي كانت توقد من فروع أشجار الكافور وتُجلب من مزرعة مجاورة. عندما وصلتُ كان الشيخ حسن على وشك القيام لتناول وجبة الغداء التي دعاني إليها، وكانت وجبة متواضعة كأكل اليمنيين بشكل عام، تحتوي على لحم ضأن بالمرق وخبز رقيق مدهون بالسمن والعسل. وسألني إذا ما كنت راضياً عن الأسلوب الذي تعامل به معي ابنه قاسم أثناء غيابه، ولم أتجرأ على الشكوى إليه أو أن أبوح له بما رأيت من مشاهد لا تسرّ.

بعد أخذي قسطاً من الراحة، وتناولي القهوة، وتدخين التنباك الذي يسمونه هنا كِدْرkidr، ويوضع فوق النرجيلة الفارسية (المداعة)، كان الشيخ يسعى للحصول لي على مأوى بعيداً عن ضجيج الجُند الذين من حوله، وقد أرسلني إلى منزل في قرية صغيرة تدعى «جنّات»، تبعد مسافة نصف ساعة من منطقة وادي صينة حيث يُعسكر، ويقع المنزل في مكان مرتفع يطل على موقع الشيخ وعلى مرمى حجر منه. وللوصول إليه سرنا في عمق وادي صينة، ومن ثم صعدنا مباشرةً الجبل، وتسلقنا الصخور. لم تكن الجمال قادرة على بلوغ هذا المكان، وقامت نسوة بحمل صناديقي على رؤوسهن رغم الوزن الثقيل، إلا أنّهنّ تسلّقن ما بين الصخور بخفة ورشاقة الماعز. في هذه الجبال تقوم النساء دوماً بحمل الأشياء الثقيلة، ويحملنها فوق رؤوسهن، وإن تنازل الرجال بعض الأحيان للقيام بهذه المهمّة فإنّهم يضعون الأحمال على ظهورهم.

يمكن أن تعطينا قرية جنّات فكرةً عن جميع قرى الجبل ؛ فمنازلها مبنية من الحجر المقطوع عشوائياً، يغطيها سقف ترابي، وتبنى بشكل غير منتظم لتغطي كافة المساحة المتاحة ما بين الصخور. وغالباً ما يتم بناء المنازل بعضها فوق بعض، وللوصول إلى غرفتي في نهاية منزل شيخ القرية، كان عليّ أن اصعد من سقف إلى سقف إلى أنْ أصلَ إليها. وكانت غرفتي عبارة عن حجرة صغيرة نظيفة ذات أرضية أسمنتية تحفظها من الهوام.

من الجانب الجنوبي يصل بنا النظر عبر الطريق غير المنتظم للوادي إلى مشارف الجبال التي تحده، حيث تختفي القمة في أغلب الأوقات بين السحب. أما من جهة الشمال فالرؤية مفتوحة على الوادي وجزء من سهول تعز حتى أفق الجبال التي تقع عليها قرية Cahim. ويقطن في قرية جنّات ما يقرب من العشرين أسرة فقيرة تعيش على منتجات المزارع والحقول، باستثناء بعض الأسر اليهودية.

وفي اليمن، كما في كلّ مكان، يعيش أفراد الطائفة اليهودية كالأجانب وسط الأهالي، ويمارسون بعض المهن كالنجارة والصياغة، أو في تحضير الخمور وبيعها سرّاً للمسلمين. يعيشون في فقرٍ مدقع، وجهل، ويلبسون كما يلبس بقية الأهالي، إلا أنهم لا يتّخذون العمائم، ويضعون على رؤوسهم كوفية متواضعة، ويتم التّعرف عليهم ليس من خلال مظهرهم فحسب، بل من خلال الزنّارَيْن المتدليين من جانبي الرأس كسمة تميزهم عن غيرهم في المشرق.

كان الشخص الذي استضافني يُدعى شمسان، وهو رجل طيب وبسيط، ينتهي العالم لديه عند حدود تعز. كان يأتيني كل مساء ليحصل على بضع وريقات قات، ويظل يحدق في وجهي لساعات طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان الشيخ حسن قد أمره بأن يوفر لي كلّ ما أحتاج، وكان يفعل ذلك ويزيد عن طيب خاطر، وكنت أدفع له مقابل ذلك، وكان يقبل منّي ذلك رغم تحذير الشيخ حسن، إلا أنّه كان يعلم أنّني لن أشِيَ به.

كنتُ حراً في تحركاتي، وقد حذّر الشيخ حسن جنوده من الاقتراب من القرية التي أقطن فيها. وكنت لا أعلم بتواجدهم في الأماكن القريبة إلا من خلال سماع

صوت الطبول والزوامل التي ينشدونها ويرجع صداها بصوت رخيم. وبذا كنت أشعر بالاطمئنان وأتحرك في المنطقة دون خوف، وقد قضيتُ في هذه القرية ما يُقارب الشّهر، وخلَدَتْ في نفسي واحدة من أجمل الذكريات التي عشتها خلال رحلتي هذه.

ووادي صينة عبارة عن فجوة في الجبل، ومع ذلك فهو يضم عدة قرى، ولقد هيئت على جانبية مدرجات زراعية في جميع الأماكن المتاحة. في الأجزاء السفلى المنخفضة حيث تسهل عملية الري، نجد العديد من المزارع المغطاة بأشجار كبيرة من صنف الجيجر cordia sebestena، حيث تنمو تحت ظلالها أشجار البن التي تحب الدفء والرطوبة ولا تقوى على الشمس. وغير هذا لا تتطلب زراعة البن عناية كبيرة، ولا تلقى من الرعاية في اليمن إلا القليل، حيث لا يُعنى بتقليمها ولا استئصال الأعشاب الضارة التي تنموا حولها. فهم يكتفون بغرسها وجني ثمارها التي تجفّف، ومن ثم يتم فصل اللبّ عن القشرة. لذا لا غرابة في أن يتناقص محصول إنتاجها كل سبع سنوات ويصبح من الضروري استبدالها. كانت هذه المزارع تُسقى من المياه المتدفقة من نبع يجري في الوادي، ويتم تغيير مسار الماء المُنْحَدر من الأجزاء العلوية عن طريق سواقٍ فرعيّة كلما اقتضت الحاجة.

جبل «صَبِر» عبارة عن كتلة صخرية أعلى بكثير من الجبال المحيطة به، ويمتد من الشرق إلى الغرب، ويتصل طرفه الغربي المنخفض بجبل حبشي. ويرتفع من الجهة المقابلة ويمتد حتى ينتهي بمنحدر شديد تطل قمته على السهول الواسعة والمتموجة التي بنيت عليها مدينة تعز، ويمتد من جهة الشمال شرق حيث الطريق المؤدي إلى صنعاء. جوانبه شديدة الانحدار، حتى أنها تُرى عمودية من زوايا معينة، ونتساءل على أي شيء تستند القرى العديدة التي تظهر من بعيد كبقع بيضاء فوق صخر داكن اللون، تفصل بينها وديان عميقة ومدرجات مزروعة بعناية وتُروى من عدة سواقٍ، بحيث يستغل كل مكان يمكن زرعه.

صعوبة التضاريس البالغة تمثل ميزة دفاعية كبيرة جداً في حال اندلاع الحروب، كما أن توحد الأهالي كلما لاحت ضرورة لصد هجوم عدوٍّ مشترك، مكنّهم من الاستمرار في مقاومة تسلط حكام اليمن، وخاصة من الوقوف بنجاح

أمام تهور الجنود التّابعين للمشايخ الذين يسيطرون على المناطق المحيطة. فعلى سبيل المثال، وقبل فترة وجيزة من وصولي حاول شيخ منطقة الحجرية التي تقع على القاعدة الجنوبية من جبل صبر، وهو أحد أبناء عمومة الشيخ حسن ولكنه في نفس الوقت عدوه اللدود لأن هذا الأخير قتل والده، حاول فرض إتاوة على قرى الجبل، وأرسل جنوداً لهذه المهمة، فتصدى لهم الأهالي وقتلوهم عن بكرة أبيهم.

الهدوء النسبي، والأمن على الممتلكات، والأموال التي يكسبها الأهالي من مردود بيع القات الرائج في اليمن، تضفي على هذا الجبل نوعاً من الرفاه وسهولةً في العيش تتباين كليّا مع طبيعة المنطقة، فجميع القرى هنا مبنية ومصونة بشكل جيد، وتقسّم الأراضي على هيئة مدرجات تقع بعضها فوق بعض لزراعة القمح والذرة والقات والبن، وهذا يعطي فكرة عن حياة مضنية لكنها في الواقع سعيدة.

زيارة إمام تعز:

في اليوم الثاني من وصولي إلى وادي «صينة»، ذهبت بصحبة الشيخ حسن لزيارة إمام تعز. هذه المدينة التي كانت مزدهرةً فيما مضى، أصبحتْ اليوم مدمّرة تماماً بسبب الحروب الأهلية، وعمليات السطو التي يمارسها الجنود الذين يعملون في خدمة المتنازعين على السلطة، وتقع تعز في وادٍ كان على ما يبدو مزروعاً في كل مكان. ومازالت هناك العديد من قنوات الري الأسمنتية التي كانت تصل مياه جبل صبر وتتوزع عبرها. أما في الوقت الراهن فقد عزف أهالي تعز عن الزراعة؛ لأن مردودها لا يضاهي حجم الكدّ. وأصبح الغطاء النباتي عبارة عن وفرة كبيرة من الأشجار العارية من الأوراق، ذات الجذوع الدهنية والمشوكة وهي من الأصناف النادرة. وعندما نراها من بعيد وكأننا بها تغطي مدينة تعز التي تحتل نصف الجبل، ولكن ما إن نقترب حتى نجد أن كثافتها تقل. والمدينة محاطة بجدار سميك وبما يكفي لمرور عدة فرسان جنباً إلى جنب، وهو مبني من الطوب ومغطًّى بالحجارة، ويصل طرفاه بتلة شديدة الانحدار منفصلة عن جبل صبر، وفي قمتها بُنيت قلعة القاهرة. وبالرغم من الخراب الذي لحق بهذا الجدار، إلا أنه مازال قوياً بما يكفي لصدّ قذائف مدفعية. ومع هذا تظل المدينة بقلعتها مفتوحة على كل الجهات، ولا تقوى على مقاومة هجمات منتظمة لفترة طويلة، حيث يسهل قطع إمدادات مياه

الجبل عنها، والحصول على استسلام الأهالي دون عناء.

والأرض التي على هيئة مدرجات، كانت فيما مضى تضم منازل جميلة، مبنية جيداً بالأحجار، ولم يتبقَ منها اليوم سوى ما يقارب العشرين منزلاً. حلّت محل البيوت أكواخ بائسة، ولا يجرؤ الأهالي على بناء أفضل منها خشية السطو المتكرر للجنود وهدمها واستخدام أخشابها وقوداً للنّار. وإذا ما اعتقدنا بصحة رواية الشيخ حسن، فإن هذا الخراب لم يمض عليه وقت طويل؛ لأنه أكد لي أنّه حينما كان حاكماً على المدينة لم يكن هناك هذا الكمّ من المنازل المدمّرة، وأن الخراب الحالي جاء بعد رحيله وبسبب ضعف خلفائه. وربما كان هناك مبالغة في هذه الرواية، لكن الشيء المؤكد هو أنّ الأهالي ندموا على رحيله، ورغم سطوته واستبداده، إلا أن ذلك كان أرحم من الحروب الأهلية وضعف الحكومة.

وفي وسطِ المدينة نشاهد مسجدين كبيرين، يمكن مقارنتهما بمساجد القاهرة من حيث المساحة والمظهر المهيب، لا من حيث البناء والتصميم المعماري.

وتظلّ هناك ثمة مخاوف من عدم وصول حكومة قوية قادرة على تحقيق الرفاه والسكينة للناس، وإلّا فإنّ معالم الماضي المزدهر مهددة بالاختفاء، وبعَبثِ الزمن. وهذا ما حدث للعديد من المعالم الأثرية التي ذكرها نيبهور، وبين تلك المعالم ما شاهده خارج المدينة والتي تحولت اليوم إلى كومة من الأنقاض.

بعد اجتياز البوابة الواقعة بين برجين ضخمين، تابعنا السيرَ في شوارع محاطة ببيوت مدمّرة، ووصلتُ بمعية الشيخ حسن وفرقة من حرسه المخلصين الذين يصطحبهم عندما يخشى على نفسه من الغدر، إلى المكان الذي يوجد فيه قصر الإمام، أو بالأحرى إلى مقام الإمام. انتظرنا لحظات في ردهة مقبّبة محاطة بالحرس، ومن ثم صعدنا سلالم مظلمة أوصلتنا إلى مقرّ وزير الإمام الشيخ احمد الذي كان يجلس على سجاد ويحيط به عدد من الكتّاب وهم يتعاطون القات. وكانت عيدان القات الخالية من الأوراق التي مضغوها تغطي الأرضية.

حُسْنُ الضيافة يستدعي في اليمن أن يُقدَّم القات ليس فقط لأهل المنزل، بل ولأولئك القادمين للزيارة، مثله مثل تقديم القهوة في دول المشرق. وينتج عن

ذلك أنّ الأشخاص ذوي المراكز الهامة يستقبلون أعداداً كبيرة من الناس، وما هي إلا لحظات حتى تصبح مجالسهم مغطاة ببقاياً أغصان القات. وأجد في تعاطي القات جانباً اجتماعيّاً ايجابيّاً، وأحب منظر الحزمة من العيدان الخضراء، والرائحة الطيبة للقات الذي يجعلك تستمتع وتتفاعل مع كل ما يقول الآخرون ويفعلونه. ويزيد إحراق البخور، من وقت إلى آخر، الجوَّ متعةً، وتمضي الساعات بسرعة أكبر وبمسرة أكبر مما هو عليه الحال في مجتمعاتنا، حيث نتكلم من أجل الكلام فقط وإثارة السخرية.

وجّه لي الوزير عدة أسئلة حول الغرض من زيارتي، وأعدتُ عليه ما اعتدت على قوله لتبرير رحلتي في البحث عن الأعشاب الطبية المفيدة، وقد طلب مني الشيخ حسن أن أعرض مسدسي ذا المكبس، والقدّاحة الفوسفوريّة، واللّذين جلبتهما معي حسب نصيحته، وأثارا كالمعتاد هالةً من التّعجُب والإعجاب. كنت على يقين من أن الشيخ حسن يستغل وجودي بصحبته لحسابات شخصية، فوجود عالم أعشاب أوروبي في منزله، يُرضي غروره، وهذا ما جعله يستضيفني ويوفر الحماية الكافية لأبحاثي. ثم ذهبنا إلى مقام الإمام، وهو عبارة عن حجرة صغيرة متواضعة جداً في عليّة القصر. هذا الرجل ذو الشأن لجأ لكل الوسائل لخلع ابن أخيه البغيض، ويعمل على استعطاف الأهالي بتبني سلوك مغاير، وارتداء ثوب التقوى، والزهد في اللبس، ولم تكن ملابسه تختلف عن السكان الموسرين إلا في لون قفطانه الأخضر. يصلي طول الوقت، ويصوم السنة بأكملها، وكعادة المسلمين في صيامهم، لا يأكل الا بعد غروب الشمس. هذا السلوك المستقيم، صدقاً أو رياءً، لم يفده البتة في تثبيت سلطته، ولم يحز على ثقة الناس به، بقدر ما نفعه سلوك إمام صنعاء وإهماله. ولم يكن سوى أداة في يد أصحاب النفوذ المختلفين، الذين دفعوه لمنازعة إمام صنعاء، ليجنوا الثمار من حالة الفوضى الناتجة عن هذا الانقسام. وكان الجميع على دراية وبما فيهم الشيخ حسن بأنّ السيف أقطع في شؤون الدنيا من الصلاة. وبأن الإمام وبنواياه الصادقة يمكن أن يخدم قضيته بأن يكون محارباً لا متديناً، وبأن يكون مثالاً للصرامة لا للاستقامة أمام جنوده.

وجدته يصلي على سجادة صغيرة، ربما فعل ذلك على عجلٍ عندما سمع خطواتنا تقترب من باب غرفته. انتظرت واقفاً حتى فرغ من أداء عدة ركعات، طلب مني الجلوس بعد ذلك، وطرح عليّ بصوت متواضع ورزين العديد من الأسئلة، وتحدث معي بحزن عن حال بلده البائس، وجهوده من أجل الصالح العام ورغبته في إعادة النظام والاستقامة.

وعندما استأذنتُ الإمامَ في المغادرة، طلبَ منّي الذهاب لرؤية أحد أبناء أخيه الذي كان مريضاً جداً، وأن أفعل ما بوسعي لعلاجه، ووعدني بمكافأة سخيّة إذا نجحت في ذلك. كنت متردداً في ممارسة الطب في أوساط المسلمين، الذين يعتقدون عند شفاء المريض بأن الشفاء من عند الله، وإن مات المريض لعنوا الطبيب، ولكن لم يكن بإمكاني رفض طلب الإمام، فذهبت لمعاينة المريض ووجدته متهالكاً تحت وطأة زحار الدوسنتاريا التي أصيب بها منذ عدة شهور. وجدته والعديد من أصدقائه والخدم متحلّقين حوله، يحاولون أن يجعلوه يأكل كل ما يرونه ضرورياً لاستعادة قواه، وكانت الغرفة مليئة بمختلف الأطباق. ورغم حالته الميؤوس منها، إلا أنّني قرّرت له حِمْية شديدة ونظاماً غذائياً خاصًّا. وأفهمت عمّه الإمام بأني على استعداد لمتابعة علاجه، شريطة أن يعمل بما أقوله له، وحرصتُ كإجراء احترازي على أن أضيف بأن الله وحده قادر على شفائه من الحالة التي هو عليها.

عدتُ بعد ذلك إلى منزلي في قرية جنّات، وأرسلت له بعض الأدويَةِ التي كان لها أثرٌ إيجابيٌ أعاد لي الأمل في شفائه، ولكن ولسوء الحظ ما إن استعاد بعض عافيته حتى أوقف الحِمْيَة كي يستعيد قواه سريعاً، وحصلت له انتكاسة قاتلة.

لم تَكُن المرة الأولى التي يستغاث بي كطبيب، وكما نعلم بأنّ الشرقيين يعتبرون كلّ أوروبي قَدِمَ إلى بلادهم طبيباً حتى لو كانت زيارته لأغراض أخرى. ولو كنت استجيبُ لجميع المطالب، لما وجدتُ وقتاً لمتابعة أبحاثي، زد على ذلك ندرة الأدوية ؛ فلم يكن معي سوى بعض الأدوية الخاصّة للضرورة. ومع هذا قمت بمعاينة بعض الأشخاص المهمين للشيخ حسن بناءً على طلبه. وفي ذات مرة، ذهبت حسب رغبته لمعاينة أحد اقربائه، وهو شخص مسن في العقد الثامن من

عمره، كان يشكو من ضعف النظر، وذلك شيء طبيعي مع التقدم بالعمر ولا يستطيع الطب عمل شيء حيال ذلك. كان هذا الشيخ المسن يعيش في منزل صغير عند مدخل وادي صينه، سقفه واطئ لا يمكن الوقوف تحته. كان قد فقد أسنانه، ولم يعد قادراً على مضغ القات الذي اعتاد عليه طول حياته، وكان بيده خلاط خشبي صغير، يعصر به أوراق القات ويبتلع العصارة دون حاجة للمضغ. وإضافةً إلى ضعف نظره، كان الشيخ المسنّ يتحسر على فقدانه متعاً أخرى يستحيل مداواتها، ولثقته الكبيرة بعلمي ترجاني أن أجد له حلاً لهاتين المشكلتين. ولأنه قد فقد الحاستين معاً، فشجعته أن يتقبّل الأمر، ويضاعف العمل لبلوغ الجنة التي يعد بها دينه، وهناك سيستعيد نظره وشبابه. تقبّل مني اعترافي بعجزي عن معالجته، وفي مقابل زيارتي وبعض الأدوية العادية وغير المفيدة لعينيه التي أعطيتها له، بعث لي مع أحد رجاله بثالارين (تالر- ريال ماريا تريزا)، والتي رفضت أخذها، وربما احتفظ بها هذا الرجل لنفسه ؛ لأنّه أكّد لي بأنه لن يتجرأ على إرجاعها للشيخ؛ لأنه سيعتبر ذلك إهانة له. وعندما رأى هذا الرجل الصناديق التي تحتوي على النباتات، قال لي بطريقة لئيمة: « هذه فلوسُ الشيخ مخبأة هنا». كانت هذه أول شرارة للشائعات حول أمتعتي، وسرعان ما ظهرت علامات أخرى مقلقة أكثر.

لم أعد إلى مدينة تعز إلّا مرّة أو مرّتين، للقيام بزيارة غير مجدية للمريض، وكنت أثير فضول وتطفل الناس والجنود الذين كانوا يتحلّقون حولي، ليس لشتمي، وإنما لطلب بعض الأدوية، ما يجعل مشاويري غير ممتعة، ففضلت البقاء في قرية جنّات حيث أنعم بالهدوء وأتجول في جميع الأنحاء بحرية. وبالفعل وجدت نباتات مختلفة كثيراً عن تلك التي رأيتها في أماكن أخرى، وساعدني الهواء المنعش والنقي على العمل بنشاط ومتعة، وقضيت أيامي إمّا في مشاوير أو في العمل.

وفي المساء كنت أجد حولي مجتمعي الصغير المكوّن من مضيفي شمسان وأبنائه، وكانوا بسطاء وجهلة لدرجة تفوق الخيال، إضافةً إلى رفيقي الحاج عزي الذي كان يقضي النهار برفقة الشيخ حسن، ويأتيني في المساء ليُطلعني على

الأخبار وعن سير المفاوضات. «الدّنيا سكته»، هكذا كان يصدّر نشرته الإخبارية عن العالم الذي لا يمتد بعيداً، ولكنّه كان عالمي في ذلك الحين، وكنت مهتماً بمجريات الأمور كذوي الشأن، وقد أسفتُ في الحقيقة على مغادرتي السريعة لهذا البلد.

ولتنشيط الحوار، يقوم كلٌّ منّا بتوزيع جزء من قاته، وقد كنت أعمل ذلك بمتعة، بحيث تمر ساعات المساء بسرعة لا نشعر بها إلا مع دق طبول الشيخ التي تعلن عن انتصاف الليل.

بعد الظهيرة عندما كنت أنتهي من مهمة جمع النباتات في الفترة الصباحية والاعتناء بها وتجفيفها، كنت أنزل مع الحاج عزي إلى أسفل الوادي، نجلس على حافة الساقية ننتظر مرور النسوة اللاتي يحملن غصون القات إلى المدينة، وكانت الغصون مربوطة بعناية في حزم ومغطّاة بورق الموز كي تحتفظ بطراوتها.

وكان محصول القات يُباع في مدينة تعز، ويُصدَّر إلى المخا والحديدة على ظهور حمير سريعة. كان مشهداً ممتعاً أن ترى النسوة ينزلن كل يوم من كل حدب وصوب من نواحي الجبل المختلفة ويقفزن ما بين الصخور بخفة وثقة كي يصلن في الموعد. كنّ يمرُرنَ من أمامنا حيث كنّا ننتظر لنتزود بحاجتنا من القات للمساء. في المناطق الجبلية وخصوصاً في جبل صبر، تتّصف النساء بجمالٍ ملحوظ، ويمكن التأكد من ذلك بيسر، كون النساء هنا -وخلافاً لما جرى عليه العرف في بلاد المسلمين- يخرجن كاشفات الوجه. ملامحهن أقرب إلى الإيطاليات، وبشرتهن على درجة من البياض كافية لإبراز الألوان على خدودهن. هيئتهن مثالية لكل من يعجب بالجمال الطبيعي كما خلقه الله. وللأسف فإن الأعمال الموكلة إليهن، والسير المستمر دون أحذية على الصخور، شوه أطرافهن، وأزال منها نعومة الأنثى والإغراء. لبسهن بسيط جداً، ولا يختلف كثيراً عمّا يرتديه الرجال، سوى أنهن يرتدين فستاناً طويلاً ومطرّزاً ومنمّقاً حول الرقبة. ولا يضعن على رؤوسهن سوى منديل (مَصَرّ) من الكتّان الأزرق يتدلى على اكتافهن، ويلبسن سراويل طويلة أيضاً ومطرزة أسفل الساقين بألوان مختلفة. وعلمت هنا بأن السروال له أهميته في ملبس النساء أكثر من الرجال الذين لا يرتدونه عادة في

اليمن. بل إن ارتداء المرأة للسروال يعد واجباً دينياً، وبأن النبي أبلغ بأن رضا الله ينزل على النساء اللاتي يرتدينه، لأنه يستر المرأة ويحفظ كرامتها إذا ما وقعت على الأرض. وفستان النساء طويل ويعيق حركتهن في الطرق الجبلية، ولتلافي هذه الصعوبة، تقوم النساء بربط طرفه السفلي بالحزام. ولا تعدو زينتهن من الحلي أساور من الفضة، وأقراطاً مصنوعة من العاج، وغالباً ما يتزينّ بحلقة في غضروف الأنف مثلما تتزين البدويات، وهذه الحلي الجميلة تصنع من قبل يهود اليمن.

كان عدم ارتداء هذه النسوة للحجاب يدل على تمتعهن بحرية أكبر من مثيلاتهن في دول المشرق، ونتج عن ذلك اكتسابهن سهولة في التعامل وثقة في كل سلوكهن. وعندما كنا نشتري القات، كان العزي يُحبّ أنْ يطيل المساومة وبأسلوب مسلٍّ لهن ولي، ينم عن خفة ظلّه وسرعة بديهيته، ولم أكن ألحظ عليهن الحرج والتضايق الذي يبدو عادةً على نساء المشرق عند وجود الرجال.

كنت نادراً ما أنزل لرؤية الشيخ حسن، حيث كان مشغولاً معظم الوقت، وعلى خلاف عادته في حيس ومؤيمرة، فهنا يمكن الالتقاء به، ولكنّه ومنذ الصباح الباكر وحتى المساء وهو يستقبل ضباط الإمام أو القادة الآخرين لحل ومناقشة مختلف القضايا، وكانوا يأتونه باستمرار، أثناء النهار وحتى في أوقات متأخرة من الليل. ذات مرة وجدتُه بمفرده، وقد طلب من المرافقين المغادرة، وطلب رأيي المتواضع حول المستقبل الواعد لقاء تحالفه مع الأتراك، وسألني إذا ما كنت أعتقد فعلاً بأنه في حال النجاح، يمكن أن يأمل في الحصول على مركز يليق به مقابل خدماته وجهوده ودعمه القوي. وقد لمست بأنه لا يطمح لشيء أقل من تمكينه من حكم اليمن باسم باشا مصر. ورغم موقفي الحرج كوني قدِمتُ إليه بناءً على توصية من إبراهيم باشا، فلم أكن أمتلك الشجاعة على الكذب، ولم أتورع عن التّصريح له بأني لا أثق بحسن نية الأتراك، وأعربت عن خشيتي من أن يعمل الأتراك ما اعتادوا عليه بعد تحقيق مآربهم ويخونوا ثقته فيهم. شكرني على صراحتي، وأكد لي أنّه سيتذكر ما قلته له ويأخذ حيطته، ولكنه لا يستطيع أن يتراجع عن مشروعه، خاصةً وأنه بعث بأحد أبنائه كرهينة لدى إبراهيم باشا مقابل العشرة آلاف ثالاري (تالر- ريال ماري تريزا) التي نقلتُها في صناديقي، وهو

كحال كل العرب الذين ورغم دهائهم، يقعون بغباء ضحايا أيّ فخ بيّن؛ لأنّهم يعتقدون أنّه لا يمكن اللجوء لهذا النوع من الشراك ضدهم، ويعتدُّون كثيراً بدهائهم الزائد الذي يصيبهم في مقتل.

بعد أن فرغتُ من استكشاف المناطق المحيطة بمقر سكني، طلبت الإذن من الشيخ حسن في الصعود إلى قمة جبل صبر حيث توجد كما يقال أطلالُ قصرٍ قديم، مما استثار فضولي. ونظراً لطباع الأهالي الحذرة وعزوفهم عن استقبال الأجانب، كان هذا المسعى محفوفاً بالمخاطر، فأرسل الشيخ بعضاً من رجاله لمرافقتي، وأعلم مسبقاً مشايخ الجبل بصفتي وأسباب قدومي، والذين كانوا ولحسن الحظ على علاقة جيدة به. وقد رافقني الحاج عزي كالمعتاد، وسار معنا مُضيفي شمسان، كمعرّف لكونه من أهالي الجبل. وفي حياته لم تخطر على باله فكرة الصعود إلى قمة الجبل، لكنّه كان يعرف جميع سكان الجبل تقريباً، حيث كانوا يعبرون من أمام قريته متوجهين إلى مدينة تعز. لم تكن الطريق سالكةً لسير البهائم المحمّلة، وعملتُ بما هو متعارف عليه هنا، وحمّلتُ النساء أغراضي، وسرتُ أنا على الأقدام وقد أنستني الغاية من هذه الرحلة الإرهاقَ، وزاد من سروري كوني الأوروبي الأول الذي تطأ قدمه هذا المكان.

غادرنا قرية جنّات في الصباح، وسرنا في مجرى السيل الذي كان جافّاً إلى حدٍّ ما، صعدنا بسرعة، وتسلّقنا المدرجات غير المنتظمة، والصخور الكبيرة التي جرفتها مياه السيول. مررنا بالعديد من القرى التي تحيط بها المزارع، ومن ضمنها بركة الشيبة ورحبه Birket-essheeba et Rahba، وكانت هذه الأخيرة تقع على أرض منبسطة وأكثر خصوبة، تحيط بها أشجار البُنّ وأشجار الفواكه وحقول القمح وذرة الهند والذرة، بالإضافة إلى بعض الفواكه الاستوائية مثل الموز والأناناس الممتاز والتفاح، وقد وجدتُ في جبل صبر كثيراً من الفواكه التي تزرع في أوروبا كالعنب الممتاز، والمشمش والخوخ (الفرسك) والتفاح والسفرجل ذي القشرة الناعمة والحلوة والذي مذاقه أطيب وألذ من السفرجل في بلادنا، ويمكن أكله نيئاً طازجاً، وشكله يختلف أيضاً ويشبه تفاح كَلفيل Calville. وهذا الصنف من السفرجل، لا يقتصر وجوده على اليمن فقط، بل نجده في الحجاز

وبلاد فارس. أمّا بالنسبة للخوخ، فلقد لاحظت في اليمن سمة فريدة؛ حيث لا يعطى لهذه الفاكهة الاسم المتعارف عليه في بقية الدول الناطقة بالعربية وهو (الخوخ)، بل تسمى (فِرْسِك)، وهي كلمة منحوتة من اسم الفاكهة باللاتيني Persicum، وكون اللغة العربية تفتقر لحرف الـ P، فقد تم تحويره إلى حرف الفاء. حيث من المستبعد أن يكون الرومان هم من أدخلوا هذه الفاكهة أو اسمها، فلم يحتلوا اليمن، ولم يقوموا سوى بمحاولة فاشلة للاستيلاء عليه، حتى أننا لا نعلم إلى أي مدى توغلوا بقوة السلاح.

كان شمسان يرد نيابةً عنّا على أسئلة الأهالي الذين يشاهدوننا على طول الطريق التي مررنا بها في الجبل، ومما أثار استغرابي هو ما رأيت بأن العادة أكسبته ملكة سماع كلام محدثيه على مسافة بعيدة كنت معها بالكاد أسمع الصوت. اعتقدت في بداية الأمر بأنه يتحدث إلى نفسه؛ لأنه كان يردّ عليهم دون بذل أدنى مجهود في رفع صوته لإيصاله إلى مسافة أكبر من تلك في حالة المحادثة العادية.

بعد تجاوزنا قرية الرحبة، حيث تناولنا طعام الإفطار تحت ظل شجرة بُن، تركنا الوادي خلفنا، وبدأنا الصعود مباشرة إلى الجبل عبر طريق شديد الانحدار، ووصلنا في فترة الظهيرة إلى قرية كبيرة اسمها «حَجَف»، وهي مركز الجبل، وتقع على قمة أحد هذه الجبال المطلّة على وادي صينه، وتتوزع على جانبي القمة بيوت القرية ذات البناء الحجري الجيّد، والتي تتكوّن أغلبها من طابقين، يُستغل الطابق السفلي كحظيرة أو كمخازن، وهو دوماً مظلم إلا إذا كنا متعودين على ذلك، حيث ينبغي تلمّس الطريق للوصول إلى الدرج المؤدي إلى الطّابق العلوي المأهول. يبدو أن نمط السكن بهذه الطريقة مرغوب لدى قاطني جبال اليمن، رغم عاداتهم الحضرية وسلوكهم المتمدّن أكثر من غيرهم من العرب، ومع هذا فلقد حافظوا على عادة الأخذ بالثأر بين الأسَر. ونتيجة لذلك فهم في خوف دائم من مواجهة أحد اعدائهم الذي يريد الأخذ بثأر أحد الوالدين أو الأجداد الذي ربما قُتل قبل مائة سنة مضت. من المحتمل أن تمنحهم هذه الطريقة في البناء الوقت الكافي للاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضد من يهاجمهم في الوقت الذي ما يزال يتلمس طريقة في الظلام.

المناطق المحيطة بقرية «حجف» مزروعة بطريقة جيدة للغاية، والمدرجات مصانة بطريقة رائعة، ومحاطة بأسوار بنيت حولها لتدعيمها، ويتم السقي عبر الحواجز المائية التي تحتجز المياه المنحَدرة من الجبل، حتى تتوفر الكميات الكافية فيتم فتح ساقية منها لسقي مدرّج زراعي أو عدة مدرّجات. ويزرع هنا القمح والشعير وذرة الهند وأشجار الفواكه، والقات بدرجة أساسية، حيث تمثل زراعته أهم المحاصيل في جبل صبر، وتحظى زراعته باهتمام خاص من قبل الأهالي، ويُزرع على هيئة فسائل تترك لمدّة ثلاث سنوات، ولا يُعتنى سوى بتهوية الأرض وسقايتها عند الضرورة. وفي السنة الثالثة تنتزع جميع أوراقها ويتم الإبقاء على البراعم فقط على طرف كل فرع، والتي تنمو في العام التّالي على هيئة فروع طرية، يتم قطفها بعد ذلك ويتم بيعها على شكل حزم تحت مسمى «قات مبرّح» وهو نوع قليل الجودة. في العام التّالي تنمو على هذا الفروع المقطوعة براعم جديدة تُقطف عند الينوع، ويباع قاتها تحت مسمى «قات مثاني»؛ وهو قات ذو جودة عالية، وبالتالي أغلى ثمناً، أوراقه وعيدانه طريّة جداً ولها مذاق شبيه بمذاق البندق الطازج. ومحصول زراعة القات يعتبر هامّاً للتجارة الداخلية، بل يعد أكثر أهميةً من زراعة البن وأكثر مردوداً بالنسبة للمزارعين. ويتم إنزال كميات كبيرة من قات جبل صبر إلى تعز وغيرها، ويضاف إلى ثمنه الباهظ أصلاً في الجبل مقابل بُعد المسافة والمواصلات.

تعاطي القات مكلّف، لكنّه أصبح ضرورة بالنسبة للجميع، وإذا كان من السهل استهلاكه في جبل صبر بما يقابل الأربعة إلى خمسة فرنكات يوميّاً، من باب التسهيل والحفاوة التي يُستقبل بها الزوّار. إلّا أنّه بالنسبة للشيخ حسن ونظراً لمكانته، واضطراره لاستقبال كبار الشخصيات ليلاً ونهاراً، فكان لزاماً عليه أن يخصص لشراء القات ما يزيد عن مائة فرنك يومياً أثناء إقامته في وادي صينة.

حظيت باستقبال حسنٍ في قرية «حجف» حيث نزلتُ ضيفاً على الشيخ أحمد، شيخ القرية وذبح خروفاً على شرفي وزوّدني بالقات، وهناك تعلّمت أنَّ تعاطي قاتاً قُطف للتو يكون مفعوله أقوى، ولكن لفترة وجيزة فقط.

بعد قضاء الليل في الحديث الطويل، وقضاء ما تبقى منه على سقف المنزل،

قضيتُ اليوم التالي في البحث عن النباتات في المناطق المحيطة بالقرية نـزولاً عنـد رغبة رفيقي عزي الذي لمح في اليـوم السـابق ابنـة الشـيخ احمـد بجمالهـا الأخـاذ وكانت في ربيعها الرابع عشر، وكان يعلم أنّ الشيخ حسن سيُسَرُّ بأن يصـاهر أحـد رجاله الثقات شيخاً من مشايخ صبر، فقرر طلبها للزواج. وقد استغرق الأمر يومـاً على الأقل، وذلك لمناقشة الشروط التي كان أهمها عدم تركها قريتها، على أن يـوفر عزي منزلاً لها، وألّا يصحبها معه إلى مدينة حيس بعيداً عـن أسـرتها. أمـا بالنسـبة للفتاة، فلا أعرف إذا كانت موافقتها ضرورية، لكـن الشـيء المؤكـد بأنهـا لم تكـن تخشى نظرات الرجال.

في صباح اليوم التالي غادرنا قرية «حجف»، ولمزيد من الأمان، أرسـل الشـيخ أحمد أحد أبناء عمومته معنا ليضاف إلى فريق الحراسة، وسلكنا طريقاً جبلياً مضنياً وشديد الانحدار، لدرجة اضطرارنا للتوقف عدة مرات لأخذ نفس. وصـلنا بعـد ساعتين من المشي المرهق إلى قمة جبـل صـبر، ولكنّهـا لم تكـن القمـة الأعـلى في الجبل. مررنا بالقرب من قرية كبيرة ذات منازل مطلية بالنورة البيضـاء، تـدل عـلى نظافة ورفاه ساكنيها، ولم ندخلها، وفضـلنا مواصـلة السـير حيـث صـادفنا رجـلاً مسلحاً وفتيل بندقيته متّقد. وعندما استفهمت عن السبب، قيـل لي بأنـه مـن تعـز، وأنّ بينه وبين الشيخ حسن ثأر، واضطر للفرار إلى الجبل، وما إنْ أحسّ بقربنا منه، استعدّ للدفاع عن نفسه، حذراً من المباغتة. كنتُ محظوظاً لانتفـاء شـبهة القرابـة بيني وبين الشيخ حسن، وبعد رفضي عرضه للمشاركة في الحماية، واصلنا السـير وصعدنا منحدراً أقلّ حـدة عـلى قمـة الجبـل يسـمح لنـا بالرؤيـة مـن الجـانبين، وتمكنت من ملاحظة أنّ الجهة الجنوبية أكثر خصوبة وزراعة من الجهة الشـمالية من القمة. وصلنا بعد وقت قصير إلى غابة من أشـجار العرعـر، وهـي عبـارة عـن أشجار كبيرة ذات رائحة عبقة أحيت لديّ ذكريات أوقات وأماكن أخرى، زاد مـن ذلك مشاهدتي للعديد من النباتات التي نجدها في حقولنا، على هذا الارتفاع حيث درجة الحرارة ملائمة لنموها. ومن بين هذه النباتات وجدت توت العُلّيْـق، يشـبه كثيراً أشجار التوت الحائطيّة لـدينا، وشـجرة ورد ذات جـذع ذي ابعـاد اسـتثنائية لمثل هذا النوع من الشجر، بعض منها كان ينمو على جانـب الطريـق ويبلـغ قطـر

جذعها ما يقارب القدم. وفي وسط هذه الغابة بُني مسجدٌ صغير، وما زال في حالة جيدة، بُنيّ حسب اعتقاد اليمنيين في المكان الذي دُفن فيه صهر موسى[1]، ويدعوه الأهالي بمسجد النبي شعيب. لم أتمكن من دخوله، وإرضاءً لمرافقيّ من اليمنيين اضطررت إلى خلع حذائي أسوةً بهم عند مرورنا بجانب هذا المكان المقدس لديهم. ومن مسجد النبي شعيب تابعنا السير عبر منحدر سهل، وتناولنا غداءنا في قرية صغيرة وسط مجموعة من الفتيات الجميلات، وكنّ يتأملنني بفضول ويضحكن ملء أشداقهن من بدلتي الغريبة ومن مظهري ومن أدنى حركة أقوم بها. بعد ذلك مررنا بجوار أنقاض حصن كبير ينسب الأهالي بناءه إلى ما قبل الإسلام. وقبل غروب الشمس بقليل، دفعنا التعب إلى أن نطلب استضافتنا لليلة في قرية صغيرة كان ساكنوها في حالة حرب مع القرية المجاورة، ولم يستقبلونا إلا بعد أن تفحصونا جيداً من خلال النوافذ الصغيرة في منازلهم، وافق بعدها أحد الأهالي على استضافتنا في منزله، وذبحنا خروفاً كنت قد اشتريته مما زاد في ترسيخ الثقة.

محيط هذه القرية مزروع بشكل جيد، ولا يُزرع هنا سوى القمح والشعير، ولا تزرع الذرة بسبب الارتفاع الكبير وبرودة الجو. كان مَدْرَس الحبوب أسمنتياً دائري الشكل وفي حالة جيدة للغاية، وفيه تُدْرَس الحبوب تحت أقدام ثيران غير مكمّمه، وفقاً لوصفة موسى[2] القديمة.

كما وجدّتُ في هذه القرية معصرة للسمسم، وهي عبارة عن مطحنة حجرية مخروطية الشكل، تتكون من رحا كبيرة محفورة وقاعدتها للأعلى، وبداخلها رحا أصغر منها تدور فيها بواسطة عارضة مربوطة إلى جمل، ويتم إدخال البذور من الأعلى ويخرج الزيت من فتحة في الطرف.

تلَى وجبة العشاء مع مضيفنا حديث طويل، حدَّثنا فيه عن الحروب التي تخوضها قريته، أمضيت ليلة باردة ألتحف السحب على سطح المنزل، لولا

---

(١) عليهما السّلام.

(٢) عليه السلام.

البراغيث التي أجبرتني على الاحتماء. هذه الحشرات المزعجة التي لا تتواجد في السهول المنخفضة، تتواجد بكثرة في المناطق المرتفعة والباردة، مما يضطر أهالي الجبال إلى النوم في أكياس قماشية ضيقة يغلقونها من فتحة عند الرأس بعد أن يتغطوا تماماً وهم بكامل ملابسهم وسلاحهم. وكنت أستغرب حين أسمعهم يواصلون حديثهم لساعات بعد أن اغلقوا على أنفسهم في أكياس النوم بهذا الشكل. لم يكن بمقدوري التنفس في مثل هذا القماش، وكنت أخشى في نفس الوقت أن أترك نفسي وجبةً للبراغيث، ومع هذا فضّلت أن أنام في الهواء الطلق أمام دهشة مضيفيّ من قدرتي على النوم ورأسي مكشوف في مقابل دهشتي من طريقة نومهم.

استأنفنا طريقنا في اليوم التالي، وبعد ساعتين من المشي في مناطق شبيهة بأوروبا من حيث زراعتها وغطائها النباتي. واصلنا صعودنا من غرب القمة باتجاه شرقها حتى وصلنا إلى قرية تدعى «أهل الكهف». وأُطلِق عليها هذا الاسم لوجود مسجد بُني وفقاً لما رواه القرآن عن المكان الذي نام فيه سبعةُ فتية ومعهم كلبهم، ويسميهم المسلمون بأهل الكهف، الذين فاقوا بعد أن ناموا في الكهف مدة طويلة جداً. ويزعم الأهالي أن مدخل الكهف يوجد أسفل الجبل بالقرب من مدينة تعز، وكان على الفتية عبورُ باطن الجبل بأكمله كي يتمكنوا من الخروج.

جلست على حافة بركة صغيرة مظللة بشجرة عرعر كبيرة، تقع في وسط سهل مغطى بالعشب، في حين ذهب رفاقي اليمنيون لأداء صلاة الفجر في المسجد. وأثناء مكوثي وحيداً، أقبل عليَّ أهل القرية مندهشين من وجودي ومن مظهري، وتجمّعوا حولي يسألونني من أكون ومن أين جئت وإلى أين سأذهب. لجأت إلى حجتي المعتادة بأني ذاهب إلى قمة الجبل للبحث عن النباتات الطبيّة. عندئذ قالوا بأنهم لن يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك ؛ لأنّ «حصن العروس» وهو الاسم الذي يطلقونه على القمة، مليء بالكنوز المدفونة، وبأني أتيت لا محالة لآخذها. وجدتُ نفسي غير قادر على إقناعهم بخلاف ظنّهم، وارتأيت عدم الجدوى من مجادلتهم أو الردِّ عليهم، فعكفت على حفظ النباتات التي جمعتها في طريقي في أوراق. وبينما هم يراقبون ما أعمل باستغراب، أخذ أحدهم مسدسي، وحاولت استعادته منه،

وظل ممسكاً به يتفحصه دون أن يُدرك طريقة استخدامه، فعملتُ على أن يطلق رصاصة بالقرب من وجهه، وقد أثار ذلك جلَبةً كبيرة لدرجة أنَّهم لم يتركوني وشأني، حتى وصل رفاقي الذين دخلوا معهم في نقاش حاد ليسمحوا لنا بالمرور إلى الحصن. لم أحاول التدخل، وأبديت لا مبالاتي بما يحصل، لكوني وصلت تقريباً إلى قمة جبل صبر، ولم أكن آمل الحصول على غطاء نباتي مختلف عمّا شاهدت. ولم يكن يدفعني سوى الفضول وإرضاء الذات بالوصول إلى حصن العروس الذي تُحكى حوله أساطير رائعة والذي لم يصل إليه أوروبي قبلي. بعد نقاش مستفيض، وبفضل لباقة عزي والرهبة من الشيخ حسن، اللتين أثَّرتا في رأي الأهالي، إضافة إلى إظهاري عدم المبالاة بكنوزهم، اقتنعوا بالسماح لنا شريطة أن يرافقني اثنان من الأهالي لمراقبة كل ما أقوم به، ولم أبدِ أي اعتراض حيال ذلك.

غادرنا قرية أهل الكهف تحت نظرات الأهالي القلقة والغاضبة، لدرجة أن أحد الأهالي كان صريحاً لحد قوله بأنه لولا وجود الشيخ حسن «بسباس الجبل»، كما كانوا يلقبونه، بالقرب منهم، لأراني بأن بندقيته قادرة أن تقتل مثل بندقيتي. الشكر لله بأنه لم يجرب ذلك.

واصلنا طريقنا، وغادرنا قرية أهل الكهف صعوداً قرابة الساعة والنصف، عَبْرَ غابات أشجار العرعر وبعض حقول القمح والشعير التي أصبحت تندر هنا، حتى وصلنا إلى درَج من الأحجار المنحوتة جيّداً والمرصوفة دون أسمنت والتي تؤدي إلى بوابة قصر العروس. عبرنا ما بين حوضين كبيرين مسمّتين بعناية، وما زالا في حالة جيدة، ووصلنا فوق بقايا الجدران المهدَّمة، وكم كانت سعادتي حينما اكتشفت البحر الأحمر من جهة الحديدة، والمحيط الهندي من جهة عدن، حتّى أنّه كان بإمكاننا رؤية بعض قمم السواحل الأفريقية من جهة الغرب من ناحية جبل حبشي. ومن حيث وقفت، كنت أرى جميع الجبال المحيطة على ارتفاع منخفض مني، ولاحَ على البعد جبل «ريمة» وجبال «سماره» ربما، وهي طاغية بارتفاعها ويمكن رؤيتها رغم بعد المسافة.

ليس بوسعي وصف هذا المشهد الرائع الذي لم أتمكن من الاستمتاع به سوى لبضع لحظات، بسبب موقف أهالي قرية أهل الكهف السيىء، الذين ظلوا

يلاحقونني ولم يسمحوا لي بالبقاء الوقت الكافي الذي أرغب فيه.

تناولنا الغداء سريعاً، وجمعت بعض عينات النباتات من بين أطلال الحصن، وتوجّهنا للنزول، وكان رفاقي مسرورين لهذا الاستعجال، وخاصةً معاونيّ المصريين الذين كانوا لا يأبهون لجمال المناظر، ولا يولون أيّ اهتمام لنتائج الأبحاث التي أقوم بها، ولم يجدوا أية متعة في وجودهم على مثل هذا الارتفاع.

لم أُمنح الوقت الكافي لتفحص أطلال هذا الحصن، ويصعب عليّ تحديد العصر الذي بني فيه بدقة، ولكن يبدو لي جلياً بأنه يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام. وينسب الأهالي بناءه للكفار أي الوثنين. وهذا الحصن مبني على الطرف الشرقي من قمة جبل صبر، ويطل على منحدر شديد مغطى بالأشجار، جدرانه غير المنتظمة والمترامية الأطراف سميكة جداً ومحصنة بأبراج. ويبدو ان أعلى مستوى من الحصن كان مخصصاً للسكن، حيث يتألف من عدة غرف مربعة ما زالت أسسها موجودة، بينما إحدى الغرف ما زالت مكتملة وفي موقع مهيمن على جميع الغرف. في الفناء المحاط بالجدران يوجد العديد من الآبار والتي لا يجرؤ الأهالي على النزول إليها لأنها تحتوي حسب اعتقادهم على كنوز تحرسها الجن، وربما أنّها تؤدي إلى غرف تحت الأرض كانت تستغل فيما مضى كمخازن. لم أشاهد أيّة نقوش، ولكني لم أفحص المكان بما فيه الكفاية لنفي وجودها. كانت الدرج التي توصل ببوابة الحصن، تتصل بطريق مُعبَّد باتجاه سهل تعز، ورأيت على الطريق أجزاءً منها ما زالت في حالة جيدة. عندما يمشي الأهالي على هذه الطريق لا يتورعون عن لعنة الكافر الذي شقّها، أسلوب غريب لمكافأة مَنْ قام بعمل مفيد.

وأيّا كان أصل هذا الحصن الأثري، والغاية التي بُنيَ من أجلها، فهو يشبه الحصون الأخرى في المناطق المحيطة، وقد مررت بإحداها، ويسميه الأهالي «ابن حصن العروس»، وهو يشبه أيضا الحصن الذي رآه نيبهور على قمة جبل كدره Chadra، كما يتشابه مع الحصون التي اكتشفها الإنجليز على الساحل الجنوبي من شرق شبه الجزيرة العربية كحصن الغراب Hosn-el-Ghorab وحصن نقب الحجر Nacab-el-Hadjar. وموقع حصن العروس ومساحته تجعلان منه معلَماً أثريّاً

رائعاً، وأشعر بأسف عميق لأن الظروف لم تمكّنني من تفحصه بدقة والبحث عن النقوش التي يمكن أن يحتوي عليها.

وفي حصن العروس لم أجد من النباتات سوى البعض من رتبة الشفويات[1] ،وهي من الأنواع الغريبة في أوروبا.

نزلنا من الحصن مسرعين، ولم نتوقف في قرية «أهل الكهف»، التي اقتنع أهلها على ما يبدو بأننا لم نحمل معنا الكنوز، وألحُّوا علينا أن نقضي الليلة لديهم، لكونهم قد حضّروا كل شيء للقيام بواجب الضيافة، وسيكون من المعيب في حقهم إذا رفضنا ضيافتهم. وبسبب غضبنا من سلوكهم تجاهنا ورغبةً منّا في معاقبتهم بهذا العار، إذا كان فعلاً معيباً في حقّهم، لم نخضع أمام إصرارهم، وذهبنا للمبيت في القرية التي قضينا فيها ليلتنا السابقة.

في صباح اليوم التالي حدث خلاف شديد بين مرافقي وأهالي القرية أثناء مناقشتهم الطريق التي علينا السير فيها، ووصل الحد إلى التهديد ومحاولة الطعن بالجنابي. وانتهى الشجار أخيراً دون وقوع أضرار بالغة بفضل نبرة عزي التصالحية، وتخلينا عن العودة عن طريق قرية «النبي شعيب» التي كنت قد وجدتُ فيها بعض النباتات التي لم أجد مثلها على الطريق الأقصر والخطير جداً الذي فرض علينا السير فيه. وعوضاً عن النزول التدريجي من على قمة الجبل، نزلنا مباشرةً عبر طريق منحدر إلى قرية حجف، ووصلنا عند الظهر. كنت أرغب في قضاء ليلة في قرية كبيرة مطلة على سهل تعز، وكان فيها كما يقال سبعة مساجد، ولكنّ النساء اللاتي كُنّ يحملنَ أمتعتي على رؤوسهن رفضن تغيير وجهة الطريق، هذا الرفض الذي كان شرارة لاندلاع الشجار، دفعني للتخلي عن الفكرة.

بقيت لبضع ساعات فقط في قرية «حجف» وقمت بجمع عينة من آخر النباتات التي وجدتها، وكدت أسقط عندما وضعت قدمي على صخرة مهترئة، سقطت الصخرة إلى الوادي ووقعتُ على مؤخرتي وجُرحت ساقيّ، وكان شمسان بجانبي، وبدلاً من الأخذ بيدي تجنباً للسقوط الذي أنقذتني بعض الأحراش منه،

---

(١) من اشهر نباتات هذه الفصيلة (النعناع والزعتر والمردكوش).

ظلَّ يُردد: «واساتر، واساتر».

وصلتُ إلى قرية جنّات سعيداً بالعودة سالماً من مهمتي إلى قمة جبل صبر التي تعذّر على فورسكال الصعود إليها، وسعيداً بالكميّات الهائلة من النباتات التي جمعتها.

في اليوم التالي لعودتي إلى قرية جنَات، أرسل الشيخ أحمد شيخ «حجف» برجاله إلى القرى التي تخضع له، ومن بينها قرية «جنّات»، لجمع الإتاوات. حدث ذلك مع كثير من التهجم وعمليات نهب محدودة، قابلها الأهالي بالشتائم، خاصةً من قبل النساء؛ لأنّهنّ آمنات من العقاب، فقد أظهرن غضبهن وقنوطهن من خلال الشتائم والندب الحاد المعروف عند النساء العربيّات، والذي مع فارق طفيف يترجم مشاعر الحزن أو الفرح. استغلّ مضيفي شمسان إقامتي في منزله، وطلب وساطتي بإعطائي إيصالاً بالإتاوات التي دفعها كي أسلّمه بنفسي للشيخ حسن كي يوقّع عليه. وهو ما قمت به بكل سرور، مكافأةً له على خدماته لي، وبالفعل وقّع الشيخ حسن على الإيصال بعد أن سألني إذا ما كنت راضياً عن تعامل شمسان معي.

وبعد بضعة أيام انضمّ الشيخ قاسم إلى والده الشيخ حسن، وجاء برفقة خمسمائة أو ستمائة مقاتل لدعم وتعزيز موقف والده أمام إمام تعز ومختلف القادة الذين انضموا إليه.

نزلت إلى الوادي كي أشاهد وصول هذه الفرقة وشيخها الشاب الذي ذهب إلى تعز للسلام على الإمام قبل أن يأتي إلى والده. جاء على ظهر خيله يتقدمه كالعادة من يحمل رمحاً كعلامة مميزة للوجاهة، وسار رجاله خلفه في صفوف من ثلاثة أفراد تتقدمهم فرقة الطبول، كانوا يسيرون وهم ينشدون زاملاً -حزيناً بالنسبة لي- لمدح زعيمهم. وكانوا يحملون الأشياء التي نهبوها في طريقهم: دجاج، وأغنام وأكياس قمح وحزم موز وما إلى ذلك. وصَلتْ بعدهم جمال محمّلة بأواني للطبخ، تسير معها أبقار منهوبة أيضاً على ما يبدو. والمشهد بمجمله بتقاسيم الجنود القاسية وبملابسهم الرثّة ورماحهم وبنادقهم القديمة، يشبه إلى حد ما مسيرة

عصابة من البوهيميين التي رسمها كالو Callot.

الجنود لا يدخلون المدينة، وما إن يصلوا إلى بوابتها حتى يطلقوا أعيرة نارية من بنادقهم وينتظرون هناك، ودخل الشيخ قاسم للسلام على الإمام، ومن ثم جاء إلى والده، وكان من دواعي سروري أن أراه جاثماً على ركبتيه وجالساً على عقبيه أمام والده، يتقمص مظاهر الجدية والتعقل والحكمة بما يتناقض مع ما عهدته منه من سلوك مشين. كدت أنفجر من الضحك لمشاهدة هذا المنظر، لولا نظراته المتوسلة لي. لم يعد لي أي تواصل معه، بعد آخر إزعاج سببّه لي وإلحاحه في طلب الخاتم.

أحضر الشيخ قاسم معه رجلين كنت قد تعرفت عليهما في قرية Cahim ولم أتحدث عنهما، ولكنهما شخصيتان تستحقان التعريف بسبب سماتهما ووظيفتيهما اللتين تضيفان مزيداً إلى الصورة عن هذا البلد. أحدهما يدعى الشيخ حسين، وهو شيخ إحدى القرى المجاورة لقرية Cahim، وما زال في ريعان شبابه، وهيئته جميلة توحي بالنبل، وقسمات وجهه نموذج للوسامة الذكورية. كان لا يرتدي سوى قطعة قماش يلفها على جزئه السفلي، ويتحزّم بحزام جلدي عليه جنبية بغمدها المزين بحلي مصنوعة بطريقة فنيّة، وكانت هدية من الشيخ حسن له، حيث كان الذراع القمعيّة للشيخ. فقد خبر الشيخ حسن شجاعته وتفانيه، بتكليفه بتنفيذ أعمال انتقامية ومشينة لغرضٍ في نفس الشيخ، ويقال إن حسين قد قام بعدة أعمال من هذا النوع. ورغم ذلك كان حسن العشرة وجذّاباً ومرحاً.

النقيب علي هو الشخص الآخر، وكان مقرَّباً من الشيخ حسن، وقائداً للميليشيا التي تدعى مليشيا القبائل، وهي جمعٌ لكلمة قبيلة، وتُستخدم لوصف الأشخاص المنحدرين من القبيلة (قبيلي- قبائل) أي فلّاح. وكان النقيب عليّ رجلاً حازماً ومتديناً، وكان الشيخ قاسم يهابه ولا يتجرأ على ارتكاب المنكرات أمامه، ويحاول التّخفّي والحفاظ على توازنه بطريقة مثيرة للضحك عندما يتفاجأ بمجيء النقيب عليّ. وعلى الرغم من أنه كان يعمل لحساب الشيخ حسن ويرعى مصالحه، إلا أن النقيب عليّ بذاته كان شخصيةً لها اعتبارها وتأثيرها على الأهالي، وكان يمتلك حصناً صغيراً على قمة السلسلة الجبلية الشرقية لوادي حيدان، ويقال

إنّ موقعه محصّن مثل حصن مؤيمرة.

وكان النقيب عليّ الوحيد من بين جميع الأهالي الذي كان له تحفظ على الأوروبيين، ورغم ذلك واحتراماً للشيخ حسن كان يتعامل معي باحترام، ويتحاشى دوماً الالتقاء بي، وبدوري لم أتمكّن من هضم وجهه المكفهر، على عكس أهل بلاده الاجتماعيين البشوشين.

استمرت المفاوضات بين الشيخ حسن والإمام بفاعلية، لكن لم يتم التوافق كليّا على الشروط، وحصل وأن أُبرمتْ العديد من الاتفاقيات وعُمِّدتْ بأداء اليمين أمام تجمهر كبير في الجامع المتهدّم والذي يقع خارج المدينة حيث يؤدي الإمام صلاة الجمعة، وتمّ التراجع عنها كلّما برزت صعوبات جديدة.

تعبَ الشيخ حسن من المطالب التي لا تنتهي ومن الحياة المضنية في وادي صينة، ومن البعد عن أهله، ومن الزيارات المزعجة التي لا تنقطع ليل نهار مِنْ قِبَل الوجاهات، لدرجة أنه وخلال الأربعين يوماً التي قضاها في وادي صينة لم يكن بمقدوره النوم أكثر من ساعتين في اليوم، فعقد العزم على مغادرة تعز والذهاب إلى قرية Cahim، كإشارة إلى عدم الرضا، خاصةً وأنه يدرك حاجتهم لتعاونه، مما سيمكنه من التفاوض من منطلق أقوى وبوضع مريح. وأبلغني سرّاً بأن أستعدّ للسفر. وبالفعل، تم إيقاظي من النوم بعد وقتٍ قصير؛ لإبلاغي بأن الشيخ رحل فجأة مع جميع قواته، ولم يتبق في معسكره غير عدد قليل من النهّابين الذين كانوا يعتقدون بأن الشيخ يخفي أمواله في صناديقي، وجاءوا إلى قرية «جنّات» وزعموا بأنهم أحضروا جمالاً تنتظرنا في الأسفل لنقل أغراضي.

ما إن علمَ الأهالي برحيل الشيخ حسن، حتّى استعدوا بأسلحتهم وسط الظلام لمواجهة عصابات النّهب هذه التي كانوا يُدركون إمكان استغلالها للوضع. ومع بزوغ الفجر، كانت فتيل بنادقهم المتّقدة التي تحركها الرياح تلوح من جميع الأسطح في جميع القرى المحيطة استعداداً لصد أي هجوم.

رد شمسان وعزي على هؤلاء الجنود بأنّهم لا يثقون بهم، وبأنّي في ضيافتهم وتحت مسؤوليتهم وحمايتهم، ولن يسمحوا لي بالذهاب إلا بأمر صريح من الشيخ

يؤكد أن عرضهم هذا ليس خدعة. اعتقدت أنّه حذر مبالغ فيه، ولكنّني علمت لاحقاً من الشيخ بأنّ نصيحتهم كانت في محلّها لإبقائي في القرية رغم إلحاح الجنود وتهديدهم باستخدام العنف لإجباري على النزول معهم. وفي نهاية الأمر، تراجع هؤلاء اللصوص عندما شاهدوا استعداد الأهالي للمقاومة، وتوافد رجال مسلحون من قرى أخرى عندما سمعوا صراخ النساء كما جرى العرف لصد أيّ عدوان. تراجعوا بعد هذا المشهد البطولي الرّائع، وتركونا لشأننا، ولكن قلقي لم يتلاشَ تماماً، ليس خوفاً على سلامتي الشخصية من قبل أهالي الجبل الذين يعرفونني جميعاً، وإنما على ثمرة جهدي وتعبي وما جمعتُه من نباتات. فيمكن لأعداء الشيخ حسن أو جماعة من قواته مهاجمة القرية في أية لحظة إذا ما شكُّوا بأن أغراضي تخفي أشياء قيّمة، سأتمكن من خلاص نفسي بالهروب إلى قرية «حجف» حيث سأكون في مأمن، لكن سيكون من المستحيل عليّ حمل صناديقي الثقيلة.

تفكير سلبي جعلني أقضي بقيّة اليوم في قلق مستمر، يختلف عما سبقه من أيام هانئة وهادئة. لحسن الحظ بأن الشيخ حسن لم ينسني في زحمة أشغاله، مؤكداً لي الحقيقة التي رواها لي العزي بأنه لا يتخلى عن شخصٍ تحت حمايته. ورأينا بعد الظهر بعض الجنود يتجهون نحو القرية وقد استعدّ الأهالي لصدهم بالسلاح، حينما رأى العزي رجلين من بينهم من مرافقي الشيخ، جاءَا بصحبة الجنود للبقاء معي حتى أجد جِمالاً تنقل أمتعتي. ومع انتشار الإشاعات على نطاق واسع في مختلف المناطق المحيطة، شعر الأهالي بخطر المغامرة، ورفضوا أنْ يؤجروا لنا دواباً لنقل الأغراض، واستطعنا استجلاب بعضها من منطقة بعيدة جداً بعد ثلاثة أيام من البحث، وغادرنا قرية جنّات بكثير من الأسف.

وللعودة إلى قرية Cahim التي انسحب إليها الشيخ حسن، رجعنا من نفس الطريق الذي أتينا منه، فعبرنا سهل تعز، وقابلنا فيه بعض المجاميع المسلّحة التي كانت دون شك تنتظر مروري، ولولا الحراسة المرافقة وخشيتهم من انتقام الشيخ حسن لَما نجوت مِن هجماتهم. تجاوزناهم وسمعنا بعض الشتائم، وإطلاق بعض الأعيرة لمحاولة إخافتنا.

شاهدنا، في كل القرى التي مررنا بها، الأهالي بأسلحتهم على أسطح المنازل لحماية قراهم؛ لأن مغادرة الشيخ المفاجئة وعدم اليقين من سير الأحداث جعل الجميعَ في حالة توجّس. توقفنا في قرية كبيرة لقضاء الليل، وبعد عناء حصلنا على مكان للنوم، حيث رفض الأهالي استقبالي في منازلهم لتخوفهم من الحراسة المرافقة لي التي كان منظرها لا يوحي بالثقة. ولم يصدِّقوا بأني سأدفع مقابل أي شيء يقدمونه رغم الجنود المرافقين. وأخيراً، وصلنا في اليوم التالي إلى قرية Cahim، وشعرت بالأمان بالقرب من الشيخ حسن الذي أضحكته قصة مخاوفي على الأعشاب.

قضيتُ بضعة أيام في قرية Cahim، وداومت على حضور كافة الاجتماعات التي عقدها الشيخ مع مبعوثي إمام تعز، الذي وكما توقع الشيخ حسن كان يخطب ودّه ويدعوه للعودة، ولم يرغب الشيخ في العودة، واشترط أن يُرسل القادة الآخرون رهائن لإثبات حسن النية والمصداقية في تنفيذ الاتفاقيات. حصل في النهاية على ما يريد، حيث علمتُ بعد مغادرتي بوصول الرهائن التي أرسلها بحسب العرف لاحتجازها مقيّدة في حصن مؤيمرة.

في قرية Cahim وجدتُ غرفتي السابقة وقد سكنتها حريم الشيخ الذي عجّل في إحضارهن، وسكنتُ في حجرة صغيرة إلى جانب غرفة حسين، وبسبب ذلك لم أذق طعم الراحة لحظة واحدة، ولم أتمكن من الخروج بسبب الجنود المعسكرين حول المنطقة. وكانت تنشب خلافات يومية بينهم وبين الأهالي الذين تصدّوا لهم لمنعهم من النهب، بعد أن استحوذوا على كل ما طالته أيديهم من محصول هذا الموسم في الجبال.

عقدت العزم على الذهاب إلى المخا في انتظار الربيع، ولم يَسمح لي الشيخ حسن بسلوك الطريق المباشر إلى هناك لتعذّر توفير الحماية لي، واضطررت للعودة إلى حيس كي أظل في الأراضي التي تخضع لنفوذه. وبعد توجيه الشكر له على حمايته لي وحسن ضيافته وكرمه، أهديته مسدساً ذا مكبس لمست رغبته في اقتنائه، واستأذنته في مغادرة قرية Cahim.

ولنقل اغراضي اضطررت لاستئجار جمال تعود ملكيتها لجنود، ورغم أنها كانت على نفقةِ الشيخ حسن إلا أنهم أظهروا تشدداً لا يوحي بانصياعهم والتزامهم بالأوامر، وانطلقنا في سفرنا بعد جهد جهيد بذلناه في التفاوض على الأجرة.

عبرنا عدة وديان وجبال قبل أن نصل إلى «وادي حيدان» الذي تظلله في أماكن عدة أشجار جميلة، وهو مزروع بأكمله تقريباً، ويُسقى بعناية. سرنا من عند سفح الجبل الذي تقع على قمته قرية وحصن النقيب عليّ. وبعد مسافة قصيرة أروني أنقاضاً يخشاها الشيخ حسن ويتجنب المرور من عندها لإيمانه بأن مروره من هذا المكان سيفقده سعادته وسلطته.

وصلنا بعد غروب الشمس إلى قرية تسمى عود Oude بعد أن أعيانا التعب والجوع عقب مسيرة نهار كامل دون أكل. حيث غاب عن ذهن معاونيّ المصريين تحضير زادٍ للطريق. وكانت وجبة العشاء في هذه القرية كسرة من خبز ذرة الهند، ولم نجد فيها شيئاً غير ذلك. غادرنا في اليوم التالي، وكنت سعيداً بدخول تهامة والخروج من هذه الأماكن، حيث يثير تواجد الجنود المرافقين بعض المخاوف لدى الأهالي. أصرّ هؤلاء الجنود الجشعون على إنزالنا من الجِمال في قرية «حمرة» Hamara، وطالبوا بأجرة إضافية رغم أننا كنّا سددنا الأجرة حتى «حيس»، وأمام رفضنا لمطلبهم ومساندة الأهالي لنا، أنزلوا الحمولة من على الجمال وعادوا أدراجهم.

بقيتُ بضعة ساعات في هذه القرية بانتظار سكون عاصفة شديدة، وإيجاد جمال تحمل أغراضي، وأمام عجزي عن الحصول على جِمَال، قرّرت مواصلة السير إلى حيس وترك أغراضي في هذه القرية الآمنة. وصلت مدينة «حيس» آخر النَّهار في آخر يوم من شهر ديسمبر، ونزلت في نفس المنزل الذي خُصِّصَ لي في السابق، وشعر معاونيّ المصريون بسعادة بالغة بوصولهم إلى منطقة سهلية بعد قضاء ثلاثة أشهر من السير الشاق.

لا يسعني في نهاية رواية رحلتي هذه إلى جبال اليمن إلا أن أعرب عن امتناني للشيخ حسن وحمايته الصادقة لي، والتي هيأت لي الظروف لإتمام أبحاثي. وقد

تحمّل راغباً جميع تكاليف معيشتي، وأجرة نقل كبيرة لأمتعتي الثقيلة من يوم وصولي إلى مدينة حيس وحتى عودتي إلى المخا. وعندما أجبرته الظروف على مغادرة جبل صبر فجأة وتركني هناك، لم يدّخر جهداً لتأمين سلامتي التي كانت معرضة نوعاً ما للخطر، وعندما أرسل رجاله لمساعدتي على اللحاق به، علمت أنّه كافأهم بمبلغ أربعمائة ثالاري (تالر- ريال ماري تريزا)، مقابل أتعاب لهم. وقد أسفتُ كثيراً لأنّ نصائحي لم تجد طريقها إليه، حينما حذرته من غدر الأتراك، فقد علمتُ بعد مغادرتي لليمن بأن إبراهيم باشا قلب له ظهر المجنّ بعد أن ساعده على السيطرة على تعز، وقام بمحاربته خوفاً من نفوذه الواسع في البلاد، وانتهى باغتياله بطريقة جبانة أثناء لقاءٍ اقترحه عليه.

ومن خلال روايتي هذه يجد المطلّع بأني توغلت بعيداً في الجبال وذهبت للبحث في أماكن لم يبلغها أحد من قبلي.

أمّا بالنسبة لفورسكال ورفاقه فقد ساروا في وسط الوادي على الطريق المؤدي إلى تعز، في حين أنّني لبلوغ «جبل صبر» سرتُ في السلسلة الجبلية المحيطة ووقفت على قممها الهامة. إضافةً إلى أنّني حظيت بميزة الإقامة في جبل صبر لفترة طويلة، وهو يُعدّ من أعلى جبال اليمن. كما ينبغي التنويه إلى أنّني قمتُ برحلتي في زمن مختلف عن زمن رحلة العالم الدنماركي الشهير، وهذا يعني أنّني جمعتُ نباتات كثيرة مختلفة عمّا جمع؛ مما يغذي الأمل بأننا أصبحنا نمتلك عيّنة كاملة تقريباً من الغطاء النباتي في اليمن.

عند عودتي إلى حيس، بعثت برسول إلى الحديدة لأخذ مال من الشيخ أبو بكر قحطان، الذي وضعتُ نقودي عنده، لكوني استنفذت المبالغ التي كانت بحوزتي. وفي انتظار عودته وجدت نفسي مضطراً لاقتراض مبلغ صغير من الشيخ عليّ نجل الشيخ حسن، الذي حل محل والده لإدارة شؤون مدينة حيس خلال فترة غيابه. وقد أقرضني المبلغ دون تردد، وفوق هذا، فإنّه ما إن علم بأني تركت امتعتي في قرية حمرة حتى أمر بتجهيز بعض الجمال وأرسل في إحضارها. كان الشيخ علي شاباً ذا بشرة سوداء تقريباً، وكان الأهالي لا يحبونه بسبب قسوته، أمّا بالنسبة لي فلم أجد منه سوى جُلّ الكرَم، فعندما وصلني المال الذي أرسلت من أجله،

وأردت أن أعيد له المبلغ الذي استدنته منه، رفض واعتبر ذلك إهانة لـه، وأكـد لي بأن في ذلك تسويدًا لوجهه (تعبير فريد يصدر من مثله وهـو ذو البشـرة السـوداء)، وبأن المال مال والده الذي لم يسبق له أن استردَّ ما أعطاه. واضطررت احتراماً لـه وحفاظاً على عزة نفسي أن أوزع المبلغ بين رجاله.

كان ما يزال عليَّ ردَّ الجميل لاثنين من رفاقي ؛ مُضيفي شمسان الذي أصرَّ على مرافقتي إلى حيس، حيث تأثر بسبب تغير الجو وأصيب بحمـى وبغربـة ومـرض، وقد أبقيته عدة أيام بانتظار المال الذي بعثت لجلبه، كان يبكي بمرارة عندما يفكـر بأولاده وقريته ويلوم نفسه على مغادرته لهم. عملت على التعجيل في عودته بلباس جديد كامل، ومعه بعض الأقمشة لبناتـه، وشـيء مـن المـال يُعينـهُ عـلى الطريـق ويساعده على الشفاء. أما بالنسبة لعزي الذي كانت صحبته شيقة وفي غاية الفائدة، فقد كافأه الشيخ حسن على خدماته بتعيينه نقيباً عـلى إحـدى القـرى، ومنحتُـه مـن عندي ما يعادل المائة والخمسين فرنكاً، وكان بها سعيداً وفي غاية الامتنان.

لم يعد لديَّ مَا أعمله في مدينة حـيس، وكنـت جـاهزاً للسـفر إلى المخـا حيـث أرسلت امتعتي على نفقة الشيخ حسـن، وقبـل أن أغـادر إليهـا، ذهبـتُ مـع عـزي لقضاء يوم في مزرعة نخيل يمتلكها على مقربة من شاطئ البحر وعـلى بعـد بضـعة ساعات من حيس. وللوصول إليها كان علينا عبور سهل رملي قاحـل، ولم نجـد في طريقنا سوى مقهى بائس على طريق زبيد والمخا. وبعد خمس ساعات من المشـي المضنى، حيث بدأت أشعر بأعراض الحمى، وصلنا إلى مزرعة كبيرة تابعة لعـزي تقع في منطقة رملية بالقرب من البحر في منطقـة تسـمى الخندقـة Ghandja، ومـن المرجح بأن المياه الجارية من حيس والتي كانت تضـيع في الرمـال تظهـر عنـدما تصبح على مستوى سطح البحر، حيث يكفي هنـا أن نحفـر عمـق قـدم أو قـدمين وعلى بعد خطوات قليلة من الشاطئ حتى نحصل على ميـاه عذبـه حتـى في أمـاكن يبلغها المد البحري.

إضافة إلى الذّوق العام عند العرب، ومكونات عـزي الشخصـية، الـذي كـان لديه حُبٌّ للبستنة، وكان يهتم بمزرعته التي كنّا نلمس فيها عناية الإنجليـز تقريبـاً، وكان يجرّب زراعة كل النباتات التي يمكنه الحصول عليها. ولتنويـع النباتـات في

مزرعته كان يحرص أثناء رحلتنا على جمع بذور الأشجار التي لفتت نظره، ولن تثمر محاولاته في الأرجح، لاختلاف البيئة.

ومن بين أشجاره النادرة، اراني شجرة جوز الهند، وهي الوحيدة التي شاهدتها خلال رحلتي إلى اليمن، على الرغم من أن طبيعة السهول مواتية لزراعة هذا النوع من الأشجار الثمينة.

وإضافة إلى فرادة هذه المزرعة في بلد مثل اليمن، والتي تتخللها أكواخ جميلة من مختلف الأشكال بنيت بطريقة بسيطة من جذوع الأشجار وأغصان النخيل، والمنظر بمجمله يعطي انطباعا للوهلة الأولى بأننا أمام حديقة باريسية، كانت المزرعة محاطة بمساحات شاسعة، يملكها عزّي، زُرع فيها ما يقارب الثلاثة آلاف نخلة. كان عزي يحرص على دعوة أصدقائه من حيس وكثير من أهالي «الخندقة» لقضاء بعض الوقت في مزرعته أثناء موسم البلح. وكان زوّاره ينامون في الأكواخ أو العشش التي في المزرعة أو في عشش قرب المزرعة، ولم يكن بها أحد عندما زرتها، وكانوا يعيشون على محصول النخيل، الذي لم يكن يبيعه عزي كسمة من كرم العرب إضافةً إلى طيب نفسه. وقد لاحظت هنا بأن النخيل ينمو بكثافة في أراض مالحة. ونجد منها الكثير على طريق المخا، وتعطي محصولاً وفيراً للغاية وهي مزروعة على أرض مغطاة بقشرة من الملح المخصص لاستعمال الأهالي.

وقد علمتُ من عزّي أيضاً أن الرّياح تناسب زراعة النخيل، وكلما كانت الرياح عاتية ومستمرة، كلما كان المحصول أطيب وأوفر. كما تحققتُ من الحقيقة التي لاحظها فورسكال عن نوع النّمل الذي يهاجم النخيل في اليمن ويهلكها إذا لم يتم تلافي ذلك سنوياً بإحضار جذع شجرة تنمو في المناطق الجبلية لا أعرف اسمها، وتعلّق فوق النخيل ؛ لكونها تحتوي على نوع آخر من النمل له قدرة على القضاء على النمل الذي يُهاجم النخيل.

كان عزّي سعيداً جداً وهو يعرض حديقته لأول أوروبي وتنال إعجابه، وقد حاول معاملتي بأقصى ما يستطيع من لطف رغم الحمّى التي داهمته، والتي بدأت أيضاً بمداهمتي ومداهمة اثنين من معاونيّ. حالنا هذا كما كان حال شمسان يُظهر

إلى أي مدى يمكن أنْ يكون الجو الساحلي خطراً بعد الإقامة في أجواء الجبال النقية. كانَ مرض عزّي مناسبةً لإعطائي الدليل على تمسكّه القوي بأداء شعائر دينه، وفوجئت بذلك ؛ لأنّه كان في فسحة من أمره. حيث كنا في شهر رمضان ونسي لسوء الحظ أن يشرب قبل الفجر ليصوم بقية اليوم. وقد سببت له الحُمّى ومنذ الصباح الباكر عطشاً لا يُحتمل، ولكنه رفض أن يستسلم حتى غربت الشمس. في حين أنَّ القرآن قد أعفى المريض والمسافر من الصّوم، لكنّه لم يكن يعتقد بأنّه مسافر أو مريض لدرجة تسمح له بالإفطار. كما لاحظت أنّه كان يمتنع خلال شهر رمضان عن وضع الكحل على جفنيه، لأنَّ جزءاً صغيراً جداً من هذا المسحوق الأسود ينزل إلى الخشم عبر قنوات الدموع ويمكن أن يبتلعه مع اللعاب فيجرح صومه. ربما كان في ذلك نوعٌ من التّزمّت، رغم أنّني لم ألمس منه خلال الثلاثة الأشهر التي قضيناها معاً أي أثر للتعصب، ولم يسألني مطلقاً عن ديانتي، ولم أسمعه يزدري معتقدات الآخرين على الإطلاق. وهذا التسامح لم يكن صفة خاصة به، بل كان سمةً مشتركة بين جميع أبناء جلدته.

بعد أن قضيت الليلة تحت أشجار النخيل، غادرت الخندقة El-Ghandja في الصباح الباكر، ووصلت حوالي الساعة العاشرة إلى قرية موشياء Moushié التي مر بها نيبهور وأسماها Moushid، ولا أدري لِمَ سمّاها هكذا رغم أن اسمها ينتهي بحرف الهمزة وليس بحرف الدال. وهي قرية كبيرة، ويوجد فيها مسجد وبعض المنازل البيضاء المطلية بالنّورة، بالإضافة إلى عدد كبير من العشش المبنية من فروع الأشجار والقش، على الرغم من عدم وجود مرفأ بها، وذلك ليس بمستغرب لكونها تقع على ساحل رملي، ومن المحتمل وجود مرفأ فيها كان يستخدمه القدماء فيما مضى لنقل البضائع عن طريق البر من قنا Cana، بالقرب من عدن، لتحاشي الخطورة الناجمة عن عبور المراكب للمضيق، ومن ثم يعاد تحميلها مرة أخرى لمواصلة الرحلة إلى الأجزاء الشمالية من البحر الأحمر. حيث نجد في المناطق المحيطة الكثير من الكثبان الرمليّة المغطاة بنباتات الشاطئ، وهذا مؤشر في المشرق على أنها كانت مواقع لمبانٍ قديمة.

وقد صادفنا في قرية موشياء Moushié كتيبة تابعة للقوات النظامية لباشا مصر

متوجهة إلى «أبو عريش»، وقد كان ذلك من دواعي السرور لمعاونيَّ المصريين، عندما وجدوا أخيراً افراداً من أبناء بلدهم، ولا أنكر بأنّني شعرت بغبطة كبيرة لرؤيتهم، فمنذ وقت طويل، تُعدُّ مصرَ بالنسبة لي كوطن ثان.

لم أبقَ في هذه المنطقة سوى بضعة ساعات قضيتها في تفحّص ضبعٍ، تمّ جلبه لي إلى مدينة حيس قُبيل مغادرتي، وقد طلبت قتله وارساله قبلي. وهذه الحيوانات شائعة جداً في اليمن، ويصطادها اليمنيون من خلال عمل حفرة وتغطيتها ووضع حيوان ميت عليها، وحين يقع الضبع بالفخ ويسقط في الحفرة يقتلونه بضربة رمح، وإن أرادوه حيّا هجموا عليه مسلحين بشوكة متشعبة يغرزونها في رقبته ويثبّتونه على الأرض، بينما يضع أحدهم عصا في فمه ويربطونها إلى خلف رأسه. وبهذه الطريقة جلبوا لي ضبعاً كلفني ما يعادل الخمسة فرنكات.

كنت أرغب في أن أهدي شيئاً للرجل الطيب الذي استضافني في منزله خلال الساعات القليلة التي قضيتها في موشياء Moushié، وقد أعطيته بناءً على مشورة عزّي حزمة قات كانت بحوزتي، شكرني وقبّل يديّ وركبتيّ كما لو كنت فتحت له أبواب الجنّة. ويعتبر القات سلعة نادرة في هذه المنطقة بسبب بعدها عن الطرق التي يرتادها المسافرون.

كانت لحظات صعبة حينما ودَّعتُ عزّي آسفاً، والذي عاد إلى مدينة حيس وواصلتُ المسير على الطريق الساحلي في السهول الرملية والمالحة التي يسميها اليمنيون «خبت» Khabt، وهو طريق مملّ للغاية ولا يسرّ الناظر. أجبرني التعب والحمّى على التوقف للحظات في مقهى كانت عبارة عن حفرة في الأرض مغطاة بالقش، وبعد غروب الشمس وصلتُ إلى قرية قضيتُ فيها الليلة، وفيها عانيت من ارتفاع الحرارة بسبب الحمّى. وفي اليوم التالي وبعد سيرٍ دام ست ساعات وكأنها دهر من المعاناة، وصلتُ المخا وأنا مشرفٌ على الموت.

فقدت مدينة المخا في الوقت الراهن أهميتها القديمة بسبب الحروب الأهلية التي مزقت اليمن وأدت إلى المآسي في كل مكان، زد على ذلك احتكار باشا مصر لتصدير البُن، الذي أدى إلى تجفيف مصادر ازدهارها، وأثر ذلك على استيراد

البضائع الأجنبية وتصدير المنتجات المحلّية. ومع ذلك، ورغم المنافسة الشديدة لميناء الحديدة، ما زالت المخا تمثل مركزاً تجارياً هامّاً، ومستودَعاً رئيسياً للبُن والبضائع القادمة من الهند وأفريقيا، والتي يتم تصريفها في اليمن وفي الدول المجاورة. لا يمكنني الاستفاضة في وصف هذه المدينة، فلم أعرف فيها سوى هواءً غير صحي وماءً لا يستساغ. وربما نجم ذلك عن محيطها المالح وكثرة المستنقعات. وقد غادرتها بعد ثلاثة أشهر من المرض إلى الحديدة بغية استعادة صحتي هناك حيث يكون المناخ أقل حدّة.

انطباعاته عن الأرض والإنسان:

كرّس الرّحالة بوتا القسم الأخير من تقريره عن الرحلة للتعبير عن انطباعاته العامة عن اليمن أرضًا وإنساناً، وعن الطبيعة الجغرافية لتهامة والبحر الأحمر، وتحدّث عن الجبال والمناخ والناس واللغة والفرق بين اليمنيين وغيرهم من العرب. وفيما يلي خلاصة ما كتبه:

« نجد في اليمن كما في غيرها من الدول العربية الساحلية أراضي منبسطة ومنخفضة جداً تقع ما بين سلسلة الجبال والبحر، قد تتسع أو تضيق كما هو الحال في الأراضي الممتدة بين القنفذة واللحيّة. هذه الأراضي المنبسطة تسمى عادةً «تهامة»، وتُدعى الأجزاء المالحة والجرداء منها «خبت». وتتشكل القشرة الأرضية من أراض رملية تتخللها هضاب كلسيّة من صخور حديثة التكوين ومرتفعة إلى حدّ ما، حيث نجد فيها الكثير من الحفريات لأجسام تشبه كثيراً ما نصادفه في البحر الأحمر في الوقت الحاضر.

وإذا كانت تهامة غير آهلة بالسكان مقارنةً بالمناطق الجبليّة، فإنّها تضم العديد من المدن الهامة مثل أبو عريش وبيت الفقيه وزبيد، ناهيك عن المدن الساحليّة. وبين هذه المدن، تنتشر بعض القرى الصغيرة في الغالب، وتتألف عادة من عشش مغطاة بالقش، ويعمل معظم السّكان بالزراعة، فالأرض خصبة جداً ومعطاء في معظم الأماكن، وتنتج النيلي والقمح والذرة وقصب السكر، ... الخ. وفي المقابل، توجد بعض الأجزاء القاحلة والجرداء، ليس في المناطق المالحة والمحيطة

بالمخا والقريبة من البحر فحسب، بل في أماكن متفرقة حيث ينعدم الماء، وتندر الأمطار الكافية لريّ الأرض. ولا تنمو هنا سوى النباتات الصحراوية والنخيل. في هذه المناطق لا نجد سوى بعض البدو الذين لا يحتملون حياة الجبال.

لا توجد أنهار في تهامة، وجميع السيول التي تنحدر من الجبال تختفي في الرمال قبل وصولها إلى البحر، إلا إذا كانت نتاج أمطار غزيرة جداً، وهذا ينطبق حتى على وادي زبيد الذي يُروى بجدول كبير جداً، والذي يجف بدوره في موسم الجفاف.

ويتميّز البحر الأحمر الذي يغمر شواطئ اليمن بميزات مختلفة عن تلك الموجودة في أجزائه الشمالية حيث تكثر الشعاب المرجانيّة، وتندر بدءاً من جدة، وتحل محلها صخور رسوبية، بعضها مغطاة بالأشجار ومأهولة بالسكان كما هو الحال في جزيرة كمران الواقعة شمال الحديدة، حيث يتوفر فيها الماء العذب. ولهذا السبب طمعت الحكومة البريطانية في وضع اليد على هذه الجزيرة وسعت لتأسيس مستودع للفحم، وقد فشل المشروع نتيجة الأحداث المعروفة.

وبعض هذه الجزر ذات طبيعة مختلفة وبُركانية، ومنها جُزر «جبل الطير»، المواجهة للحيّة، وبها بركان كان نشطاً إلى عهد قريب، حيث يتم استغلال الكبريت لحساب باشا مصر. وينطبق الحال على جزيرة «بريم» الواقعة عند مدخل باب المندب، وجميع الجزر المماثلة في هذا الجزء التي تشكل نتوءات جبلية في البحر.

توجد، على طول الشريط الساحلي في شرق تهامة، سلسلة من الجبال متوسطّة الإرتفاع، ذات أشكال غير منتظمة ومناظر خلّابة، تقع ما بين السّهول والجبال الشاهقة، ويُطلق عليها عادة إسم «نجد». تمتدّ هذه السلسلة الجبلية إلى داخل العمق اليمني، على هيئة كتلة عشوائية تتخللها وديان عميقة جداً ومنحدرات حادة، وتُروى من سواقٍ دائمة الجريان.

لم أتمكن من قياس قمم الجبال التي صعدتها والتي رأيتها؛ لعدم وجود آلات قياس معي، ولكن معظمها أعلى من قمة جبل سينا والتي يبلغ ارتفاعها وفقا لـ روبل Ruppel ٨٠٠٠ قدم. وتعتبر قمة جبل «ريمة» بجانب «بيت الفقيه» أعلى قمة

يمكن مشاهدتها من البحر، ومع هذا لا تسقط عليها الثلوج، رغم برودتها الشديدة في فصل الشتاء. وبالمثل قمة جبل « صَبِر» الذي يُعدُّ أعلى من جبل «ريمة» ومع ذلك لا يمكن مشاهدته من الساحل ربما لأن جبل «حبشي» يحجبه عن الرؤية، ورغم أنه لا يبلغ مستواه، إلّا أنه مرتفع بما يكفي لحجب الرؤية. وإلى الشرق من هذه الجبال هناك هضبة تشبه هضبة نجد، يسميها اليمنيون بلاد الجوف. وهي أقل ارتفاعاً من الجبال، ولكنّها تظلّ مرتفعة عن سطح البحر، حيث لا يُزرع فيها سوى القمح والشعير بسبب مناخها البارد الذي لا يناسب زراعة الذرة، وفقاً لإفادة الأهالي.

المناطق الجبلية مأهولة بالسكان أكثر من مناطق تهامة. وإلى جانب القرى الكثيرة نجد مدناً كبيرة، لعلَّ أهمهما تعز وصنعاء. وهذه الأخيرة هي العاصمة، وتشتهر في جميع أنحاء الجزيرة بمناخها الصحيّ المعتدل، وخصوصاً بتنوع مصادر الرفاه الذي يتمتع به الأهالي إلى حد كبير إذا ما قسنا ذلك بسلوك الشيخ قاسم. ولقد أسفت كثيراً لأن المرض الذي أصابني منعني من زيارة هذه المدينة الساحرة. خاصة وأن السّفر إليها ميسّر كثيراً، وقد زارها قبل وصولي لليمن بشهر ضابطان بريطانيان ونسخا نقوشاً مدهشة من على حجارة جُلبت من مأرب. وأثناء تواجدي في تعز، زارها مبشِّرٌ بروتستانتي شهير، معروف بحماسه وبطبعه المغامر.

يختلف مناخ المناطق الجبلية عن مناخ تهامة تبعاً لاختلاف طبيعتهما ؛ ففي حين ترتفع درجة الحرارة كثيراً في تهامة، خاصة في فصل الصيف، يكون الهواء عليلاً كلما صعدنا إلى المناطق الجبلية. ويتأثر الغطاء النباتي بالمناخ، فنجده في سهول تهامة استوائيّاً، وكلما صعدنا نجد نباتات الشمال حتى نصل إلى القمم وفيها نباتات كالتي تنمو في المناخات الأوروبية. وإضافة إلى الاختلاف في درجات الحرارة والغطاء النباتي، فإن موسم الأمطار ليس نفسه فيهما ؛ ففي المناطق الجبلية يبدأ موسم الأمطار في شهر يونيو أو يوليو، ويستمر حتى أكتوبر وفقاً لمناخ البلدان الاستوائية، في الوقت الذي يصحب هذه الفترة جفاف على مناطق تهامة، ولا تبدأ الأمطار في الهطول سوى في شهر ديسمبر وخلال أشهر الشتاء، وعلى العكس من ذلك تكون السماء صافية وخالية من الغيوم في المناطق

الجبلية. وربما يكون ذلك السبب في عدم تساقط الثلوج على قمم الجبال.

وهذه التفاصيل الوصفية لما شاهدت من أشياء وأحداث وارتأيت أنها مفيدة للمعرفة، وكان يمكنني إضافة الكثير بسهولة ولكن ذلك سيكون نوعاً من التكرار الممل لما سبق وتطرّق إليه نيبهور ونقله بدقة متناهية.

وأود فقط إضافة شيء عن الإنسان اليمني الذي لم يسبق وأنْ وصفه رحّالة قبلي ؛ فنجد سكان تهامة سود البشرة إلى حدٍ مّا، لأنهم اختلطوا بشكل كبير مع السكّان القادمين من الحبشة والصومال وبربرة الذين يعتبرون أنفسهم من سلالة كوش (الابن الأكبر لحام ابن نوح). وإضافة إلى هيئة الأشخاص، نلاحظ أن اللهجة التهامية قد تأثرت كثيراً بهذا الاختلاط، وغدت عصيّةً على الفهم لحد كبير حتى بالنسبة لبقية اليمنيين. وإلى جانب الكثير من الكلمات الدخيلة على اللغة العربية، نجد في لهجتهم سمة خاصة؛ فهم يضيفون لاحقة (الواو) لجميع الكلمات تقريباً، ويستبدلون أداة التعريف (أل) بـ (أُمْ)، فيطلقون على الجمل مثلاً : أُم جَمَلو. قد يتصوّر المرء أن هذه اللواحق تعدّ من النهايات النحوية التي سقطت من الاستعمال، هذا لو كان استعمالها في حالة الوجوب فقط، ولكنّ الحال مختلف هنا، فهم يقولون مثلاً (ذبحت خروفو)، وهذا مخالف لقواعد النحو الصحيح. أما بالنسبة لأداة التعريف (أُم)، فهي على ما يبدو مستخدمة في لهجات بعض القبائل العربية القديمة.

سكان المناطق الجبلية، لم يطلهم الاختلاط والتهجين كثيراً، حيث نجد بشرتهم بيضاء، وملامحهم جميلة شبه أوروبية، خاصة النساء ذوات البشرة والملامح الإيطالية كما ذكرت سابقاً. شعر طويل وعيون كبيرة وأنف روماني مستقيم.

وخلاصة الأمر، أنّ سكان المناطق الجبلية اليمنية يتميزون بهيئتهم، ويختلفون بشكل كبير عن بقية العرب، وهذا يتوافق مع اختلاف نسبهم حسبما تسوقه التوراة والأساطير العربية، فهم من نسل يقطان[1] – قحطان Joctan، بينما بقيّة العرب

(١) القحطانيون أو العرب العاربة هم القبائل التي تعود بأصلها إلى جدٍّ مشترك عُرف عند النسّابة والإخباريين العرب باسم قحطان وهو حسب المؤرخين العرب ومن احتك بهم من أهل الكتاب يقطان الذي ورد ذكره في العهد القديم. [موسوعة ويكيبيديا]

ينحدرون من نسل إسماعيل ابن إبراهيم وهاجَر ذات البشرة السوداء تقريباً.

هيئة اليمنيين الأوروبية وانتماؤهم للجنس الأبيض – إن صحّ لي التعبير – له علاقة أيضاً بالمستوى الحضاري الذي وصلوا إليه، فهذا الشعب ومنذ الأزل عاش حياة منتظمة متمدّنة، فلحَ الأرض، وسكن الدور، وأسس امبراطورية عريقة ومستقرة لا تضاهيها سوى الحضارة الصينية، في حين عاش بقية العرب وما زالوا حياة البداوة وتقاليدها الرافضة للانتماء للأرض الذي يحدُّ حريّة البدوي.

كبار القادة اليمنيين كالشيخ حسن يطبّقون النظام الإقطاعي إلى حدٍ ما، ويعيشون حياتهم كالأمراء، واعتادوا على استئجار الجيوش وإشعال الحروب التي يغذيها طموح السلطة. يميلون إلى المتع الحسيّة، ويهتمون أيضاً بفلاحة الأرض، ولديهم قواسم مشتركة مع بقية أبناء جلدتهم ؛ كالكرم وحسن الضيافة والميل إلى الفتنة والحاجة للانتقام التي تغذي النزاعات الأسرية.

وسأنهي روايتي بملاحظة واحدة حول طباع العرب بشكل عام، والتي أعتقد أن معرفتها من الأهمية بمكان عند إقامة علاقة معهم. فحسنُ النيّة التي يتفاخرون بها، والتي يُصرّ عليها بعض العرب المتحمسين لا تكُوْن إلا في حالة العلاقات الشخصيّة، ولا مكان لها في العلاقات السياسيّة. يمكننا الوثوق بعهودهم – بذمة العرب كما يسمونها- دون أية مخاوف، إذا تعلق الأمر بالاحتماء أو الاستجارة بهم، لكنّهم لا يحفظون العهد إذا تعلّق الأمر بطموحهم أو بأغراض السلطة. فبالنسبة لهم خداع شخص لجأ لكرمهم يعتبر ضرباً من العار. لكن خداع منافس في حالة قوة وتحطيمه مع إظهار الولاء التام له، ليس بالنسبة لهم سوى براعة وحِنكة، وليس فيه أيّ عار، بل على العكس هو عمل مشروع. فالتاريخ على مرّ الزمان يصفهم دوماً بهذا الشكل، وتجارب الذين عاشوا بينهم تؤكد ذلك ؛ لأنّ تلك سمة متأصلة فيهم لا يمكن التّغلب عليها.

وفي روايتي التي انتهيت منها للتو، لدينا مثل واضح في الشيخ حسن، هذا الرجل الذي يتصف بكمال النبل والكرم، يستضيف غريباً ويحميه، ويعتني به رغم مشاغله الكبيرة، ويدفع مبالغ طائلة لقاء رفاه وسلامة هذا الغريب. لكنّه في

الوقت نفسه ومن أجل طموحاته يقتل أقرب المقربين لـه، ويخـون دون أيَّ وازع من ضمير إمام تعز الذي لجأ له لتقديم العون له، وبالفعل مدّ له يد العون ظاهريـاً، وعَملَ في الخفاء على تسليم رقبته لأعدائه على أمل أن يخلفه في الحكم.

هذه الوقائع عن الأماكن والأحداث التي حاولت سـردها بشـكل مختلـف، وإن تشابه بعضها مع ما قدَّمه نيبهور، فعزائي أنْ تكون توضيحيّة وتسهّل على الفهم.» [1]

(١) أشار عالم النباتات الفرنسي ألبر ديفلرز Albert Deflers (١٨٤١-١٩٢١) في كتابه الـذي خصّصه عن رحلته إلى اليمن في عام ١٨٨٧ عند حديثه عن رحلة عالم النباتات بوتـا، بـأن أصـناف النباتات التي جمعها بوتا من اليمن والتي إحتفظ بها متحف العلـوم الطبيعيـة في بـاريس بلغـت مـا يقارب الـ ٥٠٠ صنف، كان معظمها غير معروف لعلماء النبات وخاصة فيمـا يتعلـق بـأنواع مـن الطحالب والسرخس وغيرها.

رحلة ضابط البحريّة باساما Passama

قام ضابط البحريّة الفرنسي باساما Passama، في مطلع عام ١٨٤٢ برحلة استكشافية قصيرة إلى سواحل تهامة، والمخاء وزبيد وحيس. وقام بدراسة متكاملة للطقس في مدينة حيس خلال شهري يناير وفبراير، ووجد أنَّ متوسط درجة الحرارة في المنطقة تبلغ ٣٥ درجة مئوية عند الظهر، وتنخفض إلى ٢٥ درجة مئوية في منتصف الليل، ويكون الحد الأدنى ٢٣ درجة عند الخامسة والنّصف صباحاً. وعادةً ما تغطّي الغيومُ الجبالَ المحيطة حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ظهراً، وتحتجب عن الرؤية عند الثانية بعد الظهر، حيث يكون الجو مشبعاً بالرمال من جرَّاء العواصف الرملية التي تسببها الرياح الجنوبية ويصل إرتفاعها إلى مستويات عالية فوق سهول تهامة. ويروي باساما بأن هذه العواصف الرمليّة كانت من الشدة يوم ٣ فبراير لدرجة أنها حجبت رؤية الأشياء وصعب تمييزها وهي على بعد خطوات معدودة.

كما قام بتحديد موقع مدينة حيس وأبعادها عن الجبال المحيطة بها.

أمَّا عن موسم الأمطار فقد أشار باساما إلى أنّ هناك موسمين لهطول الأمطار؛ أمطار الخريف التي تتساقط في شهر أبريل، وأمطار الصيف التي تهطل في شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر.

ووصف جبل «دُباس» الذي زاره بأنّه مكوّن من صخور الجرانيت وصخور الحديد، وأنّه محاط بسلسلة من الصخور البركانية الكبيرة، وتنمو فيه شجرة المر التي تنتج البخور. كما عدّد بعض المنتجات الزراعية في تهامة كالسمسم والنيلي والقطن وخمسة أصناف من أنواع الذرة.

إضافةً إلى ملاحظاته الشخصية عن رحلته، ضمَّنَ «باساما» تقريره عن الرحلة[1] معلوماتٍ عن مواضع أخرى من اليمن لم يزرْها؛ كمدينة أبو عريش، وصنعاء، والعدين، وحبيش، وصعفان، وكذا عن حاشد وبكيل.

---

(1) Passama, J., 1843, « Observations géographiques sur quelques parties de l'Yémen ». Bull. Soc. Géogr. Paris, vol. XIX, pp. 162-171 ; 219-236.

رحلة توماس جوزف أرنو

Thomas-Joseph Arnaud (١٨١٢-١٨٨٢)[١]

توماس جوزف أرنو[٢]، مستشرق فرنسي، عاش قرابة الـ ١٦ عاماً في المشرق، قضى معظمها في اليمن، وكان يُجيد اللغة العربيّة لدرجة أنسته الطلاقة عند الحديث بلغته الفرنسية الأم[٣]. حيث عمل كصيدلاني لدى جيش محمد علي باشا في مصر عام ١٨٣٤، ومن بعدها لدى الإمام في صنعاء من عام ١٨٣٥، ولقد كسب ثقة الإمام وأطال البقاء في صنعاء.

في مطلع العام ١٨٤٣ التقى الرّحالة أرنو بالمستشرق الفرنسي فرينل Fresnel، في مدينة جدة، حيث كان يعمل قنصلاً لفرنسا هناك، وعُرفَ عنه شغفه باللغات السامية وبتاريخ شبه الجزيرة العربية، وفي إطار حديثهما عن اليمن، أشَار عليه أن يستغلّ إقامته في اليمن ويزور المناطق الشرقية لاكتشاف ما فيها من المعالم والآثار والنقوش التي خلفتها الحضارة السبئية والتي تعدّ مصدراً هاماً لمعرفة تاريخ العربية السعيدة وحضاراتها القديمة. ويعود لفرينل الفضل في بثّ روح الحماس لدى أرنو للذهاب إلى المناطق الشرقية من اليمن بحثاً عن النقوش

---

(١) خلاصة مقتضبة وترجمة بتصرف لأهم ما جاء في يوميات توماس جوزف أرنو، التي نشرها عام ١٨٤٥، ونجدها في المرجع التالي:

Arnaud, Thomas Joseph, 1845, Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie méridionale, entrepris en 1843, Paris, p. 128.

(٢) توماس جوزف أرنو، من مواليد لور بفرنسا، Lurs (Basses-Alpes)، بتاريخ ٣١ يناير عام ١٨١٢. أحد الباحثين في مجال الصيدلة ويدعى مارسل شينو Marcel Chaigneau، لم يجد له أثر في قوائم الصيدلانيين المسجلين والمحفوظة في أرشيف باريس، ومونبيلييه واستراسبورغ، ويرجح بأنّ أرنو حصل على شهادة ممارسة الصيدلية بناء على امتحان جهوي يعتمد الخبرة. وأشار الباحث بأن هناك معلومات محدودة عن حياة أرنو الذي توفي في الجزائر بتاريخ ٨ مارس عام ١٨٨٢.

Chaigneau Marcel, 1990, « La découverte des Citernes de la Reine de Saba, par le pharmacien Arnaud en 1843, revue d'histoire de la pharmacie, n° 287, pp. 398-401.

(٣) كما أشار إلى ذلك الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما Alexandre Duma في معرض التعريف بالرحّالة في رسالته لـ جول مارتا Jules Martin

والمعالم الأثرية فيها.

عمل بنصيحة فرينل وانطلق من صنعاء في الثاني عشر من شهر يوليو عام ١٨٤٣، وسار في طريق «وادي سرّ»، ومرّ بقرية «شرفه» ومن بعدها «بوادي بني جبر» حتى وصل إلى «وادي دنا» ومنه إلى «مأرب» التي وصلها في ١٨ يوليو. قضى فيها خمسة أيّام عصيبة ينقّب ويفتش عن المعالم وينسخ النقوش، وعمل في ظروف مرعبة كاد يفقد فيها حياته عدّة مرات لولا الحماية التي كان يحظى بها من قبل الشريف «عبد الرحمن». بعد خمسة أيام من العمل الدؤوب وفي ظروف قاسية ومحفوفة بالمخاطر، قرّر العودة إلى صنعاء بعد أن اكتشف موقع «سدّ مأرب» و«عرش بلقيس» ونسخ (٥٦) نقشاً سبئياً.

غادر مدينة «مأرب» في ٢١ يوليو ١٨٣٤ متجهاً نحو صنعاء، ووصل إليها شبه أعمى بعد أن أصيب بالتهاب حاد في العينين أفقده القدرة على النظر، فاضطر لمغادرة صنعاء والتوجه إلى «عدن» لعرض نفسه على طبيب انجليزي. كانت حالته المادية بائسة جداً عندما وصل إلى عدن، وقد لمس بعض الإنجليز ذلك وحاولوا إغراءه بالمال لشراء النقوش المنسوخة، لكنّه رفض وفضّل الموت جوعاً على أن يبيع اكتشافه الذي كاد يكلّفه نعمة النظّر. رأف أحدّ الرهبان الأيرلنديين بحاله، وساعده، ومن ثمّ اقترضَ مبلغاً من المال من تاجر فرنسي مكّنه من السّفر إلى جدة.

استقبله فرينل، القنصل الفرنسي بجدة ، وقاما بترجمة النقوش، ونقل له مشاهداته ووصفه للآثار والسدّ، وتم إرسالها إلى الدوريّة الشهيرة « Le journal asiatique ». وقد أسهمت نسخ النقوش التي جمعها أرنو في استكمال فك شفرة حروف اللغة السبئية.

في عام ١٨٤٧ أقرّت الحكومة الفرنسية العمل الذي قام به أرنو بمجهوده وتمويله الشخصي، وثمنت ذلك عالياً، ووافقت على تكليفه في مهمة ثانية لاستكمال عملية الاستكشاف ونسخ بقية النقوش التي لم يتمكن من نسخها في المرّة الأولى.

بعد هذا التكليف، وصل إلى القاهرة وتعرَّف فيها على رحّالة فرنسي آخر محبّ للمغامرة والاكتشاف يُدعى فايسيير Vayssière، الذي استحسن فكرة المغامرة ومرافقة أرنو إلى اليمن.

وصلا إلى الحديدة في شهر أغسطس من عام ١٨٤٧، وانطلقا منها إلى مدينة «زبيد» لاصطحاب أحد أصدقاء أرنو معهما لتأمين رحلتهما. كان صديقه يُدعى «سعيد سالم» وينحدر من أسرة أشراف عريقة لها مكانتها في كافة أنحاء اليمن. لسوء حظهما كان «سعيد» حديث الزواج، وما زال يقضي شهر العسل، ولم يكن بمقدوره مصاحبتهما، لكنّه وفّر لهما حارسين محلَ ثقةٍ من قبيلة «يام».

وحالما كانا مستعدين للسفر، إذا بحشود مسلّحة تابعة لإمام صنعاء تقترب من المناطق التهاميّة على الساحل الغربي لمحاولة استعادة بسط نفوذ الإمام عليها، وكانت في مواجهتها قوات الشريف «حسين» الذي مكّنه «محمّد علي باشا» من بسط نفوذه وسلطته على كافة مناطق تهامة. كانت المجاميع المسلحة التابعة للشريف «حسين» لا تتقاضى راتباً، بل تعيش على السلب والنهب. ولذا كان ولاءها ضعيفاً. ولكي يضمن الشريف «حسين» صمود أتباعه، أطلق لهم العنان لممارسة المزيد من أعمال السلب والنهب. وأمام هذا الوضع المخيف والموت المحدق، قررا العودة إلى الحُديدة، وغادراها بصعوبة على متن قارب متهالك إلى جزيرة «كمران» ومن ثمّ إلى «مصوّع»[1].

(١) في عام ١٨٥٠ نشر أرنو ورفيق رحلته فايسيير بحثاً تحت عنوان « أخدام اليمن، جذورهم المحتملة وعاداتهم».

Arnaud, Th. Et Vayssière A, 1850, « Les Akhdam de l'Yémen, leur origine probable, leurs mœurs », Journal asiatique, série 4, tome XV, pp. 376-396.

رحلة جوزف هاليفي

Joseph Halévy (١٨٢٧-١٩١٧)[١]

جوزف هاليفي[٢]، مستشرق يهودي- فرنسي، كُلّف من قبل وزير التعليم العام بمهمة أثرية إلى اليمن بتاريخ ٦ ديسمبر ١٨٦٩، بهدف استكشاف ونسخ النقوش السبئية أو الحميرية، للإسهام في إثراء الأبحاث المقدمة ضمن مشروع أكاديمية النقوش والآداب في باريس.

وقد نشرَ تقريراً مفصّلاً يزيد عن ٣٠٠ صفحة عن مهمته هذه قدّمه لوزير التعليم العام بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٧١، وفيه كثير من المعلومات الدقيقة والهامة وشيء من المبالغة[٣]. وقد ذكر في معرض تقريره، بأنّه فخور بالاكتشاف الذي حققه في منطقة شديدة الخطورة، لم تطأها قدم أوروبي قبله وكاد يدفع حياته ثمناً

---

(١) تلخيص وترجمة بتصرف لأهم ما جاء في يوميات جوزف هاليفي التي نشرها عام ١٨٧٢، ونجدها في المرجع التالي:

Halévy, Joseph, 1872, Rapport sur une mission archéologique dans le Yémen, Paris, Imprimerie Nationale, 303p.

ولمزيد من الإطلاع على هذه الرّحلة وتفاصيلها المُذهلة، يمكن الرجوع إلى كتاب:

رؤية اليمن بين حبشوش وهاليفي:

حييم بن يحيا بن سالم الفتيحي حبشوش، ١٨٩٣، رؤيا اليمن، نقلته إلى العربية وحققته سامية نعيم صنير،

جوزيف هاليفي، تقرير حول بعثة أثرية إلى اليمن، ترجمة منير عريش، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ٢٠١١ص، ط١.

(٢) ولد جوزف هاليفي في مدينة أدرنة التركية في ١٥ ديسمبر عام ١٨٢٧ وتوفي في باريس في ٢١ يناير عام ١٩١٧، وهو مستشرق ورحّالة فرنسي ذو جذور يهودية ، وقد اشتهر بأنه أول يهودي يلتقي بيهود الفلاشا، المعروفين بيهود أثيوبيا ما بين عامي ١٨٦٧-١٨٦٨، وقام بجمع تفاصيل شاملة عن حياتهم. وتعد أعماله التي جاءت ثمرة لرحلته إلى اليمن ما بين عامي ١٩٦٩-١٩٧٠، بحثاً عن النقوش السبئية والتّعمّق في اللغة السبئية من أهم الأعمال التي نال من ورائها شهرة عالمية.

(٣) في طريقة سرده للمغامرة وطريقة نسخه لهذه النقوش والتي تحدث عنها الدليل اليهودي «حبشوش» الذي رافقه في رحلته هذه إلى مأرب.

لذلك، خاصة وأن النتائج المُرضية التي توصل إليها مفيدة للغاية سواء من وجهة نظر أثرية بحتة، أو من باب الفائدة العملية التي تتيح معرفة أكثر عمقاً لمنطقة شبه الجزيرة العربية. وأضاف أنّه لن يتطرق في تقريره إلا للمسائل التي لها علاقة بعلم الآثار، كونه الهدف الرئيسي للمهمة التي أنجزها، وأنّه سيتناول بإيجاز الفائدة من جمع ونسخ هذه المخطوطات والنقوش التي تلقي الضوء، ليس على الحضارة السبئية فحسب، بل على حضارة الشعوب السامية بشكل عام، حيث قال : «لا نمتلك سوى معلومات ضئيلة عن الشعوب السامية الأخرى، وخصوصاً عن السبئيين والحميريين، اللّذَين لم يَرْوِ عنهما المؤرخون الإغريق والرومان سوى بعض الحقائق، ولا نجد عنهما عند المؤرخين العرب الذين من المفترض أن تكون بحوزتهم معلومات شاملة عن إخوتهم وجيرانهم، سوى قوائم مزعومة لأسماء ملوك حمير، وكم من الأساطير الخرافية.» أكد على أنّ إرث السبئين يعكس الجوهر الحقيقي للسامية لكونهم لم يخضعوا لأي غزو أو هيمنة خارجية.

وصل إلى مدينة عدن، كي ينطلق منها إلى «صنعاء» ومن ثمّ إلى «مأرب». توجّه بعد ذلك إلى مدينة «لحج» والتي تبعد مسيرة ست ساعات من عدن، وكان مطمئناً إلى أن سلطان «لحج» كان تابعاً للإنجليز، ويسعى دوماً لإرضاء الأوروبيين، إلا أن نفوذه لم يكن واسعاً، وكانت منطقته في حالة استنفار دائم بسبب قبائل الحواشب التي اعتادت على سلب ونهب القوافل المتّجهة إلى عدن، وعلى فرض الإتاوات على قرى تقع تحت سيطرة سلطان لحج.

بعد أن سار المستشرق هاليفي مسافة أربع ساعات إلى شمال لحج، عاد أدراجه إلى عدن، خشية أن يقع بيد قبيلة الحواشب، ومن هناك حمل معه توصيات من بعض التّجار اليهود القاطنين في عدن، وتوجه بحراً صوب الحديدة. بعد وصوله إلى الحديدة غادرها على الفور في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٩ باتجاه منطقة «صعفان» والتي وصفها بأنّها واحدة من ثلاث مناطق تقع تحت حكم داعي من المكارمة الذين يتمتعون بالسلطة الدينية والسياسية في نجران، وتتمتع باستقرار سياسي، إلّا أنّ المسافر الآمن فيها يعاني الأمرّيْن بسبب الطرق الوعرة والجبال الشاهقة. وقال إنّه نجا من الموت بأعجوبة وكاد يسقط عدة مرات في هاوية لا

قرار لها ؛ لأنّه كان حريصاً على التنقيب بنفسه عن النقوش المتواجدة في الأطلال والخرائب التي تقع معظمها في منحدرات خطرة. وقد خاب ظنه من عدم العثور على أيّ أثر لنقوش في هذه المناطق الجبلية، وأعياه التعب والمرض وهو يبحث في العديد من المعالم الأثرية الحميرية ولكن دون جدوى.

ما إن وصل إلى صنعاء حتى بدأت نتائج الرحلة التي قاساها وتعبُ البحث تنعكس على حالته الصحيّة، وظلّ مريضاً طريح الفراش لمدة شهر عانى فيها من حُمّى شديدة وصداع، كادا يوديان بحياته. بعد فترة الشهر استطاع الخروج في مدينة صنعاء، وتمكّن من استكشاف بعض النقوش القليلة ونسخها. ودفعه فضوله إلى صعود جبل نقم، للتنقيب في قلعه «براش» أو «قصر سام بن نوح». يقول بأنه لم يجد فيها أية نقوش، وعاد بخفَّيْ حُنين وانتكاسة مرضية جديدة ألزمته الفراش لمدة عشرة أيام.

تناهى إلى سمعه ذات يوم وجود حجر عليها كتابة غير معروفة تقع في منطقة «بيت بوس» التي تقع على مسير يوم جنوب غرب صنعاء، فسارع إلى المكان رغم حالته الصحيّة، وكان يأمل بأن يقع على نص أصيل لأحد أقيال العصور القديمة، لكنّه وجدَ كتابة عشوائية باللغة العربية لآيتين من القرآن الكريم.

لم تثنه ندرة المعالم الأثرية القديمة في المناطق القريبة، المحيطة بصنعاء، عن الاعتقاد بوجودها في الماضي قبل اندثارها، وبرّر استنتاجه بقناعته بأن صنعاء مدينة غائرة في التاريخ ومخزنٌ له، رغم عدم تصديقه لما يُروى بأنّها مدينة «أزال» المذكورة في التوراة لعدم العثور بين النقوش التي تمّ جمعها على ما يشير إلى اسم مدينة صنعاء قبل الغزو الحبشي. إضافةً إلى تأكيد البعض بأن الأحجار التي وجدت في صنعاء وعليها نقوش تمّ جلبها من الجوف. ومع ذلك لم يأخذ بهذا الكلام على سبيل القطع، لأنه وجد بنفسه حجراً في أحد المنازل المتداعية القريبة من باب شعوب وعليها نقش من سطرين. وفي المقابل عبّر عن تعجّبه من عدم وجود أية نقوش في قصر غمدان الشهير الذي وصفه اليمنيون بأوصاف قصور ألف ليلة وليلة، حسب قوله. وجد أنّ الشيء الوحيد الذي يرتبط بالعصور السحيقه يمكن العثور عليه في أنقاض المسجد الذي حلّ مكان «كنيسة أبرهة»

التي يسميها أهل صنعاء « قليس»، ويعتقد اليهود بأنّها أقدم كنيسة بُنيت عند قدومهم إلى اليمن. وسمع روايات كثيرة حولها ومنها أنّ أحجارها التي تحتوي على نقوش قد نقلت إلى مبانٍ أخرى.

اكتشف أول النقوش خلال رحلته هذه في منطقة غيمان (بني بهلول-خولان)، وهداه حدسه إلى أنّ المنطقة الواقعة شرقي صنعاء، والتي كانت مركزاً لحضارة سبأ، لا بد من أنْ تكون مخزناً هائلاً لتركة تراثية من العصر القديم. كان أمام خيارين لمسار رحلته إلى هذه المناطق ؛ إما السّفر مباشرة إلى «مأرب» ومنها العبور إلى مناطق «الجوف»، وإما سلوك طريق آخر يصل إلى «الجوف» أولاً، ثمّ يمر في المناطق الواقعة بين «نجران» و«مأرب»، والعودة عبر «مأرب». ورغم أنّ المسار الأول كان أيسر الخيارين وأأمنها؛ لكثرة القوافل المحمّلة بالملح والتي تنتقل بين «مأرب» و «صنعاء». إلا أنّه صمّم على الأخذ بالخيار الثاني حباً في المغامرة وطمعاً في الوقوع على اكتشافات لم يسبقه إليها أحد.

أخذ رسائل توصية من حاخام يهود صنعاء، موجهة لليهود الذين يعيشون في كنفِ القبائل التي سيمر بأراضيها، واستأجر مرشداً يهودياً، وارتدى ملابس يهودية، وأسدل «الزنّارين» وهما خصلتا الشعر اللتان تتدليان من على جانبي الرأس وتميزان اليهود عن غيرهم.

غادر مدينة صنعاء بالزيّ اليهودي وبرفقة المرشد في ٢٠ فبراير ١٨٧٠ عند الساعة ٤:٠٠ بعد العصر، ممتطياً اتاناً[١]، وبعد أن تعرّض لإزعاج المّارة واصل السير مشياً على الأقدام[٢]. سار لمدة ثلاثة أيام في قاع صنعاء ووديان «الروضة» و«الزبيرات» و«الرحبة»، ووجدَ فيها بعض النقوش المجزّأة. عندما وصل إلى منطقة «شرعة» في بلاد «ارحب»، بدأ يُعاني من قدميه، فقرّر البقاء فيها بضعة أيام، حيث وجد فيها بعض النقوش ونقوشاً أخرى في جبل يقع في الجهة المقابلة لها. أثار وجوده ريبة شيخ المنطقة واعتقد بأنّه اليهودي الذي يدّعي بأنّه المسيح

---

(١) أنثى الحمار.

(٢) كان العرف حينها ألّا يظلّ اليهودي راكباً فوق بهيمة ويمرّ من أمام مسلم يسير على الأقدام ؛ إذ كان ذلك يُعدّ نوعاً من الإهانة.

المنتظر[1] ويثير الرعب بين أوساط المسلمين، فسجنه مدة ثمانية أيام، ولم يفرج عنه إلا بعد تدخل يهود المنطقة الذين أقنعوه بأنّه ليس ذلك الشخص.

وجد أنّ قرى «شرعة» مازالت تضم كثيراً من المعالم الأثرية من العصر السبئي، رغم إهمال الأهالي وجنوحهم إلى إحراق معظم الأحجار التي تحتوي على نقوش لتحضير «النّورة». ووجد في الجبل المقابل «لشرعة» أطلال أبنية من العصر الحميري، وبقايا آثار نقوش على الصخور. وأشار إلى وجود مغارة طبيعية في قمة الجبل تم توسيعها، ويُعتقد بأنّها تضمّ قبراً لشخص مهم ذُكر اسمه ولقبه فوق المدخل.

وصل بعد ساعة ونصف إلى نهرٍ لم يسمّه، وسمّاه «حبشوش» في كتابه نهر «الخارد»، ووجد فيه وفرةً في الأسماك تُشكّل مصدر دخل هام لليهود الذين كانوا يصطادون منه ويزوّدون سوق «صنعاء» بالأسماك. كما وجد بعض الينابيع التي تحتوي على مياه كبريتية ساخنة. واصل السير إلى منطقة «المديد» في بلاد «نهم»، ولقي فيها معاملة حسنة، كما وجد في قرية «الضبوعة» بعض النقوش، واكتشف نقوشاً أثرية محفورة على صخور جبل «شيحان». مرّ من طريق للسيل، وعلى جانبيها عدد من البيوت المهدّمة يطلق عليها الأهالي «عاديات» نسبةً إلى «عاد». وقد رفض أحد الأهالي استقباله في بيته لخشيته من العين الشريرة، نظراً للاعتقاد السائد بأنّه إذا وقعت عين اليهودي على أي شيء تصيبه، وإن كانت بقرة على وشك الولادة فإنّها تُسقِط. وصل بعد ذلك إلى «بران» ووجدها خربة مليئة بركام من الياجور المحروق وقليل من الأحجار المنحوتة، ولم يجد أيّة نقوش. وصل إلى جبل «يام»، ونزل إلى «الفرضة»، وهناك لمحَ مجموعة من الفرسان الأشراف على الطريق، واضطر للاختباء مع مرافقه، ووصفهم بأنّ لهم سلطات تشبه سلطات النُّبلاء في القرون الوسطى، وهم الذين يُجِيْرون «اليهود» الذين لا يُسمح لهم بتملّك العقار أو حمل السلاح، وقال إنّهم ورغم وحشيتهم واعتمادهم على الغزو والنهب، إلا أنّهم يتمتعون بسمات الفروسية والشرف، حيث لا يقتلون أناساً

(١) «المسيح الدّجال» في الثقافة الإسلامية.

عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم كالنساء واليهود والرجال الذين لم يخضعوا لعملية الختان التي تعد الاختبار الأول للشجاعة[1].

وجد في منطقة «بني هلال» مبانيَ مربّعة الشكل مبنيّة بأحجار النضيد السوداء مُبعثَرة على الجبال، ويبلغ ارتفاعها ارتفاع قامة الرجل العادي. وصل بعد ذلك إلى صحراء «الأحقاف» التي يستغرق عبورها مسير يوم كامل. وسار إلى «الغيل» في منطقة «الجوف السفلى» حيث وجد عدة خرائب على مسيرة ثلاث ساعات منه باتجاه الشمال. وقبل بلوغ هذه الخرائب وقع على جدولٍ للمياه العذبة، أثار وجوده في ذلك المكان وفي ذلك الوقت من السنة دهشته، وفوق ذلك كان مليئاً بالأسماك، وبعد التحرّي وجد أنه امتداد لنهر «الخارد».

توقّف عند تلة تقع عليها خربة قديمة أعيد بناؤها عدة مرات تسمى «بالفرع»، ووجد على مقربة منها بقايا باب من حجرٍ، وأمامه ستة عشر نُصُباً يُطلق عليها اليمنيون «بنات عاد»، ونسخ النقوش التي تغطي النُّصُب الأول، وعاد إلى نفس الخربة بعد شهرين لنسخ بقية النقوش. قدّم وصفاً للمعالم الأثرية في مدينة «هرم» كمعبد هرم، ومدينة «معين». وفي منطقة «المِحير» شاهد صفين طويلين من النُّصُب التي تشبه نُصُب مدينة «هرم»، يعتقد أنها تابعة لمعبدين متلاصقين لم يبق منهما سوى البابين المتاخمين، ووجد في واجهة الباب الأمامي الكبير نقشاً جميلاً يشير إلى اسم الملك الذي قام ببناء المعبد، والإله الذي كرس له.

---

(١) ذكرت كلوديا فاين في كتابها «اليمن» أنّ عملية الختان تتم في بعض نواحي اليمن بطريقة بدائية استعراضية يشوبها العنف. وبالرغم من منع الأئمة لمثل هذا النوع من السلوك لخطورته وتسببه في كثير من الصدمات النفسية والإعاقات، إلا أنّه كان يُمارس في الخفاء، وقد أتيحت لها الفرصة وشاهدت في عام ١٩٧٢ تظاهرة كهذه في قرية الزّهرة بمحافظة الحديدة ووصفتها بما يلي: «شاءت الظروف أن أشاهد عام ١٩٧٢ حفل ختان لثلاثة غلمان تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٥ عاماً، حيث تبدأ الاحتفالات في عشية يوم الختان ويتخللها الرقص والغناء، ومع الصباح الباكر يُسار بالأولاد إلى منطقة معلومة عند مدخل القرية، يرفع كلّ صبي جنبية بيمينه، ويصرخ بأعلى صوته معلناً دخوله عالم الرجولة، ويقوم المزيّن وبسرعة فائقة بعملية الختان ويرمي بالجلدة المبتورة على الجماهير التي تتلقاها بالصراخ والأهازيج. ويتم حمل هؤلاء الصبيان على الأكتاف والسير بهم في حشد احتفالي لفترة طويلة، وعليهم الرقص وتحمّل الألم.» ص ٣٣، ٣٤.

بعد أن استكمل استكشافاته في منطقة «الجوف الوسطى»، سار إلى «نجران»، وأشار إلى أن اليهود يتمتعون فيها بمعاملة حسنة قلَّما يجدونها في مكان آخر من شبه الجزيرة العربية. عاد بعد ذلك إلى «وادي سبأ» عن طريق «الجوف الأعلى» الذي وجده خالياً إلا من آثار قليلة تُذكّر بمجده القديم، حيث تم تدمير الآثار والتحف السبئية في هذه المنطقة بشكل كبير، وهدّم كل شيء في الخرائب التي أمست مندثرة بحيث تندر رؤية صروح ما زالت قائمة. وتمكّن من نسخ عدد لا بأس به من النقوش في نواحي جبل «سليم». وشاهد على امتداد وادي «مذاب» خرائب لا تحصى، وآثاراً لمدن ونُصُب مجزأة بدأت الرمال بطمرها. حيث وجد عند قيامه بالحفر لإخراج حجارة عليها نقش، لوحة نحاسية محفور عليها الأحرف (ل ب هـ) في مكان يطلق عليه اليمنيون (جار اللبا).

تعثّرت اكتشافاته في هذه المناطق التي صادف وجوده فيها في شهر أغسطس، حيث يشتد القحط وتسود المجاعة، فيخرج الأهالي البؤساء إلى الطرق الرئيسية لسلب ونهب المسافرين. فعجّل بالمسير في اتجاه «مأرب»، ووقع في طريقة على خريبة أسماها «خريبة سعود» ووجد عندها مدينة أثرية طَمرت الرمال جزءاً كبيراً من جدارها، ووجد بعض النُّصُب التي تحتوي على نقوش. بعد مسير يوم وصل إلى موقع «الفطيّة» حيث يخيم «بنو شداد»، ويتصل موقعهم بالوادي الذي يقود بعد مسير نهار إلى السهل الصحراوي، حيث تستثمر قبيلة «عبيدة» منجماً للملح الخام الذي يباع بكميات تجارية هامة في «صنعاء» و«حضرموت».

قبل وصوله إلى «مأرب» حبّذ أن يكتشف المناطق المحيطة بها قبل دخوله المدينة. ووجد خريبة كبيرة جداً وفيها عدد كبير من أعمدة الرخام الفريدة من نوعها، ونقوشاً ويطلق عليها اليمنيون «مدينة النّحاس». وفي «مأرب» التي كانت تعاني من الاضطرابات حينها، صادف شخصاً يُدعى «مسلل»، وكان عميلاً لتاجر هندي أشهر اسلامه وأقام في صنعاء، وكان يُتاجر بالتحف الأثرية التي يجلبها له مسلل ويبيعها للإنجليز في عدن.

لم تطل إقامته في «مأرب»، وسلكَ الطريق المؤدي إلى «سد سبأ» الشهير، وكانت الطريق تسير وسط مقبرة واسعة، وجدَ أنَّ القبور فيها مختلفة في شكلها

عن القبور في سائر الدول الإسلامية، ولاحظ أنّ بعضًا من شواهد القبور مأخوذ من أحجار صروح «مأرب» وأنّ منها ما يحتوي على نقوش سبئية. وشاهد الكثير من الأبنية المهدّمة على جانبي الطريق، وفي وسط ركام من الأحجار وجد تمثالاً مصنوعاً من الرخام الأبيض، ويبين الجزء الظاهر منه أصابع قدم منحوتة بشكل رائع وكان ثقيلاً جداً صَعُب عليه حمله بما يوحي بأنه كان ضخماً.

وجد الخريبة التي يقع عليها «حصن صرواح» مهدّمة حتى الأساس، واستغرب لتعرض الآثار الدينية للتدمير بدرجة أقل من مثيلاتها من الصروح العامة الأكثر متانة. ولاحظ أنّ المعابد ما زالت تضم بعض النُّصُب التي يسهل تدميرها، بينما لم يعد فيها أيّ أثر للجدران. ووجد فيها صفين من النُّصُب، أغلبها مرميّة على الأرض مهشمة أو مطمورة بالرمال، ومعظمها مصنوع من الرخام، وفيها أطول نقوش رآها في اليمن، ويسمى موضع هذه الأعمدة «عرش بلقيس».

عاد في اليوم التالي إلى نفس المكان، ووجد عدداً من الأهالي وهم يبحثون عن الذهب في مجرى السيل أو عند ضفتيه، حيث يتواجد الذهب على شكل حبيبات ممزوجة بالرمل يقومون بغسلها وتصفيتها، ويجنون في بعض الأحيان من بيعها أرباحاً طائلة.

شكا هاليفي كثيراً من المضايقات التي تعرّض لها في معظم المناطق التي زارها، والتي اشتدت وطأتها في مأرب، وكان يشك أنّ معظمها كان بتحريضٍ من سمسار التحف «مسلل» الذي كان يُدرك سبب تواجد الباحثين الأوروبيين، ويخشى على فقدان مورد رزقه.

عاد هاليفي إلى صنعاء عن طريق وادي «الشرفة»، ولم يسلك وادي «السرّ» الذي يؤدي إلى صنعاء خشية مصادفة القوافل وتعرضّه للمضايقة، فاتّجه جنوباً في طريق جبلي وعر حتى وصل إلى «تنعم»، ومن بعدها إلى «أرض خولان»، حتى وصل في المساء إلى «دار سلم» وأُجْبر على البقاء هناك قبل أن يدخل إلى صنعاء مع طلوع الشمس[1].

(١) كانت أبواب مدينة صنعاء تُغلق عند حلول المساء، وتفتح مع بزوغ الفجر.

كانت رحلة عالم الآثار الفرنسي جوزف هاليفي إلى المناطق الشرقية من اليمن مثمرة جداً، ومن جميع النواحي. فقد أكسبته على الصعيد الشخصي شهرة عالمية لا منازع لها، أما على الصعيد العلمي، فقد نجح في تقديم دراسة ذات منهجيّة علميّة متميزة حيث، ارتكزت على:

- نسخ (٦٨٥) ستمائة وخمسة وثمانين نقشاً سبئيّاً ومعينيّا من (٣٧) موقع أثري موزعة في مناطق مختلفة (صنعاء، الزبيرات، الغراس، غيمان، صرواح، شرعة، المديد، الضبوعة، جبل شيخان، الفرضة، مدينة هرم، حزم همدان، مراني، معين، الغيل، كمنا، البيضاء، السوداء، براقش، الحضراء، الأخدود، الكُبيبة، الزاهر، أسود الوازعي، حزمة أبو ثور، بيت نمران، ديار اللبا، سليم، الدابر، سعود، الفطية، حصن الجردان، الحزم، مأرب، المقبرة، سد مأرب، عدن).

- إعطاء معلومات تفصيلية حول النقوش شملت :

  - المنطقة والمكان الذي وُجدَ فيهما النقش.
  - طبيعة البناء الذي وُجدَ عليه النقش.
  - هل وُجدَ النقش على نُصُب أم على حجَر.
  - إذا كان الحجر في وضعه الصحيح أم كان مقلوباً وكان النقش مقلوباً أيضاً.
  - اتجاه الكتابة إذا كان من اليمين إلى اليسار أم العكس.
  - عدد الأسطر المقروءة، والأسطر غير الواضحة أو المفقودة.

- تقديم ترجمة أوليّة لكثير من النقوش السبئية والمعينية التي جمعها إلى اللغة الفرنسية[1].

---

(١) إستخلص بعد فحص الـ (٨٠٠) نقش من النقوش التي جمعها هو ومن سبقوه ظاهرة فريدة من نوعها تتمع بها حضارة عرب الجنوب «السبئيين»، حيث لم يجد في كافة هذه النقوش كلمة واحدة أو إسم علم مستعار من لغة شعب آخر، واستنتج من ذلك أن اللغة «السبئية» ظلت خالصة ومحافظة على نقاوتها بدرجة أكبر من اللغة العبرية واللغة الفينيقية، حتى تخلّت عن مكانها للغة العربية.

- وضع قائمة للحروف السبئية وما يقابلها في اللغات العبرية والعربية والفرنسية.

- تقديم دراسة تحليلية نقديّة لتوصيف «هيرودوت» للدين عند العرب القدماء.

- تقديم توصيف منفصل للنقوش المعينية التي بلغت (٣٠٥) نقشاً والتي جمعها من أطلال ثلاث مدن معينية[١].

كما حرص على رسم خرائط جغرافية لمسار رحلته، ولوادي سبأ، والجوف الأسفل، ووادي الدجر، ونجران، وبلاد الدواسر وغيرها.

(١) وجد هاليفي أنه يمكن تقسيم محتوى هذه النقوش إلى مجموعتين: مجموعة تتضمن عبارات «إهداء» وتخصيص المعلّم الأثري. والمجموعة الثانية تتضمن اللعنة لمن يتجرأ على هدم هذه الصروح المقدّسة أو العبث بمحتوياتها المخصصة للعبادة.

رحلة ألبير ديفلرز

Albert Deflers (١٨٤١-١٩٢١)[١]

ألبير ديفلرز[٢] Albert Deflers، عالم نباتات فرنسي، دفعه طموحه لإكمال المسيرة العلمية التي بدأها فورسكال Forskahl، وايهرينبرج Ehrenberg، وبوفيه Bové، وبوتا Botta، الذين مثّلت أبحاثهم وما تضمنته من معلومات مناخية وجغرافية، وما جمعوه من العينات النباتية من بعض مناطق اليمن، قيمة علمية نادرة.

وقد أشار إلى أن رحلته العلمية إلى اليمن لن تكون تكراراً لمن سبقوه، بل تكميلاً لجهودهم، خاصة وأن الغطاء النباتي للمناطق الساحلية وبعض المناطق كـ «بيت الفقيه» و«حيس» و«جبلة» و«العدين» و«تعز»، أصبح معروفاً في أوروبا، بينما يظل الغطاء النباتي في المناطق الجبلية في الداخل اليمني مجهولاً للأوروبيين، وهي التي سيركز أبحاثه فيها، حيث تعذّر على فورسكال الوصول إليها بسبب وفاته، ولم يتمكن بوتا من استكشافها بسبب مرضه. وقد وضع مساراً لرحلته العلمية بالسفر إلى صنعاء عبر مناخة، ومن بعدها يعود عبر ذمار ويريم وتعز وصولاً إلى عدن.

قام برحلته هذه إلى اليمن خلال عام ١٨٨٧، بتمويل من الحكومة الفرنسية،

---

(١) تلخيص وترجمة بتصرف لأهم ما جاء في يوميّات عالم النباتات ألبير ديفلرز والتي نشرها عام ١٨٨٩، ونجدها في المرجع التالي:

Deflers, Albert, 1889, Voyage au Yémen : journal d'une excursion botanique faite en 1887 dans les montagnes de l'Arabie Heureuse, Paris, éd. Paul Klincksieck.

(٢) ألبير ديفلرز، عالم نباتات فرنسي، من مواليد عام ١٨٤١، وتوفي في مدينة نانسي عام ١٩٢١، ينحدر من أسرة «قضاة»، تلقى تعليمه في كليّة الزراعة وأصبح مهندساً في مجال الري والغابات. تفرغ منذ عام ١٨٨٠ للعمل في جمع ودراسة عيّنات النباتات من (نيل مصر، أويوك، السويس، جدة، مصوع، الحديدة، شبام، كوكبان، عمران، ذمار، يريم، إب، تعز، زبيد، بيت الفقيه، حضرموت، الطويلة، سراجة، وعمان). [موسوعة الويكيبيديا].

وانطلق من السويس في مصر، حيث كان مقيماً هناك منذ عدة سنوات، على متن سفينة «الحديدة» المملوكة لشركة «الخديوي» بتاريخ ١١ مارس ١٨٨٧، وقد نزل في «جدة»، وسافر منها إلى «مصوّع»، وجمع بعض العينات من النباتات والأعشاب. لم يتمكن من النزول في جزيرة كمران ؛ لعدم السماح للسفينة بالرسو حيث كانت الجزيرة تُستغل في ذلك الحين كمحطة للحَجْر الصحّي للحجاج القادمين من الهند والمتوجهين إلى مكة.

وصل إلى الحديدة في ٢٥ مارس، ولعدم وجود ميناء معدٍّ لرسوِّ السُّفن، كان عليهم الرسو على بعد ميل في المياه العميقة، حيث يُنقل الركاب إلى الشاطئ بواسطة قوارب صغيرة. ركب أحد هذه القوارب بصحبة مرافقه الشخصي حسن المصري ومعهما الأمتعة، ووقف بعيداً عن الرصيف بعدة أمتار كي يتمكن من مساومة الحمّالين الّذين يتسابقون ويتدافعون ويلفون شيلانهم ويرمونها باتجاه القارب، ومَنْ وقع شاله على الأمتعه أصبح له الحق في حملها. كان يوم وصوله يصادف الجمعة، يوم راحة نهاية الأسبوع لموظفي الجمارك ، فاضطر لإبقاء أمتعته في مبنى الجمارك، واستأجر غرفة بشرفة في نُزلٍ تركي.

وصف مدينة الحُديدَة:

وصف الحديدة بقوله إنّها أصبحت المركز التجاري البحري الوحيد لكافة بلاد اليمن العثمانية، وذلك منذ تدهور مينائي اللحيّة والمخا، وبعد أن غمرت الرمالُ ميناء غلافقة. منازل المدينة مبنية بالحجارة وتتكون من عدة طوابق، ومحاطة بجدار منيع من جميع الجهات عدا جهة البحر. في الضواحي الجنوبية والشرقية تنتشر العشش والعُرُش مثل بقيّة المناطق التهامية، وتحتوي جميعها على نفس الأثاث تقريباً، والذي يتكوّن في الغالب من بضعة كراسٍ وسراير (عبارة عن إطار خشبي محمول على أربعة أرجل وتتوسطه حبال مشدودة)، ومرافع تُستخدم كطاولات، والشيء الأهم وهو (المداعة). شوارع المدينة ضيقة ومتعرّجة. المساجد والمباني الحكومية ليس لها طابع معماري مميّز، وهناك بعض المنازل الجميلة التي يمتلكها بعض التجار الموسرين مثل منزل سيدي هارون، الذي يطل على البحر ويقع بين النّزل والدّكة، واجهتُه مزخرفة على النمط الهندي، وفيه فناءٌ

أرضيته من الرخام الأسود، وفيه حوض نافورة ومظلة على أعمدة رفيعة من الخشب المنحوت بطريقة أنيقة.

وإضافةً إلى أهل البلد من اليمنيين العرب، والحامية التركية والمسؤولين الأتراك، يقطن في الحديدة خليطٌ من الناس، يونانيون، دناكل أتوا من جيبوتي وعصب والصومال، وهنود بانيان وفرس. وفي الضاحية الشرقية تسكن فئة المهمشين (الأخدام)، الذين يعيشون بمنأى عن الآخرين ولا يحملون السلاح. لا يوجد ممثليات دبلوماسية في اليمن سوى لإيطاليا وبلاد فارس، ولكل منهما مسؤول قنصلي معتمد، والمسؤول القنصلي الإيراني مفوَّض في حماية الرعايا الإنجليز، والمسؤول القنصلي الإيطالي يحتفظ بسجلات أرشيف الوكالة الفرنسية التي كانت متواجدة في الحديدة قبل سنوات قليلة مضت.

في الضّاحية الشماليّة الشرقيّة توجد بعض الآبار والحدائق، وكذا حول العشش التي تبعد مسافة كيلومتر عن المستشفى العسكري، يُزرع في هذه الحدائق النخيل والدوم والموز والرمّان والبطيخ والعديد من الخضروات (كالفول والفاصوليا والطماطم والباميا، والكرّاث)، ويُزرع الريحان والياسمين وزهر السيسبان. وتستخدم مياه الآبار في الري عبر السواقي أو عن طريق غرفها بالإستعانة بالثيران والجمال. وفي قرية «المنظر» Mantar، التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات من الحديدة، وجدَ خمسة عشر بئراً يصل متوسط عمقها ما بين ١٠ إلى ١٢ متراً، وليس فيها سوى بئر عمومي كبير، وإلى جانبه حوض تشربُ منه البهائم، وتُنقل منه مياه الشرب إلى الحديدة بواسطة أوانٍ حديدية أو قِرَب جلدية.

إجراءات التّنقل في اليمن:

واجه عالم النباتات ألبر ديفلرز بعض العراقيل قبل السماح له بالتنقل في أنحاء اليمن للقيام بأبحاثه، حيث كان يُسمح للمسافرين الذين يقصدون اليمن بغرض الاتجار بالتنقل بحريةٍ في أرجاء البلاد دون الحاجة إلى إذن خاص. أما أولئك الذين يأتون في مهام علمية، فكان يلزمهم الحصول على توصية من ديوان القسطنطينية، وقد يحظون بالموافقة أو يتم رفض طلبهم حسب مزاج الوالي.

كان عزيز باشا، والياً على اليمن في ذلك الحين، وقد وصفه ديفلرز « بقصر النظر، وبأنّه لا يعرف كيف يتعامل مع الأجانب الذين يأتون لعمل دراسات مفيدة، وبأنه متغطرس ومحدود القدرات، وليس بوسعه إفشال محاولة حقيقية لزعزعة هيمنته على اليمن». تصادف في ذلك الحين أنْ غادر عزيز باشا مقر إقامته في صنعاء وبدأ بجولة تفقدية في الولاية، وصل الحديدة في ٢٩ مارس، وذهب ديفلرز لمقابلته، وشرح له الغرض من رحلته هذه، وطلب منه السماح له بالقيام بالرحلة واصطحاب بنادقه الثلاث التي تمَّ احتجازها في الجمارك بأمر من متصرّف الحديدة (المحافظ). لكنّه تفاجأ برفض الوالي القاطع، بل وبمنعه من السفر إلى داخل اليمن قبل الحصول على إذن خاص من الباب العالي. وسُمح له بالبقاء في مدينة الحديدة والتجول فيها شريطة عدم تجميع رسومات أو صور وغيرها، وعدم القيام بجمع عينات نباتية. أثناء فترة انتظار وصول الإذن من الباب العالي الذي تقدمت بطلبه السفارة الفرنسية في القسطنطينية، قام برصد المتغيرات المناخية والطقس معتمداً على بعض أجهزة الرّصد التي جلبها معه، ووجد أنّ مناخ الحديدة غير صحيّ، حيث يتفشى مرض الملاريا في كل المواسم ولدرجة مخيفة، وقد تناول هو ومرافقه «حسن» مادة سلفات الكينين Sulfate de quinine كإجراء وقائي لتجنيبهم الإصابة بهذا المرض.

المراوعة- القزعة- باجل - ديور سالم – وادي سهام- جبل مسار، جبل شبام، دير عزة- جبل صعفان:

وصل الإذنُ الخاص من الباب العالي بتاريخ ١٩ أبريل، وسُمِحَ لعالم النباتات ديفلرز بالتجوّل بحرية تامة في انحاء اليمن. غادر ديفلرز مدينة الحديدة عند غروب شمس الـ ٢٣ مارس، متجهاً صوب قرية «المراوعة» التي تقع على مسير نصف نهار شرق الحديدة. وصل هذه القرية قرابة الساعة ١٠:٣٠ مساءً، وكان مقياس الحرارة يسجل ٣٠° مئوية. وجدَ في «المراوعة» ما يقارب الثلاثمائة إلى الأربعمائة عشة وعريش[1] مستطيلة الشكل، وفيها ثلاثة مساجد صغيرة مبنية

(١) العشش في منطقة تهامة ذات شكل مخروطي، بينما تكون العُرُش مستطيلة الشكل.

بالحجارة، ومستودعات لتخزين البُن مبنية بالياجور المحروق. لاحظ في الناحية الجنوبية من القرية وجود عشش مخروطية الشكل، وبعض الآبار التي حُفرت على عمق ١٥ متر تقريباً وتحتوي على مياه مقبولة تصل درجة حرارتها إلى ٣٥° أو ٣٦° مئوية. وبالنسبة للصناعات والحرف المحليّة، فقد رصد بعض أعمال الحياكة، ومعاصر كبيرة لزيت السمسم تعتمد على الجِمَال. وجد أن الغطاء النباتي في «المراوعة» لا يختلف بشكل كبير عمّا هو موجود في الحديدة. غادر المراوعة في عصر يوم ٢٤ مارس تحت شمس حارقة حيث وصلت درجة الحرارة في الظل إلى ٣٥° مئوية، سار في اتجاه قرية «القزعة»، راصداً تغير الغطاء النباتي، وانحسار التصحر، وبدء ظهور حقول الذرة والمناطق الزراعية في منطقة تهامة. كما بدأت المنازل المبنية بالحجارة تحلّ محلّ العشش.

وفي «باجل» التي تحتل وادياً عند سفح بعض التلال الصغيرة، رأى بعض البيوت التي تنتصب بين العشش، وقصراً قديماً من الياجور خُصِّص كمقر إقامة «للقائم مقام»، ويزرع في الوادي بعض أنواع الحبوب كالذرة، والدخن، والرومي (الذرة الشامية). وقد لاحظ انتشار الأعشاب الضّارة في هذه الحقول. كان يعتزم مغادرة «باجل» في مساء يوم ٢٥ مارس، لكنّ اندلاع عاصفة رمليّة منعته من المغادرة، واضطرته لتأجيل سفره إلى اليوم التالي . وفي المساء هطلت أمطار خفيفة متقطعة لطّفت الجو وساعدت على انخفاض درجة الحرارة إلى ٢٨° مئوية ووصلت مع الفجر إلى ٢٥° مئوية.

وجد في قرية «ديور سالم»، في اتجاه الجنوب شرق، أنَّ الفلاّحين يرتدون فوطة، ويتحزّمون بحزام تتوسطه جنبية، ومنهم من كان يحمل سيفاً قصيراً Djirda يتدلى من على الكتف، وبعضهم يحمل رمحاً Gharîz، وكانوا يلقون عليه التحية بقولهم « السلام عليكم» و « مرحبا»، وكانت النسوة يرتدين فساتين قطنية زرقاء اللون، وسراويل طويلة تغطي أسفل الكعبين، ويضعن فوق رؤوسهن قبعة مخروطية من القش. وقد وافق سابقيه من الرحالة الرأي بأن بشرة سكان المناطق الجبلية في اليمن لها نفس ملامح الأوروبيين، بل وجد أنّ الشبه كبير إلى حدٍ مُلفتٍ

للنظر[1].

الحُجيلة:

وصل عالم النباتات ديفلرز إلى قرية «الحُجيلة» في عصر ٢٦ مارس، وأقام بها حتى ٦ يونيو، وهي تقع على وادٍ عند سفح جبل «صعفان»، ووجدها تضم أقل من مائة كوخ عبارة عن خليط من عشش تهامة والمنازل الحجرية في المناطق الجبلية. مساكنها منخفضة ومظلمة، وتتكون من أربعة جدران مبنية عشوائياً دون أعمدة تحمل سقفاً مسطحاً من فروع الأشجار المتشابكة والمترابطة. ومن الداخل تطلى الجدران بالطين المخلوط بروث البقر. يوجد في بعض هذه المساكن فناء، وبها أسرّة، وهو نوع من الرفاه لم يشاهده في المناطق الجبليّة. وفوق القرية على ارتفاع اثني عشر متراً بُنيت دارٌ جميلة تابعة للجيش التركي، ويقيم بها صف ضابط، أشاد بخلقه ومساعدته له في الحصول على سكن مريح. في سوق الخميس الأسبوعي الذي يحضره سكان المناطق المجاورة، شاهد ديفلرز جنبية جميلة وباهظة الثمن في غمد فضي مزخرف بطريقة فنيه ومعلق بحزام منسوج من وبر الإبل وتتخلله خيوط ذهبية نُسجت بشكل منمّق ومنتظم، ونوعية النصل هي التي أضفت القيمة على هذه الجنبية؛ إذ ينتهي النّصل بمقبض على هيئة قرن ذي تجويف صغير في الوسط ومزيّن بقطعتين أو ثلاث قطع معدنية من العملات القديمة.

تناهى إلى سمعه كثيراً بأنّ المنطقة موبؤة بالأمراض، ولكن وعلى عكس توقعات الأهالي والضابط التركي، فلم يتعرض لأيّ مرض، على عكس مرافقه الشخصي الذي أصيب ثاني يوم من وصولهم بحُمّى شديدة، وكانت المرّة الوحيدة التي يمرض فيها خلال الرحلة.

كانت توجد بالقرية بئر واحدة، تجتمع حولها نساء القرية لجلب الماء وللحديث الذي يبدأ ولا ينتهي، وقام بقياس درجة حرارة الماء التي بلغت ٢٨°

---

(١) عبّر عن عدم اتفاقه مع الرأي القائل بأن هذا الشبه مع الأوروبيين مؤشر على تفوق اليمنيين على غيرهم من العرب، ويرى من وجهة نظره بأن أحفاد يقطان / قحطان يأتون في مرتبة أدنى من نسل إسماعيل، سواء من حيث جمال الشكل أو من حيث الذكاء.

مئويّة. ووصفها بأنّها مُوحلة وقذرة، وبأنّها ربما تكون السبب في العديد من الأمراض المتفشيّة في القرية.

سُحرَ بالمناظر الخلابة في الأماكن المحيطة بقرية «الحُجيلة»، بسمائها الصافية، وبروعة الجبال المحيطة بالوادي، والغطاء النباتي الاستوائي المتنوع، وبالفراشات متنوعة الأشكال والألوان، والطيور ذات الألوان الزاهية التي تزيد جمال الطبيعة سحراً. وبالعيون والجداول ومياهها الرقراقة التي تنبع من بين الصخور وعلى جانبيها ينمو خليط فاتن من الأزهار. وقال إنّ هذه المناظر تركت في نفسه أثراً جميلاً لم يشعر به في أيّ مكان آخر.

وخلال إقامته في قرية «الحُجيلة» كان يقوم يومياً بجمع ودراسة عينات النباتات والأعشاب في الوديان المحيطة بجبل صعفان (وادي برا ر، وادي ديان، وادي شبه، وادي حار، وغيرها)[1]، وإضافةً إلى الأشجار المتناثرة هنا وهناك وخاصة من أشجار التين والسنط التي تختفي وسط بساط أخضر تغطيه أنواع لا تحصى من الزهور ذات اللون الأصفر الذهبي، شاهدَ كثيراً من حقول القمح والذرة والذرة الشامية، وكذا العديد من النباتات المتسلقة على الأشجار أو تلك التي تشكل أكاليل على الصخور الجبلية. وقد وجد في وادي حار، شجرة الكركديه، والتي يعتقد أنَّ اليمن ليس موطنها الأصلي وربما تكون جُلبت من الهند.

وادي برار، جبل أصيل، قرية أصيل:

غادر ديفلرز قرية الحُجيلة في ٦ مايو الساعة ٧:٣٠ صباحاً، وعندما وصل إلى «وادي برار»، والظل والجو المنعش يُسكنان المكان، علّق على منظر القرى فوق الجبال المطلّة على الوادي بقوله : «منظر القرى العالقة في قمم الجبال، والشمس تتعقبها بأشعتها وتلقي عليها هالة من النور، والبيوت الحجرية العالية، والحصون

---

(١) تشتهر محافظة الحديدة بكثرة الوديان، وأهمها : وادي مور، وادي سردود، وادي سهام، وادي زبيد، وادي رماع، وادي نخلة، وادي أثباب، الغليسي، حطب، المحجر، سدام، قراحص، جاحف، رمانة، العقوم، الكبدية، الرباط، مريم، وغيرها. [موسوعة ويكيبيديا + بوابة المركز الوطني للمعلومات].

ذات النوافذ الصغيرة، أحيت في ذاكرتي صورة أطلال العهد الإقطاعي في جبال الفوج Les Vosges، على ضفاف نهر الراين، وهذه القرى وتلك التي في ألمانيا تحمل الاسم نفسه «حصن».»

بعد أن قطع الوادي، توقف عند عينٍ ذات مياه عذبة باردة وسائغة للشرب، ووجدها تختلف كثيراً عن مياه تهامة الدافئة وغير الصحيّة.

وعند صعود جبل أُصيل Usil، بمنحدراته المتعرجة والذي يشكل كتلة صخرية منفصلة عن جبل صعفان وجبل مَسار، شاهد أول مزارع البن، في جبل يكتسي بالخضرة، تتخلله المدرجات المنتظمة والمزروعة، وتنمو فيه نباتات عشوائية في الأماكن النادرة التي لم تزرع بالبن. وقد جمع عينات كثيرة من الأعشاب والنباتات في هذا الجبل. وفي قرية أصيل Usil التي ظل فيها عدة ساعات بانتظار الجمال المحمّلة بأغراضه، والتي تقع على ارتفاع مكّنه من مشاهدة جبل حراز الذي تغطيه مزارع البن، وبعض القرى المحيطة التي أسماها (شاجة Schadjeh، شيزه Schizah، لكمة تعز Lakamet-Tâez، لكمة القيشاني Lakamet el-Quechani، بني العريف Béni el-Hârif، الحُجير el-Hodjeir، جبل هوزن Hauzân، قرية الطويل el-Tueyl التي تقع في الناحية الجنوبية وبها حصن عالٍ جداً يمكن رؤيته من الحديدة.).

عند الساعة ٣:٠٠ عصراً تلبّدت السماء بالغيوم، وصاحب ذلك موجة رعود عنيفة، أعقبها مطرٌ غزير محمل بالبرَد واستمرّ حتى الساعة ٥:٣٠، ونجمَ عنه انخفاض ملحوظ لدرجة الحرارة. يقول ديفلرز بأن هذه السحب الكثيفة مشهورة بين اوساط الأهالي باسم «عُمّه» أو «سخيماني»، وهي تتشكّل كل يوم وفي نفس التوقيت كظاهرة مناخية منتظمة.

بعد المطر، شاهد فوق الصخور مجاميع غفيرة من دود أسود كبيرة الحجم جذبتها رطوبة المطر وأخرجتها من مخابئها، بعض منها يصل طولها إلى ٢٠ سم، واستشهد بقول جلايسر Glaser، بأنها تسمى «حُلبّان» و «حلبيبان» في بعض المناطق اليمنية، وأنّها من الجائز أنْ تكون الثعابين الأسطورية التي تحمي شجرة

اللّبان حسب وصف هيرودوت Hérodote . علّق عليها ديفلرز بأنّها مثيرة للاشمئزاز، إلا أنّها غير مؤذية، ولا تحاول الهرب ممن يحاول الإمساك بها.

لم تصل الجمال المحمّلة بأمتعته حتى صباح ٧ مايو، فاضطر لنزول جبل أُصيل Usil، وعند سفح الجبل في «وادي ديان»، رأى قافلة الجِمال والجمّالين نائمين بجوار الصناديق بأمان، ولتنبيههم قام «علي» الذي يسوق البغال بإطلاق عيار ناري، ففزع الجمّالون وأطلقوا سيقانهم للريح، ولم يعودوا. كانت الجمال مرهقة، وجُرح أحدها في ساقه، فاضطروا لحمل الأغراض على ظهور البغال إلى السقيفة التي كانوا فيها. وعند الغروب جاء ستة من رجال القبائل مسلّحين ببنادقهم، لقضاء الليلة في السقيفة قبل التوجه في اليوم التالي إلى سوق عُبال في وادي سهام، وقد اتفق مع اثنين منهم على سَوق الجمال التي تركها الجمّالون إلى مناخة مقابل مبلغ من المال. كان متوجساً منهم حيث قال : « استلقيت للنوم ووضعت بجانبي البندقيّة والذخيرة التي جذبت أنظار هؤلاء الرجال، عملٌ إحترازي غير موفق؛ لأنّني استسلمت للنوم بسرعة من جرّاء التّعب، وأصبحت فريسة سهلة لهؤلاء الرّجال المسلحين الذين لم تكن لديهم نوايا لسلبي.»

جبل مسار، قرية عتارة، مناخة :

غادر عالم النباتات ديفلرز قرية أُصيل Usil صباح يوم ٨ مايو عند الساعة ٦:٠٠ صباحاً باتجاه «مناخة» سيراً على الأقدام، واضطر لحمل أغراضه على البغال بسبب تعذر حملها على جملين جريحين. وقد شاهد على اليمين من جبل «مسار» أراضي ممتدة خصبة تغطيها المحاصيل الزراعة وحقول البُن. وفي طريقه جمع عينات كثيرة من النباتات والزهور والأعشاب.

وصل ديفلرز الساعة ٨:٠٠ إلى قرية «عتارة»، والتي تقع عند سفح إحدى القمم شديدة الانحدار والتي يبلغ ارتفاعها نحو ستين متراً، وفوقها حصنٌ طاله الخراب، كان قبل الاحتلال العثماني مقر إقامة الداعي أحمد الشبامي، من كبار الإقطاعيين، الذي ينحدر من قبيلة يام، ويمتد نفوذه إلى نجران حيث موطن قبيلته، وبلاد همدان شمال صنعاء، وحراز. ووصف أهالي قرية «عتارة» بكرم الضيافة، فقد تسابقوا لإرشاده لزيارة الحصن حالما أعرب عن رغبته في زيارته، والذي لا يمكن

الوصول إليه إلا عن طريق شديد الانحدار وشديد الخطورة. ووجد أنه لم يتبق من هذا الحصن الذي دمّره الأتراك عام ١٨٧٢ سوى الأساسات الضخمة وبعض أجزاء من الجدران. وعند العودة إلى القرية دعاه أحد الأهالي لتناول قهوة القشر في منزله المتواضع، ورفض جميع من رافقوه إلى الحصن أخذ أية مكافأة مالية، بل حظي بمزيد من الترحيب وعرض الخدمات.

وجدَ في قرية «عتارة» نوعاً من أشجار الصبّار التي يتراوح طولها ما بين أربعة و خمسة أمتار ويبلغ قطر جذعها نصف متر. واصل السير على الجانب الأيمن لوادي عياش، ومن ثم انتقل إلى الجانب الأيسر عبر جسر مقوّس مشيّد من الأحجار يجري من تحته جدول ماء. وسار إلى هضبة تغطيها أشجار الصبار المختلفة، حيث يمتد النظر من جهة جنوب الغرب على سهول وادي سهام الخصبة، التي لا يحدها في الأفق البعيد سوى سلسلة جبال ريمة وجبل برع. اتجه صوب جنوب الشرق، ولاحظ أن الغطاء النباتي بدأ يتغير بشكل ملفت للنظر، وبدأ المنظر يأخذ طابع جبال الألب، ولم يعد هناك مزارع للبن، بل حقول ممتدة للشعير والقمح، ومروج خضراء. وفي الساعة ١٠:٠٠ صباحاً وصل إلى قمة تقع بين جبل مسار وجبل شبام والتي يبلغ ارتفاعها ٢٤٠٩م بعد أن سبر الارتفاع عدّة مرّات. وعلى بعد ١٥٠٠ م من جهة اليسار تطل قرية «الهجَرة» معلّقة كعش النسر فوق جبل مسار. بدأ يسلك طريقاً ينزل به إلى جبل شبام، ومرّ من خلال وادي معزب، وهو أحد روافد وادي سردد، حيث تتجمع المياه المنحدرة من الجبال المحيطة.

وصل الساعة ١١:٣٠ إلى «مدينة مناخة»، بعد أنْ مرّ بالقرب من قرية اليهود «اللّكَمَة»، والتي تعتبر ضاحية منفصلة عن المدينة. وقد وصف مناخة بقوله : «مناخة، عاصمة مديرية حراز، مدينة صغيرة يقطنها حوالي ٣٠٠٠ نسمة، تقع عند منحدرات جبل كاهل ، في الشمال الشرقي من جبل شبام. البيوت عالية، وتتكون من طابقين أو ثلاثة، ومبنية من حجر أخضر فاتح اللون يُنحت من جبل معزب، وتبرز كتلة المباني الملوّنة بشكل جميل وبتمايز مذهل مع كتلة الصخور القاتمة، ويزيد المنظر جمالاً مآذن المساجد البيضاء. وهنا نجد النموذج الأولي للنمط المعماري الشائع في مدن الهضبة. واجهات عالية وضيقة تتخللها نوافذ صغيرة

ذات زجاج ملوّن متداخل على هيئة أرابيسك متنوع. بنى الأتراك في مناخة مستشفى عسكرياً جميلاً، وثكنة عسكرية ومبنىً حكومياً. ويوجد بالمدينة مكتب للبريد وتلغراف. كما يقام فيها سوق أسبوعي كبير كل يوم أحد. وتقع على ارتفاع ٢٣٢٢ م حسب مقياس فورتين.

خلال إقامتي كانت درجة الحرارة الصغرى ١٨° مئويّة، والكبرى ٢٥°. وتطلّ مناخة من جهة الشرق على وادي شجا المتفرع من وادي زون مصب جميع السيول التي تنزل من شمال شرق حراز، والتي تواصل طريقها إلى وادي سردد. من جهة الشمال والشمال شرق ينتصب جبل هُذار Hudhar، وهو عبارة عن تلّة صغيرة يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٠٠ متر، تتخللها مدرّجات مزروعة، وعليها حصنٌ تقيم فيه حامية تركيّة صغيرة. وعند سفح هذه التلّة توجد عزلة فيها ما يقارب الثلاثين منزلاً، ونجد في جهة الشمال غرب وادي معزب.»

وادي زون **Zaun**، قرية الزية **el-Zeyé**، حضور **Hadhûr**، مفحق **Mefhak**، سوق الخميس **Suq el-Khamiss**، جبل حاج **Hadj**، قرن الوعل **Karn el-Wa'l**، سوق بوعان **Bauân**، وقرية القليس **El-Qeliss** ، قرية يزيل **Yàzil**، قرية متنه **Metne**، بيت نعام **Beyt Nâm**، قرية لولوة **Lulua**، القَسَم **el-Ksam**، بيت عذران **Beyt Adrân**، قرية عَصِر **Asr** :

قام ديفلرز بجمع العيّنات الجديدة من النباتات والأعشاب التي وجدها في مناخة والمناطق التي حولها، وفي ١٨ مايو، الساعة ٦:٣٠ صباحاً غادرها متجهاً صوب الشرق، قطع وادي زون ، وبعد أن مرّ من جانب قرية الزيه el-Zeyà، شاهد مجموعة كبيرة من القردة ذات الذيل الطويل بصدد تدمير حقل ذرة بثقة، معتمدة على خفتها وقدرتها على قياس حدود منطقة الخطر، ابتعدت ببطء ووقفت عند الحدّ الّذي لا تطاله البندقيّة. شاهد قرية «بيت ابن المهدي»، الواقعة على تلّة، وعلى مسافة منها ليست بالبعيدة تقع عزلة البيعة. في هذه المناطق لاحظ أنّ الرجال الذين كان يصادفهم يحملون إلى جانب السيف، رمحاً طويلاً (حربة)، يختلف عن الـ غريز Ghariz الرمح القصير في تهامة.

وصل إلى حضور، ومن ثم إلى مفحق في الحيمة. وحين وصل إلى قرية سوق خميس، جرّب لأول مرة النزول في «سمْسرَة»، وقد وصفها بقوله: « السمسرة هي النُّزُل الوحيد المتاح للمسافرين، وهي عبارة عن غرفة يُصعد إليها عبر درَج حجري غير منتظم، وتحتها حظيرة مخصصة للأبقار والبهائم، وتنبعث منها روائح كريهة، وعند النوم هاجمتني جحافل من البراغيث والبق، لم تدعني أنام رغم أنّني كنت منهكاً، ولا يستطيع الأهالي النوم هنا إلا بعد أن يغلقوا على أنفسهم بإحكام في أكياس معدّة للنوم، نوع من العذاب لم أتمكن من تجريبه، وفي الصباح وجدت بقع دم منتشرة على الملاءة التي نمت عليها، من بقايا دمي الذي استباحته براغيث سوق الخميس.»

وصل إلى سوق بوعان، في وادي الصباحة، وهو سوق كبير يقام كل يوم خميس، ويأتيه المزارعون من المناطق المحيطة به بمنتجاتهم الزراعية ويضعونها أمامهم، في الدكاكين الصغيرة التي أعدت لهذا الغرض والمنتشرة حول مقهى كبير، والتي يصل عددها إلى ما يقارب المائة، وتصل أطوالها إلى مترين في متر من الأحجار المبنية عشوائياً والتي وضعت بعضها فوق البعض. وقد شاهد فلاحين أتوا إليها من مسافة تبعد عشرين كيلو متراً، واشترى منهم سلة فرسك وسلة مشمش. وإلى جانب السوق شاهد جدول ماء جارٍ وفوقه جسر للعبور قد تهالكت درجاته.

واصل السير حتى وصل إلى جسر «عصفورة» أو جسر «سنان باشا»، وهو عبارة عن عقد مقوس طوله خمسة أمتار ومن تحته يجري نهرٌ[1] صغير، وعلى ضفافه وجد مجموعة من النباتات التي جمع عينات منها. واصل السير حتى قرية متنه التي تقع على أعلى منطقة مرتفعة ٢٨٩٣ م، وعلى يمين القرية شاهد مبنىً دائريّا كبيراً معزولاً، بني بالحجارة المنحوته وليس له نوافذ، يُسمّى «خان سنان باشا»، وهو عبارة عن صالة كبيرة بيضاوية الشكل مقسمة إلى مقصورات حيث يمكن للمسافرين الاستراحة فيها مع بهائمهم. واصل المسير في اتجاه الشمال شرق، على بعد ١٥٠٠ م من قرية المساجد، وقطع عدة جداول ماء تمرّ عبر وادي ضلاع

---

(١) عبّر عالم النباتات الفرنسي ديفلرز عن جداول المياه الجارية في اليمن في جميع المواضع بكلمة Rivière التي يقابلها باللغة العربية (نهر).

ووادي ظَهْر، وتصبُّ شمال صنعاء في نهر الخارد الذي يمثل الشريان الرئيسي لبلاد الجوف. بالقرب من قرية بيت نعام، وجد العديد من السحالي ذات الألوان الجميلة الزرقاء والأرجوانية، تقف على الصخور، قتل إحداها واحتفظ برفاتها وسط الكحول، وقد أوهمه «عليّ» الذي يسوق له البغال بأنه لن يفلت من عقاب ملك الحواني الذي قتله على غفلة منه، وهذا وفقاً للاعتقاد السائد بين الأهالي بأن من يقتل حواني يموت في نفس العام.

صنعاء :

عند الساعة الثالثة عصراً، وصل ديفلرز إلى هضبة تقع على مسافة ١٥٠٠ متر جنوب قرية بيت عذران Beyt Adrân، ومن هنا كانت له إطلاله على صنعاء من بعيد، وقد عَبَرَ عن مشاهدته الأولى لها بما يلي :

«ظهرت لنا مدينة صنعاء، قابعة عند سفح جبل نقم، على قاعٍ ترابي، وتحت أشعة الشمس المائلة للغروب، نرى بوضوح بيوت صنعاء الناصعة البياض ومآذن وقباب مساجدها الـ ٤٨، وجدرانها الضخمة العالية بأبراجها، والقصر الذي يقع على تبّة غمدان في أطراف الحي الشرقي. وعلى بعد ٦ أو ٨ كيلومترات، نشاهد مآذن وحدائق مدينة الروضة، حيث يمتلك أغنياء العاصمة منازل للاستجمام. وما بين المدينتين نشاهد شريطاً من البساط النباتي الأخضر، الذي يبرز بقوة على قاع صنعاء الترابي.»

واصل طريقه باتجاه صنعاء، ومرّ بالقرب من بئر عميقة ذات أربع زوايا دائرية، وإلى جانبها بُنيت سقيفة من الأحجار، وسار في طريق واسع، وتوقّف عند نبع ماء يُدعى نبع «سنان باشا»، على مقربة من قرية عَصِر، حيث شاهد منازلَ محاطة بأسوار وبساتين خضراء، وتسير مياه النبع في قنوات وتغذي حوض ماء كبير. وبعد مسير ساعة في اتجاه الشرق، مرّ على حقول يزرع فيها الشعير، كما وجد بئراً كبيرة ينمو حولها صنف من نبات البوتاموت Potamots الشائع في أوروبا. وعلى بعد بضعة مئات من الأمتار، شاهد جدران «قاع اليهود».

ذكرَ ديفلرز بأن العادة جرت على أن يدخل المسافرون القادمون من جهة

الغرب، من «باب قاع اليهود»[1]، ومِنْ ثمّ يتوجهون إلى السوق في الجهة المقابلة مروراً بضاحية «بير العزب» و «المتوكّل». لكنّه ونزولاً على رغبة مرافقه «عليّ» الذي استغل إقامته في مناخة وتزوّج بفتاة من منطقة «حراز»، والتي تعدّ زوجته الثالثة وكانت برفقته. خالف ديفلرز رغبته ولم يدخل من «باب اليهود»، وسار بمحاذاة الجزء الجنوبي للجدار مروراً بالمقابر[2] الشاسعة التي تمتد إلى أطراف المدينة، وبعدها عبر جدول ماءٍ جارٍ يغذي منطقة المتوكل. ومن ثم سار قبالة ثكنات للمشاة، في معسكر «العرضي» الذي يقع خارج المدينة والمحاط بسور من نمط خاص. وعند الساعة ٦:٠٠ مساءً دخل مدينة صنعاء عبر بوابتها الجنوبية «باب اليمن» المطلّ على طريق تعز وعدن (طريق اليمن). كان في استقباله تاجران إيطاليان، الأخوان (لويجي Luigi و جيوسب كابروتي Giuseppe Caproti)، كانا مقيمين في صنعاء وممثلين عن شركة مازوتشيللي وبريرا Mazzucchelli & Perera، وأسكناه في شقة واسعة ومريحة في المنزل الذي كانا يسكنان فيه بجوار مسجد صلاح الدين.

خلال فترة إقامته في صنعاء التي امتدت من ٢٣ مايو حتى ٢٩ يوليو، قام برصد التغيرات المناخية، حيث لاحظ أن درجة الحرارة ثابته في وسط النهار، وكانت تتراوح ما بين ٢٤° و ٢٥° مئوية، بينما تكون ما بين ١٢° و ١٣° عند شروق الشمس. وعندما يشتد البرد في منتصف شهر يناير كانت درجة الحرارة تنزل في بعض الأحيان إلى -٣° تحت الصفر عند الفجر. وتهبُّ على صنعاء رياح شمالية وشمالية غربية ورياح جنوبية جنوبية شرقية، وكثيراً ما تتشكل أعاصير ترابية صغيرة بطيئة السرعة. لاحظ تشكُّل طبقات الغمام في صنعاء في الساعات القليلة التي تسبق غروب الشمس، خاصة خلال موسم تساقط أمطار الخريف. كما وجد أنّ صنعاء تقع على ارتفاع ٢٣٣٢م.

---

(١) لسور صنعاء القديمة أربعة أبواب رئيسية (باب اليمن، باب شعوب، باب ستران أو باب القصر، باب السبح) ، وأبواب أخرى غير رئيسية (باب خزيمة، باب الشقاديف، باب البلقة، باب الروم، باب القاع) [المصدر : موسوعة وكيبيديا ، بوابة صنعاء، بوابة اليمن]

(٢) مقبرة خزيمة.

وعن صنعاء قال أيضاً :

« مدينة صنعاء التي يطلق عليها اليمنيون «كرسيّ اليمن» أو « أم الدنيا»، تأخذ شكل الرقم 8، وتضم المدينةَ نفسها التي تتكون من «السوق» والمباني الحكومية، وتنتهي عند «قلعة القصر» الظاهرة للعيان. وإلى جهة الشمال شرق، نجد منازل وحدائق «بير العزب»، يأتي بعدها «قاع اليهود». وما بين «المدينة» و«بير العزب» يقع حصن المتوكل، المقرّ السابق للإمام. وقد بنى الأتراك في الموضع الذي كان قصر الإمام مُقاماً فيه، مستشفى في غاية الروعة تصل سعته إلى ما يقارب الـ ٤٠٠ سرير، ويطل على حديقة واسعة تسقى من مياه «الغيل الأسود»[1] الذي ينبع من «حدين» بالقرب من «حزيز» على مسيرة نصف يوم جنوباً سيراً على الأقدام، وبعد أن يعبر من منطقة «المتوكل»، يتدفق في اتجاه مدينة «الروضة». وتصل المسافة بين «قلعة القصر» وباب «قاع اليهود» إلى حوالي ٤٢٨٠ م، بينما لا يتجاوز العرض بين أبعد نقطتين في المدينة الرئيسية ١٢٧٠ م، والمدينة محاطة بأكملها بسور يبلغ ارتفاعه ما بين ٨ إلى ١٠ أمتار، ومبني من الطين الصلب. وتتخلله أبراج على ارتفاع مترين إلى ثلاثة أمتار. ويضم الجدار حوالي عشرة أبواب، ويبلغ إجمالي طوله ١٣،٥ كم.

منطقة «المتوكل» و«قلعة القصر» ورغم أنّهما تدخلان ضمن السور الكبير للمدينة، إلا أنّهما معزولتان عن الأحياء المتاخمة بأسوار خاصة بهما، وتقعان على بعد بضعة مئات الأمتار من «ثكنات العرضي» المحصّنة والمخصصة للمدفعية والفرسان. يتميّز فن المعمار في صنعاء بوحدة النمط بشكل عام، إلى جانب التنوع في فنّ الزخرفة، في طابع فريد ومذهل. وتتكون معظم المنازل من الطابق الأرضي المبني من أحجار البازلت، يعلوه طابقان أو ثلاثة طوابق من الطوب المحروق. الأبواب الخارجية يعلوها قوس. النوافذ خشبية مختلفة الأحجام يحاط بعضها

---

(١) أشتهرت صنعاء بتعدد الغيول فيها وأهمها (غيل البرمكي، غيل آلاف، الغيل الأسود، غيل الباشا، غيل المهدي، غيل الجرداء أو المنصور، غيل الجراف، غيل علي، غيل مصطفى.)
(انظر : عبد الوهاب محمد عسلان (٢٠٠٠م) ، غيول صنعاء : دراسة تاريخية أثرية وثائقية، دار الفكر، دمشق، ط١)

بمشربية، ونجد فوق جميع النوافذ قمريّات ذات ألوان متعددة وزاهية.

مساجد صنعاء مثل كل المساجد، تتكون من صحن مستطيل فيه حوض للوضوء، وفي واجهة المسجد محراب باتجاه القبلة. وسقف المسجد محمول على أعمدة، وتتخلّله «قبه» أو عدة قباب ذات جدران بيضاء، وفي الزوايا ترتفع مئذنة أو اثنتان (صومعة). وباستثناء مآذن «الجامع الكبيرة» المبنية من الحجر، نجد بقية المآذن مبنية من الياجور المحروق. في المآذن الرئيسية لا يثبت هلال، ولكن مجسم حمامة ولها رمزية ترتبط بهجرة النبي[1] حينما لجأ إلى غار في جبل ثور، وكان القرشيون على أثره، وفي معجزة نسجت العنكبوت خيوطها على باب الغار، وجاءت حمامة ووضعت بيضها في العش ونامت عليه مستكينة، وعندما رأى القرشيون ذلك ظنّوا بأن أحداً لم يدخل الغار منذ وقت طويل.

يوجد في صنعاء ٤٨ مسجداً[2]، وما يزيد على العشرة حمّامات[3]، وبعض مبانٍ أخرى ليس لها طابع معماري مميز؛ كالديوان، وقصر المستشارين، ومبنى الحكومة، وغيرها.

المنازل الفاخرة تقع بشكل عام في منطقة «بير العزب»، حيث يقيم الوالي

---

(١) عليه الصلاة والسلام.

(٢) اشتهرت صنعاء القديمة بمساجدها التاريخية وأهمها (الجامع الكبير، جامع الحيمي «الباشا»، جامع نصير، جامع موسى، جامع الأنبر أو الأبزر، جامع القلعة، جامع مراد، جامع المتوكل، جامع الجناح، جامع المذّهب، جامع صلاح الدين، جامع البكيرية، جامع المفتون، جامع المدرسة، جامع الطواشي، جامع خضير، جامع الزمر، جامع عقيل، جامع الخراز، جامع الرضوان، جامع الأبهر، جامع معاذ، جامع طلحة، جامع الطاووس، جامع علي ابن أبي طالب، جامع الفليحي، جامع الجلاء، جامع العلمي، جامع أحمد بن الحسين، جامع غزل الباشا، جامع النّور، جامع بروم، جامع القاسمي، جامع الوشلي، جامع الجديد، جامع النهرين، جامع قبة المهدي، جامع التقوى، جامع سمرة، جامع جمال الدين، جامع محمود، جامع داؤود، جامع الشهيدين، جامع معمّر، جامع الحرقان.) [المصدر : موسوعة وكيبيديا ، بوابة صنعاء، بوابة اليمن]

(٣) ومن حمّامات صنعاء الشهيرة (حمّام السلطان، حمّام شُكر، حمّام الطواشي، حمّام الميدان، حمّام الجلاء، حمّام المتوكل، حمّام ياسر، حمام سبا أو القوعة). [المصدر : موسوعة وكيبيديا ، بوابة صنعاء، بوابة اليمن]

العثماني، ومع ذلك نجد الكثير من المنازل التي تقع في وسط المدينة ذات بساتين أو مطلّة عليها. توجد آبار ماء يبلغ قطرها ٣ إلى ٤ أمتار ويصل عمقها إلى ١٢ أو ١٥ متراً، توفر المياه الضرورية للري، حيث ترفع المياه من الآبار إلى قنوات التوزيع بطريقة مبتكرة.[١]»

وفي حديثه عن عدد سكان صنعاء، أشار إلى تقديرات هاليفي Halévy، الذي اعتبر أن تعداد سكان صنعاء بلغ ٢٠٠٠٠٠ نسمة في القرن الماضي وانخفض هذا العدد ليصل إلى ٦٠٠٠٠ مطلع عام ١٨٧٠. بينما استند مانزوني Manzoni على عدد المنازل المأهولة، وقدّر بأن عدد السكان ما بين عامي ١٨٧٧-١٨٨٠ لا يتجاوز الـ ١٨٠٠٠-٢٠٠٠٠ من العرب المسلمين، و ٣٠٠٠ من الأتراك، و١٧٠٠ من اليهود.

وما بين «صنعاء» و «الروضة» وفي بعض أجزاء من «قاع صنعاء» التي تروى بواسطة السواقي، شاهد حقولاً للفول والبرسيم والقرطم والشعير وما إلى ذلك. وتحدث عن الفواكة التي تشتهر بها بساتين «بير العزب» و«الروضة» كالعنب والتفاح والكمثرى والخوخ والفرسك والمشمش والبرتقال والليمون. وقال إنّ الأودية العميقة الراوية بها بساتين أجمل وفواكة أكثر تنوعاً، كما في وادي «حدّة» الذي يبعد حوالي خمسة كيلومترات جنوبي غرب صنعاء، حيث يبلغ التوت الأسود حجماً قياسيّاً، وتقع المنازل وسط البساتين المتدرجة وكأنها فلل وسط حديقة

---

(١) أشار الباحث عبد الوهاب عسلان في كتابه (غيول صنعاء : دراسة تاريخية أثرية وثائقية) إلى أن غيول صنعاء تعتمد على نظام الكظائم وهي مفرد كظيمة أي فتحة بئر أو (منزعة) وهي مقابل لكلمة أفلاج في سوريا أو قنوات في بلاد فارس وقال : « كان يتم حفر الكظائم في قيعان الوديان باتجاه خط مستقيم وبشكل أفقي، متصلة بعضها ببعض ومتجاورة ومفتوحة في حافتها باتساع وانسياب نحو الأسفل حتى الأرضيّة الصلبة، وهي أرضيّة مرصوصة بالأحجار و (مقضّضة) خشية ألا يغور الماء في عمق الأرض من أسفل الكظائم، وبذلك يمر الماء النبع من بداية أول كظيمة ثم الكظيمة التي تليها، وكذلك الكظيمة التي قبلها حتى (مقر الغيل): الماجل، ثم مصبّ الغيل : الوادي.»

(أنظر : عبد الوهاب محمد عسلان (٢٠٠٠م) ، غيول صنعاء : دراسة تاريخية أثرية وثائقية، دار الفكر، دمشق، ط١، ص ٣٦)

متموجّة، ويسقى الوادي بواسطة ساقية ضخمة تتدفق فيها المياة على هيئة شلالات، وتحت ظل غابة من أشجار الجوز والمشمش، إلى جانب طاحونة، شُيّد حوض أسمنتي مستطيل لحجز المياه تصل أطواله ٢٨x٤٥ متر، ويبلغ عمقه ٢.٥ متر، وعلى مسافة قريبة منه يوجد مسجد صغير يخلِّد ذكرى الولي الشيخ سيّد القرقشي Seyd el-koroukchi كما أسماه. وجمع ديفلرز من وادي «حدة» عينات كثيرة من النباتات والأعشاب.

ووصف « وادي ظهر» بأنّه يقع إلى الشمال الغربي من مدينة الروضة، حيث تتجمع المياه المنحدرة من هضبة متنه Metne، ويضم الوادي حدائق غناء والعديد من القرى، حيث يمتلك أغنياء صنعاء منازلاً للاستجمام. وإلى الشرق من القرية الرئيسية يرتفع في العالي قصر شامخ فوق صخرة[1]. هذا القصر الرائع مغلق الآن بعد أن كان يُستغل فيما مضى كمقر صيفي لإقامة إمام صنعاء. في الجانب الآخر للقرية يوجد ممر طبيعي محمي لا يتسع إلا لمرور فرسين فقط، وإلى جانب هذه البوابة الطبيعية، تنتصب صخرة عالية يبلغ ارتفاعها حوالي ١٥٠ م لا يمكن تسلّقها، ويوجد أسفل منها قبة صغيرة. ووجد أن نباتات « وادي ظهر» لا تختلف كثيراً عن نباتات الأودية الأخرى.

جَبل نُقَم:

في صباح يوم ٣١ مايو، صعد ديفلرز إلى قمة «جَبل نُقم»، وانطلق من باب شعوب تاركاً «قلعة قصر غمدان» عن يمينه، ومرّ عبر حقول شعير زُرعت في المنخفضات، قبل أن يصعد به الطريق شيئاً فشيئاً في اتجاه الشمال شرق، وبعد نصف ساعة من السير على الأقدام وصل إلى مدخل لمخنق منخفض يصعد بعد ذلك باتجاه الشرق حتى سفح الجبل. ارتقى المنحدرات الوعرة للجبل، وشاهد بعض المراعي التي تحدها المنحدرات، وجمع عينات من الأعشاب التي تنمو في شقوق الصخور. ووصل عند الساعة ١١:٣٠ صباحاً إلى القمة الغربية للجبل، التي وجد بأنها على ارتفاع ٦٠٩ م تقريباً من صنعاء. وقد شاهد على القمة أطلال

(١) أحد المباني التاريخية ويدعى «دار الحجر».

قلعة رباعية الزوايا[1] يصل محيطها الخارجي إلى ٣٠ م في ١٥ إلى ٢٠ م، انهارت بعض أجزائها، ومبنى على هيئة نصف دائرة يحيط بالبوابة الأمامية التي تقع في الزاوية الشمالية الغربية. الجدران مبنيّة من أحجار البازلت، ويصل سُمكها إلى ٢.٥م، ويوجد وسط القلعة بركة كبيرة مستطيلة الشكل يصل عمقها إلى ثلاثة أمتار، وقد نقشت على جدرانها بعض الحروف العربية الكبيرة باللون الأسود. وقال ديفلرز إنّه لا يعتقد بالرواية التي حكاها الأهالي لنيبهور بأنّ من بنى هذه القلعة هو سام بن نوح، خاصة وأنّ البناء ليس قديماً إلى هذا الحد، وأضاف أنّ غياب النقوش يثبت على الأقل أنّه بُنيَ في عهد ما بعد الحميريين. ومن هذه القمة تمكّن من مشاهدة سلسلة جبال سروات، وجبال المشرق وبلاد خولان، وشاهد من جهة الشمال والشمال شرق جبل جربان وجبل ضين ببلاد همدان، ومن ناحية الشرق والجنوب شرق، شاهد جبل جبر وجبل اللوز وجبل اسناف وجبل قحازة. ومن جهة الجنوب والجنوب غرب، شاهد جبل كنن. وفي الغرب سلسلة جبال بني مطر.

همدان- شبام- كوكبان:

بعد قضاء عدة أسابيع في صنعاء والانتهاء من جمع عينات نباتية في جميع أنحائها وفي المناطق المحيطة بها، بدأ عالم النباتات ديفلرز يشعر بأعراض الأنيميا، وأرجع ذلك إلى بقائة لفترة طويلة في مناطق مرتفعة، والإجهاد مِن جرّاء الركض الدائم في جميع الاتجاهات. وقبل مغادرة صنعاء باتجاه مدينة تعز وعدن، قرر قضاء بضعة أيام في زيارة لبلاد همدان وشبام وكوكبان.

وفي التاسع من يوليو، الساعة ٥:٤٥ صباحاً خرج من مدينة صنعاء عبر بوابة «باب شعوب» وسار بين حقول عباد الشمس وحقول البرسيم، متوجهاً صوب الشمال غرب، ومن ثم عبر هضبة صغيرة قاحلة مغطاة بالحصى، وعلى بعد ١٥٠٠ متر شاهد قرية ضلاع الحصينة، عندما كانت الساعة تشير لـ ٧:٣٠ صباحاً، عَبَرَ وادي ضلاع، وشاهد مجموعة من المنازل المحاطة بالحدائق

(١) قلعة براش.

والبساتين.

وصل إلى المنطقة التي تعلو « وادي ظهر» من الجنوب الغربي، ووجدها قاحلة مقارنةً بالوادي. عند الساعة ٩:٣٠ توقّف في سمسرة بمنطقة «بيت أنعم»، تقع على الضفة اليمنى من جدول ماء صغير، ووجد ولأول مرة خلال رحلته «الطحلب البطّي» في بركة ماء على مقربة من السمسرة. وعند الساعة ١٠:٣٠ ركب على ظهر البغلة، وعَبَرَ جدول ماء كبير يجري تحت جسر قديم على شكل قوس مخصّص للمشاة فقط. وتعرَّف على مجموعة من شباب « كوكبان» كانوا قد قضوا الليلة في السمسرة، وساروا معه في نفس الطريق، وكانوا مسلّحين برمح قصير (حديبي) Hadîbî، وبعد مسير نصف ساعة على الأقدام في طريق جبلي، وصل إلى سهل يمتد على بعد النظر نحو الشمال، وخلفه على مسافة ١٥ كم تحجبُ الأفقَ كتلةٌ من جبلِ «حضور». ووجد هذا السهل قاحلاً مليئاً بأحجار البازلت التي تتخلّلها في بعض الأماكن حقول صغيرة للشعير ومراعٍ للأغنام، حيث رأى بعض القطعان هناك[1]. مرّ من أمام قرية «المنقّب» التي كانت تبعد حوالي ثلاثة كيلومترات من الطريق الذي سار عليه، وبعدها بمسافة بسيطة شاهد المعالم الأولى لمدينة «شبام كوكبان»، ووجد أنّ صلابة الأرض في « قاع المنقّب» تُجبر المزارعين على حفرها وحرثها بمشقة على عمق نصف متر، بينما يأتي الحصاد بمحصول ضئيل.

وصل مدينة «شبام» عند الساعة ٤:٣٠ بعد العصر، وحصل على مأوى مريح في الطابق العلوي لأحد المنازل القريبة من السوق. أشاد بحسن استقبال الأهالي الذين توافدوا إلى غرفته بدافع الفضول ولعرض خدماتهم في إرشاده وإفادته ببعض المعلومات. وقد وصف مدينة «شبام» بأنّها مدينة صغيرة تقع على ارتفاع ٢٦٣٥ م في الجانب الشرقي من سلسلة جبال سروات، عند سفح منحدر يبلغ ارتفاعه ٣٠٠م. صخور هذا الجبل ذات ألوان متدرجة من الأصفر الفاتح إلى البنفسجي إلى اللون الأحمر القاني، وفوق قمة هذا المنحدر تقع مدينة «كوكبان» عاصمة إمارة

(١) لم يسم المكان، وحسب الوصف يدعى هذا السهل «قاع المنقّب».

«كوكبان» التي كان يحكمها «السادة» المستقلون عن إمام صنعاء قبل الاحتلال العثماني. والمدينتان محاطتان بأسوار، وعلى الأسوار أبراج، وتتصلان ببعضهما عبر طريق ودرَج منحوت في الصخر، بناه السيد أحمد الذي حكم الإمارة عام ١٧٦٣، حسب ما أورده نيبهور.

وجد ديفلرز أن البيوت في مدينة شبام لا تختلف كثيراً في نمطها المعماري عن بيوت صنعاء، عدا في اختلاف لون الحجر الذي يميل في شبام إلى الأصفر الوردي، هذا اللون الفاتح يجعل واجهات المنازل أكثر زهواً. وزجاج النوافذ في منازل شبام قليل الألوان. كما لاحظ أنَّ أبواب المنازل في شبام ضخمة ومنمّقة بتشكيلات زخرفيّة أنيقة من المسامير.

ولقد لاحظ أنَّ الكثير من أحجار المنازل في مدينة شبام انتقلت إليها من معالم أثرية، وما زالت تحمل النقوش الحميّريّة المحفورة عليها. ومن هذه النقوش الحميّريّة، تلك المحفورة على حجرة كبيرة ضمن أحجار الدعامة اليسرى لبوابة مدينة شبام. وهذه النقوش طويلة وفي حالة جيدة.

وقدّر ديفلرز سكان مدينة شبام بحوالي ٢٥٠٠ نسمة، ووجد أنّه ليس في بناء المسجد ما يلفت النظر كما هو الحال بالنسبة لمساجد صنعاء ومساجد الروضة الجميلة، ولاحظ أنَّ مئذنته منحنية قليلاً كبرج بيزا، ومهدّدة بالسقوط في أيّ لحظة. تبدت له المناطق المحيطة بشبام خصبةً وتُزرع الذرة الشامية والذرة بكثرة، وشاهد على مسافة ٨٠٠ م شمال شرقي شبام بساتين جميلة تزرع الجوز والتّفاح والكمثرى.

وصف مدينة «كوكبان» بأنها مدينة تقع على قمة الجبل المطل على مدينة شبام، وهي أكبر من شبام ولكن تعداد سكانها أقل، وفي تناقص مستمر، وهي محصّنة طبيعياً من جميع الجهات بمنحدرات شديدة تقف عصيّة أمام كل الهجمات، فيما عدا من ناحية شمال الغرب. لكن هذه التحصينات لم تجنبها قذائف المدفعية العثمانية التي تمركزت في تلة مقاربة لها، ودمرت المسجد والعديد من منازل كوكبان. وبعد أن جرّدت «كوكبان» من مركزها كعاصمة «إمارة كوكبان»

المستقلة، أصبحت شبه خالية وعاجزة عن النهوض مرة أخرى، وكان في ذلك مدعاةً لتفاخر الأتراك؛ لنجاحهم في فرض الهدوء في منطقة كانت فيما مضى بؤرة للصراع. والسير في شوارع كوكبان المهجورة يظهر الثمن الباهظ الذي دفعته المدينة للتعايش مع هذا الاستسلام.

عندما وصل ديفلرز إلى مدينة كوكبان استقبله نائب قائد الحامية التركية المكوّنة من عشرات الجنود، في ثكنة بنيت حديثاً وبشكل جميل في الناحية الشمالية الغربية للمدينة، وقدّم له قهوة قشر عالية الجودة. وقد شعر بسرور هذا الضابط التركي للقائة بشخص غريب وكسر حياة الرتابة التي يعيشها يوميّاً. وقد عرض عليه القيام بجولة سياحية في المدينة لمشاهدة آثارها وتحصيناتها. وقد شاهد في الناحية الجنوبية الشرقية للمدينة وجودَ العديد من برك الماء المحفورة والتي تحتوي على بقايا ماء راكد. بينما حوض الماء الرئيسي دائري الشكل بقطر ٢٥ متر، وقاعته مرصوفة بطريقة غير منتظمة، وعليها طبقة أسمنتية. في حافة إحدى القمم المطلة على مدينة شبام، وجد برج مراقبة صغير يتم الصعود إليه عبر درَج، ومنه يمتد النظر إلى بلاد همدان وهضبة سروات.

وفي جهة الشمال غرب، شاهد مدينة «ثلاء» الحصينة على قمة جبل. ولفت نظره من جهة الشمال شرق، انتصاب قمة جبل «ضين» بشكل مخروطي منتظم.

غادر مدينة شبام في صباح يوم ١٢ يوليو عند الساعة السادسة صباحاً، وسار من الطريق المحاذية لمدينة ثلاء في اتجاه عمران، وبسبب تعثّر البغال في المشي لانتشار الحصى، سبق المرافقين له، وعند منحدرٍ، وجدَ نفسَهُ فجأة في مواجهة ستة رجال مسلّحين ببنادق فتيلتها مشتعلة، تفاجأوا به، وظلوا ينظرون إليه باستغراب دون أن يلقوا عليه السلام كما تعوَّد في مثل هذه المواقف، توجّسوا منه وتوجّس منهم، لكنّه سار بثقة، بل وانتظر رفاقه الذين جاءوا وتبادلوا مع الآخرين نظرات غير حميمة، وسار كلٌ في طريقه، وبعدها بلحظات سمع دوي الرصاص، خاف مرافقوه، لكنّه شعر بالإطمئنان لأنه استخلص أنَّ هؤلاء ليسوا سوى هواة صيد في البراري وليسوا قُطّاع طريق. جمع عدة عينات من النباتات التي وجدها على الطريق في الأودية والسهول، وعلى ضفاف جداول الماء.

وعند الساعة ١١:٠٠ وصل إلى مدينة «عمران»، وشاهد على يمين الطريق المؤدي إلى المدينة معسكراً لقوات تركيَّة فيه ما يزيد عن الثلاثين خيمة.

وصف مدينة عمران بأنها مدينة صغيرة، تنتشر فيها الأوساخ، ويقطنها قرابة الـ ٣٠٠٠ نسمة، وهي عاصمة المنطقة الممتدة ما بين بلاد همدان وبلاد حاشد. سار به مرافقوه إلى نُزل أثار اشمئزازه، وقد اعتلت وجوه الحاضرين دهشة من اشمئزازه من المكان، فحاول البعض الحصول على مأوى مناسب له، وبعد انتظار حوالي نصف ساعة، تم اقتياده إلى «قرية اليهود»، ونزل لدى يهودي ميسور الحال يُدعى «داوود»، تنازل له عن غرفته في الطابق العلوي وأنزل مرافقيه في الطابق الأسفل. وجد الغرفة ملائمة ونظيفة وتطل نوافذها على الريف ومفروشة بالسجاد. ورغم أن الغرفة كانت مريحة للنوم إلا أن تشققات الجدران كانت تخفي حشداً غفيراً من البق، وقضى ليلته تحت رحمتها، وذكّرته بمعاناة قرية «سوق الخميس».

غادرَ في اليوم التالي عند مطلع الفجر، متوجّهاً إلى صنعاء، وكان في وداعه جمع غفير من يهود «عمران»، ومرّ من خلال أحياء المسلمين التي كانت خالية في ذلك الوقت، وعند الساعة ٥:٤٥ صباحاً سار على مقربة من قرية «نجر»، وعند الساعة ٨:٠٠ وصل عند سفح جبل «ضين» وشاهد على قمته مبنى ضخم على هيئة قلعة. وعند الساعة ١٠:٠٠ بلَغَ قرية «المَعْمَر»، ومن بعدها «الأزرقين» واستراح بالقرب من مسجد، ومن هناك شاهد قافلة الحجاج القادمين من صنعاء في طريقهم إلى مكّة، وقد رافقهم مسؤولون أتراك إلى بوابة مدينة صنعاء، على إيقاع موسيقى عسكرية وإطلاق أعيّرة نارية. وتكونت القافلة من قرابة مائتي شخص يدفعون أمامهم الحمير التي تحمل أمتعتهم المتواضعة وملابس الإحرام التي ينبغي عليهم ارتدائها عند وصولهم الأرض المقدسة. كان يتقدمهم ثلاثة شبّان يحملون رايات خضراء، وقد حيّاه أحد الشباب بتحريك الراية ثلاث مرات، ورد عليه التحيّة وعبّر عن إعجابه بهؤلاء الأشخاص الذين يتحملون المشقة وخطر الموت في رحلة طويلة لأداء فريضة دينية. واصل سيره ووصل إلى مدينة صنعاء عبر «باب شعوب» عند الساعة ٣:٣٠ عصراً.

مغادرة صنعاء : دار سلم، قرية الجردي، قرية المحاقري، قرية حامد، قرية الضب، قرية وعلان.

بعد رحلته إلى مدينة شبام وجبال كوكبان، عاد ديفلرز إلى مدينة صنعاء لقضاء عدة أيام يحضّر فيها رحلته نحو ذمار وتعز وعدن، وقد نصحه الدكتور روزنفلد Rosenfeld كبير الأطباء في مستشفى المتوكل، بأن يَطلبَ حارسين لحمايته ؛ لأنّ الطريق غير آمن للمسافرين العزّل، حيث حصل وقُتل أحد التجار اليونانيين قبل بضعة أشهر في نواحي «ذمار». لم يُحبّذ فكرة طلب ذلك من الوالي عزيز باشا؛ لمعرفته السابقة برفضه، فاستأجر حارساً شخصيّاً يدعى عبد الله سبق له وأن خدم كجندي في الجيش، وشهد له الكثير بأنه محل ثقة.

غادر صنعاء صبيحة ٢٩ يوليو، عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، من بوابة «باب اليمن»، وقد خرج معه لوداعة الأخوان كابروتي Caprotti، اللذان حل بضيافتهما ما يزيد عن الشهرين، وسارا معه لمسافة تصل إلى أكثر من كيلو متر، وقد شهد لهما بالهمة والإحساس بالمسؤولية في إدارة أعمالهم التي كانت محل فخر للإيطاليين[1].

وصل عند الساعة ٨:٠٠ إلى قرية «دار سلم» التي كانت على مسافة كيلو متر على يساره، وبعد ذلك بمسافة قصيرة مرّ بحاجزٍ للماء مبني من الصخور الحمراء عند مدخل الوادي ويبلغ ارتفاعه من ٦ إلى ٨ متر.

واصل السير عبر قرية الجردي el-Gerdi، وبعدها احتجبت صنعاء عن الأعين وراء هضبة من صخور البازلت، ووصف هذه اللحظة بقوله : «احتجبت عنّا المدينة الشهيرة التي يمكنني أن أطلق عليها «أمّ الدنيا» كما يسميها اليمنيون من باب التهكّم في بعض الأحيان، وبإمكاني أن أضيف على هذا الاسم، لقب «ملكة سروات»، ولن يجرؤ أحد على الاعتراض.» واصل السير جنوباً حتى وصل إلى

---

(١) أشار عالم النباتات ديفلرز في هامش ملاحظاته إلى أنّ لويجي كابروتي Luigi Caprotti ، أكبر الأخوين، توفي في صنعاء في الـ ١٠ من يناير ١٨٨٩ عن عمر ناهز الثلاثين سنة، بعد أن داهمه مرض فتّاك من الأمراض الشائعة في اليمن، وقضى عليه خلال أيام.

قرية «حزيَز» الحصينة، وتوقف فيها للاستراحة حتى الساعة ١١:٠٠، استأنف السير بعد ذلك وشاهد من بعيد قرية المحاقري، ثم قرية حامد، فالضب. وعند الساعة ٣:٠٠ وصل إلى قرية «وعلان» حيث قضى الليلة فيها في الطابق العلوي من سمسرة، وكان الطابق الأرضي ذا أقواس داخلية يجلس فيه الجمّالة وأصحاب البغال وفيه مكان مُخصّص للبهائم، ومكان للطبخ ولمن يحب تناول قهوة القشر. وجد أن الغطاء النباتي ما بين «حزيَز» و «وعلان» يماثل الغطاء النباتي للمناطق المحيطة بصنعاء. ووصف قرية «وعلان» بأنها تقع في وادٍ خصب محاط بمنحدرات من الصخور المائلة للاحمرار، وفيها عشرون منزلاً ونيف بُنيت حول ساقية للماء الجاري التي تستغل لري بساتين محاطة بأسوار على النمط الأوروبي. وإضافة إلى الخضروات، تزرع في هذ البساتين زهور الزينة والأعناب والرمان والمشمس والفرسك والكمثرى.

انطلق ديفلرز صباح يوم ٣٠ يوليو، عند الساعة ٥:٤٥، وواصل السير جنوباً، وعند الساعة ٧:٠٠ مرّ قبالة قرية «الوسن» el-Wa'sen، ووصل إلى قرية «خُدار» Khodar، وبعد أن قطع قرية «بيت الزيادي» Beyt el-Ziadeh، صعد نقيلاً صغيراً مُطلًّا على سهل شاسع يمتد على مرمى النظر، ووصل الساعة ١٠:٠٠ صباحاً إلى مقهى «قرية النقيل».

واصل السير نحو الجنوب تاركاً على يمينه طريق «ضوران»، وكان الجو ممطراً والطريق طينيًّا شديد الانزلاق، وعند الساعة ٢:٤٥ وصل إلى « مَعْبَر» ، وما إنْ نزلَ في «السّمسرة» حتى تلقّى من الضابط التركي، قائد حامية معبر، نصف دزينة رمّان، وبضعة عناقيد عنب، وأعرب الضابط عن رغبته في الحصول على قنينة «كونياك» كهدية، وبدلاً عن «الكونياك» أرسل له فيلدرز قنينة بيرة « ليون» التي تقبلها الضابط على مضض.

خرج من معبر في ٣١ يوليو، وسار لمدة ثلاث ساعات في سهل باتجاه الجنوب شرق من ضواحي معبر مليء بالمستنقعات. وشاهد على مسافة ١٥ كم من جهة اليمين سلسلة من الجبال، ومن ضمنها جبل «ضوران» وأشار إلى وجود

«حمّام عليّ» المشهور بمياهه الكبريتية الساخنة عند سفح الجبل[1]، وقال بأنّ النّاس لا يرتادونه كثيراً رغم فائدته الصحية بسبب انعدام الأمن في المنطقة.

مدينة ذمار:

وصل ديفلرز إلى مدينة ذمار عند الساعة ١:١٥ بعد الظهر، وجاء في وصفه لها : «بأنّها عاصمة مغرب عنس، تقع على ارتفاع ٢٤٣١ م، ويقطنها ما بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ نسمة، ويقيم فيها «قائم مقام» تركي، وفيها مقرّ « الجامعة الزيدية »، وهي جامعة غائرة في القدم على ما يبدو، وكانت قبلةً لطلاب العلم فيما مضى. ويوجد في المدينة أربعة أو خمسة مساجد، موزّعة في الأحياء الرئيسية. منازلها مبنية بأحجار البازلت وتتكون في معظمها من طابق أرضي وطابق علوي، وتفتقر إلى الزخارف التي تزين بيوت صنعاء. «السمسرات» في ذمار ملفتة للنظر بسقوفها ذات العقود وكأنها قباب، وتتسع لقافلة مكونة من عشرين إلى ثلاثين جملاً محمَّلاً. شوارع المدينة متسخة، ولا يوجد في المظهر العام للمدينة ما يثير الإهتمام[2].»

بدأ عالم النباتات ديفلرز، يشعر بوطأة الوعكة الصحيّة التي أصابته في صنعاء، والتي زاد من حدتها تعرضّه للبرد في مدينة «مَعْبَر»، فقضى يوم الأول من أغسطس طريح الفِراش، وقد زاره شخص قدّم نفسه على أنه طبيب عسكري عثماني، ولكنه رفض أن يسمح له بمعاينته، خشية أن يكون المقابل قنينة «كونياك»!.

غادر مدينة ذمار في الثاني من أغسطس، عند الساعة ٦:٠٠ صباحاً، وسار عبر

---

(١) تشتهر مدينة ذمار بعدد من الحمّامات الطبيعية المعدنية والكبريتية، وإلى جانب حمّام علي الشهير، يوجد أيضاً عدد من الينابيع الساخنة مثل (اللسي، اسبيل، حمض، القفر، محضة، القمة، السبلة)، يرتادها الناس للاستشفاء عن طريق الاستحمام بمياهها والتعرض لأبخرتها المتصاعدة التي تحتوي على عناصر كبريتية مفيدة. [بوابة المركز الوطني للمعلومات + موقع الدليل الشامل].

(٢) لم يعطِ عالم النباتات ديفلرز لذمار حقها، ومن الواضح أنّه لم يكن على استعداد للمغامرة في نواحي ذمار، إما لضيق الوقت وشعوره المتزايد بتدهور صحته، أو بسبب ما كان يتردد حول انعدام الأمن في تلك المناطق، فإضافة إلى المواقع الأثرية والحصون والقلاع في قرية موكل، والمواهب ، وقبر أسعد الكامل، وغيرها، نجد أنّ الغطاء النباتي غني ومتنوع في ذمار نظراً لكثرة المساحات الخصبة والقيعان كقاع جهران وقاع بكيل وقاع مرح وقاع شرعة وقاع بيان وقاع بلسان وقاع بلس، والمرتفعات الجبلية في عتمة وأصاب العالي والسافل.

المرتفعات والسهول في اتجاه الجنوب شرق. وعند الساعة ٧:٠٠ مرّ من أمام تلّة لم يسمّها يبلغ ارتفاعها ما بين ٦٠ إلى ٨٠ متراً محاطة ببعض المنازل وعلى قمتها حصن صغير. عند الساعة ٩:١٥ توقف للاستراحة في مقهى «اللسيس» El-Lessis، التي تتكئ على صخرة بمقربة من جدول ماء جارٍ، حيث تمكن من جمع عشرات العينات من النباتات والأعشاب. واصل السير في السهول والوديان وبعض القرى التي وجد أرضها زراعية خصبة.

مدينة يريم:

وصل عالم النباتات ديفلرز إلى مدينة «يريم» عند الساعة ٢:١٥ بعد الظهر، ودخلها عبر بوابتها الشمالية الشرقية، ووجدَ «السمسرة» مزدحمة بجمّالين، رفضوا أن يفسحوا له ومرافقيه مكاناً فيها، فعرض عليه أحد الأهالي أن ينزل في بيته المطل على الوادي، وما إن وضع قدميه في هذا المنزل، حتى فوجئ بُشرطيّ يطلب منه بأن يتبعه إلى الديوان، حيث ينتظره المدير. ذهب معه على مضض، وأدخله إلى قاعة كبيرة وجد فيها ما يزيد عن خمسة عشر شخصاً من الوجهاء الذين يرتدون ملابس أنيقة. البعض منهم يدخن بـ «مداعة» مرصّعة بالفضّة. وجدَ المدير «حسن أفندي فنّي»، رجلاً خمسينياً وسيم المحيا ودمث الأخلاق، أجلسه إلى جانبه، ورحّب به، وأعرب عن استعداده لتقديم أيّ مساعدة ممكنة لتسهيل مهمته. وسأله عن مِصرَ وعن القاهرة، وأشاد أمام الحاضرين بالفرنسيين وبفرنسا وبدورها الحضاري في الشرق.

جلس قرابة الساعة، وغادر مسروراً بهذا اللقاء الودي الذي لم يكن يتوقعه، وفي الطريق عرف من الشرطيّ الذي رافقه بأنّ حسن أفندي ليس تُركياً، بل مصري يعمل في خدمة العثمانيين.

ووصف مدينة يريم بأنها :« مدينة صغيرة تقع على ارتفاع ٢٦٦٥م، تتكون من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ منزل، منتشرة حول تلّة يبلغ ارتفاعها ٤٠ متراً وتعلوها قلعة في حالة سيئة. مظهر المدينة العام يوحي بالبؤس، وتقع وسط وادٍ مليء بالمستنقعات غير الصحية، منازلها مبنية بالطين وروث البقر، والمساجد منخفضة البناء وليس بها

مآذن كتلك التي تضفي سحراً على المكان حتى في أصغر مدن الشرق.» ولم ينس ديفلرز التذكير بموت عالم النبات الشهير «فورسكال» الذي رافق نيبهور في رحلته وتُوفيَ في مدينة يريم في ١١ يوليو ١٧٦٣ م ودُفن فيها.

قرية صَرِف، قرية المنزل، قرية المخادر:

غادر ديفلرز مدينة يريم في الثالث من شهر أغسطس، وسار في اتجاه الجنوب والجنوب غرب عبر وادٍ تصبُّ فيه مجموعة من جداول المياه، وسار في طريق محاطة بالمروج الجميلة وبحقول غنية بزراعة الحبوب. وعلى ضفاف هذه الجداول تمكن من جمع بعض العينات من النباتات والأعشاب. وسار عند الساعة ٧:٣٠ صباحاً من أمام قرية «صرف»، وواصل السير في اتجاه الجنوب غرب، ومن ثم في اتجاه الغرب، وشاهد أمامه سلسلة جبال «سُمارة» وعدة قرى منتشرة بعيداً على جانبي الطريق. قطع ساقيةً للماء ووجد على ضفتيها عينات جميلة من «نبات القريض»، وواصل السير تاركاً على يمينه وادياً يمتد نحو الشمال، ونزل من منحدر ووصل إلى مقهى أقيم بالقرب من مسجد صغير وعلى مقربة من نبع ماء يغذي أحواض ماء تشرب منها الجمال. ووجد في المقهى مجاميع غفيرة من الفلاحين والجمّالين المتجهين إلى سوق «يريم».

واصل السير على طريق معبّدة، تطل على وادٍ سحيق، مخضرّ. ومن ثم نزل من منحدر شديد يتخلله دَرجٌ حجري وطرق يوجد على جانبيها نبات السنط والتين. ووصل عند الساعة ١:٣٠ إلى قرية «المنزل» والتي تطل على وادٍ تتخلله حقول الذرة والدخن. وقبل وصوله إلى «المخادر» مرّ بحقول ذرة ودخن وصفها بالرائعة حيث يبلغ طول قصب الدخن إلى قرابة الثلاثة أمتار. قضى الليلة في المخادر، ووصفها بقرية كبيرة فيها قرابة الستين منزلاً.

غادر ديفلرز قرية «المخادر» في الرابع من أغسطس، عند الساعة ٦:٠٠ صباحاً، ونزل من الجانب الجنوبي لتلة «خدير» عبر أرياف أذهلته خصوبتها. وصل عند الساعة ٨:٠٠ إلى «سوق السبت»، وشاهد فيه سمسرة كبيرة، وما يقارب العشرين دكاناً صغيراً كتلك التي وجدها في سوق «بوعان». عند الساعة

١٠:٠٠ خرجَ من «سوق السبت» وعبر نهراً صغيراً يتدفق نحو الغرب، وبدأ بصعود سهل مليء بأشجار السنط، تعيش عليها الكثير من أنواع «الحرباء» ذات الألوان الزاهية، وتزين رقابها عذَبَة مسنّنة، وفوق رؤوسها عُرفٌ كبير. وقد توقف لوقت طويل للإمساك بإحداها ولجمع بعض العينات النباتية. وعند الظهيرة بدأ الاقتراب من منحدرات جبل بعدان الذي يقع على يسار الطريق على ارتفاع يصل إلى أكثر من ٣٠٠ متر. وصعد هضبة تتخللها طريق معبّدة تقع بين المروج والحدائق المعلّقة، ووصل بعد نصف ساعة إلى قمتها، ووجد نفسه أمام جدران مدينة «إب»، وسار على يمينها ودخل المدينة من البوابة الغربية.

مدينة إب :

وصف ديفلرز مدينة «إب» : «بالمدينة المحصّنة المحاطة بسور عالٍ من الحجارة التي تُجلب من اليمن الأعلى. تقع على الهضبة الغربية من جبل «بعدان»، على ارتفاع ٢٠٦٧م، وتضم ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ منزل، وبها مسجدان بمآذن. الحي التجاري أكثر الأحياء حركة وحيويّة، وشوارع المدينة معبّدة بأحجار البازلت ولكن بطريقة غير منتظمة، ولا يُعنى بصيانتها. وإلى جانب التحصينات في الناحية الشمالية، نشاهد حدائق جميلة وبساتين متدرجة. وفي أسفل المدينة وضع خزّان ماء كبير إلى جانب الجامع الكبير، تصبُّ فيه المياه التي تنزل من جبل «بعدان» عبر قناة، وتتوزع هذه المياه تلقائياً على الأحياء العلوية، بنفس الطريقة الذكية المستخدمة في صنعاء ومدن المناطق الجبليّة الأخرى.»

غادر مدينة «إب» في الخامس من أغسطس، عند الساعة ٦:٠٠ صباحاً من الباب الغربي، بعد توقّف هطول الأمطار، وقد لاحظ ومنذ خروجه من صنعاء، تساقط الأمطار بشكل يومي وخاصة أثناء الليل، وانقطاعها مع شروق الشمس. وعند الساعة ٨:١٥ بدأ الإقتراب من مدينة «جبلة»، وترك الطريق المؤدي إلى المدينة عن يمينه، وواصل السير، في طريق وعر على التلال الشمالية لجبل «محرس» Mhârras ، وبه منحدرات شديدة وحصِيّ تسبب الانزلاق، وقد فقدوا في هذه الطريق الخطيرة أحد الجمال، وجملاً آخر سقط من الإجهاد في جبال«سُمارة»، واستغرب من عدم تذمّر الجمّالين، خاصة وأنهم يعرفون أنّ

عليهم توفير جِمال بديلة على نفقتهم. وعند الساعة ١٠:٤٥ وصل إلى قمة جبل[1] يبلغ ارتفاعه ٢٢١٤م ويطل على وادٍ شاسع يمتد النظر من خلاله إلى مدينة «تعز» وجبل صبر. وقد توقف للاستراحة في ظل شجرة تين على ضفة نبع ماء يتدفق من بين الصخور.

واصل المسير وشاهد على الطريق قرية «محرس» Mhârras التي تقع على الضفة الأخرى للوادي ويتم الوصول إليها عبر جسر مقوّس متين البناء. وقبل وصوله إلى قريّة «السياني» بقليل، بدأت الأمطار بالهطول عند الساعة ١:٣٠ بعد الظهر. ووقف فيها لقضاء الليلة في مقهى صغير لا يتسع سوى له ولمرافقيه وأمتعتهم. ووصف قرية السياني بأنها قرية صغيرة مكوّنة من عشرة منازل بنيت حول حقل خصب.

غادر قرية « السياني» في السادس من أغسطس عند الساعة ٥:١٥ صباحاً، ونزل من المنحدرات المليئة بالحصى، ووصل بعد ٢٠ دقيقة إلى حافة الجبل عند وادٍ شاسع وخصب. مشى قرابة النصف ساعة على ضفة جدول ماء جارٍ تجمعت على جوانبه بعض الرواسب ذات الرائحة الكريهة. واصل السير تاركاً الجدول على يمينه، وسار تحت نبع ماء يتدفق من منحدر على ارتفاع ٣-٤ أمتار، ووجد نفسه في واد شاسع كثير الشجر، تتقاطع فيه العديد من السواقي التي زادت الأمطار في غزارة مياهها، ويتخلل الوادي بعض التعرجات، ويفوح من البساتين عبق الياسمين. وصل عند الساعة ٨:٠٠ إلى قرية «القاعدة»، واستراح في إحدى مقاهيها حتى الساعة ٩:٠٠ وكان سعيداً بأن وجد مرَّة أخرى المقاهي ذات «الأسرّة» للجلوس المريح منذ أن شاهدها آخر مرّة في «مناخة». خرج من «القاعدة» ووصل إلى قمة هضبة تطل على وادٍ فسيح يمتد حتى التلال المحيطة بمدينة «تعز». وصل عند الساعة ١:٣٠ بعد الظهر إلى مقهى يقع عند تقاطع الطريق المؤدي إلى «الراهدة»، وبعد أخذ قسط من الراحة، انطلق عند الساعة ٢:٣٠ نحو مدينة تعز.

---

(١) لم يسم ديفلرز هذا الجبل ومن خلال الوصف فإنّه يشبه ما نسميه اليوم «نقيل السياني» ضمن سلسلة جبال «النجد الأحمر».

مدينة تعز:

وصل مدينة «تعز» في يوم السادس من شهر أغسطس عند الساعة ٣:١٥ ودخلها من البوابة الرئيسية «باب الكبير». وعبر الشارع الرئيسي «للسوق» الذي يزدحم بالناس والحركة والصخب. رأى الدهشة والفضول يعتليان وجوه الجنود والضباط والموظفين الأتراك الذين كانوا يلتفون حول الطاولات في شرفات المقاهي. سار إلى نهاية السوق وصعد بضع درجات قبل أن يتجه يساراً، ووصل إلى ساحة كبيرة مستطيلة، ووقف أمام مقهى يوناني يستظل بأشجار التمر الهندي الجميلة. أرسل مرافقه عبد الله للبحث عن سكن، وسرعان ما رجع إليه وقد تحصل على بيت صغير في الساحة نفسها وفيه فناء وحديقة مقابل ستة تالاري للشهر الواحد (تالر- ريال ماريا تريزا)، استأجر المنزل على الفور، ووجده مكوّناً من طابقين الطابق الأول معد كإسطبل للبهائم، والطابق العلوي مكوّن من ثلاث غرف ومطبخ ، ومن شرفة السطح تمتد الرؤية إلى المدينة وإلى القرى المحيطة بها، ويقول إنَّه استغل هذا السطح لرسم وتصوير «مسجد المظفّر» الجميل، الذي يقع بالقرب من مسكنه، وكذا قلعة القاهرة.

وقد وصف مدينة تعز كما يلي:

« تعز مدينة محصّنة، يصل عدد سكانها إلى ٣٠٠٠ نسمة، وبها يقيم «المتصرّف» الذي تمتد سلطاته ونفوذه إلى كافة أنحاء البلاد، بما في ذلك الحديدة والأقاليم المستقلة في شمال شرق عدن، ويشمل نفوذه أيضاً أراضي المخا و منطقة الشيخ سعيد التي تخلت عنها فرنسا مؤخّراً. وتقع المدينة عند سفح جبل صبر، على ارتفاع ١٣٤٧م. تصل درجة الحرارة فيها إلى ٢٧° أو ٢٨° مئويّة في منتصف النّهار، ولا تقل عن ٢٠° في الليل. وفي هذا الفصل تظهر السحب الضبابية «السخيماني» عند الساعة الـ ٥:٠٠ بعد الظهر، وتهطل الأمطار ما بين الساعة ٧ و ٨ مساءً، وتستمر في بعض الأحيان حتى الصباح. ويحيط بالمدينة سورٌ متصل تتخلله أبراج ترتفع ٢-٣ أمتار، يأخذ السور شكلاً رباعياً غير منتظم. الجدار مبني من الطين الصلب والياجور المحروق. ويتخلل هذا الجدار خمسة أبواب من بينها

« باب الخُديرة[1] » el-khudeira الذي تمّ سَدُّه.

ومنازل تعز مبنيّة دون زخارف، وتتكون بشكل عام من طابق أرضي، وطابق علوي. وفي المدينة خمسة مساجد بنيت على النمط البيزنطي، بقباب ومآذن يعلوها هلال، ومسجد « المظفّر» أكثرها روعة، وقد بناه الإمام الذي يحمل المسجد اسمه. وهو بناء مستطيل يتخلله صف من النوافذ الضيّقة والمطليّة بالأبيض. وعلى المسجد ترتفع مئذنتان وثلاث قباب كبيرة وأكثر من عشر قباب صغيرة، واجهته مزيّنة بصف من الأقواس التي تعتمد على دعائم رفيعة وأخشاب متداخلة فيما بينها. كثير من المنازل المهجورة تتهاوى، وخاصة في أحياء المدينة الجنوبية، حيث نشاهد أراضي كبيرة وفيها أكوام من الأنقاض. وتصل مياه صبر العذبة إلى المدينة عبر قنوات تحت الأرض.

إضافة إلى شجر الجوز، تحتوي مزارع تعز على نفس النباتات التي تزرع في «صنعاء» وفي «الروضة»، يندر فيها النخيل، لكنها تنتج موزاً جيداً، بعض هذه الحدائق منمّقة وبها مقاعد ونوافير كما هو الحال في «بستان الحسينية». ويوجد في تعز شجرة الصفاف، وربما أنها نقلت من بلاد فارس. تشكل السهول التي تنحدر من جبل صبر موطناً لأشجار التمر الهندي الجميلة وأشجار الخروب والتي تتجمع حولها بعض القرى، وفي الأعلى تبدأ مزارع القات التي تعد مصدر ثراء كبير لأهالي المنطقة.»

كان لدى عالم النباتات ديفلرز رغبة في استغلال إقامته في مدينة تعز، لاستكشاف جبل صبر ولزيارة أطلال قلعة «حصن العروس» الشهيرة التي يرجع بناؤها إلى ما قبل الإسلام. لكنّه سرعان ما أقرّ بأنه لم يعد يمتلك القوة والطاقة الكافية لصعود منحدرات جبلية سيْراً على الأقدام. فقد ساءت حالته الصحية بسبب الأنيميا «فقر الدم» التي بدأ يشعر بأعراضها في صنعاء، وأصبحت أشد وطأة عليه في تعز، فكان المشي يتعبه كثيراً ويضطر للتوقف للراحة بشكل متكرر. الشعور بهذا الإرهاق الشديد جعله يقتصر على معاينة النباتات والأعشاب عند

(١) كمَا أسماه ديفلرز.

سفح جبل صبر وفي التلال التي تقع شمال المدينة. وأمام النتيجة غير المشجعة مقابل الجهد المبذول والتعب، قرر قطع إقامته في تعز والسفر إلى عدن عبر الطريق المسمى « طريق معّني » Tariq Mâni، الذي يقطع الأراضي التي تسيطر عليها قبيلة «الحواشب» المستقلّة، وقبيلة «العبدلي» التي تقع تحت الحماية الإنجليزية. وكان هناك سبب آخر دفعه إلى التعجيل بسفره وهو اقتراب العيد الكبير «عيد الأضحى»[1]، الذي كان يصادف حلوله في يوم ٢٧ أغسطس، وخشيته من عدم العثور على جمّالين وأصحاب بغال يوافقون على نقله إلى عدن خلال فترة العيد التي تمتد من ستة إلى ثمانية أيام. ونظراً لضيق الوقت فقد وجد صعوبة كبيرة في العثور على جمال تنقله وأمتعته إلى عدن، واضطر لقبول الاستعانة بخمسة جِمال ضعيفة ومتعبة ويقودها جمّالون لا يوحون بالثقة. ولكنه كان مطمئناً لأنهم سينقلونه مسير يوم ونصف إلى قرية «الراهدة» التي تقع عند نهاية حدود الولاية العثمانية من جهة الجنوب شرق، حيث يقيم شيخ للجمالين «مقدمي» سيوفر له جمالاً أخرى، وأربعة من رجال قبائل الحواشب لمرافقته كي يعبر بسَلامٍ أراضي قبيلتهم المشهورة بأعمال السلب والنهب.

قبل مغادرة تعز بأيام، ذهب ديفلرز لزيارة «المتصرّف»، وقد شعر منذ الكلمات الأولى المتبادلة بأنّه أمام شخصية مثقّفة ومتميّزة، ولم تكن بحوزته رسالة «الباب العالي» التي سُمح له بموجبها من دخول اليمن، لأن الوالي «عزيز باشا» احتفظ بها، ومع هذا تعامل معه «المتصرف» بلطف، وعامله نفس المعاملة التي يتلقاها المسافرون الذين يحملون توصيات خاصة، حيث أرسل معه اثنين من موظفي الديوان لفحص أمتعته في المنزل، وبموجب تقريرهما، منحه «المتصرف» إعفاءً من الإجراءات الجمركية في جمارك «الراهدة».

غادر مدينة تعز في ١٤ من أغسطس، وبدلاً من الانطلاق عند الساعة ٥:٣٠ صباحاً كما كان مخطّطاً له، تأخر حتّى الساعة ٧:٤٥ بسبب تكاسل الجمّالين. سار في الطريق المتجة شمالاً نحو مدينة «إب»، وعند الساعة ٩:٣٠ توقّف

(١) ذكر بأن عيد الأضحى معروف أكثر في تعز بالاسم التركي «قربان بيرم». وربما كان الناس يتخاطبون معه كأجنبي ويعتبرون المصطلحات التركية أقرب إلى فهمه.

بالمقهى الواقع عند تقاطع طريق إب - الراهدة. تابع السير عبْر وديان صغيرة مزروعة باتجاه الجنوب غرب، وعندما بدأ الوادي يضيق تغير الغطاء النباتي وأفسحت الحقول المزروعة المكان لأشجار السنط والعناب. كان السفر مضنياً، وزاد من ذلك اضطرارة للتوقف المتكرّر لانتظار الجمال التي ترفض السير.

واصل السير في سهول متعرجة تمتد على بعد النظر ولا يحدها في الأفق إلا «جبل سامع». وشاهد مجاميع متفرقة من القرود فوق العشب تحت ظلال أشجار السنط المنتشرة. استراح بالقرب من «بئر ماء» ، واستأنف السير جهة الجنوب شرق، وشبّه المنطقة التي يسير فيها ببعض أرياف غرب وجنوب غرب فرنسا مثل ريف بوكاج Bocage حيث تنتشر حقول الحبوب التي تحدها الخنادق، وتتخللها بعض الأشجار والأحراش. لم يصادف في الغطاء النباتي على خط سيره هذا الشيء الكثير الذي يمكن جمعه. كان الطريق موحلاً وزلقاً بسبب الأمطار، وعند الساعة ٤:٠٠ عصراً توقّف عند هضبة صغيرة ، تاركاً على يساره « قبة »، ووصل إلى «سمسرة» معزولة وسقفها منخفض جداً، لقضاء الليل فيها.

في المساء جاء بعض الفلاحين وأبلغوهم بأنَّ رجالاً من قبائل الحواشب نهبوا الليلة الماضية قافلة مكوّنة من ثلاثين جملاً محمّلة بالقات كانت في طريقها إلى عدن على بُعد مسيرة يوم من «الراهدة»، وأصيبَ جمّالان بجروح خطيرة، وهرب بقية الجمالين وعادوا إلى «الراهدة»، وقد سافر «المقدمي» مالك الجمال على عجل لاستعادة جماله التي يعرف بأن النّهابة سيتركونها بعد سلب حمولتها.

تأكّد الخبر في اليوم التالي الذي كان يصادف ١٥ أغسطس، وحذّره بعض الأهالي بأنه لن يتمكن من استئجار جمال قبل عودة «المقدمي» الذي سيتغيب لعدة أيام.

لم يكن لديه أيّة رغبة في البقاء عدة أيام في « الراهدة »، واستنتج من الحادثة أنَّ عمليّة النّهب لا يمكن أن تكون عملاً فرديّاً، بل هي مؤشّر على بداية الإضطرابات في طرق المواصلات المؤدية إلى عدن، خاصةً وأنّ شيخ الحواشب مجبر في الظروف العادية على تأمين الطرق؛ لأن مصلحته تقتضي ذلك، فهو يتسلم راتباً

مجزياً من سلطات الإنجليز، إضافةً إلى عائدات ضريبة الطريق التي يفرضها على القوافل. ولهذه الاعتبارات، قرّر العودة إلى «تعز» والسفر عبر «الحديدة»، رغم أن «عدن» كانت على مسير أربعة أيام فقط من المكان الذي وصل إليه. ووصل تعز عند الظهر عبر طريق مختصر محاذٍ لجبل «صَبِر».

سارع في التخلّص من الجمَّالين الذين قادوه إلى « الراهدة »، بعد أن أغضبوه بسلوكهم وبطلباتهم التي لا تحتمل، وتهديدهم له بتركه في «السمسرة». وكان من حسن حظه أن عثر على جمّالين من أهل تهامة، يملكون جمالاً قوية، وكانوا مُغادرين بها إلى زبيد لقضاء أيام العيد.

غادر مدينة تعز في اليوم التالي الذي يوافق ١٦ أغسطس عند الساعة ٧:١٥ صباحاً، وخرج من المدينة عبر باب «الشيخ موسى»، واتجّه نحو الغرب مروراً بجانب المقابر[1]. وعبّر عن إعجابة بهذه المقابر حيث ترقد القبور البيضاء وعليها بعض النقوش وسط الأشجار التي تضفي على المشهد هالة تثير مشاعر الحزن. سار نحو الغرب عبر سهول شبه قاحلة ومليئة بالحصى، تتخللها في بعض الأماكن حقول للحبوب. وفي طريقه شاهد طاحونة يمر بجانبها جدول ماء صغير.

وصل عند الساعة ١١:٤٥ إلى سوق «الرّمادة»، وتوقف هناك في «سمسرة» نظيفة لانتظار الجِمَال التي تأخّرت، ووجد أن قرية « الرّمادة » تتكون من خمسين منزلاً تتجمع فوق هضبة صغيرة عند سفح جبل حبشي، ويقام بها سوق أسبوعيّ كلّ يوم سبت.

كانت المناطق الجبلية التي عليه عبورها لدخول أراضي تهامة غير آمنة، ولم تتمكن الحكومة العثمانية من السيطرة عليها وبسط سلطتها الكاملة. وقد أنشأ الأتراك تلغرافاً يربط تعز بالحديدة، وتمَّ الإعتداء عليه عدة مرات ؛ نُزعت أسلاكه ورفض الأتراك إصلاحها. والمسافرون العزّل لا يغامرون بالمرور من هذه المناطق دون حراسة. ورغم النصائح التي تلقّاها في تعز، إلّا أنّه رفض أن يسافر بصحبة حراسة تركيّة. وصل الجمّالون إلى السمسرة عند الظهر، وأبلغوه أن

---

(١) مقابر «الأجينات».

مجموعة من الأشخاص حاولوا إيقاف قافلة الجمال لنهبها، ولحسن الحظ لم يكونوا مسلّحين، وطلبوا منه ألّا يبتعد عنهم كثيراً خشية التعرض لهجمات أخطر.

خرج من قرية « الرّمادة » عند الساعة ١:٤٥، وسار في اتجاه الجنوب في وادٍ يصل عرضه ما بين ٣٠٠ الى ٤٠٠ متر، ولفت انتباهه مشهد معلّم يدرّس طلابه في الهواء الطلق، يجلس حوله ما يفوق العشرة تلاميذ في حلقة دائرية، على مسافة غير بعيدة من قريتهم. وقد علّق بقوله :« المجموعة الدراسية هذه لا تشبه من قريب ولا من بعيد، فصول مدارسنا المغلقة كسجون»، وشعر بالغبطة نحوهم وتمنّى لو أنه تلقى تعليمه في اليمن. واصل السير في حقول للذرة تتخللها أشجار العنّاب والتّين.

وصل في الساعة ٣:١٥ إلى قرية وسوق « هجدة »، وقضى بها الليل في سمسرة تتكون من أكثر من عشرة مخادع لا تصلح حتى للكلاب حسب وصفه، ولا يمكن للشخص الدخول إليها إلا منحنياً. ولم يجد شيئاً في القرية يستحق الذكر سوى وجود مشغل بدائي للنيلي، يقع عند المنحدر الجنوبي للوادي.

غادر قرية وسوق « هجدة » في يوم ١٧ أغسطس الساعة ٦:١٥ صباحاً عَبْرَ تلّة صغيرة باتجاه الغرب، تاركاً الوادي على يساره. نبّهه الجمّالون بأنّهم في طريقهم لقطع منطقة خطيرة ينتشر بها قطّاع الطّرق، ونصحوه بأن يحذر ويحتاط ولا يبتعد كثيراً عن القافلة. أعطى كلا من مرافقيه المصري حسن واليمني عبد الله، خمسة عشر خرطوشاً، وشدد عليهما بعدم إطلاق النّار تحت أي ظرف إلا بأمره. سار في مناطق جبليه يطغى على غطائها النباتي أشجار السنط والتين والعناب المتناثرة على سفوح الجبال. وصل بعد ذلك إلى مناطق خصبة حيث تنمو أشجار النخيل وعَبَرَ جدول ماءٍ جارٍ يبلغ عرضه ما بين ٣ إلى ٤ أمتار، وهو أحد روافد وادي «حيدان».

واصل السير في اتجاه الشمال غرب، في منطقة جبلية، تنمو بها أشجار الآراك بكثرة. وبينما كان يقطع ممراً ضيقاً في عمق الوادي يتأمل قروداً تقوم بحركات بهلوانية، إذا به يتلقى إشارة تحذيريه من مرافقه عبد الله الذي نبهه إلى مسلحَين كانا يهرعان بسرعة مذهلة من التلّة المقابلة، ويقفزان بين الأشجار والصخور كالفهود

البريّة، وعلى مقربة منهم توقف أحدهما في منتصف الطريق محاولاً التموضع والاحتماء، بينما تقدّم الرجل الآخر وتوجه بالسؤال لأحد الجمّالين عن الحمولة التي تحتويها الصناديق، وهل صاحب القافلة تركي أم عربي، ردّ عليه الجمال بأن الصناديق تحتوي على أغراض شخصية وأدوية، وأضاف بأنهم برفقة الطبيب الأوروبي ومعه حارسان تركيان مسلّحان بأمر من الوالي. فهز الرجل رأسه قائلاً: هذا لا يهم. رجع إلى رفيقه وعادا إلى التلّة، وكانا يتوقفان بين الفينة والأخرى لمراقبة القافلة. عجّل بالسير خشية أن يذهب المسلحان لجلب آخرين، لكن ما إنْ رآهما عادا إلى مرصدهما في قمة التلّة حيث يمكنهما مراقبة الوادي بأكمله، فاستنتج بأنهما اقتنعا وصرفا النظر عنهم، وعادا للتربّص بفريسة أخرى.

بعد ربع ساعة من المسير وصل إلى وادٍ يضم حقولاً للذرة التي تتخللها أشجار التين، وتوقف لمدة عشر دقائق عند حافة جدول ماء جارٍ، تابع السير في مناطق مغطّاة بالحقول الزراعية. وعند الظهر توقف مرة أخرى عند بئر حيث وجد عدة تجمعات لنساء شابات يجلسن تحت ظل شجرة تمر هندي ولم يشعرن بالقلق أو الخجل من وجودهم، وقد طمأنه الجمّالون بأن الطريق آمن في هذه المنطقة وعلى مسير يوم منها. استأنف السير عند الساعة ١:٤٥ ووصل الساعة ٤:٣٠ إلى وادٍ كثير الزرع يقود إلى وادٍ آخر مليء بالمستنقعات. وعند الساعة ٥:٣٠ نزل بمقهى للمسافرين. نصحه الجمّالون وصاحب المقهى بالمغادرة الساعة ٢:٠٠ بعد منتصف الليل لتفادي السير تحت شمس الظهيرة وحرّها، وبعد أن قطعوا مسافة كيلومترين وهم يتلمّسون الطريق وسط الظلام الدامس تاهوا، واضطروا إلى أنْ يلزموا مكانهم حتى الفجر. تغلّب التّعبُ على ديفلرز واستلقى على العشب الندي ونام نوماً عميقاً دون أن يأبه لخطر الإصابة بالحمّى. تابع السير عند الساعة ٥:٣٠ صباحاً وقطع تلاً تغطيه أشجار التمر الهندي والسنط الكثيفة، وبين الأحراش ينمو نوع كبير من فطر بقلنسوة ذات لون أصفر ورمادي، ولم يتمكن من جمع عينات منها لعدم وجود جِرار تحفظها من التلف. وعند الساعة ٦:٤٥ مرّ بجدول ماءٍ جارٍ، وسار على ضفته حتى الساعة ٨:٣٠ ومن ثمّ تركه على يساره وصعد هضبة تقع بين جبال منخفضة، ووصل إلى قرية أطلق عليها «قرية عبدو»

.Abdou

عند الساعة ٢:٤٥ طلب منه الجمّالون، الحثّ بالسير لتلافي التأخير في منطقة ليست آمنة في محيط جبل «إمبركة» Mbaracha، كما أسماه. استأنف السّير تحت شمس حارقة في اتجاه الشمال غرب، في سهل تتخلله أشجار السنط، يرتفع على اليسار منه جبل «إمبركة» Mbaracha، وعند الساعة ٤:٣٠ وصل إلى سفح الجبل من جانب الضفة اليمنى من نهر سُرّاة الذي يصب في نهر ضحل حيث تنمو العديد من أشجار النخيل. شاهد على الجانب الآخر من الوادي على مسافة ٣٠٠ م، منزلين إلى ثلاثة منازل مبنية بالحجارة، إلى جانب ما يزيد عن عشر عشش مخروطية الشكل، وقد اشتهر سكان هذه القرية الفقيرة بممارسة النهب وإجبار القوافل على دفع حقّ المرور. عندما اقترب من القرية، خرج الأهالي من العشش ودار فيما بينهم حديث حاد، وقد توقّع ديفلرز امكانية مهاجمتهم عند بلوغه والقافلة المرافقة له الوادي، لكنّهم عادوا إلى عششهم بهدوء، فاستغل الفرصة لعبور النهر بسرعة أكبر، وما إن وصل إلى الضفة اليسرى وسار في طريق منخفض بين حقول دُخن شكلت حائطاً أخضر يبلغ ارتفاعه قرابة الثلاثة أمتار من جانبي الطريق. سمع أصواتاً غاضبة تصدر من يمينه، كانت أصوات فلّاحين مسنّين يحرضون الشباب على الهجوم على القافلة واغتنام الفرصة، ويعنفونهم على ترددهم. ولحسن الحظ كان الشباب يعملون حساباً للمرافقين المسلّحين، وردّوا على آبائهم بأنهم لا يستطيعون عمل شيء ؛ فالقافلة محميّة بثلاثة جنود أتراك. وأمام هذه الحجة القوية صمت الجميع وعادوا إلى أعمالهم. وقد علّق على الموقف بقوله : « أعتقد أنه بنهاية يوم العمل في الحقل، سيعود المزارعون المسنون ويجتمعون حول جمنة من قهوة القشر، ويتأسفون على الوهن والجبن الذي أصاب جيل الشباب، ويتم تبادل الاتهامات بين الجيلين كما يحصل في أيّ مكان.» مرّ عند الساعة ٤:٤٥ أمام قرية أخرى من العشش المخروطية، لم يكن فيها أحد لكون الأهالي مشغولين في حقولهم في هذه الساعة، وكانت المنطقة خصبة ومزروعة بالذرة والدخن وتتخللها أشجار النخيل الجميلة.

بدأت الجبال تنحسر رويداً رويداً، وعبر مرة أخرى نهر سُرّاة الذي بدأ مستواه

ينخفض، وكان مطمئناً إلى أنّ المنطقة بعد النهر آمنة من عمليات النهب، وأنه بإمكانه ترك الجمال من خلفه بينما يحثّ السير على البغال. بعد الساعة ٥:٠٠ بقليل، بدأت سهول تهامة الرملية تنبسط أمامه. مرّ من بين أحراش، وإذا بالعديد من الأرانب البرية تخرج منها وتنطلق هاربة، وحاول مرافقوه «حسن» و«عبد الله» تصويب أسلحتهما لاصطياد بعضها، لكن دون جدوى.

مدينة حيس :

وصل في ١٨ أغسطس عند الساعة ٧:٠٠ إلى مدينة «حيس»، ونزل بمقهى كبير يقع بالقرب من مسجد «الإسكندرية».

وقد وصف المدينة بما يلي : « حيس، عاصمة أُصَاب الأسفل، مدينة مفتوحة، يقطنها ما بين ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ نسمة، تقع عند طرف تهامة على سهل خصب في جنوب غرب جبل «دباس»، على ارتفاع ٢٦٥ متراً، وتصل درجة الحرارة فيها إلى أقل من ٢٦° مئوية عند الساعة ٥:٣٠ صباحاً، وترتفع إلى ٣٧° كحد أعلى عند الساعة ١٢:٣٠ . المساكن فيها خليط من العشش، ومنازل مبنية بالطوب أو بالطين لها واجهات موحدة مطلية باللون الأبيض مع بعض الزخارف المنقوشة. يوجد في شرق المدينة قلعة مستطيلة الشَّكل في حالة سيئة جداً، وليست ذات طابع معماري مميّز. تضم مدينة حيس ما يزيد عن العشرين مسجداً بقبة، ولكن دون مآذن، ومن بينها «الجامع الكبير»، ومسجد «الخامري» . يوجد في المدينة عدة معاصر للسمسم، ومعامل للنيلي ومصابغ، وتشتهر حيس بخصوصية صناعة الفخّار كالجمان، وأكواب القشر، وغير ذلك. يتمتع الريف الذي يقع فى شرق المدينة وجنوب شرقها بخصوبة عالية، حيث يُزرع هناك النيلي والبطيخ والباذنجان والطماطم والسمسم والتمور وأصناف متنوعة من الذرة والدخن.»

غادر في يوم ١٩ أغسطس عند الساعة ٢:٠٠ بعد الظهر مدينة «حيس» باتجاه مدينة «زبيد» التي تقع إلى الشمال غرب، عبر السهول الرملية التي تتخللها النباتات القادرة على النمو في الخبت. وبعد أن قطع مسافة بسيطة، بدأت رياح الشمال تهب بقوة، متسببة في عواصف رملية حجبت الرؤية، وأصبح من المتعذر معها تمييز

الأشياء خارج دائرة نصف قطرها ٣٠ متراً. توقفت العاصفة الرملية عند الساعة الثالثة، وواصل السير حتى الساعة السادسة قبل التوقف تحت شجرة سنط لتناول وجبة العشاء، واستأنف السير عند الساعة ٦:٣٠، وبدأت الأمطار بالهطول، مما اضطره للتخفيف من سرعة المشي خوفاً من الانزلاق.

مدينة زبيد :

وصل إلى مشارف مدينة زبيد عند الساعة ١:٣٠ بعد منتصف الليل، ونزل بمقهى خارج المدينة بالقرب من الباب الشمالي «باب سهام».

وقد وصف مدينة زبيد بما يلي : « مدينة زبيد الشهيرة، عاصمة تهامة فيما مضي، غدت اليوم عاصمة مديرية فقط ومقرّاً «لقائم مقام» تركي، وهي تقع في أرض خصبة عند مصب وادي زبيد، على ارتفاع ١٤١ متراً، يقطنها ١٥٠٠٠ نسمة، حسب ما نقل مانزوني Manzoni، وإن كان لديّ قناعة بأن عدد السكان الذي قدّرهم باساما Passama بـ ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ نسمة يفوق العدد الحقيقي. تحتل المدينة منطقة كبيرة مربعة الشكل، يحيط بها سورٌ من الطوب لا تتخلله أبراج مراقبة، وله أربعة أبواب[1] محصّنة، تقع في الجهات الأصلية الأربع. قلعة زبيد تقبع في الجهة الشمالية ما بين باب سهام وباب شبارق. المساكن فيها كما في مدينة حيس، خليط من البيوت المبنية بالياجور، وعشش. المساجد ذات القباب كثيرة جداً، لعلّ أهمها «الجامع الكبير»، مقر الجامعة السنيّة القديمة، بناؤه جميل ونوافذه منمّقة ومحاطة بزخارف على هيئة حامية خارجية متشابكة، ومسجد «الإسكندرية» ذو المئذنة البيضاء، ويقع في القلعة، ومسجد الأشاعر، ومسجد الغسّاني. ويبرز خارج الجدار على بعد ٤٠٠م تقريباً من جهة الشرق، مسجدٌ مربع الشكل تحيط به الدعامات ومئذنة لم تكتمل. فقدت مدينة زبيد الكثير من أهميتها بعد أن غمرت الرمال ميناء غلافقة الواقعة على مسافة ٤٢ كم شمال غرب زبيد، وتحوّل تجارة البن تدريجياً إلى ميناء الحديدة. ومع ذلك حافظت زبيد على حركة تجارية نشطة. وسوق زبيد يوفر أجود أنواع الحبوب والفواكة على مستوى تهامة، كالليمون

(١) باب سهام في الشمال، باب الشبارق في الشرق، باب القرتب في الجنوب وباب النخل في الغرب.

والرمان والتمر الهندي والخروب والمانجو والموز والتمر وجوز الهند والغرافوليا (الخرمش). والمناطق المحيطة بمدينة زبيد تبدو قاحلة تماماً، فيما عدا بعض الأشجار المتناثرة هنا وهناك.»

الحسينية :

غادر ديفلرز مدينة زبيد في ٢١ أغسطس عند الساعة ٤:٠٠ فجراً، على طريق «بيت الفقيه» في اتجاه الشمال غرب، حيث وجد الغطاء النباتي مشابهاً لما رآه في مناطق حيس. وصل عند الساعة ٨:٣٠ إلى قرية «الحسينية»، ووصفها بموقعها الجميل على ارتفاع ١٥١ م، وسط غابة صغيرة من أشجار السنط. وشاهد على الجانب الأيمن للمدينة معسكراً للأتراك يضم ما يربو على أربعين خيمة. وتوقف في مقهى رحب من العشش التي وصفها بأنه الأكثر مساحة والأفضل بناءً من جميع العشش التي شاهدها في اليمن. وبلغت درجة الحرارة القصوى عند الساعة ١:٠٠ ظهراً ٣٤° مئوية، وبدأت السماء تتلبد بالغيوم، وعند الساعة ٣:٠٠ هبّت رياح محمّلة بالرمال، وعقبها عاصفة وأمطار غزيرة.

ما إن هدأت العاصفة، حتى استأنف السير في اتجاه الشمال شرق، وقد عانى من المشي وسط صفائح الماء التي تغطي القيعان، وتخفي معالم الطريق. فاضطر لاستئجار مرشد من أهل المنطقة لإيصالهم إلى بيت الفقيه. بعد أن خرج من غابة أشجار السنط، وقع على ريف خصب غني بزراعته بفضل المياه التي تصله من وادي ريمة، وشاهد كثيراً من الفلاحين يرتدون قبعات مخروطية الشكل من القش، ويحملون السيف والرمح القصير (الجريد) وهم منهمكون بحفر فتحات على حواجز المياة التي بنوها حول حقولهم، خشية أن تغمر المياه حقولهم وتدمّر هذه الحواجز، وقد اندفعت المياه من هذه الفتحات بقوة السيل. وقد كانت الطريق زلقة لدرجة أنه سقط عدّة مرّات من على البغل. وبعد المشقة والمحاولة اليائسة للخروج من هذا الوضع قبل حلول الظلام، وصل إلى هضبة مرتفقة قليلاً ومنها شاهد مآذن بيت الفقيه، وعند الساعة ٦:٤٥ وجد نفسه أمام سيل عرم هدّم الجوانب الطينية التي تحد السائلة وتسبب في انهيارات واسعة، وبعد أن نجح في عبوره بصعوبة ومخاطرة، جنّ الليل، وتاه المرشد عن الطريق.

بيت الفقيه :

أضاع ديفلرز وقتاً طويلاً قبل الوصول إلى مشارف مدينة بيت الفقيه عند الساعة ٩:٠٠، وكان عليه أن يعبُرَ المدينة تحت جنح الظلام، وأن يتلافى الحفر المنتشرة في الشوارع قبل الوصول إلى مقهى لقضاء الليلة. نزل في عريش وصفه بالقذر، وفيه مجموعة من المسافرين المصابين بالحمى. وتصادف أن كان مرافقه عبد الله مريض بالحُمّى، وأصيب بجرح عميق في قدمه منعه من مساعدة صاحب البغال في إنزال الأمتعة، ولم يتمكّن من تغيير ملابسة المبتلّة جرّاء المطر والسيول بسرعة، وعند الساعة ١٠:٠٠ مساءً، عندما كان يتهيأ لتناول طعام العشاء، إذا بصبيّ صغير جاء ينقل له التحيّة من قِبل تاجرٍ يوناني مقيم في بيت الفقيه والذي يرحب به ويدعوه أن يحلّ ضيفاً عليه. لكنّه وجد نفسه مرهقاً وغير قادر على السير في المدينة في هذا الوقت المتأخر من الليل، فطلب من الصبي أنْ يشكر التاجر ويعتذر له، ووعد بزيارته في الغد. لحظات أخرى مضت، وإذا بضابطٍ تركيٍّ يدخل ويجلس على سرير ديفلرز ودون أن يُلقي عليه التحية، بدأ وبلهجة متغطرسة ينهال عليه بالأسئلة التي حاول الإجابة عليها بصبر في البداية، قبل أن يستفزّ غضبه، وحاول إفهامه أنّه مرهق من السفر وبحاجة إلى الراحة، إلا أنّ الضابط لم يبد اهتماماً بما قاله، فقرّر عدم الإجابة على أسئلته. وعندما يأس الضابط التركي منه توجّه بالأسئلة إلى مرافقيه، وبعد أنْ ضاق به الحال دعا مرافقه حسن، وقاما بطرده من المكان المخصّص لهما في العريش. غادر الضابط المكان لكنّه رمقه بنظره غاضبة مهددة ؛ لأنّه شعر بجرحٍ في كرامته، فخشي ديفلرز التعرض لمضايقات من قبل السلطة المحليّة في اليوم التالي، خاصةً وأنّه لا يحمل ترخيص التنقل معه، وبما يتسبب له في ضياع فرصة السفر على السفينة المصرية التي ستنطلق من الحديدة يوم ٢٤ أغسطس، فقرر مغادرة «بيت الفقيه» مع بزوغ الفجر، وعدم البقاء فيها ليومٍ آخر كما كان مخططاً له.

وقد وصف «بيت الفقيه» بما يلي : « بيت الفقيه تشتهر بهذا الاسم نسبةً إلى الفقيه السنّي أحمد بن موسى، الذي سكن فيها قبل أن تكون مأهولة، ويعتبره السكان المحليون من الأولياء الصالحين، ويحجون إلى ضريحه عند قبة تقع في

شمال غرب المدينة. وحول هذا الموضوع نقل نيبهور الأسطورة الغريبة التي تروي أنّ أحد الباشوات الأتراك، ظلّ أسيراً لمدة تفوق العشرين عاماً في إسبانيا، وكان مكبّلاً بالسلاسل والأثقال الكبيرة، وبعد الاستعانة بالدعاء باسم كثير من الأولياء لم تكن النتيجة مجديّة، ولكنه تذكّر ودعا باسم الفقيه أحمد الشهير، والذي استجاب ومدّ يده من القبر، ونقل الباشا في نفس اللحظة من إسبانيا إلى بيت الفقيه ومعه السلاسل والأثقال. ويقال إنّ هذه المعجزة حصلت في الليلة التي كان يُحتفل فيها بعيد الفقيه أحمد، بحضور العديد من الشهود، كما أنّ الأثقال من الحجارة والسلاسل ما زالت موجودة بجانب الضريح.

وتتكون مدينة بيت الفقيه من بيوت مبنية بالياجور، وعشش. وتقع على ارتفاع ١٦٦ م، على سهل عند سفح جبل ريمة الذي يبعد مسافة ٢٠ إلى ٢٥ كم. وتحتل المدينة مساحة شاسعة على شكل مثلث متساوي الأضلاع. ليست محاطة بسور، وتحميها قلعة من الناحية الشمالية، ويقارب عدد السكان فيها عدد سكان مدينة زبيد.»

وادي سهام، الدريهمي

غادر مدينة بيت الفقيه في يوم ٢٢ أغسطس عند الساعة ٤:٣٠ فجراً، تحت جنح الظلام، في اتجاه الشمال غرب، ووصل عند الساعة ٨:٠٠ إلى مقهى على الطريق كان به العديد من الجمال المحمّلة بالبن. ووقف لبضعة ساعات في أحد عرايش المقهى الذي وجده نظيفاً وجيّد التهوية. وعند الظهر استعجله «جُمعان» صاحب البغال في المغادرة مبكراً لبلوغ وادي سهام قبل هطول الأمطار التي قد تحول دون عبور الوادي. غادر المقهى عند الساعة الواحدة تحت أشعة شمس حارقة، وسط خبت يمتد على طول النظر، تتخلله الشجيرات المتربة. وقد وجد السكون والصمت العميق والقيض الذي يخيّم على الخبت مثيراً للقلق والاكتئاب. بدأت تتلاشى في الأفق سلسلة جبال ريمة وجبال بُرَع. وعند الساعة ٣:٠٠ وصل إلى الضفة اليسرى لوادي سهام، ووجده ضحلاً ولكنه شاسع، وتتخلله بعض الكثبان الرملية، وبه محاصيل قليلة، وكان أقرب إلى الجفاف في تلك الفترة. وعند الساعة ٤:٣٠ وصل إلى قرية «الدريهمي»، وقضى الليلة فيها،

ووجدها مكوّنة من أكثر من مائة عشة ، وفيها ثلاث أو أربع قباب بيضاء صغيرة تقع بمنأى عن المنازل.

المغادرة :

في يوم ٢٣ أغسطس عند الساعة ٢:٣٠ بعد منتصف الليل غادر قرية الدريهمي، وتوجه في اتجاه الشمال غرب، وسار بمحاذاة البحر. ومع شروق الشمس، عند الساعة ٧:٠٠ صباحاً، وصل إلى حي الصيادين، ووصل بعد ذلك بوقت قصير إلى باب النّزل الذي أقام فيه عند وصوله قبل أربعة أشهر.

غادر عالم النباتات الفرنسي البير ديفلرز ميناء الحديدة في يوم ٢٤ أغسطس ١٨٨٧، على متن سفينه مصريّة، بعد أن أثرته اليمن وأثراها من خلال رحلته الاستكشافية هذه وتحمّله لوعثاء السفر بهدف جمع عينّات كثيرة ومتنوعة من النباتات التي يتميز بها الغطاء النباتي اليمني، والتي أوردها في قوائم ألحقها بمذكراته، والتي لكونها أسماء علمية بحته، موجهة للمتخصّصين في علم النباتات، لم يسمح المجال هنا بذكرها.

****

انتهى بحمد الله وتوفيقه

مُلحق

لنماذج من بعض الوثائق الفرنسيّة

TRAITÉ

Entre les François & les Arabes.

* AU nom de Dieu, clément & miséricordieux.

Après avoir rendu loüanges à Dieu, & la Priere & le Salut à Notre Seigneur Mahammed & à sa postérité.

Ceci est notre écrit Noble, en témoignage, entre les mains de la Nation Françoise, pour toutes les conventions qui sont entre leurs mains, avec notre signature & notre sceau Noble, sans qu'il y ait du changement.

C'est à cause de l'arrivée de cette Nation en ce Port heureux de Moka, pour y faire la guerre par ordre de leur Roi, qui a chargé la Compagnie d'envoyer des Vaisseaux & des troupes pour faire la guerre au Port de Moka; & le sujet de cet ordre là est le tort que Faqui-Ahmed, fils d'Hyahya Kazendar notre Gouverneur, a fait à la Nation Françoise, sans

* C'est l'Iman qui parle.

F iiij

وثيقة رقم (١)

المعاهدة الموقعة بين اليمن وفرنسا إثر العدوان على ميناء المخا عام ١٧٣٧

notre participation : en ce qu'il a détruit leurs coutumes & leurs Priviléges, & en ce qu'il leur a pris des sommes par avanie.

Lorsque les François sont arrivés au Port, ils ont fait la guerre, ils ont pris le Fort d'Abdelrout, & ils nous ont écrit pour nous informer de ce qui s'étoit passé. Nous leur avons envoyé le très-honoré *Emir-Elmas Abderahman*, avec ordre de notre part d'examiner leurs demandes, les rétablir dans leurs anciens Priviléges, & pour leur payer ce qui leur est dû; & Hagi-Assem qui est à notre service, & employé dans cette affaire, pour être traitée en présence du Cadi Mezemed-Ebenzeid. Lorsque le susdit Emir-Elmas est arrivé à Moka, il a fait sçavoir aux François les ordres qu'il avoit de notre part, & leur a fait montrer notre Noble écrit, dont il est chargé à ce sujet, & leur a fait demander de lui envoyer deux de leurs gens qui fussent autorisés, afin de pouvoir traiter avec eux sur toutes leurs demandes. Les François ayant sçû le désir d'Emir-Elmas, ils lui ont fait répondre d'envoyer de sa part trois personnes du Gouvernement, sur qui ils pourroient compter, & que dez qu'elles seroient rendues auprès d'eux, trois personnes de leur part qui sont chargées des affaires de la Compagnie, viendroient pour

تابع الوثيقة رقم (١)

LOUANGES A DIEU;

Seigneur de l'Univers.

ARTICLE I.

Monſieur Ingrand, Chef du Comptoir François de Moka, a ordre de ſe faire payer du Beitelmal, ou Domaine du Roi, ce que a pris Faqui-Ahmed, fils de Hyahya Kazendar, Le ſurplus des droits, & ce qui lui eſt dû par Hagi-Haſſem au compte du Beitemal (ce qui monte à la ſomme de quatre-vingt deux mille deux cens quatre vingt trois piaſtres d'Eſpagne quarante-huit cabirs) Emir-Elmas s'eſt engagé de payer cette ſomme, & Monſieur Ingrand promet qu'après avoir reçû le noble écrit & le ſceau noble, & que la ſuſdite ſomme lui ſera payée, de faire rendre le Fort comme il étoit à la priſe.

ARTICLE II.

La Nation Françoiſe voulant s'établir à Moka & en d'autres endroits pour y faire Commerce, il leur ſera permis de prendre à loüage une ou pluſieurs Maiſons: & le Pavillon du Roi de France ſera arboré ſur celle ou le Chef de la Nation Françoiſe logera, comme une marque à tout le

تابع الوثيقة رقم (١)

Faqui à Moka, pour faire faire diligence aux Chameliers, & veiller à la conservation des balles de caffé, à moins qu'il n'établiſſe véritablement des Gardes ſur ledit chemin : en ce cas les François n'ayant point à ſe plaindre du retardement, ni du manque de ſoin de leurs balles de caffé, conſentent de payer leſdits cinq Cabirs par charge de Chameau.

Les François payeront un droit au Gouverneur de Betel-Faqui à raiſon d'une piaſtre par bahar, ſur la quantité de bahars qu'ils auront achetés.

ARTICLE XXIII.

Les Gouverneurs de Moka arrêteront les comptes avec les Chefs de la Nation Françoiſe à la fin de chaque Mouſſon, & avant le départ de chaque Vaiſſeau François, ſans leur cauſer de retardement pour les droits d'entrée & de ſortie, que les François devront au Beitelmal (ou domaine de l'Iman) & le montant des comptes arrêtés ne ſera payé comptant par ledit Chef de la Nation Françoiſe au Gouverneur de Moka, qu'en ce tems-là ſeulement.

ARTICLE XXIV. & dernier.

Nous ordonnons aux Gouverneurs de

تابع الوثيقة رقم (١)

EL/JEN.
Ministère
des
Affaires Etrangeres

Direction des affaires
politiques et commerciales

LEVANT.

REPUBLIQUE FRANCAISE.

BORDEREAU D'ENVOI

C 41.1 162

SOUS DIRECTION D'EUROPE. – 6 MARS 1939

Désignation des pièces	Nombre	Observations
Droits de la France sur Cheikh-Saïd. ---- Note de M. Lagarde, en date du 27 février dernier.		Pour information./.

Communiqué à :

Cabinet
Presse
Archives
M. Léger
M. Charvériat
M. Rochat
[redacted]
Asie
Amérique
Afrique
R.C.
O.D.N.
Marine (EMG)
Marine (C.)
Air (R.N.)
Guerre (C.)
Guerre (EMA)
Guerre (S.O.M)
Présidence
du Conseil
Colonies (C.)
Colonies (A.P).
Port-Louis

Rome
Rome St S.
Londres
Londres (C.C).
Berne
Bruxelles
Burgos
Lisbonne
Berlin
La Haye
Copenhague
Oslo
Stockholm
Varsovie
Moscou
Prague
Dublin
Budapest
Belgrade
Athènes
Sofia
Bucarest
Ankara
Beyrouth
Bagdad
Jérusalem
Rabat
Tanger
Téhéran

Caboul
Djeddah
Le Caire
Port-Saïd
Bombay
Colombo
Calcutta
Caboul
Singapour
Batavia
Hongkong
Changhaï
Pékin
Tokyo
Wellington
Sydney
Washington
Addis Abeba
Dirre-Daoua
Nairobi
Pretoria
Durban
Mexico
Buenos-Ayres
Alger
Tunis
Rhodes
Aden
Montevideo

وثيقة رقم (٢)

الصفحتان ١، ٢ من التقرير السرّي الذي أعدته وزارة الخارجية الفرنسية من ٥٥ صفحة حول الحقوق الفرنسية في منطقة «الشيخ سعيد»

EL/JRM.

Paris, le 27 février 1939.

SECRET.

NOTE

Droits de la France sur Cheikh-Saïd.

Nos droits sur Cheikh-Saïd remontent au premier octobre 1868, date à laquelle les sieurs Ras et Poilay acquirent, en due forme, du cheikh Ali Tabet Nakoude ed-Dourein un terrain surplombant la passe de Bab-el-Mandeb et d'une contenance correspondant à six heures de marche dans toutes les directions à partir du lieu dit Cheikh-Saïd. L'acte, enregistré à cette date à l'agence consulaire de France à Aden, énonce que le vendeur avait qualité pour procéder à l'aliénation. Le prix était de 80.000 talaris, à verser dans les six mois sous peine de nullité.

A l'époque, la flibuste régnait sans conteste dans ces parages. La Porte n'y exerçait, d'ailleurs, qu'une autorité nominale. L'Angleterre, qui avait pris pied à Aden en 1839 et à Périm en 1857, se préoccupait d'autant plus de consolider ses positions dans cette région de la péninsule arabique, que l'achèvement imminent du canal de Suez allait accroître considérablement l'importance straté-

تابع الوثيقة رقم (٢)

à une tierce puissance. A cela se réduisent nos droits, mais, contenus dans ces limites, ils sont incontestables.

L'arrangement anglo-italien du 16 avril 1938 au sujet de la péninsule arabique est pour nous res inter alios acta. Les clauses ne nous en sont donc pas opposables. Elles ne sauraient, en tout cas, restreindre la portée de nos titres. Dans la mesure, cependant, où elles tendent à consolider le statu quo territorial et politique des pays riverains de la mer Rouge, elles sont conformes à nos intérêts. Toute altération de l'équilibre actuel, voire toute menace à ce dernier, nous ouvre le droit de reprendre, cette fois pour les faire valoir par l'action, c'est-à-dire par l'occupation, nos prétentions sur Cheikh-Saïd. L'assurance désintéressée que nous avons donnée à l'Imam Yahya ne nous lie évidemment que pour autant que les tiers respectent également l'intégrité de ses domaines et que lui-même s'abstienne d'en céder à bail ou d'en aliéner à titre onéreux ou gratuit aucune parcelle, d'en déléguer, fût-ce sous une forme déguisée, la défense ou, simplement, de tolérer de semblables empiètements. Faute de sûreté efficace, nous gardons les mains libres en ce qui concerne Cheikh-Saïd. Il va de soi, néanmoins, qu'un engagement du gouvernement de Sanaa ne serait qu'une garantie illusoire, s'il n'était assorti de la caution, sinon de l'Italie, à tout le moins de l'Angleterre. La démarche dont M. Corbin vient d'être chargé n'a pas d'autre objet que d'organiser l'affaire dans

cette voie. Si lord Halifax entrait dans nos vues, nous pourrions traiter avec l'émir Seif el-Islam, à qui nous avons fait savoir que la question était à l'étude./.

Le sous-directeur d'Afrique
et Levant:

وثيقة رقم (٣)

الصفحتان الأخيرتان من التقرير السرّي الذي أعدته وزارة الخارجية الفرنسية من ٥٥ صفحة حول حقوق فرنسا على منطقة «الشيخ سعيد»

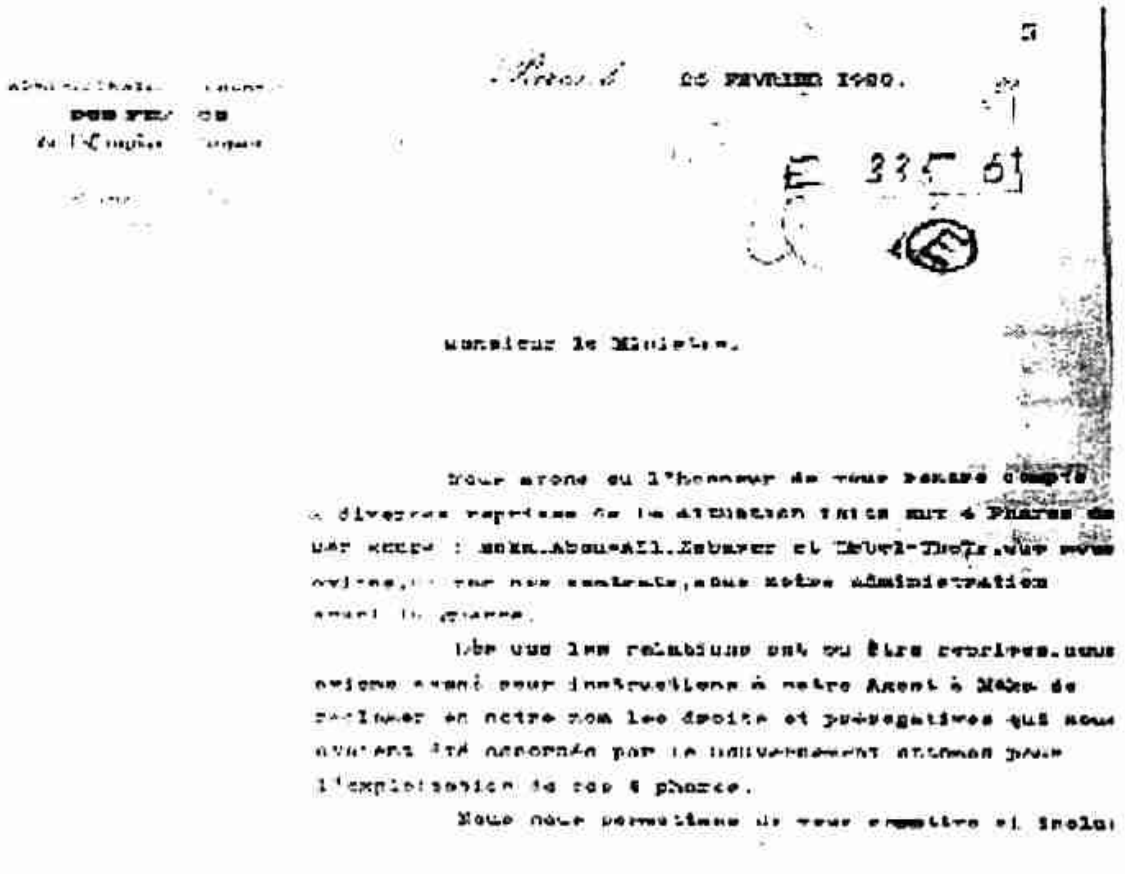

وثيقة رقم (٤)

رسالة إدارة الفنارات العثمانية الموجهة لوزير الخارجية الفرنسي ميلران
Millerand

un extrait d'une lettre de notre agent, lettre datée du 18 Janvier dernier. Tout en pensant que ce renseignement peut vous intéresser, nous vous rappelons que des intérêts français sont gravement compromis par l'état d'anarchie régnant dans ces parages de la Mer Rouge.

D'une part 3 de nos phares : Abou-Ail, Zebayer et Djebel-Tteir sont occupés par les autorités britanniques et d'autre part le phare de Moka est isolé sans qu'aucune autorité capable ne puisse le protéger.

Dans l'intérêt même des navigateurs pour qui ces phares sont de première importance, il y aurait urgence à ce que des dispositions soient prises pour leur protection en attendant qu'ils fassent retour, très prochainement nous l'espérons, à ceux à qui ils avaient été confiés, c'est à dire à notre administration.

Nous vous prions d'agréer, Monsieur le Ministre, l'assurance de notre très haute considération,

تابع وثيقة رقم (٤)

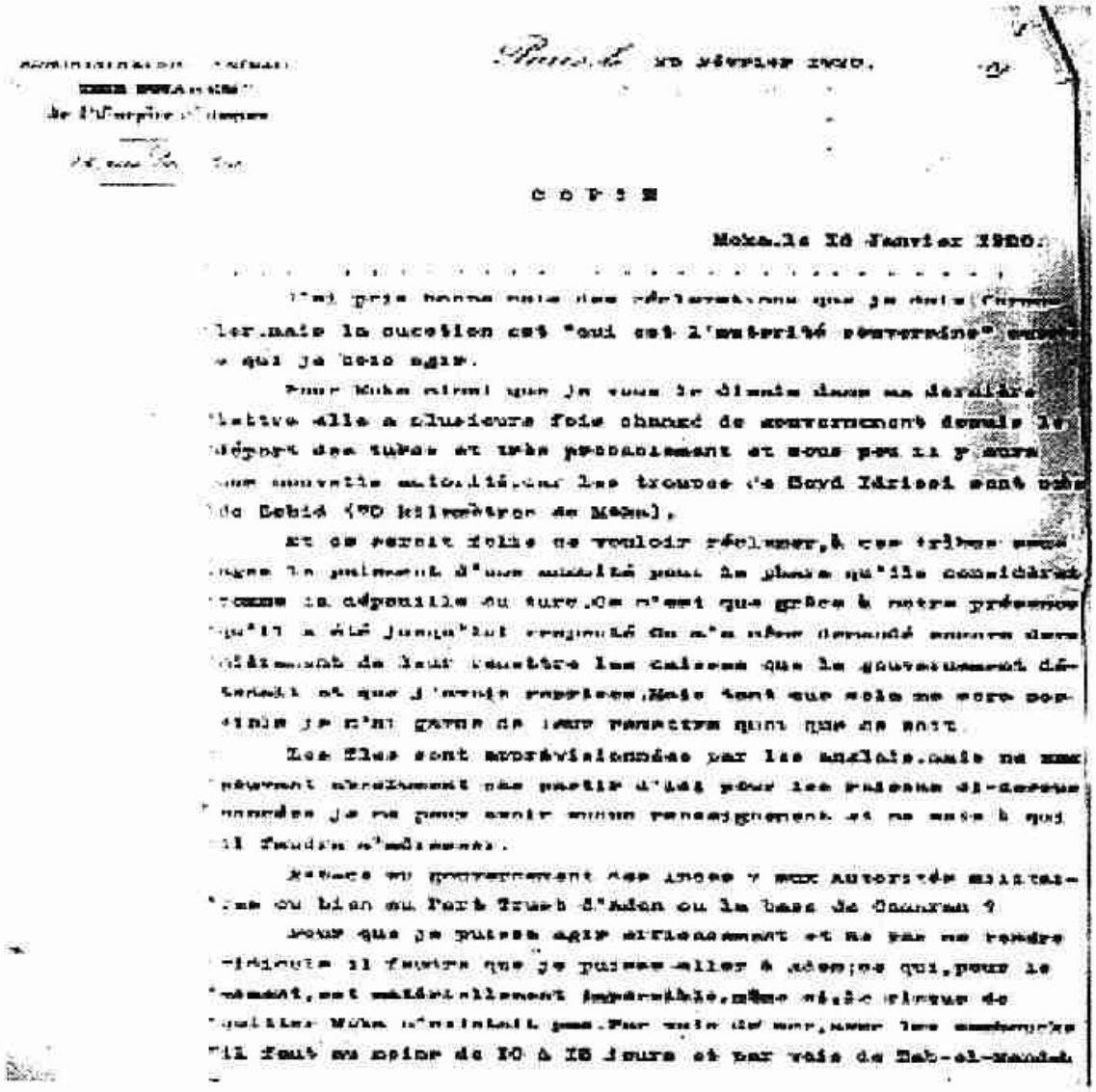

Administration Générale
des Phares
de l'Empire Ottoman

Paris, le 20 Février 1920.

C O P I E

Moka, le 10 Janvier 1920.

. . . .

J'ai pris bonne note des réclamations que je dois formuler, mais la question est "qui est l'autorité souveraine" auprès de qui je dois agir.

Pour Moka ainsi que je vous le disais dans ma dernière lettre elle a plusieurs fois changé de gouvernement depuis le départ des turcs et très probablement et sous peu il y aura une nouvelle autorité, car les troupes de Seyd Idrissi sont aux portes de Zebid (70 kilomètres de Moka).

Et ce serait folie de vouloir réclamer, à ces tribus sauvages le paiement d'une somme pour le phare qu'ils considèrent comme la dépouille du turc. Ce n'est que grâce à notre présence qu'il a été jusqu'ici respecté. On m'a même demandé encore dernièrement de leur remettre les caisses que le gouvernement détenait et que j'avais reprises. Mais tant que cela me sera possible je n'ai garde de leur remettre quoi que ce soit.

Les Iles sont approvisionnées par les anglais, mais ne pouvant absolument pas partir d'ici pour les raisons ci-dessus données je ne peux avoir aucun renseignement et ne sais à qui il faudra s'adresser.

Est-ce au gouvernement des Indes ? aux autorités militaires ou bien au Port Trust d'Aden ou la base de Camaran ?

Pour que je puisse agir efficacement et ne pas me rendre ridicule il faudra que je puisse aller à Aden; ce qui, pour le moment, est matériellement impossible, même si [illegible] Moka n'existant pas. Par voie de mer, avec les sambouks il faut au moins de 10 à 15 jours et par voie de Bab-el-Mandeb

Paris en est sûrement pillé et notre courrier indigène même a été deux fois retourné et empêché de partir,

C'est l'anarchie complète.

Signé : COCCALI

وثيقة رقم (٥)

رسالة موظف إدارة الفنارات العثمانية «كوكالي» المسؤول على فنار المخا

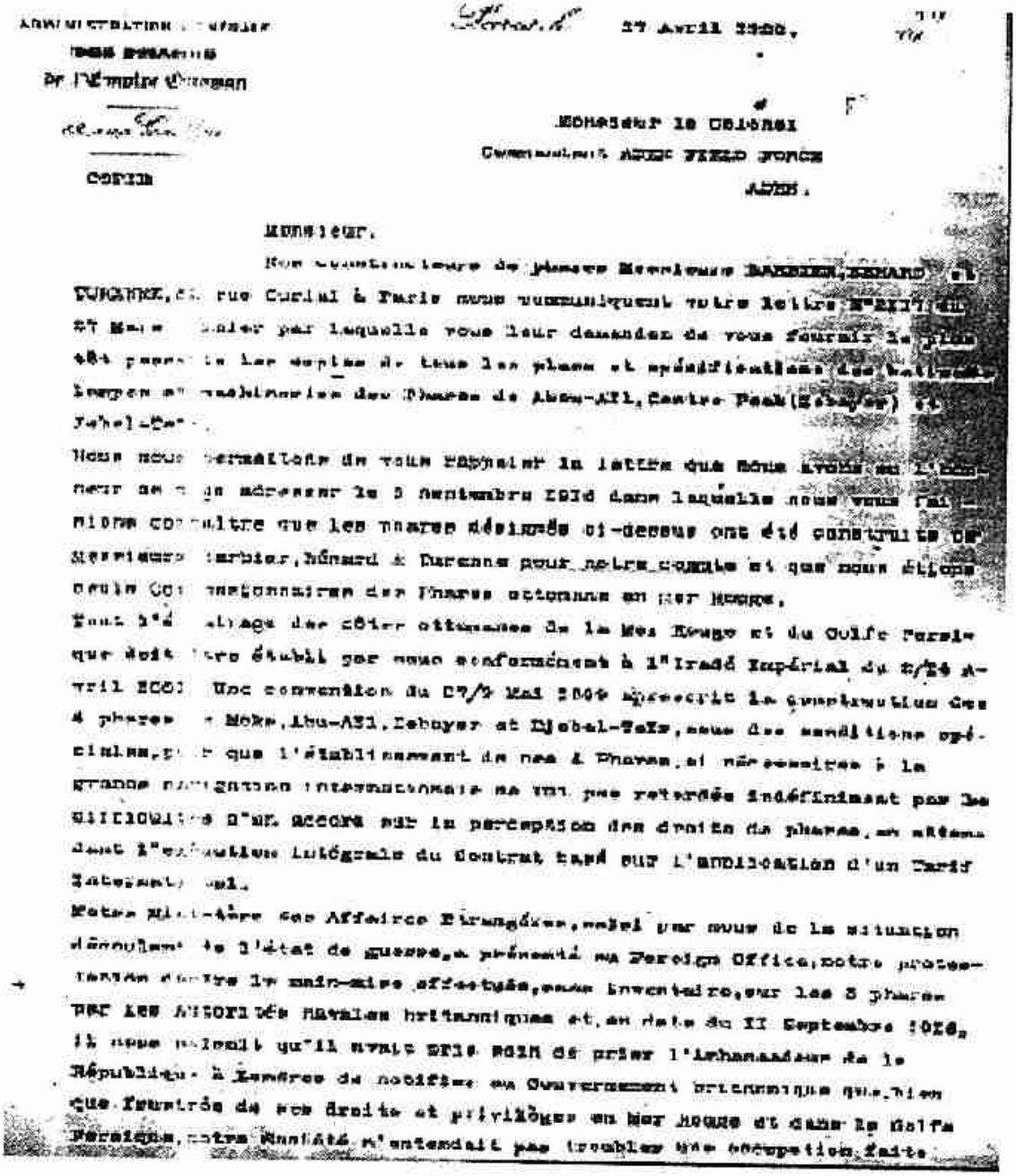

ADMINISTRATION GÉNÉRALE
DES PHARES
de l'Empire Ottoman

COPIE

Paris, le 27 Avril 19[illegible].

Monsieur le Colonel
Commandant ADEN FIELD FORCE
ADEN.

Monsieur,

Nos constructeurs de phares Messieurs BARBIER, BÉNARD et TURENNE, [illegible] rue Curial à Paris nous communiquent votre lettre N° [illegible] du 27 Mars dernier par laquelle vous leur demandez de vous fournir le plus tôt possible les copies de tous les plans et spécifications des bâtiments, lampes et machineries des Phares de Abou-Ail, Centre Peak (Zebayer) et Jebel-Teir.

Nous nous permettons de vous rappeler la lettre que nous avons eu l'honneur de vous adresser le 5 Septembre 1919 dans laquelle nous vous faisions connaître que les phares désignés ci-dessus ont été construits par Messieurs Barbier, Bénard & Turenne pour notre compte et que nous étions seuls Concessionnaires des Phares ottomans en Mer Rouge.

Tout l'éclairage des côtes ottomanes de la Mer Rouge et du Golfe Persique doit être établi par nous conformément à l'Iradé Impérial du 8/24 Avril 1901. Une convention du 27/9 Mai 1904 prescrit la construction des 4 phares de Moka, Abu-Ail, Zebayer et Djebel-Teir, sous des conditions spéciales, pour que l'établissement de ces 4 Phares, si nécessaires à la grande navigation internationale ne fut pas retardée indéfiniment par les difficultés d'un accord sur la perception des droits de phares, en attendant l'exécution intégrale du Contrat basé sur l'application d'un Tarif International.

Notre Ministère des Affaires Étrangères, saisi par nous de la situation découlant de l'état de guerre, a présenté au Foreign Office, notre protestation contre la main-mise effectuée, sans inventaire, sur les 3 phares par les autorités navales britanniques et, en date du 11 Septembre 1916, il nous informait qu'il avait pris soin de prier l'Ambassadeur de la République à Londres de notifier au Gouvernement britannique que bien que frustrée de ses droits et privilèges en Mer Rouge et dans le Golfe Persique, notre Société n'entendait pas troubler une occupation faite

وثيقة رقم (٦)

رسالة إدارة الفنارات العثمانية إلى الحاكم العسكري البريطاني في عدن

وثيقة رقم (٧)

رسالة وزير الخارجية البريطاني الموجهة لنظيرة الفرنسي حول الفنارات العثمانية

J.V.168 106

CONVENTION DU 27/9 MAI 1899

La présente convention est intervenue entre S. E. Hassan Pacha, Ministre de la Marine, agissant au nom et pour compte du Gouvernement Impérial Ottoman,

d'une part;

et les Sieurs [illegible] et Michel, Concessionnaires des Phares de l'Empire Ottoman, représentés par Monsieur Pierre de Vaucel, [illegible] administrateur,

d'autre part;

au sujet de la construction de quatre feux ci-après dénommés et compris dans le contrat de concession des feux de la Mer Rouge, en date du [illegible]/24 avril 1881.

Article I

Le Gouvernement Impérial Ottoman s'engage à prendre à sa charge les frais de construction, d'entretien et d'éclairage des quatre feux de [illegible]:

[illegible], portée [illegible] milles

[illegible], portée 20 milles,

[illegible], portée 20 milles,

Djebel-Tair, portée 20 milles.

dont l'établissement est réclamé par les Puissances Maritimes pour les besoins de la grande navigation internationale de la Mer Rouge.

Ces frais seront pris sur la part de revenus que le Gouvernement Impérial Ottoman reçoit et aura à recevoir des Concessionnaires des Phares de l'Empire Ottoman, aux termes des contrats du 20 Août 1860, du [illegible] Juin/12 Juillet 187[illegible] et du 13/25 Octobre 18[illegible].

La dite part du Gouvernement Impérial Ottoman étant déjà affectée à l'intérêt et à l'amortissement d'un emprunt de cinq cent mille livres turques, les Concessionnaires avanceront les dits frais de construction, d'entretien et d'éclairage jusqu'à l'époque du complet amortissement de cet emprunt.

وثيقة رقم (٨)

اتفاقية ٢٧/ ٩ مايو ١٨٩٩ لإنشاء أربعة فنارات في اليمن

Que se rembourseront de cette avance faite au Gouvernement Impérial Ottoman sur la part de recettes qui lui reviendra à partir de cette époque, étant entendu que les sommes avancées porteront intérêts à quatre pour cent l'an.

Le Gouvernement Impérial Ottoman ne pourra affecter ou engager de quelque manière que ce soit la part de revenus à recevoir des Concessionnaires avant l'extinction complète des avances qui lui auront été faites par ces derniers pour la construction, l'entretien et l'éclairage des quatre feux.

ARTICLE II

Délai fixé pour la construction des quatre feux spécifiés à l'article précédent est de cinq années à partir du 1er Janvier 1[illegible].

ARTICLE III

Les avances faites par les Concessionnaires, soit pour la construction, soit pour l'entretien et l'éclairage des quatre feux en question pendant toute la durée de la concession seront constamment garanties sur la part de recettes revenant au Gouvernement Impérial Ottoman sur l'exploitation des feux de la Méditerranée.

ARTICLE IV

Les matériaux destinés à la construction, à l'entretien ou à la réparation des tours, bâtiments et appareils des feux, les approvisionnements de toute sorte seront exempts de droits de douane et de tous impôts pendant toute la durée de la concession.

ARTICLE V

Ainsi qu'il est spécifié dans le contrat du 2/14 Avril 188[illegible] les Concessionnaires auront la direction complète des Phares sous la haute inspection du Gouvernement Impérial Ottoman. Le choix des emplacements, le dressement des projets, la direction des travaux, l'organisation du service et de l'exploitation, le choix du personnel, sa révocation, la quotité des salaires, la répartition des attributions et généralement tout ce qui concerne la construction et l'exploitation appartiendront aux Concessionnaires.

تابع الوثيقة رقم (٨)

De plus, les Concessionnaires ne seront pas responsa[illegible]s des dommages résultant des tremblements de terre, des [illegible] [illegible], l'incendie, d'attaque à main armée, d'empiètements [illegible] [illegible] de force majeure.

En outre, tous frais [illegible] de réparations et d'en[illegible] seront à la charge du Gouvernement Impérial Ottoman et [illegible] par les Concessionnaires dans les conditions stipulées [illegible] l'article 1.

[illegible]

[illegible] de construction des quais [illegible] à la somme de Livres Turques 150.000 [illegible]. On procédera à la [illegible] avec toute l'économie possible et [illegible], les données techniques [illegible] pour faire une estimation exacte des frais effectués [illegible] règlement.

[illegible]

[illegible] construction et [illegible] Livres Turques 13.500 [illegible] et ce n'est qu'après [illegible] exacte desdits frais [illegible] de la Marine.

[illegible]

[illegible] viendrait à per[illegible] de l'éclai[illegible] des feux [illegible] des Phares [illegible] de ces revenus [illegible] resteraient [illegible] de la Marine.

[illegible]

[illegible] donné aux [illegible] pour [illegible] la construction, [illegible] et l'[illegible] feux.

تابع الوثيقة رقم (٨)

de son côté, l'Administration des Phares, dans le but de sauvegarder les intérêts de l'Etat, se fera un [illegible] de prononcer par toutes les mesures d'économie pour mener à bien cette oeuvre.

ARTICLE X

La durée de la présente convention ne pourra excéder, dans [illegible], le terme même de la concession des Phares de la Méditerranée, qui prend fin le 4 septembre 1924.

Fait à Constantinople, en double original, le 27/8 Mai 1899.

Signé: [illegible]   [illegible]

Pour traduction et copie certifiée conforme à l'original qui nous a été représenté par le S. [illegible], au nom de Mr P. de [illegible], [illegible], et qui lui a été immédiatement restitué.

Constantinople le 18 Mai 1899

Le Chancelier, Vice-Consul

Signé: [illegible]

تابع الوثيقة رقم (٨)

قائمة بأهم المصادر والمراجع

- **Archives du Ministère des Affaires Etrangères.**
- **Archives du Ministère de la Marine et des Colonies.**
- **Archives nationales d'Outre-mer.**
- **Archives municipales de Saint-Malo.**

La Roque, Jean de, 1716, Voyage de L'Arabie Heureuse, par l'Océan Oriental et le Détroit de la Mer Rouge. Fait par les Français pour la première fois, dans les années 1708, 1709 & 1710, Paris : André Cailleau.

La Roque, Jean de, Voyage de L'Arabie Heureuse, Les Corsaires de Saint-Malo sur la route du café 1708-1710 et 1711-1713, Besançon, La Lanterne magique, éd. 2008.

Lespagnol, André, 1997, Messieurs de Saint-Malo : une élite négociante au siècle de Louis XIV, Presse universitaire de Rennes, 2 vol.

Brown, Jean-Pierre, 2001, Saint-Malo Yémen. Regard sur un étonnant voyage, Saint-Malo, Denis Lafond.

Chelhod, Joseph, 1974, « Note d'ethnologie yéménite. L'Arabie du Sud vue par Carsten Niebuhr ». In : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n° 18. pp. 19-44.

Chelhod, Joseph (al), 1984, L'Arabie du Sud, Histoire et Civilisation, tome I. Le peuple yéménite et ses racines, Maisonneuve & Larose.

Haudrère, Philippe, 2006, Les compagnies des Indes orientales, trois siècles de rencontre entre Orientaux et Occidentaux, Paris, Desjonquères.

Fayen, Claudie, 1975, Yémen, Petite planète, Seuil, Paris. 188p.

Lachiver, Marcel, 1991, Les années de misère, la famine du Grand Roi, Fayard.

Niebuhr, Carsten, 1776, Voyage en Arabie et en d'autres pays de l'Orient, 2 tomes, 1780, Suisse, chez les Libraires associés.

Desfontaines, Guyot (Abbé P.-F), 1739, Relation de l'expédition de Moka en l'année 1737, sous les ordres de M. de la Garde-Jazier, de Saint Malo, Paris, Chaubert.

Le grand dictionnaire historique, ou le mélange curieux de l'histoire sacrée et profane, vol. 7.

Simiot, Bernard, 1939, « La véritable histoire de Cheik-Saïd », La Revue universelle, n°23.

Caspari, Edouard, 1885, « Compte rendu devant la Société de géographie à Paris », Revue française de l'étranger et des colonies.

Veillon, claudine, 1991, « L'affaire de Chikh Saïd (1868-1914), une tentative d'implantation française au Yémen », Cahier du GREMAMO, x, pp. 39-51.

Labrousse, Henri, « Les négociants marseillais à Cheikh-Saïd à la fin du XIXe siècle », Récits de la mer rouge et de l'océan indien, éditions économica, (ISC-CFHM), pp. 141-151.

Nied, André, « Ces colonies sur les bords de la mer rouge dont la France n'a pas voulu », ISC-CFHM-IHCC.

Brunschwig, Henri, 1968, « Une colonie inutile : Obock (1862-1888) », Cahier d'études africaines, vol. 8, N° 29, pp. 32-47.

Armand, Paul, 1887, « Les intérêts français et italiens dans la mer rouge », Bulletin de la Société de géographie de Marseille, vol. 2.

ARBOIT, Gérald, 2000, Aux sources politiques arabes de la France, le second empire au machrek, l'Harmattan, 276 p.

Joint-Daguenet, Roger, 1992, Aux origines de l'implantation française en mer rouge, Paris, l'Harmattan, 347 p.

(Archives diplomatiques. A.E. Paris. Vol. 318 E Octobre Décembre 1854).

Thobie, Jacques, 1972, Phares ottomans et emprunts turcs (1904-1961), Paris, éd. Richelieu.

Thobie, Jacques, 2004, L'administration générale des phares de l'Empire Ottoman et la société Collas et Michel (1860-1960) – Un siècle de coopération économique et financière entre la France, l'Empire ottoman et les Etats successeurs, Paris, l'Harmattan, 299 p.

Botta, Paul-Emile, 1841, Relation d'un voyage dans l'Yémen :

entrepris en 1837 pour le Muséum d'histoire naturelle de Paris, Paris, B. Duprat.

Passama, J., 1843, « Observations géographiques sur quelques parties de l'Yémen ». Bull. Soc. Géogr. Paris, vol. XIX, pp. 162-171 ; 219-236.

Arnaud, Thomas Joseph, 1845, Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie méridionale, entrepris en 1843, Paris, p. 128.

Arnaud, Thomas-Joseph, Voyage au pays de la Reine de Saba, édité par Pygmalion en 2011, 264p.

Chaigneau Marcel, 1990, « La découverte des Citernes de la Reine de Saba, par le pharmacien Arnaud en 1843, revue d'histoire de la pharmacie, n° 287, pp. 398-401.

Mohl, J., 1845, « Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie méridionale, entrepris en 1843 par M. Arnaud, Journal asiatique, pp. 211-245 et 309-345.

Arnaud, Th. et Vayssière A, 1850, « Les Akhdam de l'Yémen, leur origine probable, leurs mœurs », Journal asiatique, série 4, tome XV, pp. 376-396.

Halévy, Joseph, 1872, Rapport sur une mission archéologique dans le Yémen, Paris, Imprimerie Nationale, 303p.

Deflers, Albert, 1889, Voyage au Yémen : journal d'une excursion botanique faite en 1887 dans les montagnes de l'Arabie Heureuse, Paris, éd. Paul Klincksieck.

Desvergers, Noël, Arabie, paris, éd. Firmin Didot Frères.

محمد علي دبي الشهاري ،٢٠٠٨-٢٠٠٩، اليمن في ظلّ حكم الإمام المهدي المعروف بصاحب المواهب ١٦٨٦-١٧١٨، الجيل الجديد، صنعاء. ط١

حسين علي الحبيشي، ١٩٩٢، اليمن والبحر الأحمر، بيروت، دار الفكر المعاصر. ط ١.

رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٩٤.

رؤية اليمن بين حبشوش وهاليفي :

حييم بن يحيا بن سالم الفتيحي حبشوش، ١٨٩٣، رؤيا اليمن، نقلته إلى العربية

وحققته سامية نعيم صنبر،

جوزيف هاليفي، تقرير حول بعثة أثرية إلى اليمن، ترجمة منير عريش، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ٢١١ ص، ط ١.

رينزو مازوني، اليمن : رحلة إلى صنعاء (١٨٧٧-١٨٧٨)، ترجمة ماسيمو خير الله، وحدة التراث الثقافي، الصندوق الاجتماعي للتنمية، صنعاء، ٣٣٦ ص، ط ١/ ٢٠١١.

إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، جزءان، دار الكلمة.

كلوديا فاين ، ١٩٦٣، كنت طبيبة في اليمن، ترجمة الأستاذ محسن العيني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط ٣.

المؤلف في سطور

- دبلوماسي ومترجم وأستاذ جامعي، من مواليد عام ١٩٦٨.

- حصل في عام ١٩٩٣ على ليسانس في الشريعة والقانون من جامعة صنعاء.

- حصل في عام ١٩٩٦ على ليسانس في الترجمة من جامعة استراسبورغ ٢- فرنسا.

- حصل في عام ١٩٩٨ على ليسانس في «اللغة العربية» من نفس الجامعة.

- حصل في عام ١٩٩٨ على ماجستير في الترجمة الفورية والتحريرية من نفس الجامعة.

- حصل في عام ٢٠٠٣ على درجة الدكتوراه في «علم اللغة» من جامعة فرانش كونتيه – فرنسا.

- عمل من عام ٢٠٠٥ وحتى ٢٠٠٧ كمساعدٍ للمستشار الثقافي بسفارة الجمهورية اليمنية - لندن.

- شغل من عام ٢٠٠٩ وحتى ٢٠١٣ منصبَ المستشار السياسي والاقتصادي بسفارة الجمهورية اليمنية – باريس.

- يعمل منذ عام ٢٠١٣ أستاذاً لمادة الحضارة واللغة الفرنسيّة في قسم اللغة الفرنسية- كلية الآداب – جامعة تعز.

- يُتقن اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية.

- مؤسس ومدير عام معهد فونيم للغات والترجمة .

له عدة مقالات وترجمات منشورة.

محتويات الكتاب

الإهداء ٥

مُقدّمــة ٧

* الباب الأول : الحملة الفرنسية الأولى (١٧٠٨-١٧٠٩) ..... (١٣-٤٢)

جزيرة سوقطرة ١٧

الوصول إلى ميناء عدن ١٨

وصف مدينة عدن ٢١

مغادرة مرفأ عدن ٢٢

الوصول إلى مرفأ المخا ٢٣

الاتفاقية التجاريّة ٢٦

وصف مرفأ المخا ٢٩

البُن ٣١

وصف مدينة بيت الفقيه ٣٢

حادثة عارضة (١) ٣٤

حادثة عارضة (٢) ٣٧

لاجئ من أشراف مكّة ٣٨

الجالية الهنديّة ٣٩

مغادرة المخا ٤٠

* الباب الثاني: الحملة الفرنسية الثانية (١٧١١-١٧١٣): ..... (٤٣-٥٤)

الوصول إلى مرفأ المخا ٤٥

مرض الإمام المهدي ٤٦

احتجاج العثمانيين ٥١

التّمرُّد في تهامة ٥٢

مغادرة المخا ٥٣

* الباب الثالث: العدوان الفرنسي على المخا: ..... (٥٥-١٠٢)

طموحات استعمارية ٥٧

الخلاف حول تفسير المعاهدة ٥٨

خيار اللجوء للقوّة ٥٩

دولاجارد جازيبه وخطة الهجوم ٦٠

التجهيزات الحربيّة ٦١

اندلاع المعارك ٦٦

القلعة الجنوبيّة ٧٩

انطلاق المفاوضات ٨٠

بنود المعاهدة الجديدة ٩٠

شهادة دولاجارد جازيبه بحق اليمنيين ٩٩

* الباب الرابع: قضيّة الشيخ سعيـد : .....(١٠٣-١١٢)

الصراع الدولي على منطقة الشيخ سعيد ١٠٥

محطّات التدخّل الرسمي الفرنسي.....١٠٩

التّخلي عن فِكْرة احتلال منطقة الشيخ سعيد.....١١١

* الباب الخامس: الفنارات البحريـــة : .....(١١٣-١٤٢)

السياق التاريخي.....١١٥

إنشاء شركة كولاس- ميشل ١١٦

فنارات اليمن والحجاز ١١٨

اتفاقية ٢٧/ ٩ مايو ١٨٩٩ .....١١٩

النزاع الفرنسي- البريطاني على فنارات البحر الأحمر ١٢٣

حماية البحريّة الفرنسية لفنار المخا ١٢٨

مطالبة الإمام يحيى برفع علم اليمن فوق فنار المخا.....١٣١

بداية انفراج الأزمة ١٣٥

وجهة النظر البريطانية للحل ١٣٧

وجهة النظر الفرنسيّة للحل ١٣٩

المفاوضات النهائية ١٤١

* الباب السادس: الرحلات الاستكشافية الفرنسية إلى اليمن (حتى نهاية القرن التاسع عشر): .....(١٤٣-٢٧٦)

رحلة بوتـــا BOTTA (١٨٣٦) ١٤٨

رحلة باساما PASSAMA (١٨٤٢) ٢١٨

رحلة أرنو ARNAUD (١٨٤٣) ٢١٩

رحلة هاليفي HALEVY (١٨٦٩) ٢٢٢

رحلة ديفلرز DEFLERS (١٨٨٧) ٢٣٢

* ملحق لنماذج من بعض الوثائق الفرنسيّة ..... (٢٧٧-٢٩٤)

* قائمة بأهم المصادر والمراجع ٢٩٥

* المؤلف في سطور ٢٩٩

* الفهرس ٣٠١

المكتبة التاريخية اليمنية

www.yemenhistory.org

رفع:

مختار محمد الضبيبي

اليمن في الذاكرة الفرنسية

محطات تاريخية
من واقع الوثائق الفرنسية
ويوميات الرحالة الفرنسيين

يستعرض هذا الكتاب محطّات من تاريخ اليمن، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كما عايشها الفرنسيون، ونقلوها وساهموا في صُنعِ بعض وقائعها.

يتطرّق الكتاب على وجه الخصوص للحملتين الفرنسيتين الأولى والثانية (1708- 0713)، والعدوان الفرنسي على ميناء المخا، وقضيّة منطقة " الشيخ سعيد "، والفنارات البحريّة العثمانية، وكذا لأهم الرّحلات الاستكشافية الفرنسية إلى اليمن (1836 - 1887).

يستند هذا الكتاب بشكل كامل على الوثائق الرسميّة الفرنسية ويوميّات الرحّالة والمستشرقين الفرنسيين الذين زاروا اليمن في فترات متعاقبة ومتباعدة، وينقل لنا تفاصيل الصورة التي ارتسمت في الذّاكرة الفرنسيّة عن اليمن واليمنيين. يُراعي الكتاب التسلسل الزمني للأحداث والوقائع بُغية تمكين القارئ من تكوين فكرة تراكميّة عن الأرض والإنسان اليمنيين في تلك الحقبة التاريخية، ورصد التغيّرات التي طرأت بفعل عامل الزمن والأحداث.

المؤلف في سطور

- الدكتور حميد عمر
- دبلوماسي ومترجم واستاذ جامعي، من مواليد عام 1968.
- حصل في عام1993 على ليسانس في الشريعة والقانون من جامعة صنعاء.
- حصل في عام 1996على ليسانس في الترجمة من جامعة استراسبورغ 2 - فرنسا.
- حصل في عام 1998 على ليسانس في "اللغة العربية" من نفس الجامعة.
- حصل في عام 1998 على ماجستير في الترجمة الفورية والتحريرية من نفس الجامعة.
- حصل في عام 2003 على درجة الدكتوراه في "علم اللغة " من جامعة فرانش كونتيه - فرنسا.
- عمل من عام 2005 وحتى2007 كمساعدٍ للمستشار الثقافي بسفارة الجمهورية اليمنية - لندن.
- شغل من عام 2009 وحتى 2013 منصبَ المستشار السياسي والاقتصادي بسفارة الجمهورية اليمنية - باريس.
- يعمل منذ عام 2013 أستاذاً لمادة الحضارة واللغة الفرنسيّة في قسم اللغة الفرنسية- كلية الآداب - جامعة تعز.
- يُتقن اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية.
- له عدة مقالات وترجمات منشورة.

ISBN 978 977 468 946 8

تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى : دار المعارف - الأهرام - الأخبار
روزاليوسف - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الجمهورية
ودار الأم للكتاب ٢٨شارع الدقى ت: ٣٣٣٥٩٧١٩